

**تاريخ العالم الاسلامي
الحديث والمعاصر
الجزء الأول
الجناح الأسوي**

تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر

٩٨٧ هـ - ١٤٠٠ هـ / ١٤٩٢ م - ١٩٨٠ م

الجزء الأول
الجناح الآسيوي

إعداد

الدكتور إسماعيل أحمد ياغي

محمود شاكر



ص.ب: ١٠٧٢٠ - الرياض: ١١٤٤٣ - تليكس ٤٠٣١٢٩

المملكة العربية السعودية - تلفون ٤٦٥٨٥٢٣ - ٤٦٤٧٥٣١

رقم الإيداع

٩٢/٨٦٠٧

© دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار المريخ للنشر - الرياض
المملكة العربية السعودية، ص. ب. ١٠٧٢٠ - الرمز البريدي ١١٤٤٣
تلكس ٤٠٣١٢٩ - فاكس ٤٦٥٧٩٣٩، هاتف ٤٦٤٧٥٣١ / ٤٦٥٨٥٢٣
لا يجوز استنساخ أو طباعة أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب
أو إحتزانه بأية وسيلة إلا بإذن مسبق من الناشر.



المحتويات

١٧-٩	مقدمة
٤٠-١٩	إنتشار الإسلام
٥٠-٤١	جغرافية العالم
٦٣-٥١	العالم الإسلامي

القسم الأول :

٦٨-٦٣	١ - جزيرة العرب
٧٨-٦٩	(أ) المملكة العربية السعودية
٦٩-٧٩	(ب) اليمن
٨٨-٨٦	(ج) اليمن الجنوبي
٩٩-٨٨	(د) عُمان
١٠٤-٩٩	(هـ) دولة الإمارات العربية المتحدة
١٠٨-١٠٤	(و) قطر
١١٢-١٠٩	(ز) البحرين
١١٧-١١٢	(ح) الكويت
١٢٠-١١٧	٢ - بلاد الشام
١٤٥-١٢٠	(أ) سوريا
١٥١-١٤٥	(ب) لبنان
١٧٤-١٥١	(ج) فلسطين
١٨١-١٧٤	(ح) المملكة الأردنية الهاشمية
٢٠٣-١٨١	٣ - العراق
٢١١-٢٠٣	٤ - تركيا
٢٢٧-٢١١	- تركيا الحديثة

- ٥ - إيران «فارس» ٢٢٧ - ٢٤٥
- ٦ - أفغانستان ٢٤٥ - ٢٥٧
- ٧ - باكستان ٢٥٨ - ٢٧٩
- ٨ - بنجلاديش ٢٧٩ - ٢٨٠
- ٩ - المالديف ٢٨٠ - ٢٨٢
- ١٠ - اتحاد ماليزيا ٢٨٢ - ٢٨٥
- ١١ - أندونيسيا ٢٨٥ - ٣١١
- ١٢ - برونى ٣١٢

القسم الثاني : الأقليات المسلمة في آسيا ٣١٣

- ١ - المسلمون في الهند ٣١٧ - ٣٣٨
- ٢ - سيلان ٣٣٨ - ٣٤١
- ٣ - نيبال ٣٤١ -
- ٤ - بوتان ٣٤١ -
- ٥ - المسلمون في روما ٣٤١ - ٣٤٢
- ٧ - المسلمون في الهند الصينية ٣٤٣ - ٣٥١
- ٨ - تايلند ٣٥١ - ٣٥٥
- ٩ - سنغافورة ٣٥٥
- ١٠ - الفلبين ٣٦٠ - ٣٦٥
- ١١ - اليابان ٣٦٥ - ٣٦٦
- ١٢ - كوريا ٣٦٦
- ١٣ - المسلمون في الامبراطورية الروسية ٢٦٦ - ٤١١
- ١٤ - قبرص ٤١١ - ٤١٤

المصادر والمراجع العربية ٤١٥ - ٤١٩

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد بن عبدالله خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن الإسلام قد بدأ ينتشر في أوائل القرن السابع الميلادي، وينطلق من أرض إلى أخرى بدعوته النقية الصافية التي تنسجم والفطرة البشرية، ولاغربة في ذلك فالبشر خلق الله والإسلام منهج الله، وطبيعي أن يكون المنهج متسقاً مع من وضع له. واعتمدت الدعوة الإسلامية على تثبيت العقيدة وإرجاء الأمر كله لله مع العمل وفق ذلك، وبما يتطلب من المخلوق أن يقوم به. كما اعتمدت على المساواة بين بني البشر ومحاربة الظلم أينما وجد فأقبل الناس أفواجاً يدخلون في دين الله. وخاف الطغاة وأصحاب النفوذ السيطرة على أنفسهم من هذه الدعوة التي تقف أمام مصالحهم وأهوائهم وطغيانهم فوقفوا في وجهها ولكن لم يلبثوا أن تهاووا أمامها وعمّ الإسلام جزيرة العرب.

وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى فاشترأت نفوس إلى جاهليتها الأولى، وغرّت نفوس أصحابها فأعلن بعضهم الردة، وامتنع بعضهم عن دفع الزكاة، ولقي كلا الصنفين دعماً من الطواغيت خارج الجزيرة، إلا أن قوة العقيدة قد أخضعت من كان في الداخل، ثم اتجه المسلمون نحو الجوار يقوضون أركان الظلم، وكان يتمثل في دولتي الفرس والروم أكبر دول الأرض يومذاك وأشدّها بأساً، ولم يمض أكثر من خمسة عشر عاماً من الجهاد حتى سقطت الأولى، وزالت نهائياً، وورث المسلمون ديارها، وغنموا ما خلفته، وفتحوا أكثر أرض الثانية حتى لم يبق لها إلا مساحات قليلة من الأرض رمزاً لبقائها واستمرارها، وكان الصراع بين الطرفين عدة قرون. وامتد الفتح الإسلامي حتى وصل المسلمون في الغرب إلى مقربة من باريس على حين طرّفوا في الشرق أبواب الصين، وكانت الطريق مهدة أمام انتشار الإسلام وسط إفريقية بواسطة التجارة والاتصال، وكذلك قطع

الاسلام أشواطاً بعيدة في الانتشار على كل شواطئ المحيط الهندي سواء في شرق افريقية أم في جنوب شرقي آسيا، بل عمّ في تلك الجهات كلها، وكان المحيط الهندي أشبه ببحيرة إسلامية، وكذلك كان البحر الأبيض المتوسط بعد أن ضعفت أساطيل الروم أمام الأساطيل الإسلامية.

هذه الفتوحات الواسعة قد أصابها توقف مفاجيء إذ ضعفت العزيمة، وفتر الجهاد، وانصرف الناس إلى الحياة الدنيا يأخذون منها بنصيبهم وقد جاءتهم صاغرة إذ سقت نحوهم الغنائم، وجبت إليهم الأموال، فأخذوا بالنعيم، وركتوا إلى الأرض فنقم عليهم مواليتهم الذين كانوا وقود الحركات الداخلية، واستخفّ بهم غيرهم الذين كانوا قد هابوهم مدة من الزمن ليست قصيرة عندما كانوا يسرون على الطريق الصحيحة، فلما انحرفوا عن الخط الإسلامي نشأت العصبية، وتفرقت الأمة، وذهبت قوتها، وحدث الضعف، وكانت الحروب الخارجية سجّالاً بعد أن كانت لصالحهم، ثم كانت دفاعية بعد أن كانت جهادية، ثم أصاب الأمة الوهن، وقد قال رسول الله ﷺ محدثاً عن هذا «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها. فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يارسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»^(١).

تقدّم أعداء المسلمين ينازلونهم في بلاد الأندلس، ولكنهم هزموا أمامهم إذ دعم المرابطون في المغرب إخوانهم المسلمين في الأندلس الأمر الذي جعل الصليبيين يتجهون إلى قلب بلاد المسلمين لتكون الضربة حاسمة فحدثت الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي، وحصل الصليبيون على بعض النجاح إلا أن ردّ الفعل الإسلامي حدثت معه صحوة قليلة، فانهزم الصليبيون وخرجوا من بلاد المسلمين أيام الأيوبيين والمماليك، وعرف الصليبيون نتيجة ذلك أنه لا قبل لهم بحرر المسلمين ماداموا يتمسكون بعقيدتهم التي هي مصدر قوتهم لذا فقد خططوا لإضعاف هذه العقيدة وإبعاد المسلمين عن دينهم، وجاءت البعثات للتنصير منذ

(١) أخرجه أبو دواد، وغيره، عن ثوبان رضي الله عنه.

ذلك الوقت لإحكام الخطة، وتمكنت هذه البعثات من التأثير على المسلمين وعطفهم على من يظهر العبادة والتدين حتى ولو كانوا من أعدائهم. ولم تمض غير مدة قصيرة حتى عادت التفرقة إلى المسلمين، وركن بعضهم إلى أعداء الله على الرغم من تحذير الله «يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين»^(١)

وحدث ضعف المسلمين، ودبّ فيهم الوهن، وقوي أعداؤهم الذين ركزوا جهودهم على الأندلس حيث كانت النصرانية في أوروبا تمددهم وتساعدتهم، وإذا كان الدعم يأتي إلى مسلمي الأندلس أحيانا من إخوانهم في المغرب كما حدث في أيام المرابطين ثم في أيام الموحدين وبني مرين، ويقف المد الصليبي. وإذا كانت انتصارات مسلمي الأندلس تحدث أحيانا أخرى إلا أن كل ذلك كان لمدة محدودة إذ أن الخط العام للقوة المسلمة كان يتراجع باستمرار والتناحر بين المسلمين يقع بين مدة وأخرى، وموالة النصارى تحدث بين وقت وثنان، واستمر ذلك مدة حتى تمكن النصارى في النهاية من بسط سيطرتهم على بلاد الأندلس وذلك عام ٨٩٧ هـ (١٤٩٢م)، وظهرت قوتهم فعدوا ذلك الوقت نهاية للعصور الوسطى التي كانت القوة فيها للمسلمين وبداية للعصور الحديثة.

تلا هذا التفوق النصراني تقدم نحو البلاد الإسلامية الأخرى، ولم تمض مدة طويلة حتى سيطر نصارى أوروبا على أرجاء واسعة من العالم الإسلامي، وإزداد إرسال البعثات التنصيرية لتؤدي دورها في التمكين للصليبيين والتأثير على المسلمين ومحاولة صرفهم عن دينهم، واستمرت هذه الطريقة مدة طويلة من الزمن بقيت حتى يومنا هذا، وامتازت بعض أوقات هذه السيطرة بمميزات متشابهة يمكن أن نصنفها بمراحل معينة هي:

١ - المرحلة الأولى (٨٩٧ - ١٢١٣ هـ)

وتبدأ بسقوط الأندلس بيد النصارى عام ٨٩٧ هـ (١٤٩٢م) والاتجاه إلى السيطرة على العالم الإسلامي، وكانت السيطرة على مواقع صغيرة على سواحل

العالم الإسلامي كله سواء أكان ذلك على سواحل المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط أم على سواحل المحيط الهندي وجنوب شرقي آسيا، وعرفت هذه السيطرة لدى أوربا باسم الكشوف الجغرافية، إذ عرفت بلاداً واسعة لم تكن تعرفها من قبل على حين كان المسلمون يعرفونها تماماً. وهذه السيطرة لاتمثل غلبة تامة إذ لا يستطيع النصارى أن يتصرفوا بالأجزاء الداخلية من العالم الإسلامي تصرفاً كاملاً إذ كانت تخضع لأبناء المسلمين خضوعاً كاملاً، وظهر في هذه المرحلة الاستعمار البرتغالي على شواطئ افريقية الغربية والشرقية وجنوبي آسيا، كما ظهر الاستعمار الإسباني في جنوب شرقي آسيا إذ جاء من جهات أميركا بعد أن عرفوها، وذلك حسب تقسيم سري بين الطرفين.

لقد أثرى الصليبيون من برتغاليين وإسبان الأمر الذي جعل بقية الصليبيين يحسدونهم بعد أن كانوا يساعدونهم وذلك لأنهم لم يحصلوا على ما يتطلعون إليه من غنى وأراض تكون تحت نفوذهم وهيمنتهم وهذا ما جعلهم ينافسونهم، بل أن التنافس حدث بين كثير من الدول الأوربية للحصول على أرباح كثيرة ومستعمرات أوسع وهذه المنافسة هي التي جعلت الحروب الصليبية تأخذ مظهراً عرف باسم الاستعمار، وفي هذه المنافسة وهذا الصراع تراجعت إسبانيا عن كثير من مستعمراتها، وكذلك فقدت البرتغال عددا كبيرا من المناطق التي كانت تسيطر عليها، وظهرت انكلترا وفرنسا في طليعة الدول الاستعمارية، ثم كانت هولندا، أما روسيا فقد بدأت أيضاً تتوسع في الشرق ويدافع صليبي أيضاً، إذ كانت تقاتل التتار المسلمين وتستولي على أراضيهم منطقة إثر أخرى، كما كانت تحارب العثمانيين الذين استطاعوا فتح مدينة القسطنطينية حاضرة الدولة الرومانية الشرقية التي تتبع المذهب النصراني الارثوذكسي وهو المذهب نفسه الذي ينتشر في روسيا كلها، وبعد أن احتلت بلاد التتار بين عامي ٩٦٠ - ١١٩٨ هـ تقدمت إلى الشرق فاجتازت جبال الأورال، واحتلت سهوب القيرغيز. وإذا كانت الدول الأوربية الواقعة في الغرب من القارة قد سيطرت على مناطق بعيدة عنها إلا أن سيطرتها قد اقتصرت على المناطق الساحلية وعلى أجزاء منها فإن دولة روسيا الواقعة في الشرق من القارة قد ابتلعت المناطق المجاورة لها، وما ذلك إلا بسبب بعدها عن البحار الحرة التي حرصت كثيراً على الوصول إليها. ولا تزال تحرص.

امتازت هذه المرحلة بالروح الصليبية الحاقدة لذا فقد كثرت أعمال التخريب والإبادة الجماعية والتصرفات الوحشية، ولم يكن للمسلمين قوة كبيرة، ولم تكن دولتهم مجتمعة وإنما متفككة، وأقوى مافيه الدولة العثمانية التي نشأت حديثاً والتي قامت تقاتل أوروبا لتخفف ضغط أوروبا عن المسلمين في بقية جهات العالم. وكانت المستعمرات تنتقل من دولة إلى أخرى أو تتقاسمها فيما بينها. وكان نتيجة هذا كله أن ضعف المسلمون سياسياً واقتصادياً، وبدأت تظهر عندهم الهزيمة النفسية، واستمرت هذه الحملة حتى عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) حيث جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر.

٢ - المرحلة الثانية (١٢١٣ - ١٣٣٧ هـ) :

وقد بدأت هذه المرحلة بقدوم الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) وقد زاد الجشع الأوربي، وكثرت الأطماع، وانطلق الجميع يبحثون عن الثراء ويعملون له، وقد قلت الأموال التي كانت تُجنى عما كانت عليه سابقاً إذ كثر طالبوها وكثرت الحروب التي تلتهم المزيد من الثروات، وتستنفذ العظیم من الطاقات سواء أكانت هذه الحروب بين الدول الصليبية الاستعمارية، أم ضد الإمارات الإسلامية أم لإخماد الحركات الداخلية، أم حرب صليبية سافرة ضد العثمانيين.

شعر المسلمون بما نزل بهم فقاموا برد فعل ضد الصليبيين، وقادهم العلماء، وكان في كل مكان حركة، ولكنها كانت غير منظمة إذ لم تقم في وقت واحد، لذا كانت الجهود مبثورة الأمر الذي سهل القضاء عليها فأصاب المسلمين الضعف نتيجة ذلك، واتجه بعضهم إلى تقليد الصليبيين، واقتنعوا أن في هذا التقليد سيرا نحو التمدين وتقدماً نحو القوة، وابتدأ بذلك الوهن إذ سمح للنصارى بافتتاح المدارس الخاصة، والتقاضي أمام محاكم خاصة، وسمح للأجانب بتملك الأرض، وتسلم المناصب، ودخول المجالس المحلية، وأصبح كلا الطرفين من نصارى محليين وأجانب عيوناً على المسلمين يرصدون كل حركة، ثم تبعتهم الفرق الضالة، كما كان اليهود من البداية أعواناً، وأصبحت الطائفية تلقى كل دعم وعون من الأجانب.

قاوم الأجانب العلماء ووقف قسم من الشعب وراءهم، ووقفوا ضد الهجمة الصليبية، وكأنت حركات الجزائري، والمهدي، ومحمد عبد الله حسن في الصومال، والحاج عمر في غربي إفريقيا، وعمر المختار في ليبيا، والأمير رابح في تشاد، وسلطان تيبو في الهند، وكانت الجمعيات الإسلامية الكثيرة في أندونيسيا وغيرها، ووجه الصليبيون همهم لعزل علماء المسلمين عن الشعب.

كانت قارة إفريقية نتيجة الهجمة الصليبية مقسمة بين فرنسا وانكلترا مع بعض الجيوب للبرتغال، وإيطاليا، وألمانيا، وبلجيكا وإسبانيا. وكانت آسيا بيد روسيا وانكلترا وفرنسا مع بعض الجيوب لهولندا والبرتغال، وكانت الدولة العثمانية في غربي هذه القارة.

٣ - المرحلة الثالثة (١٣٣٧هـ - ١٩١٨م) :

وبدأت بانتهاء الحرب العالمية الأولى (١٣٣٧هـ - ١٩١٨م) واستمرت حتى يومنا هذا، فقد هزمت ألمانيا فقسّمت مستعمراتها بين الدولتين العظميين آنذاك فرنسا وانكلترا، وهزمت مع ألمانيا الدولة العثمانية ففقطعت أجزاؤها، ولم تستفد روسيا كثيرا، إذ قامت فيها الثورة الشيوعية وقامت الحركات في كل مكان ضد حكام روسيا الجدد ثم لم يلبثوا أن تمكّنوا من السيطرة على الوضع وعادوا إلى سياسة القياصرة الذين انتهى حكمهم، فأعلنوا حربهم على المسلمين من جديد، فذبحوا وشرّدوا واضطهدوا مأمكّنهم من ذلك هواهم، وشدّدوا القبضة على مناطق المسلمين.

وألغيت الخلافة التي كانت رمزاً لوحدة المسلمين الأمر الذي زاد من تفككهم وأصبحوا لا يمثل لهم، يسير كل حسب هواه دون نظر إلى أثر إسلامي كبير.

واختلفت أساليب الاستعمار بين دولة وأخرى فانكلترا مثلاً بدأت تعطي مستعمراتها شيئاً من الاستقلال الذاتي، وإن كانت تحتفظ بالسيطرة، وقبض اليد على المراكز الهامة والحيوية كالجيش والاقتصاد والسياسة الخارجية، وأعطت أعوانها الحكم فقدّروا لها الجميل، وبقوا رهن إشارتها، أما بقية الدول الاستعمارية فقد أبقت كل شيء تحت سيطرتها وتحت ناظرها أو ابتلعت مستعمراتها ابتلاعاً كما فعلت روسيا، أو كما حاولت فرنسا في الجزائر، والبرتغال في غينيا بيساو، وتيمور،

واسبانيا في الصحراء المغربية.

وجاءت الحرب العالمية الثانية وهزمت فيها إيطاليا فأخذت منها مستعمراتها ووضعت إسماً تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة التي تأسست عقب الحرب العالمية الثانية، وفعلاً فقد كانت تحت تصرف الدول الكبرى التي تسير الأمم المتحدة مثل الولايات المتحدة الأمريكية، وإنكلترا، وفرنسا.

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت الدول الإسلامية تحصل على استقلالها الذاتي، أو الاستقلال العسكري فقط إذ تنسحب الجيوش المحتلة من أراضيها، ولكن بقيت هذه الدول المستقلة خاضعة للأفكار الغربية عنها، والتي عمل المستعمرون الصليبيون على تنشئة الأجيال المسلمة وتربيتهم عليها بما وضعوه من مناهج، وما بثوه من أفكار ومعلومات مشوهة، نقلها عنهم طلاب العلم واستمروا يلقنونها لأبنائهم.

كان الصراع واضحاً بين الدولتين الكبيرتين فرنسا وإنكلترا، ثم حلت الولايات المتحدة محلها عن طريق الانقلابات العسكرية أو السيطرة الاقتصادية، وفي الوقت نفسه ظهرت روسيا التي كونت لها امبراطورية واسعة في منافسة الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين في المجالات المختلفة، وفي كل ميدان من مناطق النفوذ إلى الصراعات السياسية والعسكرية التي تبدو أحياناً وتختفي تارة أخرى، وإن كان التفاهم يأخذ مكانة سرّاً لتقاسم بعض الجهات المتنازع عليها أو للتفاهم على توزيع المصالح وأخذ، الثروات بين العملاقين المختلفين ظاهراً في بعض الجوانب وحقيقة في جوانب ثانية.

استمرت إنكلترا تعطي مستعمراتها شيئاً من الاستقلال، وشكلت منها رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث) لتحتفظ بسيطرتها أو نفوذها في هذه الجهات على حين شددت فرنسا قبضتها على مستعمراتها الأمر الذي جعلها في غليان دائم وتنفصل عنها الواحدة إثر الأخرى حتى اضطر الرئيس الفرنسي (ديغول) أن يعطي المستعمرات شيئاً من الحرية في اختيار الحكم الذي تريده علّه يحتفظ ببعض النفوذ، فانفصلت بعض الأقاليم عن المجموعة الفرنسية، وشكل بعضها الآخر مجموعة خاصة عرفت بالشعوب الفرنسية. وهكذا نال كثير من الأمصار استقلاله عام ١٣٨٠ (١٩٦٠م) وخاصة في افريقية، ولم يبق من العالم الإسلامي

خاضعاً للسيطرة الاستعمارية إلا ما كان خاضعاً للسيطرة الروسية، وبعض أجزاء التركستان الشرقية التي ضمت إلى الصين، وكشمير التي احتلتها الهند، وفلسطين التي اغتصبها اليهود، وإن كان عدد من الدول الأفريقية تحكمها أقلية نصرانية وتسيطر عليها سيطرة تامة مثل سيراليون، وساحل العاج، والتوغو، والبنين، و إفريقيا الوسطى، وتانزانيا، وقد يكون بعض الحكام من النصارى ولهم نفوذ كبير مثل: السنغال، ولبنان، وغيرهما.

استقلت أكثر أمصار العالم الإسلامي، ولكن لاتزال تخضع للسيطرة الاقتصادية والتأثيرات الفكرية التي حرصت الدول الاستعمارية الصليبية على بثها مدة سيطرتها، ولاتزال هي السائدة بسبب ضعف الشخصية وعدم تنميتها بصورة متميزة ومستقلة عن غيرها، كما لاتزال الهيمنة السياسية تغطي على عدد من أجزاء العالم الإسلامي، وعندما يحاول جزء أن يتفك من الإطار الذي يدور فيه يتغير الوضع بصورة سريعة، ويغيب الذي يحاول التفك، ويأتي من هو أكثر ارتباطاً بثوب جديد.

هكذا وجدت دول إسلامية وهي التي يعيش على أرضها أكثر من ٥٠٪ مسلمين بغض النظر عن عقيدة حكامها أو اعترافهم بأن دولهم اسلامية أو وجود تباين في الإحصاءات المختلفة المصادر، وبدأت هذه الدول يتجه بعضها إلى بعض، وتلتقى في مؤتمرات وكانت فكرة العالم الإسلامي الذي بدأ يأخذ دوره في المحافل الدولية وكافة المجتمعات.

هذا وضع الأمصار الإسلامية بعامة في العصور الحديثة التي ابتدأت حسب العرف الأوربي بسقوط الأندلس بيد النصارى الأسبان عام ٨٩٧هـ (١٤٩٢م)، وهذا وضع المسلمين في هذه المدة، وسنحرص على دراسة كل مصر من الأمصار الإسلامية في هذه العصور، ودراسة المراحل التي مرّ عليها حتى وصل إلى ما هو عليه الآن، وستكون دراسة البلاد العربية في آسيا تليها البلاد الإسلامية في القارة نفسها فالأقليات المسلمة التي تعيش في هذا الجزء من العالم، وهذا مايشمله القسم الأول من الكتاب، أما القسم الثاني فيضم البلدان العربية في أفريقية فالبلدان الإسلامية في القارة نفسها فالأقليات المسلمة، وفي النهاية نتعرض بلمحة سريعة للمسلمين الذين يعيشون في القارة الأوروبية، كما نتكلم باختصار عن

يعيش من المسلمين خارج البر القديم في كل من أمريكا وأوقيانوسيا وذلك من أجل أن نعطي فكرة عامة عن تاريخ العالم الإسلامي في العصر الحديث، وفي الواقع أن كل مسلم أينما عاش فإنما يرتبط بالعالم الإسلامي، وجنسيته المسلمة إنما هي عقيدته، فإن وقفنا في هذا العرض فهو من فضل الله علينا وإن كانت الأخرى فعذرنا أننا اجتهدنا وعملنا.

والله نسأل التوفيق وسداد الخطى، فهو نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

إسماعيل أحمد ياغى

محمود شاكر

انتشار الإسلام

بعد أن ثبتت أقدام المسلمين في بلاد العرب، وترسخت مبادئ الدين في قلوب أبنائه انطلق المسلمون خارج الجزيرة يُؤدّون المُهمّة الملقاة عليهم بإخراج الناس جميعاً من الظلمات إلى النور بعبادة الله الواحد الأحد، وترك كل ماسواه من عبادة المخلوقات، وبالقضاء على الظلم والطغيان واجتثاث المصادر لها في بقاع الأرض كلها، وبالقضاء على ضيق الدنيا في النفوس إلى رحابتها، ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام.

ورفع المسلمون راية الجهاد، وانطلقوا إلى كل جهة يُقوّضون ركائز الظلم، واستطاعوا بحركة سريعة أن يدكّوا دولة فارس نهائياً، وأن يُزيلوا كل ما كانت ترمز إليه من معاني البطش والسيطرة، كما تمكّنوا من تحطيم جبروت دولة الروم حيث انتزعوا منها الشام، ومصر، وشمال إفريقيا، وكما جعلوها تنحسر عن أراضٍ شاسعة، وتنزل عن كبرياتها جعلوها تنزوي في بقاع محدودة، وتشعر بالذلّ والفشل بعد الهزائم التي مُنيت بها، والأقطار التي انسحبت منها، وتخلّت عنها صاغرة.

كانت هناك قمتان لحركة الجهاد والفتح الإسلامي، أولاهما في عهد الخلفاء الراشدين أيام أبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم حيث استطاعت الجيوش الإسلامية في هذه المرحلة أن تفتح الشام، والعراق وفارس، وخراسان، وأذربيجان، وداغستان، وأرمينيا، هذا في قارة آسيا، أما في قارة إفريقيا فقد تمكّنت من فتح مصر، وبعض بلاد المغرب. أما القمة الثانية فقد كانت في عهد بني أمية وخاصة أيام الوليد بن عبد الملك، وذلك بعد أن توقّف الفتح الواسع ما يقرب من ستين سنة نتيجة ما حدث في الأمصار داخل المجتمع الإسلامي من خلافات، وشيء من الانصراف إلى الدنيا والتمسك بالرأي، وتمّ في هذه المرحلة الثانية فتح بلاد ما وراء النهر، وطرق أبواب الصين بالوصول إلى أقصى بلاد الترك «تركستان»، وضمّ بلاد السند، وغزو القسطنطينية، وهذا ما حدث

في آسيا أما في الجهة الغربية فقد فُتحت الأندلس، ووصل المسلمون إلى أواسط فرنسا، كما توسّعوا في بلاد المغرب إذ وصلوا إلى أسواحل المحيط الأطلسي وامتدّ سلطانهم داخل القارة قليلاً.

ولم يحدث بعد هذه المرحلة من فتوحات واسعة إلا ما كان من الغوريين الذين دخلوا بلاد البنغال في القرن السادس الهجري، ومن العثمانيين الذين توغّلوا في أوروبا، وهناك فتوحات على نطاق ضيق، كما حدث في جزر البحر المتوسط، وأماكن أخرى. هذا انتشار الإسلام عن طريق الفتح، أما عن طريق التجارة والدعوة فله شأن آخر، إذ حدث بعد هذا الفتح وتمّ على مرحلة طويلة، وإذا كان قد شمل مساحات واسعة وضمّ أرجاء شاسعة إلى العالم الإسلامي حيث غدا أكثر سكانها من المسلمين كما هي الحال في أندونيسيا، وماليزيا، والمالديف في قارة آسيا، والصومال، وشرقي إفريقيا وجزرها، كزنجبار، والقمر، وبمبا، ومافيا وغيرها، ومعظم غرب إفريقيا وبعض جهات في الوسط منها.

ركّز المسلمون أمورهم في البلدان التي دخلوها حيث أقبل السكان على الإسلام أفواجاً لأنه دين الفطرة، وفي مبادئه ما يحملون به من مساواة، وحرية، وعدالة، وأمن، ولم يمض إلا وقت قصير حتى غدا الإسلام دين الأكثرية، ولم يبق في هذه البلدان إلا المسلمون وأهل الكتاب ومن يلحق بهم من المجوس، وهؤلاء الذين هم من غير المسلمين وهم الذين يدفعون الجزية، لم يسمح ببقاء غيرهم في ديار الإسلام لقوله تعالى ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا اليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾^(١). أما السكان الذين لم يقبلوا الإسلام، ولم يكونوا من أهل الكتاب، أو المجوس أي كانوا من أهل الوثنيات الذين يعبدون المخلوقات فعليهم أن يرحلوا عن الأمصار التي يحكمها المسلمون، وإن يفعلوا، وأرادوا التشبّث في ديارهم فإن على المسلمين قتلهم لقوله تعالى: ﴿فإذا أنسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم، إن

(١) سورة التوبة الآية ٢٩.

الله غفور رحيم ﴿١﴾. ولذلك نرى اليوم أن الأمصار الإسلامية التي دخلها المسلمون فاتحين لا يوجد بين سكانها إلا من كان مسلماً أو من أهل الكتاب ومن يلحق بهم من المجوس، وتخلو تماماً من أهل الوثنيات من هنالك، وبوذيين، وكونفوشييين، وشتويين، وعبدة قوى الطبيعة من أشجار، وصخور، ومن الطوطيين الذين يعبدون الحيوانات والحشرات الحفيرة ويعدون أنفسهم ينتمون إليها، وترتبط القبيلة جميعها بهذا الطوطم.

أما الأمصار التي عمّ فيها الإسلام عن طريق التجارة أو الدعوة فقد بقي فيها بعض الوثنيات والمشركين ولو كان الإسلام الدين الرئيسي في البلاد، ويُشكّل المسلمون غالبية السكان كما هي الحال في اندونيسيا في قارة آسيا، وذلك لأن الإسلام قد انتشر تدريجياً، ولم تكن لأهله الهيمنة والسيطرة إلا بعد مرور زمنٍ عندما أصبحوا يؤلفون الأكثرية، ولما أصبحوا كذلك تسلّط عليهم المستعمرون الصليبيون الذين كان أمرهم قد قوي، وتمكّنوا من إخضاع المسلمين لنفوذهم، فطبّقوا تشريعاتهم وقوانينهم الوضعية، أو أن المسلمين أنفسهم كانوا غير مؤهلين لذلك إذ انصرفوا إلى دنياهم وغطّوا في نومهم في الأمصار الإسلامية كلها بما في ذلك المركز الذي انطلق منه الإسلام، والذي يجب أن يكون مركز إشعاع يمدّ المسلمين دائماً بشحناتٍ من القوة، وينطلق أمامهم يرفع راية الجهاد والعمل للدعوة، وليس معنى هذا أن يظلّ المسلمون في بقية الجهات تبعاً لذلك المركز، لا، بل يمكنهم الانطلاق، والسبق، وحمل اللواء. ولكن ينظر المسلمون عادةً إلى مكان انبثاق الدعوة نظرة حبٍ وتقدير، ويعملون على التقليد والسير على الخطأ، فإذا كان المركز يومذاك في جهلٍ وغفلةٍ، وفي ضعفٍ واسترخاءٍ فالأمر طبيعي أن يكون الهامش المقلّد أكثر من ذلك، ويجب ألا نغفل أيضاً أن المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً قد أخذوه وأهله في حالةٍ من الضعف، ودانوا به وهم في وضعٍ من الهزيمة، ولذا لم يتفهّموا مبادئه بشكلٍ صحيحٍ، ولم يطبّقوا أحكامه بصورةٍ واضحةٍ فبقي بينهم وثنيون، وظلّ بينهم مشركون، عملوا في المجتمع إفساداً، وفي العقيدة وخزاً ونخراً، وكانوا دائماً ضد المسلمين ومع أعدائهم عليهم، ومعنى هذا كله أن الإسلام لم يحكم في هذه الأمصار التي لم يدخلها

الإسلام فاتحاً وإنما منتشرأ في وقتٍ ضَعُف فيه أبنائُه فكأنه جاء مُتسللاً . وكذلك فإن المسلمين قد حكموا الهند ولكن الإسلام لم يحكم، ذلك أن أهله قد تمكَّنوا من بسط نفوذهم على تلك المنطقة الواسعة وحرصوا الحرص كله على بقاء سيطرتهم من غير اهتمام على اعتناق السكان للإسلام، لقد دخل المغول الهند في مطلع القرن التاسع الهجري واستطاعوا إخضاع مقاطعات الهند كافة وحاولوا إبقاء حكمهم بالوسائل كلها حتى إن «أكبر خان» عمل على إرضاء الهندوس فأمر بمنع ذبح البقرة، وسمح بزواج المسلمات من الهندوس، والمسلمين بالهندوسيات بل أراد إيجاد دين جديد من الإسلام والهندوس، ومع أن حفيده قد عمل على إبطال هذه المنكرات والعمل للإسلام غير أن الخط العام كان هو المحافظة على السلطان، وكذلك فإنه في الوقت الذي دخل فيه المغول الهند كان المستعمرون الصليبيون من برتغاليين، وإنكليز، وفرنسيين، وهولنديين يطرقون أبواب البلاد من الشواطئ ويعملون على التسلل إلى الداخل حتى تَمَّت لهم السيطرة على الهند بعد أن استخدموا مختلف الوسائل من خداع، ومكر، واتفاقاتٍ مع الأمراء، وإغراءاتٍ لبعض الأهالي، وإفساد السكان لإضعاف المقاومة. ولما لم يحكم الإسلام لم تظهر محاسنه ومبادئه السامية، ولم يُقبل عليه السكان، وبقي المسلمون أقلية في ذلك البلد الواسع رغم أنهم يحكمونه. ولما كانت هناك محاولات لاسترضاء الهندوس وتقريبهم لذا لم يجدوا دوافع لاعتناق الإسلام وترك خرافاتهم، بل على العكس كانوا يستعلون أحياناً رغم ذلهم ووثنيتهم، ولما جاء المستعمرون الصليبيون قربوا الهنادك، وعملوا على إبعاد المسلمين، وبذلوا جهودهم لإفقارهم بمصادرة أملاكهم ومؤسساتهم، كما حرصوا على إبقائهم في حالة من الجهل بالغاء مدارسهم و... وهذا مازاد من إبداء الهندوس بعض القوة رغم ضعفهم وهزيمتهم النفسية لما هم عليه من خمول وكسل، وما في عقيدتهم من خرافاتٍ وأوهام، وهكذا وجد المسلمون أقلية في الهند رغم كثرتهم العددية، لكن جموع الهند الكبيرة تُبقي نسبتهم ضعيفةً. وهكذا لا يكفي أن يحكم المسلمون لو كان لأبد من تطبيق التشريع الإسلامي الذي يُعطي القوة، وتظهر فيه معاني المساواة، والإحسان، والعدل، ويُنشر الأمن والرخاء وليست الأهمية بالرجال ولكن الأهمية كل الأهمية بالنظام، ولا تُعرف قيمة أي نظامٍ إلا بتطبيقه.

وفي إفريقيا فتح المسلمون الأوائل مصر وبلاد المغرب وأجزاء من السودان،

وتبعت هذه النواحي للدولة الإسلامية التي تُطبَّق شرع الله بأخذ الجزية من أهل الكتاب ومن يتبعهم إن وجدوا، وعدم إبقاء ماسواهم في ديار المسلمين لذا لا نجد في هذه الأجزاء غير هؤلاء الأصناف كبقية كل البلدان التي دخلها المسلمون فاتحين. وانتشر الإسلام فيما بعد عندما ضعفت دولة الإسلام، عندما اهتزَّ النظام ولم يبق من تطبيق الشرع إلا جوانب منه عندما انتشر الإسلام في مناطق كثيرة عن طريق التجارة، كما هي الحال في شرقي إفريقيا، وقد عمَّ الإسلام في المناطق التي كانت آخر المحطّات مثل جزر القمر، وجزر بمبا، وزنجبار، وبلاد الصومال، وأجزاء من شرقي إفريقيا كسواحل كينيا، وتانزانيا اليوم، كما انتشر عن طريق الدول التي أقامها المسلمون في غربي إفريقيا وعمَّ مناطق واسعة هناك، وعن طريق الدعوة، وعن طريق القبائل إذ أن إسلام أحد زعماء القبيلة قد يؤدي إلى إسلام معظم أفرادها إن لم يكونوا جميعاً، وعن طريق الانتقال من الشمال إلى الجنوب سواء أكان للتجارة أم للرعي أم للتحرك الجماعي وتغيير منازل القبيلة. ولكن هذا الانتشار قد أبقى أعداداً من الوثنيات ضمن المناطق التي حكمها المسلمون وذلك لأنه لم يُطبَّق فيها النظام الإسلامي إذ انتشر فيها الإسلام تدريجياً، ولم تكن السلطة لأبنائه، وعندما كثر المسلمون وأصبحت لهم الكلمة لم يعملوا على تطبيق الشرع لأنه كان قد انحسر من النفوس حتى من الأمصار التي فتحها المسلمون الأوائل، فلم يبق للمسلمين الجدد قُدوةً يهتدون بها، وتُتبرَّ لهم طريق العمل بالإسلام، ولم يروا من سابقهم ما يُظهر محاسن النظام ومباني الإسلام، هذا إضافةً إلى أنه لم يمض الوقت الكافي حتى جاء المستعمرون الصليبيون فحالوا دون تطبيق الإسلام، وعملوا على الحدّ من انتشاره، ووقفوا في وجه تعليم أهله، وأشغالهم، وتعاطيهم أسباب الصحة ليبقوا جهلة، فقراء، مرضى ولينعت الأعداء هذا الوضع بالإسلام فينفر منه السكان، ويجدوا في النصرانية ديانة المستعمرين أسباب القوة، والعلم، والصحة بما يقدّمه الصليبيون من دعمٍ لمن يعتنق ديانتهم، وهكذا بقي المسلمون أقلية في بعض الأقطار، ويعيدون عن تطبيق الإسلام في الأمصار التي ترتفع فيه نسبة أتباعه.

أما أوروبا فقد دخلها المسلمون فاتحين حيث دخلوا الأندلس والجزء الجنوبي من فرنسا، ومعظم جزر البحر المتوسط غير أنهم عادوا فانسحبوا من فرنسا، وبدأ الاستعمار الصليبي بإخراج المسلمين من الأندلس، ثم تابع الصليبيون زحفهم

على المسلمين في جزر المتوسط حتى العصر الحديث فأبادوهم في مناطق، وطردهم من أخرى، ولم يبق من آثار ذلك سوى أقلية في قبرص، وبعض من يدعي الانتماء إليه في جزيرة مالطة. غير أنه عندما قامت دولة بني عثمان في الأناضول استطاعت أن تتقدم في أوروبا بسرعة، وتمكنت من طرق أبواب فيينا وحصارها أكثر من مرة ولكن لم يلبث أمرها أن ضعف، وانحصر نفوذها في جنوب شرقي أوروبا، وحرصت على نشر الإسلام غير أنها لم تفلح لأسباب كثيرة منها:

١ - أنه في الوقت الذي انطلقت فيه الدولة العثمانية في أوروبا كانت تلك القارة قد بدأت تقوي ويشتد ساعدها فوقفت في وجه العثمانيين، وحرصت شعوبها باسم الصليبية.

٢ - تحريض أوروبا للنصارى الذين يعيشون تحت سلطان الدولة العثمانية، وإثارة العاطفة الدينية عندهم، وتقديم الأمان لهم، والمساعدات الدائمة، وطرح بركات البابا عليهم إن التزموا بتوجيهات الدول النصرانية

٣ - أمل النصارى الذين يعيشون في ظل الحكم العثماني في عودة النصارى إليهم وإعطائهم السلطة، وظن كل فرد أن حظّه سيكون وثيراً.

٤ - عدم توفر الإمكانيات التامة للدعوة الإسلامية لدى الدولة العثمانية مع وجود العاطفة الشديدة للدعوة.

٥ - عدم إعطاء الصورة المشرقة للنظام الإسلامي لعدم تطبيقه بالشكل الصحيح.

ولما لم يجد العثمانيون الإقبال الجيد على الإسلام في البلدان التي دخلوها لجأوا إلى وسائل أخرى علّهم يفلحون في كسب أعداد إلى الإسلام ومن هذه الوسائل

١ - نقل مجموعات من الأتراك من الأناضول إلى جنوب شرقي أوروبا للإستقرار فيها والعمل للدعوة الإسلامية. غير أن هذه الطريقة قد أوجدت رد فعل لدى السكان إذ نظروا إلى الأتراك القادمين نظرة المنافسين لهم على الأرض والديار أو نظرة الاستعمار.

٢ - إعطاء الولاة الصلاحيات الواسعة لبناء المساجد، والدعوة، وتقديم المساعدات، والمنح، وإن أعطت هذه الوسيلة نتائج إلا أنها كانت نتائج ضعيفة، لأنها تحتاج إلى ولاية صالحين، وقليل ما هم، وقد أثر الصالحون فعلاً.

٣ - تشجيع المسلمين سواء أكانوا جنوداً أم منتقلين على الزواج بفتيات من السكان لتوطيد العلاقة مع الأسر الأوربية فلعلّه تحدث رغبة للدخول في الإسلام ، ولم يكن لهذه الوسيلة أثر كبير لانكماش الأوربيين تحت تأثير الصليبية .

٤ - إظهار القوة أحياناً غير أن هذا كان له فعل عكسي وخاصةً إن كان الولاة لا يتخذون الحكمة في استعمال القوة أو يضعونها في غير مكانها .

وهكذا بقي المسلمون أقلية في جنوب شرقي أوربا، وتتألف هذه الأقلية من :

أ - الفئات التي أسلمت من أبناء البلاد، وهي قليلة .
ب - المجموعات التركية التي استقرت هناك، وبقيت في أماكنها عندما انسحب العثمانيون من جنوب شرقي أوربا، وقد تعرّضت هذه المجموعات إلى الاضطهاد والطرّد بعد زوال سلطان بني عثمان ولا يزال يتعرّض من بقي منها إلى الآن

ج - المجموعات التي تعود إلى أصل إسلامي قبل أن تنتقل إلى جنوب شرقي أوربا مثل «البوشناق» و «الكومان» في يوغوسلافيا، والباشفرد» في المجر، وكانت هذه المجموعات قد اعتنقت الإسلام في القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع عندما كانت في مواطنها الأولى في «بلاد البلغار» القديمة الواقعة في حوض نهر الفولغا. فلما انتقلت إلى جنوب شرقي أوربا أهملت عقيدتها التي لم تترسّخ في نفوسها بالأصل. فلما جاء العثمانيون عاد هؤلاء إلى الإسلام، ومنهم سكان البوسنة والهرسك في يوغوسلافيا، وأبرزها قبائل البوشناق التي أعطت أسمها لمقاطعة «البوسنة» ثم قبائل الكومان .

د - الألبان الذين تأثروا بالمسلمين القادمين إليهم من منطقة البلغار رغم سطحية إيمانهم، فنشأت عندهم كنيسة جديدة تدعى «البوغوميل» تختلف عن كل الكنائس النصرانية، فلما جاء العثمانيون اعتنق الألبان الإسلام، وتعدّ ألبانيا الدولة الوحيدة في أوربا ذات الأكثرية المسلمة، كما يُقيم الألبان في إقليم «كوسوفو» الذي يتبع جمهورية صربيا الاتحادية في دولة يوغوسلافيا .

هـ - الباماك وهم من الفئات المستضعفة، ويُقيم أكثرهم في بلغاريا، ويُعرفون أيضاً باسم «العجر»

و - التار الذي دخلوا في الإسلام وانتشروا في شرقي أوروبا.

أما بقية الدول الأوربية في العصر الحديث فتكاد لا تخلو دولة من أقلية مسلمة الذين انتقلوا إليها للعلم، أو العمل، أو التجارة، أو رحلوا مُشرّدين وتوزّعوا هناك.

وفي قارة أمريكا وصل إليها مسلمون مستطلعين، ومن وصل إليها أقام بها إذ ربما عجز عن العودة أو خشي الطريق بعد أن رأى أهوال في ذهابه، فلما وصل إليها المستعمرون الصليبيون أبادوا من وجدوا فيها من المسلمين إذ كانوا في ذلك العام في صراعٍ مع المسلمين في الأندلس وقد تمكّنوا من طردهم منها، وطلّاع الصليبيين إنما جاءوا إلى أمريكا من الأندلس «إسبانيا والبرتغال» وهكذا خلت أمريكا من المسلمين في تلك المرحلة من الزمن.

ثم أخذ مسلمون يُخفون إسلامهم في الأندلس خوفاً من طغاة الحكام فيها من إسباني وبرتغاليين ينتقلون إلى هذا الجزء من العالم الجديد مع من ينتقل إليها من أبناء بلدانهم، ومنهم من أظهر الإسلام هناك وناله من أنواع العذاب والاضطهاد ما ناله حتى لحقت التصفية الجسدية الكثير منهم، ومنهم من حافظ على إخفاء ما يؤمن به حتى ضاعت العقيدة في الأجيال اللاحقة وربما بقي بعضهم يضمّر الانتفاء إلى الإسلام دون أن يكون له منه شيء حتى الوقت المعاصر حتى زالت موجة السخط، وإن أُعطيت الحرية الدينية مع بقاء الحقد مُغلغلاً في القلوب.

وفي العصر الحالي وصل المسلمون إلى أمريكا الشمالية للعلم، والعمل، والتجارة، ومُمثّلين لأمصّارهم، كما وصل إليها مُشرّدون منهم، وعاشوا هناك، ووصل إلى أمريكا الجنوبية من المسلمين من انطلق للعمل والاستقرار.

ووصل المسلمون إلى قارة أوقيانوسيا للأسباب نفسها التي جعلتهم يتجهون إلى أمريكا الجنوبية، وإن كانوا بأعدادٍ أقلّ:

وهكذا وجدت أقليات مسلمة خارج إطار العالم الإسلامي تختلفت في نسبتها بين السكان، وتباين في أوضاعها، وإن كانت تتقارب في أكثر الأحيان في مشكلاتها حيث تواجه هجوماً عنيفاً عليها، وتلقي اضطهاداً، ولا تجد دعماً أو نصيراً في معظم الأوقات.

انتشار الإسلام في قارة آسيا

وصل المسلمون في فتوحاتهم الأولى أي في القرون الهجرية الأولى في قارة آسيا إلى شرق بلاد السند، وبلا الترك «تركستان» من ناحية الشرق، وهي حدود العالم الإسلامي الشرقية اليوم لا يشذ عن ذلك سوى منطقة البنغال التي فتحها الغوريون في القرن السادس الهجري، وأندونيسيا وماليزيا اللتين عمتهما الإسلام عن طريق التجارة.

كما وصل المسلمون فاتحين في ناحية شمال القارة الآسوية إلى شمال بلاد ماوراء النهر، وإلى شمالي بلاد الداغستان وهي حدود أمصار العالم الإسلامي اليوم من جهة الشمال لم يزد عليها سوى بلاد القفقاس التي عمّها الإسلام عن طريق الدعوة في أيام الدولة العثمانية.

أما من ناحية الغرب فقد انتشر فيها الإسلام منذ بداية أمره إذ انطلق من جزيرة العرب التي عمّها الإسلام منذ أيام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أما بلاد الشام، والعراق، وتركيا بأكثر أجزائها الجنوبية والشرقية فقد دخلها المسلمون فاتحين منذ أيام الخليفين الراشدين الأولين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولم يزد على ذلك في حدود العالم الإسلامي الغربية في قارة آسيا سوى ما ضمّه السلاجقة من أواسط الأناضول، وما فتحه العثمانيون من بقية أجزاء تركيا الغربية حتى القسطنطينية.

وتوقفت الفتوحات الإسلامية لانصراف الناس إلى دنياهم، واكتفائهم بما حصلوا عليه من مغنم، ومما يأتيهم من خراج، وبما يعمل لهم ممالكهم، غير أن بعضهم لم يقنع بما نال إذ يجد مُتعة في العمل فلا بد من أن يزواله، كما أن

الإسلام يفرض على أبنائه العمل سواء أكانوا أغنياء أم فقراء لأن الفرد ملك للأمة وليس مرتبطاً بشخصه وهواه، ويجب أن يُنتج لأُمته مهما كان ميسوراً. فلما توقفت الفتوحات ولم يعد للرجال شاغل يُؤدّون فيه واجبهم ومهمتهم الملقاة على عاتقهم في الحياة من جهادٍ ومُقارعة للأعداء انصرف عدد إلى مزاولة التجارة، واتجه عدد آخر إلى الدعوة بل نستطيع أن نقول: لم تكن الدعوة لتنفصل عن عمل المسلم أياً كان نوعه، فالمسلم يدعو إلى الله أينما وجد، وفي أية مهنة كان يزاوِل، غير أن الذين كانت التجارة وسيلتهم اتجهوا إلى ركوب البحر وحملوا معهم البضائع، وغالباً ما تكون الرحلات جماعية على حين أن الذين انصرفوا إلى الدعوة لاهمّ لهم سواها فقد ساروا في البر وامتطوا ظهر البحر، ساروا منفردين، وانطلقوا مع مجموعاتٍ، وارتحلوا جماعاتٍ، وربما امتنهن بعضهم التجارة في بعض أوقاته إن وجد فيها وسيلة للصلة مع الناس أو دعت الحاجة وظروفه المادية.

التجارة البحرية

ركب التجار المسلمون البحر وحملوا معهم بضائعهم، ورحلوا والأمل يحدوهم بالنجاح في مهمتهم لنشر الإسلام. وتنطلق السفن، ويتوكل ركاها على الله يبيعون تجارةً لن. تبور، وتصل الفلك إلى المحطات، وينزل منها التجار، ويتلقاهم نظراؤهم من أهل البلاد يتتبعونهم ويبيعون فيجدون فيهم الصدق، ويرون فيهم الاستقامة، ويعرفون فيهم الأمانة، ويعلمون أن هذا كله من أثر العقيدة التي يحملونها، فيُحبّب الإسلام إلى نفوسهم، ويدعونهم، ويلتقون معهم فيحسنون منهم الكرامة والعفة، وينظرون إلى عبادتهم وعلمهم وسلوكهم فيُسروا عما يرون، ويُصبح الإسلام قريباً من نفوسهم، وأهله مُقربين إلى قلوبهم ويعد رحلاتٍ ولقاءاتٍ لا يجد التجار من أهل البلاد أنفسهم إلا وقد دانوا بالإسلام وأصبحوا من أبنائه.

وتنطلق السفن إلى محطاتٍ أخرى وتتم المقايضات، والمبايعات، واللقاءات كما حدث في المحطة الأولى، وهكذا كانت المحطات التجارية مراكز لانطلاق الإسلام، وكلما كانت المحطات أكثر اتساعاً وأكثر بضائع كان الإسلام أكثر انتشاراً لذا فإننا نلاحظ أن السواحل التي كانت طريقاً للسفن التجارية قد انتشر فيها الإسلام، وهي عادة الشواطئ المحاذية والتي تصلح لإقامة الموانئ سواء

لحمايتها من الريح أو لسواحلها التي تُساعد على إقامة المرافئ إذ لا تصل إليها مجرورات الأنهار، أما السواحل المُقَعَّرَة فلا تمرّ منها عادةً السفن لكثرة المجرورات وعدم إقامة الموانئ وطول الطريق حيث تتعدّها السفن عادةً إلى السواحل المُحَدَّبَة الأخرى التي تليها، وكلما كانت إقامة التجار المسلمين في محطات الموانئ أكثر كان الإسلام أكثر ازدياداً.

فإذا ما وصلت السفن إلى آخر المحطّات كانت هناك الإقامة الأكثر طولاً حتى تنفذ البضائع إذ لا توجد بعدها محطّات فلا تفكير لبيعها في مكان ثانٍ، وحتى يشتري التجار بضائع جديدة حيث لا توجد بعدها مواقف لأخذ البضاعة منها والحاجات، ثم إن هذه المحطّة هي المقصودة بالذات وهذه البلدان هي المعنيّة بالسفر إليها، وبضائعها ومنتجاتها هي المرغوب فيها لهذا كله تطول الإقامة وتزداد الصلة مع السكان وبالتالي ينتشر الإسلام. ولما كانت أندونيسيا من المواضع التي تُشدّ إليها الرحال للتجارة لذا فقد انتشر فيها الإسلام كثيراً حتى عمّ، وأصبحت أحد الأمصار الإسلامية. وكانت ماليزيا ترتحل إليها السفن بدرجة أقلّ، لذا فقد إنتشر فيها الإسلام بدرجة أقلّ وكانت مصر إسلامية غير أن نسبة المسلمين فيها ليست مرتفعة.

ومن أندونيسيا قد تنطلق سفن تجارية ويرتحل دعاة أو يسيروا منفردين إلى السواحل القريبة منها أو الجزر الدانية فانتشر الإسلام في الجزر التي عُرفت باسم الفيلبين حتى حكم المسلمون تلك الجزر إلى أن جاءها الصليبي «ماجلان» وأراد ردة السكان عن الإسلام وتحويلهم إلى النصرانية الكاثوليكية فقتلوه، ودفنوه في أرضهم، وجاءت بعده الجيوش الإسبانية تترى كلما هُزم جيش تبعه آخر حتى استطاعوا أن يقضوا على المسلمين في الجزر الشالية، وأن يطردوا من بقي منهم إلى الأجزاء الجنوبية ويحصرهم فيها. وبعد قرونٍ أنتهى الاستعمار الإسباني في تلك الجزر فحلّ الاستعمار الأمريكي، وأخذ بعض المسلمين من الجنوب ينتقلون إلى الشمال ويُقيمون حول العاصمة «مانيلا» فوُجِدَت مجموعة منهم استقرت هناك، وهكذا بقي المسلمون أقليةً في الفيلبيين بعد حرب الإبادة التي شنها عليهم الاستعمار الإسباني، أقلية حول العاصمة، وأكثرية في الأجزاء الجنوبية.

أما جزر اليابان فلم يصل إليها الإسلام لبعدها عن مواطن المسلمين الأولى،

وعن مراكزهم الجديدة في أندونيسيا وماليزيا، وبقي الوضع هكذا حتى العصر الحديث حيث اتجه بعض المسلمين إليها وتشكّلت نواة منهم هناك تنمو بشكلٍ طيبٍ.

وأما سواحل البر الآسيوي فقد انطلقت إليه بعض السفن التجارية من أندونيسيا أيضاً، وانتشر عن طريقها الإسلام على سواحل فيتنام، وأسّس المسلمون هناك في القرن التاسع الهجري إمارة «تشامبا» التي بقيت عدة قرونٍ خاضت خلالها حرباً شتّى عليها الفيتناميون حتّى تمّت لهم الغلبة فطردوا المسلمين من «تشامبا» فارتحلوا إلى «كامبوديا» حيث ارتفعت نسبة المسلمين هناك بقدمهم.

ووصلت السفن إلى سواحل الصين، وتوفّقت في «كانتون»، وربما وصلت إلى هذا المرفأ سفن قادمة مباشرةً من بلاد العرب حيث كان قد انتشر الإسلام هناك في وقتٍ مبكرٍ، وقد يكون قبل وصول الإسلام إلى أندونيسيا، ولكن لم تلبث أن رفدت سفن قادمة من «مالاكا» و «أندونيسيا» السفن التي سبقتهم من بلاد العرب فانتعش المسلمون هناك وزاد عددهم، وأقاموا أحياء خاصةً لهم. ووصلت السفن الإسلامية تحمل معها التجار والدعاة إلى «شنغهاي» وضواحيها، وإلى شبه جزيرة «شانتونغ» وإن كانت قليلةً إذ أن الرحلات إل تلك الجهات كانت قليلةً فانتشر الإسلام هناك بأعداد تعدّ قليلةً نسبياً إذا قارناها بالمحطات السابقة لها والتي هي قريبة من المراكز الأولى للإسلام.

ولم ترتحل السفن الإسلامية إلى شمال شبه جزيرة «شانتونغ» لذا لم يصل الإسلام إلى تلك السواحل ذات العروض المرتفعة، وبقي إنتشاره فيما قبل ذلك، وإن كان في الوقت المعاصر قد أخذ الإسلام طريقه إلى كوريا بأعدادٍ قليلةٍ بعد الحرب الكورية عام ١٣٧٤هـ، حيث كان لجنود الفرقة التركية المقاتلة هناك دور في نشر الإسلام، وقد جاءت هذه الفرقة مع الفرق الأخرى من قبل الأمم المتحدة لدعم كوريا الجنوبية من الغزو الشمالي، ثم أخذ الإسلام ينمو ببطءٍ ويؤمل انتعاشه بعد إقامة المركز الإسلامي هناك في «سيؤول».

أما السواحل التي قبل ماليزيا، واندونيسيا والتي كانت تمرّ منها السفن

الإسلامية فقد انتشر فيها الإسلام بنسبٍ مُتفاوتةٍ حسب الميناء، وموقعه، ومدة الإقامة فيه، والمنتجات في ظهوره، والبضائع التي تستهلك في المنطقة. لقد انتشر الإسلام على سواحل الهند الغربية في جزر «لاكاديف» بنسبةٍ كبيرةٍ حيث كانت محطةً طبيعيةً، كما انتشر على سواحل منطقة «بومباي» نتيجة كثرة الاستهلاك وشراء البضائع المحمولة إليها، وإن لم تكن محطةً أساسيةً إلا أن السفن المنطلقة إليها تكون خاصةً بها، ولم تطل مُدة إقامة التجار فيها لسرعة عمليات المبادلة التجارية، ولذا لم تزد نسبة المسلمين فيها على ٩٪، أما السفن المتجه إلى جنوب شرقي آسيا فإنها تنطلق إلى جزر «لاكاديف» لذا فقد إنتشر الإسلام فيها، وبلغت نسبة أتباعه فيها ٩٤٪، ثم تتحرك السفن إلى جنوب الهند حيث تضطر إلى التوقّف للتزوّد باحتياجاتها، وأخذ بعض الراحة، وربما قامت فيها بعض الأعمال التجارية، وقد وصلت نسبة المسلمين هناك إلى ٢٠٪، وتتجه السفن بعدها إلى السواحل الشرقية للهند ولكن لا تسير مُوازيةً لها مسافة طويلة بل تتركها مُتجهةً إلى الشرق مُبتعدةً عن تقعرُ خليج البنغال، وربما توقّف بعضها في «مدراس» إن كانت هناك حاجة للتزوّد باحتياجاتها من جنوبي الهند، وتنطلق إلى «مدراس» لتوجيه خط سيرها، وهي ليست بحاجةٍ إلى تزوّد من جديد، لذا كانت نسبة المسلمين قليلةً في «مدراس» ولا تزيد على ٥٪ من مجموع السكان.

وكما اتجهنا شمالاً قلّت نسبة المسلمين، وهكذا تبقى سواحل الهند الشمالية الشرقية قليلةً من أتباع الديانة الإسلامية، غير أن ارتفاع نسبة المسلمين في البنغال إنما جاء نتيجة الفتح حيث فتح الغوريون - كما سبق أن ذكرنا - البنغال في القرن السادس الهجري، وكذا تبقى سواحل «بورما» و «تايلاند»، ثم تعود نسبة المسلمين للارتفاع في «فطاني» و «مالاكا» المرفأ الغربي لما ليزيا وذلك لمرور السفن من تلك السواحل بعد أن تكون قد قطعت مياه خليج البنغال، وأصبحت بحاجة إلى الراحة والتزوّد بالحاجات الأساسية.

وبعد أن تلتفت السفن حول شبه جزيرة ماليزيا، تعود نسبة المسلمين قليلةً للسبب نفسه إذ تتقعر سواحل «تايلاند» و «كامبوديا» بتقدّم مياه خليج «سيام» في داخل اليابس، هذا إلى جانب ما تُلقيه الأنهار الموسمية الغزيرة من مجرفات في مياه البحر، ونصل بعدها إلى سواحل «فيتنام» وقد تحدّثنا عنها، غير أن

سواحلها الشمالية مقعرة حيث يقع خليج «طونكين» فلا تمر السفن عليه، ولا تقف في محطات هناك، وهذا ما حال دون انتشار الإسلام بتلك الجهات، وبعدها تبدأ سواحل الصين.

وهكذا وجدت أقليات مُسلمة نتيجة التجارة البحرية والدعوة على طول سواحل قارة آسيا الجنوبية، والجنوبية الشرقية، وبعض الشرقية، ولم يعم الإسلام سوى الأجزاء التي كانت آخر المحطات التجارية، أو تقصدها البواخر وتكون هدفاً لها لمنتجاتها، وهي «أندونيسيا» و «ماليزيا»

التجارة البرية والدعوة

أما في الداخل فقد انتشر الإسلام فيه وخاصة في البلدان الشاسعة كالصين والهند عن طريق التجارة البرية، والدعوة، وربما أسهمت الحكومات في العمل لدعم ذلك الانتشار فيما إذا كانت بأيدي المسلمين سواء أرغب أصحابها في ذلك أم لا لأن للحكومة هيمنة تُشجّع على الإقبال على عقيدة من يدهم السلطة.

انتشر الإسلام في الصين ببطء، ونلاحظ أن النسبة العامة للأقلية المسلمة تقل كلما تعمقنا في داخل الصين مُبتعدين عن حدود أمصار العالم الإسلامي إلا أن وجود دُعاة في منطقة استطاعوا بذل الجهد ووفّقوا في العمل فعندها ترتفع نسبة المسلمين قليلاً كما هي حال ولاية «يوتان» التي تزيد نسبة المسلمين فيها على ٣٠٪ من مجموع السكان على حين أن نسبة المسلمين في الصين عامة لا تزيد على ١٠٪ من مجموع السكان. ولقد نشط المسلمون في العهد المغولي الذي امتدّ من ٦٨٥ - ٧٦٩ هـ حيث انتقلت مجموعات من المسلمين من تركستان وكانت بينهم أعداد من الدعاة إلى الصين إذ كان المغول يُسيطرون على المنطقتين.

وفي الهند انتشر الإسلام في الشمال بين السند والبنغال نتيجة سير الفتوح، وتوزّع المسلمون في أرجاء الهند كلها عندما آل إليهم حكمها فقلّ الفرق بين النسب المتباينة، وتصل نسبة المسلمين عامة في الهند إلى ١٤٪.

وانتشر الإسلام في داخل بورما بوصول بعض المسلمين إليها عندما غزاها التتار المسلمون.

وهكذا فإن المناطق كلها التي انتشر فيها الإسلام في آسيا بعد القرن الثالث الهجري بقي المسلمون فيها أقليات باستثناء منطقة البنغال التي فتحها الغوريون في القرن السادس الهجري وأندونيسيا وماليزيا اللتين كانتا آخر محطات التجارة البحرية وقامت فيهما أمارات مسلمة، وجزر المالديف التي عمّها الإسلام بالدعوة التي كانت عن طريق الدعاة الذين وصلوا إليها مع التجار.

انتشار الإسلام في إفريقيا

فتح المسلمون الأوائل مصر وبلاد المغرب، وتبعث هذه المناطق الدولة الإسلامية فلم يبق فيها بجانب المسلمين إلا أهل الكتاب، وتوقفت الفتوحات، غير أن الإسلام قد أخذ طريقه إلى باقي أرجاء القارة بصُورٍ مختلفةٍ ونسبٍ مُتباينةٍ.

التجارة البحرية

كما إنَّجَّه المسلمون نحو جنوب شرقي آسيا عن طريق البحر فإنهم قد انجَّهوا نحو شرقي إفريقيا حيث تطلَّ هذه القارة على البحر نفسه «المحيط الهندي»، وقد كانت أكثر مواقع شرقي إفريقيا آخر محطات السفن الإسلامية، وهذا ما جعل الإسلام يعمُّ تلك السواحل حتى خط العرض ٢٠ جنوباً حيث كانت مدينة «سُغاله» آخر المحطات لهم جنوباً.

وقد ساعدت الإمارات الإسلامية التي قامت في شرقي إفريقيا في عدة أماكن على نشر الإسلام، ولكنه بقي محصوراً على السواحل وذلك لأوضاع السكان في الداخل، وظروفهم الاجتماعية، وطبيعة المناخ. وتوقف المد الإسلامي أثناء سيطرة الاستعمار الصليبي البرتغالي. ولكن هذا الاستعمار بقيت جذوره ظاهرة فأمكن اقتلاعه بسهولة حيث لم يتعمَّق داخل البر الإفريقي.

عاد النشاط الإسلامي إلى شرقي إفريقيا بعد زوال الاستعمار الصليبي البرتغالي وانتقل كثير من العمانيين إلى هناك وأصبح شرقي إفريقيا يتبع دولة عمان. وانتبه المسلمون إلى خطتهم السابق بالبقاء في المناطق الساحلية، وهو الخطأ الذي وقع

فيه البرتغاليون مما سهّل طردهم، لذا فقد شجّع السلاطين التجار المسلمين على الولوج إلى داخل إفريقيا وقدموا لهم الحماية، فتعمّقوا في الأدغال وتمكّنوا من الوصول إلى ضفاف نهر الكونغو حيث نشروا الإسلام هناك، كما نشره على طول الطرق التي سلكوها، ونشأت أقليات مُسلمة في داخل تنزانيا، وفي رواندا، وبورندي، وزائير، ونمت مع الزمن نتيجة الدعوة، وبقيت هذه الأقلية ضمن سكان من الوثنيين يمكن التأثير عليهم بسهولة لتأخّره، وسداجتهم ونظرتهم إلى المسلمين نظرة الأعلى غير أن الاستعمار الصليبي لم يلبث أن بسط نفوذه على تلك الأرجاء فوقف في وجه المدّ الإسلامي، وبذل كل إمكاناته المادية والعلمية لهؤلاء الوثنيين ليحوّلهم إلى النصرانية، وانتقلت جموع الإرساليات التنصيرية إلى إفريقيا تقدّم الإغراءات لإبعاد الوثنيين عن الإسلام، ونجحت إلى حدّ ما فقلّ الإقبال على الاسلام، واعتنق بعض الوثنيين النصرانية، ورغم كل هذا فلا يزال الإسلام يجد طريقه إلى قلوب وعقول سكان القارة الأصليين حيث أنه دين الفطرة ينسجم مع النفس البشرية وما ترغب فيه وتعمل له، والصراع قائم بين النصرانية والإسلام في هذه القارة، ولا يزال التفوق للإسلام. ويخشى من غلبة النصارى إن استمر الإهمال الإسلامي إذ غدا الدعم أساساً والإعلام ضرورة ملحّة.

التجارة الداخلية

غدا شمال الصحراء الكبرى بلاداً إسلاميةً على حين بقي جنوبها بعيداً عن الأثر الإسلامي وإن كان قد ولج بعض المسلمين إليها، وتعمّق بعضهم في فيافيها، غير أن ذلك كان على مستوى محليّ، ولما كانت منتجات الشمال تختلف عن حاصلات الجنوب لذا فقد أخذ التجار المسلمون بعد توقّف الفتوحات يحملون البضاع من شمالي إفريقيا ويتعمّقون داخل الصحراء حتى يصلون إلى بلاد الزنج فيقايضون السكان هناك، ويعودون بأحمال من حاصلات جنوبي الصحراء، كما كان الملح يُشكّل مادةً تجاريةً جيدةً تُنقل من الصحراء إلى شماليها. وكان التجار ينتقلون ضمن قوافل كان لرجالها الأثر الكبير في نقل الإسلام من الشمال إلى الجنوب.

وانتشر الإسلام على طول تلك الطرق التجارية التي كانت تجتاز الصحراء إذ كانت أكثر من طريق فوادي النيل طريق طبيعية في الشرق، وهامش الصحراء

من الغرب مثلها، إضافة إلى الطرق التي كانت تقطع الصحراء، وعمّ الإسلام تلك الجهات، ومن أطراف الصحراء من ناحية الجنوب تعمّق المسلمون داخل الغابة ونشروا دينهم بين قبائل تلك النواحي.

وهكذا نلاحظ أن الدول الصحراوية، والتي تقع إلى الجنوب منها وتضمّ أجزاء من الغابة كلها أمصار إسلامية وترتفع فيها نسبة المسلمين إلى أرقام عالية. أما في الغابة فتعيش أقليات إسلامية بين وثنيين، وكلّما تعمّقت أجزاء الدولة في البر الأفريقي من خليج غينيا في غربي إفريقيا كانت نسبة المسلمين أكثر ارتفاعاً، أو أن نسبة المسلمين تزداد كلما اتجهنا شمالاً.

ويجب ألا ننسى دور الإمارات التي نشأت في المنطقة في نشر الإسلام، وأهمها إمارات «الهاوسا» التي قامت في النيجر وشالي نيجيريا، وإمارة «عثمان دونفديو» الفولانية في شالي نيجيريا أيضاً.

الحياة القبلية

تعرف الحياة القبلية بأنها حياة تنقل وراء المرعى والخصب، والقبائل التي تعيش على هامش الصحراء الكبرى من الجنوب تنتقل بين الشمال والجنوب، فإذا نزل الغيث، وجادت السماء، وأعطت الأرض خيراتها اتجهت القبائل نحو الشمال إلى أطراف الصحراء، وهناك تتصل بالمسلمين، وتأخذ منهم حاصلات بلادهم وتُعطيهم من منتجات حيواناتهم، وربما تأثرت بإسلامهم بل كثيراً ما كان يحدث هذا، فإذا ما انتهى فصل الغيث والخير، وجفّت أعشاب أطراف الصحراء بلظى الشمس المحرّقة تحرّكت القوافل نحو الجنوب حتى تصل إلى أطراف الغابة وربما ولجت فيها لتنال بعض ما تنتجه، ولترعى حيواناتها، ولتعيش في ظلّ الغابة وأحراجها. وإذا كانت قد تأثرت بالإسلام فإن ذلك يُلاحظ على سلوك أفرادها وعاداتهم، ويسأل من يحتكّ بأبناء القبيلة عن سبب هذه التغيّرات، ويعرفون أن الإسلام كان السبب، وربما راق لهم ذلك فاعتنقوه، أو تأثروا به، ومع الزمن يصبحون من أتباعه.

وللحياة القبلية بعض الجوانب الإيجابية في انتشار الإسلام فإذا ما أسلم زعيم القبيلة لم يلبث بقية الأفراد أن يدخلوا في الإسلام، وهذه ما نلاحظه إذ أن القبيلة

التي تعتنق الإسلام قلما يوجد فيها أفراد لا يدينون به إن كانت تعيش في منطقة مكشوفة، كما كانت ديارها تشمل أجزاء من الغابة فإن الذين يعيشون داخل الغابة يكونون معزولين نسبياً عن بقية أفراد القبيلة، وربما بقي بعضهم على وثنيته، وأسلم بعضهم الآخر، فكل مجموعة منعزلة كانت لها عقيدة خاصة بها، وليس من الضرورة أن يكون الوثنيون الذين يعيشون في الغابة والذين ينتمون إلى قبيلة واحدة أن يتبعوا طوطماً واحداً يعدّون أنفسهم يرجعون في أصولهم إليه، لا، وإنما كل مجموعة منعزلة تعيش في وسط معين في الغابة تتبع طوطماً يختلف عن طوطم جيرانها.

وعندما جاء الاستعمار الصليبي بذل جهده الواسع للفصل بين الجنوب والشمال كي لا يتسرّب أثر الإسلام إلى قبائل الجنوب، بل عمل على عزل مجموعات القبيلة الواحدة بن المسلمين منها وغير المسلمين حتى لا يكون بينهم احتكاك فلا يتأثر الوثنيون بأبناء جلدتهم من المسلمين.

الدول

لقد نشأت دول إسلامية في غربي إفريقيا، وكان لها دورها الكبير في نشر الإسلام، وربما كان أول هذه الدول وأكثرها أثراً دولة المرابطين التي نشأت في منتصف القرن الخامس الهجري، وإذا كان دورها قد برز في ناحية الشمال، باجتياز بحر الزقاق، ودخول الأندلس لمساعدة أهلها، والوقوف بجانبهم أمام الطغيان الصليبي، وانتصارهم على الإسبان الصليبيين في معركة الزلاقة المشهورة عام ٤٧٩هـ، والمحافظة على وضع المسلمين في الأندلس مدة، فإن دورهم وأثرهم في ناحية الجنوب لا يقلّ عن هذا أبداً بل يفوقه إذ اتجه بعضهم نحو الجنوب، وعملوا على نشر الإسلام، وأرسلوا الدعاة إلى جهات إفريقية الغربية كلها، وبنوا الرباطات في كثير من المناطق، وقد وصل أثرهم إلى منطقة الغابون، ولا تزال بقايا آثارهم حتى هذا اليوم.

ودخل المرابطون عاصمة إمبراطورية عانة القديمة «كومبي صالح» عام ٤٦٩هـ ودانت لهم دولتها، التي لم تلبث أن استقلت عنهم بعد وفاة زعيم المرابطين في الجنوب أبوبكر بن عمر اللمتوني، غير أن مملكة غانا الجديدة قد أخذت على

عائقها الدعوة إلى الإسلام، وأعلنوا ارتباطهم بالدولة العباسية، وكثرت المساجد، وألحق بكل مسجد مدرسة لتعليم الدين، واللغة العربية التي غدت الرسمية في التجارة والثقافة.

وقامت مملكة «مالي» في المدة ٦٣٩ - ٨٩٤هـ، وعملت على نشر الإسلام أيضاً، وقد أبحر بعض ملوكها في المحيط ليكشف ما وراءه، ولم يعد، ويعتقد أنه وصل إلى أمريكا الجنوبية وعاش هناك مدة، وبقي بعض أحفاد من وصل معه إلى أمريكا ومن أسلم على أيديهم حتى جاء الاستعمار الصليبي أيام ما عُرف بالكشوف وأباد المسلمين هناك.

ونَهَضت مملكة «الصنغاي» بالمهمة نفسها، ثم قامت عدة إمارات التي منها «البامبارا» برئاسة «ساموري توري» الذي اتخذ لقب إمام، وقبض عليه الفرنسيون عام ١٣١٦هـ، وإمارة «الفولاني» برئاسة الحاج عمر الذي قُتل عام ١٢٨١هـ، غير أن أبناءه قد اختلفوا فيما بينهم، واصطدم بعضهم مع بعض، ونشبت الحروب بينهم مما أضعف شأنهم، وقد هُزم آخرهم وهو الأمير أحمد على يد الفرنسيين عام ١٣١٦هـ.

وعندما أخذ المستعمرون الصليبيون يلجون داخل إفريقيا كان همهم الأول قتل الزعماء والأعيان والعلماء الذين يمكن أن يلتفت حولهم الناس خوفاً من قيام إمارات ودول يمكنها حشد الناس، والوقوف في وجه المستعمرين الصليبيين وقتالهم، وإذا خشوا من نتائج القتل قاموا بنفي الوجهاء إلى أماكن بعيدة لا يعرفهم أهلها، وهذا ما يمنع أثرهم، ويحول دون اتحاد المسلمين.

العمالة

منذ أن تمكن المستعمرون الصليبيون من بسط نفوذهم على معظم أجزاء القارة الإفريقية أخذوا يُفكِّرون في استغلال خيراتها واستثمار ثرواتها غير أن هذا يحتاج إلى عمال عندهم القدرة على العمل والمعرفة فيه، والمشكلة أن سكان كثير من جهات إفريقيا وخاصة الحارة منها يغلب عليهم الخمول، وليس لديهم النشاط الكافي للقيام بالأشغال بل ولا الرغبة، وإذا كان المسلمون من الإفريقيين يمكنهم العمل غير أن الصليبيين لا يريدونهم لأنهم إنما يريدون إفقارهم فلا يمكن أن

يجدوا لهم عملاً، ويرغبون في إذلالهم فلا يمكن أن يهتموا بهم، لذا فكروا بجلب عمالٍ من مستعمراتهم لزراعة القطن الذي تحتاج إليه معاملهم في أوروبا، ومدّ السكك الحديدية من الساحل إلى الداخل لإمكانية نقل الجنود وبسط النفوذ على وسط القارة، ولتسهيل نقل حاصلات الداخل إلى المرافئ لشحنها إلى بلادهم، واستقدمت انكلترا، التي استعمرت أكبر جزءٍ من إفريقيا، العمال من الهند، وكان بينهم عدد المسلمين، ولم تبال انكلترا بهذا على أنهم أجراء، ضعفاء، غرباء غير أن بعضهم قد استقر فشكّل أقليةً مسلمةً رفدها الذين اعتنقوا الإسلام بتأثير هؤلاء العمال وغيرهم. ومافعلته انكلترا فعله بقية المستعمرين الصليبيين من فرنسيين، وهولنديين وغيرهم إذ كانت لأكثر الدول الأوروبية النصرانية مستعمرات في بلاد المسلمين أو تضمّ أقلّيات منهم.

إن هؤلاء العمال المتقدمين رغم أوضاعهم وغربتهم كان لهم تأثير على السكان لأن الإسلام دين الفطرة تتفق مبادئه مع طبائع النفوس ورغباتها.

ويمكن ملاحظة هذه الأقلية المسلمة من العمال وخاصة الهنود منهم في المستعمرات الإفريقية الانكليزية مثل كينيا وشرقي إفريقيا عامة.

الجنود

كان للجنود المصريين الذين أرسلهم إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي حاكم مصر إلى منطقة أوغنده عندما أراد أن يوسع أملاكه ويمد نفوذه إلى منابع النيل كان لهم دور في انتشار الإسلام في تلك الجهات.

وكان للجنود الذين جنّدتهم هولندا من أندونيسيا وماليزيا أثر في نشر الإسلام في جنوبي إفريقيا وكذلك للجنود الهنود الذين عملوا في جيوش انكلترا لإخضاع، ودخول قلب إفريقيا، والقضاء على بعض الحركات أحياناً.

وقد جنّدت معظم الدول الاستعمارية الصليبية جنوداً في مُستعمراتها وزجّتهم في الحروب التي خاضتها في إفريقيا خلال المراحل كلها، فكان من المسلمين منهم أثرهم سواء أعاشوا مدة قصيرة بين سكان القارة واحتكوا بهم أم استقرّوا هناك وأضحوا جزءاً من أهل البلاد ولهم تأثيرهم على الوسط الذي يعيشون فيه.

الدعاة

رافق هذه المجموعات كلها عدد من الدعاة، وربما كان بعض أفرادها دعاة إذ كثيراً ما يعمل المسلم داعيةً وهو يُمارس مهنةً مُعيَّنةً مهياً كان وضعها الاجتماعي أو تصنيفها ما دام يعتقد أن الدعوة أمر واجب عليه، وربما أخذ مهنته وعمله وسيلةً للصلة بالناس حتى يدعوهم، وهو أثناء هذه الصلة يتحَبَّب إليهم ويُريهم مُعاملة المسلم وسلوك الرجل الملتزم بتعاليم دينه من أبناء هذه الأمة.

ويتفرغ الذين تسمح لهم حالتهم المادية بالعمل للدعوة فيسيرون مع القوافل التجارية، وقد تكون لهم أموال مع التجار، وغالباً ما يكون أكبر وقت التجار ومهمهم منصرفاً للدعوة، فظروفهم المادية تسمح لهم، وليست التجارة سوى وسيلةٍ للارتحال والصلة والوصول إلى أماكن لا تزال بكرةً لم يصل إليها الإسلام، فينالون الأجر، ويحصلون على المال الذي يُساعدهم في تأدية مُهمَّتهم. وقد يتزوجون هناك من بنات الذين دخلوا بالإسلام لتتوطد صلتهم بأسر وأقرباء الزوجة فيتعرّفون عن قربٍ على الإسلام وسلوك أبنائه ومعاملة أهله، فلا يلبثون أن يدخلوا بالإسلام.

ومن الجنود ماهم دعاة، ومن العمال دعاة، وكل مسلمٍ داعية وإن لم يكن على معرفةٍ كافيةٍ من العلم تُؤهله للعمل فسلوكه وأخلاقه رمز وصفة لعقيدته.

ويجب ألا ننسى تلك الجماعات التي هيأت نفسها للدعوة، فكانت تبني الزوايا في المناطق التي تقع على هامش ديار الإسلام ليعمل أتباعها على نشر دينهم، وإن اختلفت الطرق والوسائل وربما وجدت مفاهيم لا تتفق دائماً وتعاليم الإسلام، وربما نستطيع أن تعدّ هؤلاء الذين يقبلون هذه الأفكار أنهم في مرحلةٍ سابقةٍ للدخول في الإسلام أو أنهم في مرحلة التهيئة أو الموافقة دون الالتزام الذي سيأتي في المستقبل.

وهكذا وجدت أقليات مسلمة في مناطق إفريقية وبلدانها كلها إضافة إلى أمصار العالم الإسلامي التي تمتدّ في شمالي القارة، ومنطقة الصحراء، وإفريقية الغربية، وعلى هامش الغابة، ويتناثر بعضها في شرق إفريقية نلاحظ أن بقية

الجهات تضمّ كلها أقليات مسلمة، وإن كانت تختلف بنسبها وأعدادها، والنسب ترتفع في شرقي القارة، وما بقي من دول غير إسلامية في غربي إفريقيا وهي: لبيريا، وغانا، وتنخفض في الوسط والجنوب نتيجة تأخر وصول المسلمين إليها.

جغرافية العالم «قارات العالم»

يقسم الجغرافيون العالم إلى خمس قارات، وتفصل القارة عن الأخرى بمياه المحيطات الواسعة، وإذا كانت ثلاث منها متقاربة، وهي: آسيا، وإفريقية، وأوروبا وهي التي تُعرف بالبر القديم، فإن اثنتين منها بعيدتان وهما: أمريكا وأوقيانوسيا، وتعرفان بالبر الجديد. ويرى بعض الجغرافيين أن أوروبا ليست سوى شبه جزيرة من قارة آسيا لصغر مساحتها، واتصالها بآسيا، وعدم انفصالها عن قارة إفريقية بمياه المحيطات، ويُطلق هؤلاء على القارة اسم أوراسيا اشتقاقاً من أوروبا وآسيا.

تتقارب قارات العالم القديم بعضها من بعض حتى لتتصل أوروبا من جهة الشرق بقارة آسيا اتصالاً تاماً يشمل الجهة الشرقية كلها، كما يتقاربان بعضهما من بعض في جهة جنوب شرقي أوروبا، وتكادان تتلامسان فمضيق البوسفور يضيق إلى ثمانمائة متر، وهو الذي تقع عليه مدينة استانبول في الناحية الأوروبية، ومضيق الدردنيل يضيق إلى ألف متر ويكون بين المضيقين بحر مرمرة وتتصل آسيا بأفريقيا في برزخ السويس ومضيق باب المندب يمتد البحر الأحمر كفاصل بين القارتين. ولا تُعدّ قناة السويس قاصلاً ما ثياً بين القارتين إذ أنها حُفرت بأيدي البشر، ومن ناحية ثانية فإن عرضها لا يزيد في صفحة الماء العليا على مائة وخمسين متراً، وأما في العمق الذي لا يزيد على أربعة عشر متراً يكون عرض القناة أربعين متراً فقط. وتقترب أوروبا من إفريقية فلا يفصلها عنها في ناحية الغرب سوى مضيق جبل طارق الذي يضيق عن خمسة عشر كيلو متراً في بعض نقاطه وينفرج في أوسع مناطقه إلى ما يزيد على ثمانية وثلاثين كيلو متراً بقليل، كما تمتد أشباه جزر أوروبية نحو الجنوب مقترية من إفريقية فشبه جزيرة إيطالية تقترب من تونس، وتزيد جزيرة صقلية من هذا التقارب فلا يفصل بين القارتين سوى الممر الصقلي الذي تقع في وسطه أيضاً جزيرة «قوصرة»، كما تمتد شبه جزيرة اليونان في الجزء الشرقي من البحر المتوسط. وتقترب مساحة هذه القارات

من أربعة وثمانين مليون كيلو متر مربع، وتوزع بالتقريب كالاتي:

قارة آسيا : ٤٤ مليون كيلو متر مربع
 قارة أفريقية : ٣٠ مليون كيلو متر مربع
 قارة أوروبا : ١٠ مليون كيلو متر مربع
 المجموع : ٨٤ مليون كيلو متر مربع

أما قارتا العالم الجديد فهما أمريكا التي تقرب مساحتهما من اثنين وأربعين مليون كيلو متر مربع، ويفصل المحيط الأطلسي بين هذه القارة وبين قارتي إفريقيا وأوروبا، على حين يفصل المحيط الهادي بينها وبين قارتي آسيا وأوقيانوسيا.

وتمتد قارة أمريكا من الشمال إلى الجنوب على شكل مثلثين قاعدتهما في الشمال ويتجه رأساهما نحو الجنوب، وهما أمريكا الشمالية التي تقارب مساحتها أربعة وعشرين مليون كيلومتر مربع، وأمريكا الجنوبية التي تقرب مساحتها ثمانية عشر مليون كيلومتر مربع. ويصل بين هذين الجزأين امتداد بسيط يعرف باسم أمريكا الوسطى.

أما قارة أوقيانوسيا فهي مجموعة من الجزر تصل مساحتها إلى تسعة ملايين من الكيلو مترات المربعة، وتقع جنوب شرقي آسيا، وأكبر هذه الجزر هي استراليا التي تشمل أكثر هذه المساحة حتى لتعطي اسمها أحياناً للقارة كلها.

ولما كان البشر قد وصل إلى هاتين القارتين «أمريكا وأوقيانوسيا» في وقت متأخر من البر القديم، وعاش فيهما منعزلاً لانعزالهما عن بقية القارات، وبعدهما عنها، ثم عرف ذلك إنسان البر القديم ووصل إليهما، فقد عدّ ذلك اكتشافاً لهما، وأطلق عليهما العالم الجديد، أو البر الجديد.

السكان والتطور

كانت بداية وجود البشر عندما خلق الله آدم عليه السلام في جنوب غربي آسيا، وأغلب الظن في شبه جزيرة العرب، ومنها انطلقوا إلى مختلف جهات الأرض، وتكاثروا، وخاصة في العراق، والشام، ومصر، وأرسل الله لخلقه رسلاً ليبينوا لهم النهج القويم، وليرشدوهم إلى عبادة الخالق، ولهذا كان أكثر الأنبياء،

والرسل جميعاً في هذه الرقعة من الأرض ما دامت هي الجزء المعمور فقط من العالم يومذاك.

وردّت الأقوام دعوة رسلهم وخاصةً في جنوبي العراق فكانت نتيجتهم الغرق، وكان الطوفان الذي شمل العراق وشمال الشام واتصلت مياه البحر المتوسط بمياه الخليج العربي، وأنقذ الله نوحاً ومن آمن معه وما آمن معه إلا قليل، ورسّت السفينة التي حملتهم على جبل الجودي في شرقي تركيا اليوم، واستقر رُكّاب السفينة هناك، وأخذوا بالتكاثر، وأقلعت السماء عن المطر، وابتلعت الأرض المياه، وعادت الحياة من جديد إلى العراق والشام، وأخذت ترد إليها جماعات من الذين استقرّوا عند جبل الجودي وتكاثروا، كما انطلقوا إلى مختلف الجهات، ومن الذين اتجهوا إلى جنوبي العراق أبناء نوح عليه السلام، حيث عاد العمران من جديد، وتوزّع أبناء سام بن نوح في جزيرة العرب، فكان قوم عاد في منطقة الأحقاف وجنوبي جزيرة العرب، وقد بعث الله إليهم رسوله هوداً، فردّوا الدعوة فعاقبهم الله، ومن أبناء عاد القحطانيون والعرب العارية. ومن أبناء سام قوم ثمود في غربي جزيرة العرب في وادي القرى وقد أرسل الله إليهم رسوله صالحاً وقد ردّوا دعوته أيضاً. ومن الساميين طسم وجديس في منطقة نجد والعمالة في غربي الجزيرة.

وانتقلت جماعات من الساميين إلى شمالي إفريقيا حيث استوطنوا هناك، كما انتقلت جماعات أخرى من جنوبي العراق واستقرّت في الشام، ومن هذه الجماعات كان انتقال إبراهيم الخليل عليه السلام الذي سار من جنوبي العراق إلى «حرّان» في شمال الشام متخذاً وادي الفرات طريقاً له، ومن «حرّان» سار إلى دمشق فالخليل حيث استقرّ فيها، وسافر إلى مصر ورجع إلى موطن استقراره حيث رحل مع زوجه هاجر وابنه إسماعيل فأودعهم وادي مكة قبل أن تكون مكة ومن أحفاد إسماعيل هناك كانت العرب المستعربة التي تكاثرت في جزيرة العرب، وكان مع إبراهيم ابن أخيه لوط بن هاران حيث أقام في وادي العربة جنوب البحر الميت الذي حمل اسمه فعُرف باسم «بحيرة لوط» وكانت قرى قومه جنوب البحيرة تماماً. كما كان مع إبراهيم ابن أخيه الآخر مدين الذي أقام في شمال غربي جزيرة العرب في المنطقة التي حملت اسمه فعُرفت باسم «بلاد مدين» وقد أرسل الله لسكان

تلك المنطقة رسوله شعبياً، وردّ أولئك القوم دعوة نبيهم فعاقبهم الله.

وأما حام بن نوح فقد سار إلى شرقي إفريقيا وتكاثر أبنائوه هناك، ومنهم من ارتحل إلى شمالي تلك القارة واختلط مع الذين سبقوهم من أبناء سام، وكان المصريون القدماء، وكان البربر في بلاد المغرب وأطراف الصحراء، وجاءتهم رسلهم، وأما الذين بقوا في شرقي إفريقيا فقد ردّوا دعوة أنبيائهم فسلب الله عليهم أقواماً آخرين ففرّ الأوائل منهم حتى وصلوا إلى جنوب غربي القارة ومنهم قبائل «البوشمن» الذين تناثروا في صحراء «الهوتنتوت» أمام قبائل «البانتو» ودخل بعضهم إلى الغابات مختبئين، وهكذا سلط الله ظالمين على ظالمين فتوزّع بعضهم في الصحاري وتناثر بعضهم في الغابات، وهكذا توزّع الناس في إفريقيا.

وأما يافث بن نوح فقد سار إلى آسيا وتكاثر أبنائوه في بلاد الهند وبلاد الصين عند دالات الأنهار، وفي أوديتها الخصبة، كما تجمع بعضهم وتكاثر في شمالي بلاد إيران اليوم، ونتيجة ذلك التكاثر في هذه المنطقة غير القابلة لاحتواء الكثير من البشر فقد ارتحل منها جماعات وانطلقوا نحو الشمال الغربي وتوزّعوا في أوروبا، وكان ما عُرف بالآريين. وقد جاءت الأنبياء والرسل إلى الأقوام هذه التي استقرت في آسيا فردّوا دعوة الله فسلب الله عليهم من قاتلهم ففر الذين ظلموا أنفسهم نحو الشمال وعاشوا حياة قاسية داخل الغابات المخروطية وفي الشمال منها في الصحاري الباردة شمالي سيبيريا ومن بقاياهم قبائل الصاموئيد، والياقوت وغيرهم. ومنهم من أوغل في الهرب فوصلوا إلى أمريكا الشمالية عن طريق مضيق «بهرنغ» فمنهم من بقي في مكانه واستقرّ وسط تلك الصحاري الباردة ومن بقاياهم قبائل الأسكيمو التي لا تزال تعيش في شمالي كندا وفي شبه جزيرة آلاسكا، ومنهم من أمعن في الهرب وتابع سيره نحو الجنوب حتى وصل بعضهم إلى أمريكا الجنوبية، وهؤلاء جميعاً ما يعرف باسم الهنود الحمر، وهم سكان أمريكا الأوائل مع الأسكيمو، وهكذا وُجد السكان في أمريكا.

وكان من الذين فرّوا من جنوب شرقي آسيا من أمعن في الفرار وركب البحر منتقلين من جزيرة إلى أخرى حتى وصلوا إلى استراليا فتناثروا داخل صحرائها خائفين وهم الاستراليون القدماء.

وإذا كان الآريون قد توزّعوا في أوروبا الشمالية والوسطى فإن الأجزاء الجنوبية

من تلك القارة قد وصل إليها السكان من شمالي إفريقيا ومن غربي آسيا وأعمروها، كما ارتحل بعض من أقام في جنوبي أوربا حتى أوربا الغربية والشمالية الغربية كالنورمان، وهكذا توزّع السكان في معظم قارة أوربا. بل يكون بهذا قد عمّ البشر العالم وإن كانت كثافتهم تختلف بين منطقة وأخرى، فهي مغلخلة في الصحاري الباردة، والحارة، وفي المناطق الجبلية، والغابات. وتزداد هذه الكثافة في البلاد المعتدلة وعلى سواحل البحار، وترتفع في دالات الأنهار والمناطق الخصبة في الأراضي الرسوبية والأودية.

الحضارة المادية

ومع مرور الزمن، ونتيجة الحاجة، وبالتطور الدائم، وللوصول إلى حاجات أفضل وجدت بعض الأساليب المتطورة، وتمت معرفة وسائل جديدة كانت كمرحلة حضارية متقدمة في بعض المناطق عن غيرها في الجهات الأخرى، فقد عرفت وسائل جديدة للري بتوزيع مياه الأنهار، وخزن بعضها، وزراعة أنواع جديدة من الحبوب والشمار، إضافة إلى ركوب البحر وصناعة السفن، والحياكة وصناعة الفخار، وعمل الأخشاب و..

ولكن أهم ما اشتهرت به تلك الحضارات المادية التي وجدت في تلك الأزمان الغابرة إنها كانت في البناء، فشيدت المعابد الضخمة، والقصور الفخمة، وأقيمت الأهرامات، كما وجدت الأصنام والتماثيل، ولا يزال بعضها باقٍ إلى اليوم ويدل على مهارة في الفن، وروعة في العمل، وعظمة في الإقامة، ومع هذا فليس فيه أي معنى للحضارة بمعناها الصحيح إذ لم يكن ذلك لخدمة الناس ولا لمصلحتهم، وإنما قام لخدمة الطغاة وبناء على أوامرهم، وعلى جثث العاملين فيها ولا تزال تحمل الآثار الباقية رمز أنين المظلومين الذين أجبروا على الشغل فيها سُخرة. ولا يزال صوت السياط التي أدمت جلود العاملين، ومرأى الذين سقطوا إعياء من التعب، والذين ماتوا من الإرهاق ودفنوا في أمكنتهم... كل هذا تحمله الآثار الموجودة الآن. فظلم الطغاة، وطغيان الكهنة، واستبداد أصحاب السلطة، واستعباد الأقوياء للبرعية هو السمة البارزة في تلك الحضارات التي كانت قائمة يومذاك.

الديانات

بعث الله النبيين إلى تلك الشعوب، وأرسل الرسل إلى تلك الأقوام فردّت الجماعات دعوة أنبيائها، ورسالات رسلها، بعث الله يونس إلى الآشوريين، واليسع إلى السلوقيين، والياس إلى الفنيقيين، وأيوب إلى الآراميين، ويوسف، وموسى إلى الفراعنة إضافة إلى ما أرسله إلى الأمم السابقة كإبراهيم، ولوط، وشعيب، وهود، وصالح، ونوح وإدريس إلى أقوامهم، فردت الأقوام دعوة رسلهم فعاقبهم الله فمنهم من أغرقه، ومنهم من خسف بهم الأرض، ومنهم من أبادتهم الريح الصرصر . . .

وكان الطغاة يدعون الألوهية، أو أنهم يحكمون باسم الآلهة، ويُصبّون كهنةً يؤمّنون على دعوى الطغاة، وسدنةً للمعابد والأصنام التي يُعطونها أسماء آلهةٍ يُوافقون على ما يقوله الكهنة وما يدّعيه المتسلّطون، وينال الكهنة والسدنة نصيبهم من السلطة إذ يُشاركون في قهر الرعية وظلمهم، يأخذون من الأموال التي كانت دائماً تُرهق الشعب وتُذللّه، ويُستخرون أفرادَه في بناء المعابد وإقامة القصور لهم تقليداً لسادتهم، ويعيش الشعب مغلوباً على أمره ذليلاً يتقاسم جهده المتسلّطون والكهنة والسدنة بل يملكون حياته، وما يملك، ونساءه، وأبنائه ولا يجرؤ أحد من الرعية أن يعترض أو يرفض السخرة أو يمتنع عن تقديم ما يطلبه السادة ولو كان أعزّ ما يملك من شرفٍ أو حياة.

وقد أرسل الله موسى لفرعون وقومه فاستكبروا في الأرض بغير حق، وأرادوا قتل موسى ومن آمن معه من بني إسرائيل فخرج موسى بقومه، وتبعهم فرعون وجنوده، فنجّى الله بني إسرائيل وأغرق فرعون ومن كان معه. ولكن بني إسرائيل لم يشكروا الله هذه النعمة فعبدوا العجل، وطلبوا من نبيهم موسى عليه السلام أن يصنع لهم أصناماً لتكون آلهة لهم، وطلبوا منه أن يُريهم الله جهرَةً، وتخاذلوا عن دخول فلسطين، ويعفو عنهم الله بعد كل جحودٍ إذا أبدوا الندم أو أظهروا التوبة، ويعطيهم النعمة بعد الأخرى، ويمدّهم من فضله، ويُقدّم لهم كل ما يطلبونه، ومع ذلك لم يزدادوا إلا جحوداً وكفراناً.

وبعد موسى عليه السلام حرقوا كتاب الله وبدّلوه، وجاءتهم الأنبياء ترى

تنصحهم، وبعث لهم الرسل ترشدهم إذ أرسل إليهم داود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وكان كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً يكذبون، وفريقاً يقتلون، وادّعوا أنهم شعب الله المختار، وأنه ليس عليهم في الأميين سبيل، وأن عزيز ابن الله، وأحلّوا الحرام، وحرموا الحلال، وارتكبوا المنكرات وطغوا بالكفر.

وجاءهم عيسى بن مريم بالبينات، وأنزل الله عليه الإنجيل، فدعاهم إلى عبادة الله، فكذبوه، وتآمروا عليه، وعملوا على صلبه فأنجاه الله ورفعته إليه، وشبهه لهم آخر هو كبير المجرمين فصلبوه، وزعموا أنهم صلبوا المسيح.

وانتشر حواريو المسيح في الأرض، وكتبوا سيرة المسيح عيسى بن مريم كل حسبما وعى منها، فظنّ بعضهم أنها الانجيل، فترجموا، وحرفوا، وبدّلوا كلام الله. وانتشرت النصرانية بعد المسيح في عدة مناطق، وكان أبرزها الدولة الرومانية، ولكن هذا الانتشار كان اسماً إذ بقيت الوثنية هي السائدة عندهم، ولكنها حملت اسم النصرانية، وتعصّب بعض الحكام لها، واضطهدوا اليهود فتوزّعوا، وبقيت الوثنية مضمون النصرانية فكانت التماثيل والصور تملأ الكنائس، وبقيت المحرمات هي التي ترتكب باسم النصرانية والوثنية فزعموا أن المسيح ابن الله، وأنه صُلب، فعبدوا الصليب، واختلفوا في طبيعة المسيح فانقسمت النصرانية إلى أقسام تبعاً لذلك.

وقامت الدول تسيطر على الشعوب وتدّعي أنها تحكم باسم الديانات، وأنها مُمثلة للإله الذي تدّعيه، ويُعاون الساسة رجال الدين، وتقاسموا المنافع معهم، وظلموا، واستبدوا، وبالغوا في الظلم والطغيان.

الدول والامبراطوريات

نشأت في العالم المعمور بعد الميلاد عدة دولٍ وامبراطورياتٍ تتحكّم في الشعوب، وتتنافس فيما بينها، ولكلٍ ديانة خاصة مليئة بالخرافات والأساطير وأنواع الشرك والوثنيات ولا تخلو منها واحدة، حتى التي كانت سماوية اعترها التحريف والتبديل فكان الاسم سماوياً والواقع لا يبتعد كثيراً عن الأخرى من الوثنيات.

قامت الامبراطورية الرومانية وريثة الإغريق والرومان فسيطرت على جنوبي

أوروبا وبلاد الأناضول، والشام، ومصر، والمغرب، وكانت لها هيمنتها على أجزاء أخرى واسعة من بلاد العرب، والصقالية، والأرمن، وربما قامت إمارات أو دول صغيرة تحكم أجزاء من هذه الامبراطورية تحت إشراف الرومان فالغساسنة في الشام عرب يعملون للرومان وتحت نفوذهم، والأقباط في مصر يحكمهم المقوقس باسم الرومان و... وكان المستلطنون على هذه الامبراطورية يدعون الحكم بالنصرانية التي ليست في مضمونها سوى وثنية لبست ثياب النصرانية، وعمال الرومان في الشام ومصر صورة مصغرة عن سادتهم فالشعب يثن من وطأة الظلم، ولا يستطيع أن يرفع أحد منهم رأساً، ورجال الدين متواطئون مع الطغاة ويظلمون رعاياهم، ولا تختلف الرعية عن السوائم أو هكذا ينظر إليها الذين بيدهم مقاليد الأمور، ويدفعون بها إلى الحرب حيث كان التنافس على أشده مع دولة الفرس.

والامبراطورية الفارسية تسيطر على فارس، وخراسان، وبلاد الجبل، والعراق، وتدعي أنها حامية النار المقدسة، وشعبها المجوس يتبع حكامه في عبادتهم، فالنار هي المعبودة، وتعدد عندهم الآلهة واحد للخير، وآخر للشر، وثالث للنور، ورابع للظلمة... ويدعون أن لهم كتاباً مقدساً، ويقصدون «زرادشت» ويعبدونه و«ماني» كأنبياء لهم، وفي هذه الديانة من الخرافات مافيها، وكفى أن النار معبودة عندهم، والشعب كالبهائم يسوقهم آل ساسان وقادتهم، وسدنة النار، وكهنة معابدها. والمناذرة إمارة عربية في جنوبي العراق تعمل لهم وتحت إشرافهم، والصراع مع الرومان لا ينقطع تارة يُغلب الفرس فيتوسع الرومان نحو الشرق وأخرى ينتصر الفرس فينحسر نفوذ الرومان عن بعض الأجزاء الشرقية من دولتهم.

وامبراطورية الحبشة نصرانية تعمل بتوجيه الرومان إلى حدٍّ مادامت العقيدة تجمع بينهما، ويخضع شعبها للنجاشي ولرجال الدين الذين لهم نفوذ كبير حتى على النجاشي نفسه.

وفي الهند إمارات ودول تعتمد الديانة البراهمية التي تُقدّس البقرة، وتعجّ بالخرافات، وأكثر ما يميزها الطبقات المفصولة بعضها عن بعض يأتي على رأسها

الحكام الذين هم يُمثّلون رأس «براهما» فالكهنة الذين يُمثّلون عمله، والقادة ويمثّلون أكتاف الشودرا أو المنبوذون، وهم بعيدون عن براهما فليس لهم طبقة معتبرة. . . . ولا تتزوج طبقة من أخرى، ولا ينتقل فرد من طبقة إلى أخرى، ومعظم الشعب من الشودرا محترق، مزدري، ذليل لأيوّبه به ولا يمسّ، ومن لمسه عليه الغسل والتطهر مما لحقه.

وانتشرت البوذية على أطراف الهند، وتقدّس «بوذا» الذي كان أحد البراهميين وانشقّ عنهم، ودعا إلى ديانة جديدة، ولهم إمارات في سفوح جبال هيمالايا، وسيلان، وبورما، وشرقي آسيا، وجنوبها الشرقي.

وفي الصين إمارات ودول ترتبط أحياناً بعقد تارة يكون قوياً فتتخذ، وأخرى هزياً فينفرط العقد وتتناثر الإمارات. وتدين كلها بالبوذية حسب تعاليم «كونفوشيوس» التي تقوم على عبادة الأجداد، وتمتليء بالخرافات، ومنها تقديس «كونفوشيوس» والشعب لا يختلف عن غيره من الشعوب مغلوب على أمره، ولا ينظر إليه على أنه أكثر من سوائم ليس له إلا المرعى وذبح كل من شاء الراعي ذحه أو أكله.

وفي اليابان شعب مُتخلّف يدين بالبوذية على المبدأ الشتوي الذي يعدّ الامبراطور ابن الإلهة الشمس لذا يجب تقديسه، وفدائه بالأرواح، وتقديم القرابين.

وتتناثر في شمالي آسيا، وداخل الغابات، وأعلى الجبال مجموعات وثنية مُتخلّفة، وكذا الحال في أوربا الشمالية، ووسط إفريقية وفي الجنوب منها، وفي مجاهل العالم الجديد.

وفي بلاد العرب كانت تعيش مجموعات قبلية، ومدنية، وربما تشكّلت بعض الإمارات أحياناً، وكلها تقوم على عبادة الأصنام، وتقضي حياتها بالرعي، والحروب فيما بينها، وتقضي أوقات فراغها في معاورة الخمر، ولعب الميسر، واللهو عند صحابات الرايات. وكان القوي يأكل الضعيف. ويبدد الإنسان ماله باسم الكرم للسمعة والشهرة. ويثد بناته أحياناً خوفاً من الذلّ والعار، ويفضل الذكور

على الإنانث للدفاع عن القبيلة، والدود عن العرض. ويقتل المرء نفسه لينال شرف الشجاعة والذكر. ويعرف أهل البادية مسالك بواديهم، ويهتدون بالنجوم، لذلك فقد برزوا في ذلك، كما عُرفوا بافتقاء الأثر، وبرعوا في الشعر والأدب.

ظهور الإسلام

هذا العالم البائس الذي يعيش تحت وطأة الظلم، ومآسي الذل والاحتقار، وظلمات الجهل، وغطرسة الأقوياء، وتسلب الأثرياء، وجبروت الطغاة، وجور الأديان، وفوارق الطبقات، كان لابد له من إصطلاح، وكان لابد من إرسال رسول من الله ليأخذ بأيدي البشرية نحو طريق الخير والصلاح، والهداية والرشاد.

وقد مضت قرون عدة تقرب من الستة قرون «٥٧٧» لم يبعث الله بها نبياً ولم يرسل رسلاً. حتى إذا أظلمت الدنيا وغطى ظلامها بالجهل، والخرافة، والاستبداد، والظلم، والانحراف بعث الله محمداً بدين ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، فكان خاتم الأنبياء، ورسالاته آخر الرسالات، فهي للعالم جميعاً، وللبشر كلهم.

دعا رسول الله قومه فأمن من آمن وجحد من جحد، وأخيراً انتصر الحق وزهق الباطل وبأقل من ربع قرن عم الإسلام جزيرة العرب. واكتمل الدين، وانتهى التشريع، واشتد ساعد الإسلام، وانتقل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى الرفيق الأعلى، وقام أصحابه بالدعوة بعده، ورفعوا راية الجهاد، وانطلقوا يقوضون الظلم والاستبداد، ويدكون عروش الطغيان من الأرض... فانتشر الإسلام في أرجاء واسعة.

العالم الاسلامي

القسم الأول

- | | |
|-----------------|-------------------|
| ١ - جزيرة العرب | ٧ - باكستان |
| ٢ - بلاد الشام | ٨ - المالديف |
| ٣ - العراق | ٩ - اتحاد ماليزيا |
| ٤ - تركيا | ١٠ - أندونيسيا |
| ٥ - إيران | ١١ - بروني |
| ٦ - أفغانستان | |

العالم الإسلامي

مقدمة القسم الأول :

يشكل المسلمون محيطا اجتماعيا وحضاريا عظيم الامتداد، وتحتل دول العالم الإسلامي جزءا كبيرا من سطح الأرض يمتد من أقصى الشرق من آسيا إلى أقصى الغرب من إفريقيا، ومن أعلى نهر الفولغا شمالا إلى أواسط إفريقيا جنوبا ويشغل، العالم الإسلامي موقعا ممتازا ذا أهمية خاصة بين مناطق العالم الأخرى، فهو يطل على عدد كبير من المسطحات المائية المفتوحة التي تمثل أهم طرق المواصلات البحرية في العالم وعمراتها من جهة، كما أنه يتحكم في طرق الملاحة الجوية العالمية من جهة أخرى.

وعلى هذه الرقعة الواسعة تتناثر اثنتان وخمسون دولة إسلامية تختلف فيها نسبة عدد المسلمين. فهناك دول إسلامية وهي التي يشكل المسلمون فيها أغلبية كبيرة. ودول ثانية تزيد فيها نسبة المسلمين قليلا على النصف، هذا بالإضافة إلى الأقليات الإسلامية.

وتتوسط هذه الدول الإسلامية جميعها المنطقة العربية التي تحتل مكان القلب في العالم الإسلامي، وهي بحكم ماضيها وعراقتها في الإسلام لها مركزها الخاص وأهميتها الكبيرة، ففي الجزيرة العربية ظهرت الدعوة الإسلامية ومنها انطلقت رسالة الإسلام لتغطي أرجاء المعمورة. كما انبثقت من هذه المنطقة حضارة الإسلام الرفيعة التي أضفت على دول الأرض وشعوبها نور المعرفة في كافة المجالات الفكرية والعلمية والانسانية.

ونحن اليوم في أمس الحاجة الى دراسة «متكاملة» صحيحة عن العالم الاسلامي ترسم قبل كل شيء جغرافية الإسلام من حيث هو غطاء روحي واسع الانتشار بالغ الخطورة في الحياة البشرية... وترسم ملامحه بدقة وأمانة بعد أن كانت تضيع وسط زحام الزيف والبعد عن الواقع.

أولا - الموقع الجغرافي وأهميته :

يقع العالم الإسلامي بين خط عرض ٥٦° شمالاً عند أعلى نهر الفولغا، ويمتد جنوباً حتى خط الاستواء وجنوبه قليلاً في أندونيسيا وتانزانيا. أما امتداده شرقاً فيصل من خط طول ١٢٠° شرقاً في جزر الفلبين، ويصل إلى أقصى الغرب عند الرأس الأخضر على خطو طول ٢٠° غرباً.

وعلى ذلك فإن رقعة العالم الإسلامي تبلغ مساحة كبيرة وشاسعة على سطح الكرة الأرضية، وتمتد من ملقا بالملايو شرقاً إلى مالقة بالأندلس غرباً، أو من أرض المورو بالفلبين إلى أرض المورو بالمغرب، أو من غينيا الجديدة في أقصى الشرق من آسيا إلى جمهورية غينيا في أقصى الغرب من إفريقيا.

يشكل المسلمون محيطاً اجتماعياً وحضارياً عظيم الامتداد، وعلى هذا السطح كثير من الدول والوحدات السياسية التي يدين أكثر سكانها بالإسلام، وتبلغ مساحة هذا السطح حوالي ٣٥ مليون كيلو متر مربع، كما يمتد من تانزانيا جنوب خط الاستواء حتى جمهورية كازاكستان، وهي الآن تحت حكم روسيا في وسط آسيا شمالاً وهذا الامتداد يشمل عدداً من الأقاليم المناخية والنباتية والحيوانية والزراعية.

بهذا الامتداد يشغل العالم الإسلامي موقعا ممتازاً ذا أهمية خاصة بين مناطق العالم الأخرى فهو يطل على عدد كبير من المسطحات المائية المفتوحة، وهذه تمثل في الوقت نفسه أهم طرق المواصلات البحرية في العالم. فمن جهة الغرب يشارك العالم الإسلامي مناطق العالم الأخرى المطلة على المحيط الأطلسي وبه أضخم حركة ملاحية في العالم، سواء في نقل البضائع أو النفط أو الركاب، إذ يمر به حوالي ٥٥٪ من مجموع حركة التجارة الدولية، كما تمتد من هذا المحيط ذراع مهمة تتمثل في البحر المتوسط وتعد أقصر طريق يربط بين الشرق والغرب، وسواحله الجنوبية والشرقية والشمالية الشرقية كلها سواحل إسلامية، كما تتحكم الدول الإسلامية في مداخل هذا البحر، إذ تسيطر المغرب على الساحل الجنوبي لمضيق جبل طارق، وتتحكم مصر في المدخل الجنوبي لهذا البحر من خلال سيطرتها على قناة السويس، كما تسيطر تركيا على مضيق البوسفور والدردنيل، ويعتد أن أهم طريق يربط الامبراطورية الروسية بالبحار الدافئة.

ويطل العالم الإسلامي كذلك على المحيط الهندي، وبه حركة بحرية عظيمة تتمثل في نقل النفط الخام والمواد الأولية بصفة خاصة، ويتحكم المسلمون في أهم مداخل هذا المحيط أيضا، فمضيق باب المندب مدخله الغربي ويقع تحت سيطرة اليمن من جهة وجمهورية جيبوتي من جهة أخرى، كما أن مدخله الشرقي يقع في منطقة إسلامية إذ تشرف عليه ماليزيا من ناحية وأندونيسيا من ناحية أخرى، وتمتد من هذا المحيط ذراعان مائتان هما البحر الأحمر والخليج العربي وتعمقان في أراض إسلامية صرفة.

وقد لعب العالم الإسلامي بالنسبة لجهات الدنيا الأخرى أدوارا عظيمة الأهمية في تاريخ الحضارة الانسانية، فطرق التجارة البحرية بالإضافة إلى المسطحات المائية التي يشرف عليها قد جعلته يقوم بدور المعبر أو همزة الوصل بين الشرق والغرب، كما كانت التجارة البرية من المؤثرات الحضارية والثقافية المهمة. فقد جعلت العالم الإسلامي دائم الصلة بين أجزائه المختلفة وبينه وبين غيره من أجزاء العالم الأخرى فقد كان (طريق الحرير) مثلا منذ أقدم العصور أحد هذه الطرق البرية المهمة، وكان يربط الصين بمنطقة البحر المتوسط، ونشأ على هذا الطريق بعد انتشار الإسلام كثير من المدن الإسلامية المهمة، مثل طشقند وبخارى وسمرقند.

وقد أضافت قناة السويس ميزة أخرى لهذا العالم الإسلامي فهي توفر على السفن التي تصل بين الشرق وغربي أوزيا أو العكس، بين ١٧٪ و ٥٩٪ من المسافة التي تقطعها، كما توفر كمية الوقود التي تستهلكها بنسبة تتراوح بين ٥٠٪، و ٧٠٪.

زد على ذلك، فإن موقع العالم الإسلامي يتحكم أيضا في الملاحة الجوية العالمية من ناحية توسطه بين أطراف العالم ومن ناحية صفاء سبائه في أكثر الأوقات.

يزيد عدد المسلمين اليوم على المليار، وتكون نسبتهم حوالي ٢٥٪ من سكان العالم، وقد أجمعت الكتابات التي صدرت في السنوات الأخيرة على أن الإسلام في توسع حركي مطرد، وأنه أكثر الأديان نموا عدديا، وهو في كل يوم يكسب أرضا جديدة أكثر على امتداد جبهة عريضة في إفريقية وفي آسيا وفي الأمريكتين،

وفي ذلك تعويض عما فقدته خلال القرنين الماضيين من أرض وقاعدة بشرية، إذ تعرض المسلمون للغزو والاستعمار الذي تمكن من قهرهم والسيطرة على مقدراتهم، ومنذ ذلك الحين والاستعمار يحاول تقويض رسالة الإسلام، ويقف سدا أمام انتشارها، ويعمل على إفساد كل أثر خلفه وأضاءه وكل نتيجة حققها، ولولا هذه المرحلة القاسية الطويلة التي مرت بالمسلمين لانطلقوا الى آفاق أوسع ولا تسعت رقعتهم وأرضهم في المشرق والمغرب، ولأصبحت خريطة الإسلام اليوم شيئاً آخر يختلف عما هي عليه الآن.

هذا التوسع هو الذي يخيف العالم النصراني أو الغرب أو الشرق فيعملون على وأد الحركات الإسلامية والتخطيط للنيل منها، وأخطر المخططات ماكان في ضربه من الداخل ويبدأ بنائه. كما تعمل الحركة الصليبية اليوم للسيطرة على العالم، ومحاولة جرّ الدنيا وراءها بتسخير الصهيونية لمصلحتها، وإدارة الطغاة في فلکها وتخص منهم الذين أوكلت إليهم مهمة حكم أمصار العالم الإسلامي.

ثانياً - الإسلام بين القارات الثلاث :

تعد قارة آسيا هي مركز ثقل العالم الإسلامي، ففي هذه القارة تتركز النسبة الغالبة من عدد المسلمين في العالم، فهي تضم وحدها مايقرب من أربعة أخماس المسلمين أو حوالي (٥٥٠) مليون مسلم.

ويطلق بعض الكتاب على هذه القارة اسم «بيت الإسلام الحقيقي» ففيها الجزيرة العربية التي قامت على أرضها الدعوة الإسلامية، كما أنها مركز انطلاقها إلى الدنيا بأسرها.

وأياماً كان الأمر فعلى الرغم من الكثرة العددية للمسلمين في آسيا إلا أنها لا تمثل في الحقيقة سوى ٢٩٪ فقط من عدد سكانها الذين يبلغون مايزيد على (٢٥٠٠) مليون نسمة، وإذا رجعنا الى تاريخ المسلمين في آسيا في عهد الفتوحات والدول الإسلامية، وقارنا بين مكائنتهم في تلك العهود وبين حالتهم اليوم لوجدنا الوضع يختلف كثيراً. فالرقعة التي كانوا يتحكمون فيها قد انكمشت وعددهم قد تقلص نسبياً وخاصة في مناطق الشمال وشمال شرقي آسيا، وهذا راجع إلى الحملات العنيفة التي شنّها عليهم خصوم الإسلام من ناحية والحروب التي قامت

بينهم من ناحية أخرى. أما عن المسلمين في أوروبا - وهذا العدد يتركز في يوغوسلافيا وألبانيا وبلغاريا - فالمعروف أن الإسلام قد ازدهر في أوروبا إبان عصر قوة الدولة العثمانية، ومن قبل أيام الفتوح الإسلامية لبلاد الأندلس حتى أصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية وامتد نفوذهم حتى وصل إلى مناطق متعددة من القارة الأوروبية.

ولكن الحقد الصليبي على المسلمين في اسبانيا ثم التدهور الذي أصاب الدولة العثمانية تسبب في انكماش الرقعة الإسلامية وعدد المسلمين في أوروبا، وبدا هذا واضحا منذ نهاية القرن الماضي حين أخذت المناطق في أوروبا والتي تتبع الخلافة العثمانية تنفصل عنها بتحريض ودعم أوربي، وكان أول شيء يتبع هذا الانفصال هو تصفية الوجود الإسلامي فيها وترحيل المسلمين منها إلى الأراضي التركية.

وبالنسبة لقارة إفريقية فقد أجمعت الكتابات والتوقعات على أنها قارة المستقبل بالنسبة للإسلام فهي جبهة زيادة وزحف الاسلام واحتياطي توسعه خلال السنوات القادمة.

وإذا كان الإسلام قد فقد البحر المتوسط كبحيرة إسلامية فانه قد وجد العوض في إفريقية لتكون قارته الإسلامية، وإذا تتبعنا عدد المسلمين في إفريقية خلال نصف القرن الأخير لوجدناه في زيادة مضطردة، رغم أن هذه الإحصاءات لا تمثل إلا أرقاما تقريبية ففي عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) تجاوز عدد المسلمين في إفريقية الثمانين مليونا، وزاد هذا العدد في عام ١٣٧١هـ (١٩٥١م) إلى حوالي مائة وأربعين مليونا، وبعد عام ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م) تجاوز هذا العدد مائتي مليون، وهكذا يصل عدد المسلمين في إفريقية إلى أكثر من نصف عدد السكان في القارة (٥٩٪) بسبب زيادة معدلات مولدهم وقلة وفياتهم وإطمئنانهم إلى مستقبلهم بعد زوال شبح الاستعمار عن بلادهم ودخول أفواج جديدة في الإسلام، ويتطلع المسلمون في إفريقية إلى آفاق رحبة جديدة ومستقبل يليق بهم.

ثالثا - قطاعات العالم الإسلامي :

ويقسم الجغرافيون العالم الإسلامي إلى قطاعين رئيسيين :-

(أ) القطاع الغربي من العالم الإسلامي.

(ب) القطاع الشرقي من العالم الإسلامي.

أما القطاع الغربي، فيشمل دول العالم الإسلامي في إفريقيا وفي غربي آسيا وفي البلقان وهضبة إيران وباكستان، ثم يستمر في سهول طوران وتركستان حتى مشارف الفولغا شمالا وتركستان الصينية شرقا، ويبلغ عدد المسلمين في هذه الكتلة ما بين ٦٥٠ مليون نسمة أي ما يوازي ثلاثة أخماس العالم الإسلامي، كما أن هذا القطاع يغطي رقعة كبيرة من أرض الإسلام وهي لهذا تعد صلبه ومركز ثقله.

وأهم حقيقة جغرافية في هذا القطاع أنه كتلة واحدة متصلة تقريبا لا انقطاع فيها، كما يتميز بأنه يضم في وسطه العالم العربي الذي بعد بمثابة قلب العالم الإسلامي النابض باعتباره مهد العقيدة وموطن الأماكن المقدسة ولغته هي لغة عقيدة المسلمين عبادة. فهذا العالم كما هو معروف هو نواة الإسلام وحولها يلتف عدد كبير من المسلمين يمثل ما يقرب من خمس عددهم في العالم.

أما خارج العالم العربي في آسيا فهناك مناطق الأناضول التي يوجد بها مجموعة إسلامية تزيد على خمسة وأربعين مليونا، ثم هضبة إيران التي تتكون من إيران وأفغانستان وبها ما يقرب من خمسة وستين مليون مسلم، وإلى الشرق من هذه الكتلة توجد كتلة باكستان التي تشمل أكبر تجمع إسلامي منفرد في القطاع الغربي من العالم الإسلامي بعد نيجيريا، وبها ما يقرب من السبعين مليون مسلم، ويضم هذا القطاع كذلك قارة الإسلام في المستقبل وهي قارة إفريقيا.

وهناك أيضا كتلة المسلمين في البلقان والامبراطورية الروسية، ويقدر عددها بحوالي خمسين مليون مسلم، ويتركز المسلمون في الامبراطورية الروسية بصفة خاصة في جمهوريات وسط آسيا الخمس، وقد تعرض السبكان لغزو عنصري من قياصرة الروس، ثم من النظام الشيوعي الحاكم الآن، وفي أقصى الشرق من أطراف القطاع الغربي، وحيث مناطق سيكيانغ (تركستان الشرقية). يبلغ تعداد الكتلة الإسلامية عشرين مليون نسمة.

والقطاع الشرقي ويبدأ من الهند وينتهي بحجز الفلبين ويمتاز القطاع الشرقي للعالم الإسلامي بعدم الاتصال والتقطع بين أجزائه بعكس القطاع الغربي، ولعل أهم نقطة تجمع فيه تقع في مجموعة الجزر الأندونيسية.

ومناطق القطاع الشرقي كلها بعيدة عن مهد الإسلام وعن قلبه العربي، وكان طبيعياً أن يكون لهذا البعد أثره في ضعف وصول التيارات الإسلامية عبر المسافات السحيقة إلى هذا القطاع وإلا لارتفعت نسبة المسلمين فيه، ورغم هذا فإن عدد المسلمين فيه يصل إلى ٣٥٠ مليوناً، ويمثلون حوالي $\frac{2}{3}$ عدد المسلمين في العالم، وتوجد فيه أندونيسيا أكبر دول العالم الإسلامي.

ويشمل هذا القطاع أيضاً أقليات إسلامية تعيش وسط دول غير إسلامية كالهند مثلاً حيث يبلغ عدد الأقلية الإسلامية فيها ما يزيد على عشر عدد السكان، ويبلغ عددهم حوالي ٨٠ مليون مسلم، وعددهم يفوق تقريباً العدد الموجود في أية دولة إسلامية في القطاع الغربي باستثناء نيجيريا.

ويتراوح عدد المسلمين في الصين ما بين ٩٠ - ١٠٠ مليون وفي إنغلايش يبلغ عددهم حوالي ٩٠ مليون مسلم، ويصل عدد المسلمين كذلك في الملايو إلى ما يزيد على نصف عدد السكان البالغ عددهم أربعة عشر مليون نسمة، وتعد الملايو بؤرة توزيع الإسلام في جنوب شرقي آسيا.

وبما يجدر ذكره أن الإسلام قد جاء إلى هذه المناطق عبر الطريق البحري، وذلك لأن العوامل الجغرافية الطبيعية (كجبال همالايا الشاهقة) قد حالت دون انتشاره بالطريق البري، وكانت حضرة موت محور الطريق البحري ومركز إرسال الدعوة الإسلامية والمسلمين إلى جنوب شرقي آسيا، كما كانت شبه جزيرة الملايو تمثل مركز استقبال لهذه الدعوة.

وفي هذا القطاع تقع الجزر الأندونيسية التي تعد طليعة التجمع الإسلامي في العالم، إذ يمثل المسلمون نحو ٩٢٪ من السكان البالغ عددهم ١٤٥ مليون نسمة، وتقع جزر الفلبين كذلك في الطرف الشرق للقطاع، ويسمى الجغرافيون أرض الشمس المشرقة في العالم الإسلامي، وفيها يستقر عدد كبير من المسلمين يعرفون باسم «المورو» وهي تسمية أطلقها عليهم المستعمرون الأسبان على نحو ما عرفوا به المسلمين في إسبانيا والمغرب وجزيرة مدغشقر، وسيلان.

ويتراوح عدد المسلمين في الفلبين ما بين ٨-٩ ملايين مسلم، ويتركزون في الجزر الجنوبية مثل مندناو وصولو، ومسلمو الفلبين يتألفون جنسياً من عنصرين رئيسيين

الملايو المهاجرون الذين دخلوا الإسلام بعد القرن الخامس الهجري، وقبائل الناجال الوطنية التي أسلمت على أيديهم في القرن الثامن الهجري.

رابعا - خريطة العالم الإسلامي السياسية:

يوجد المسلمون في أكثر من سبع وخمسين دولة موزعين على خريطة العالم، وتتفاوت أعدادهم من دولة إلى أخرى، ومن هذه الدول دولة واحدة في أوروبا، وخمس وعشرون في آسيا، وسبع وعشرون في إفريقيا، ولا تخلو كذلك دولة من دول العالم الجديد من إسلام المهجر والمشردين.

(أ) دول إسلامية :

يبلغ عدد الدول الإسلامية سبعا وخمسين دولة في العالم واحدة منها في أوروبا هي البانيا والبقية موزعة بين آسيا وإفريقيا، وهي تسع وعشرون في آسيا وست وعشرون في إفريقيا، وهي في مجموعها تفوز بأكثر من نصف عدد المسلمين في العالم بكثير، بل مايقرب من تسعة أعشار مسلمي العالم، حيث يصل تعداد المسلمين فيها إلى حوالي تسعمائة مليون مسلم وفي هذه الدول قل أن يخلو الأمر فيها من أقليات دينية إذ أنه من النادر أن توجد دولة إسلامية يصل فيها عدد المسلمين الى مايقرب من مجموع سكانها كما هي الحال في المملكة العربية السعودية حيث تصل نسبتهم إلى ٩٩٪ والصومال إلى ٩٩٪ وتركيا إلى ٩٨٪، والأغلب أن تؤلف الأقليات الدينية نسبة تتراوح من ٥-١٠٪ من عدد السكان، كما هي الحال في مصر والعراق مثلا، وقد تصل الى حوالي الربع كالوضع في السودان أو إلى الثلث كالنسبة الموجودة في ألبانيا.

وتوجد أهم التجمعات الإسلامية في العالم العربي حيث يمثل الإسلام في هذه المجموعة الدين الرسمي لهذه الدول، سواء نص على ذلك دستوريا أم لم ينص عليه.

ومهما كان الأمر فان الاستعمار قد بذر فكرة الطائفية وغدّأها وجعل منها هدفا للفرقة، اذ بدأ يشجع أبناء عقيدته ويدعمهم واستغل ذلك لتفتيت الشعب وفي الوقت نفسه الذي فتح فيه باب التنصير والإرساليات والمدارس الدينية النصرانية، وغير ذلك من الوسائل التي تخدم أغراضه ونحن لاننسى هنا الأقليات الدينية

النصرانية التي زرعها في العالم العربي، ليقوى بها شوكته مثل الأرمن والمالطيين والقبارصة واليونانيين ثم اليهود، وكان هذا التصرف يبدو واضحاً في كل من مصر والسودان وبلاد الشام.

أما التجمع الثاني الكبير للدول الإسلامية فيتمثل في كل من أندونيسيا، وأفغانستان، وإيران، وتركيا، وباكستان، وهذه الدول يمثل الإسلام دوراً أساسياً في وجودها السياسي فهي تنتسب للإسلام أصولاً ونشأةً وكياناً، بل إن إحداها جعلت من اسمها جمهورية باكستان الإسلامية، والذي يتبع هذه الدول يجد أنها ظهرت على مسرح السياسة العالمية على دعوة الإسلام واستظلت بظله في كل تحركاتها وعلاقاتها الدولية ونحن لاننسى وقف تركيا إبان فترة أجماد الدولة العثمانية، وكيف كانت مقراً لخلافة المسلمين، ثم اصرارها على حمل لواء الزعامة في العالم الإسلامي، رغم ماوصلت إليه من ضعف وتدهور في المرحلة الأخيرة من أيامها، وذلك حتى تبقى على البقية الباقية من نفوذها.

(ب) دول الأقليات الإسلامية :

وهي وإن كانت تضم نسبة محدودة من قوة المسلمين العديدة إذ تتراوح نسبة المسلمين بين الأقليات الكبيرة والأقليات الصغيرة، ففي بعض هذه الدول تزيد نسبة الأقلية الإسلامية على ثلث عدد السكان أو تقرب من النصف مثل أوغنده، والغابون.

ويختلف وضع الأقليات الإسلامية من دولة إلى دولة، فالأقليات الكبيرة تتطلع إلى المشاركة في الحياة السياسية والاقتصادية والدينية بحيث تعمل على نشر الإسلام وكسب أعداد جديدة إلى صفوفه، وفي أكثر الجهات تتعرض الأقليات الإسلامية للضغط والحكم القسري.

والجدير بالذكر أن دول الأقليات الإسلامية في إفريقيا تمثل حالياً الوحدات التي يزحف فيها الإسلام بقوة، والتي يرجح أن له فيها توسعاً كبيراً.

ويتوقف دور المسلمين السياسي في هذه الدول على قدر نسبتهم فيها.

وعلى العموم فإن دور الإسلام السياسي في دول الأقليات الإسلامية يختلف من مكان إلى آخر فهو ينزع إلى الاستقلال كما هي الحال بالنسبة للمسلمين في

كينيا ويهدف أبنائه لنشر الدين والقيام بدور الداعية في هذا السبيل لكسب أعداد جديدة إلى الإسلام.

وفي مناطق أخرى اصطدمت تطلعات المسلمين بسياسة الدولة التي يعيشون فيها فتعرضوا لغضبها، كما حدث في غانا عند ماقررت حكومتها إلغاء الحزب الإسلامي فيها.

وهناك أقليات إسلامية تعيش تحت وطأة الحكم العسكري وتعامل من جانب الدول التي تحتوهم بالعنف والبطش ففي جنوب شرقي آسيا مثلاً، وفي جزر الفلبين بالذات حاول المسلمون فيها القيام بحركات جهاد لتحسين أوضاعهم وتحريير رسالة الإسلام من الخوف والاستبداد، ولكن حركتهم هذه قوبلت بمذابح وحشية ولا تزال حتى اليوم تقاوم بشدة.

وفي الهند وجد المسلمون أنفسهم يذوبون داخل الكيان السياسي للبلاد، وأنه لا مفر للملايين منهم من الضياع داخل هذا الكيان، وهم يحاولون باستمرار الخروج من هذا المصير المحتوم ولكن حركاتهم تقابل بالقوة، وغالباً ماتضطروهم الحكومة الهندية للهجرة إلى باكستان تخلصاً من مشكلاتهم - على زعمها - وأحياناً تتعقد الأمور بين المسلمين والهندوك في شبه القارة الهندية فيصل هذا التعقيد إلى ذروته فتتشب الحروب بين الفريقين، وما الحروب الأخيرة التي دارت منذ أعوام ونتج عنها انفصال إقليم بنغلاديش. لون من ألوان تفاقم الموقف بين الفريقين.

وأما قبرص فتبلغ نسبة الأقلية الإسلامية فيها مايزيد قليلاً على خمس عدد السكان في الجزيرة ورغم أن المسلمين أقلية إلا أن حركتهم الانفصالية التي تطالب بتقسيم قبرص تشدد ولا تعرف الاستكانة.

١ - جزيرة العرب

سكن جزيرة العرب من القديم جماعات من البشر في عدة مناطق منها ماباد مثل طسم وجديس في نجد (اليمامة)، وعاد (قوم هود) في الأحقاف، وثمود (قوم صالح) في وادي القرى، ومدين (قوم شعيب) في الشمال الغربي من الجزيرة في بلاد مدين. وقامت فيها بعض المراكز الحضارية مثل مكة، والطائف، ويثرب في القسم الغربي، وحجر (الرياض) في الوسط، ودومة الجندل في الشمال. كما تأسست فيها بعض الممالك مثل معين، وسبأ، وحير في بلاد اليمن، وكندة في الوسط في القسم الجنوبي منه.

وجاء الإسلام، وعمّ جزيرة العرب في عهد رسول الله ﷺ، ثم نجم النفاق وحدثت الردة بعد وفاة رسول الله ﷺ. وقام أبو بكر رضي الله عنه فقاتل المرتدين ومانعي الزكاة وأعاد الإسلام إلى الجزيرة، وانطلق بالمسلمين إلى الفتوحات، وخرجت أعداد كبيرة من الجزيرة للجهاد في سبيل الله، واستقرت جماعات منها في البلدان المفتوحة. وتتابع الفتوحات في العهد الراشدي الذي كانت المدينة المنورة حاضرتة ومكان انطلاق المجاهدين، باستثناء مدة قصيرة كانت الكوفة قاعدة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في أواخر عهده.

وفي العهد الأموي انتقلت عاصمة المسلمين إلى دمشق وبعد وفاة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما حدثت بعض القلاقل في الجزيرة العربية أيام ابنه يزيد، إذ ضربت المدينة، وحوصرت مكة المكرمة، ولم يلبث أن توفي يزيد في دمشق، وقام أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما في مكة ودانت له الجزيرة، ثم انفصل الخوارج، وسيطروا على اليمامة والبحرين. ثم صفا الجول عبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما في مكة، وعادت الجزيرة جزءاً من الدولة الإسلامية الواسعة التي عاصمتها دمشق. كما انتهى عبد الملك من الخوارج في شرقي الجزيرة. ولما ضعفت الدولة الأموية طمع بنو حنيفة بالاستقلال في نجد، وطلب المهير بن أبي سلمى ابن هلال الحنفي من والي بني أمية على المنطقة وهو (علي بن المهاجر) مغادرة المنطقة فرفض، فجمع

المهير جيشاً وساربه إلى الوالي في (حجر) قاعدة المنطقة إلا أنه هزم، وعند موته استخلف عبد الله بن النعمان الذي كان ضعيفاً فاستطاع يزيد بن عمر بن هبيرة أن يخضع نجداً، وأن يرسل ابنه المثني والياً عليها عام ١٢٨هـ، وقد بقي حتى قامت دولة بني العباس.

عين السفاح عمه داود بن علي والياً على جزيرة العرب إلا أن هذه الولاية كانت اسمية، وخاصة نجد التي بقي فيها الوالي الأموي المثني بن يزيد بن عمر بن هبيرة. ولما توفي داود بن علي أرسل السفاح مكانه زياد بن عبيد الله الحارثي فوصل إلى المدينة، وأرسل إلى نجد إبراهيم بن حسان السلمي فقتل المثني ودانت الجزيرة كلها للعباسيين.

قامت بعض التمردات مثل تمرد بني نمير عام ٢٣٢هـ أيام الواصل، ولكن قضي على هذا التمرد بسرعة، ومن ثم ضعفت الدولة العباسية.

قام في الحجاز إسماعيل السفاك بن يوسف الطالبي عام ٢٥١هـ في الحجاز ولما توفي في العام الثاني ٢٥٢هـ قام بعده أخوه محمد الأخضر بن يوسف، ولما كثرت تعدياته أرسل له العباسيون جيشاً فانهزم وسار إلى نجد وأسس فيها الدولة الأخضرية التي قاعدتها الخضرمة.

خضعت الحجاز للدولة الطولونية عام ٢٥٤هـ واستمروا في حكمها حتى عام ٢٩٠هـ حيث عاد العباسيون، ولكن القرامطة عاثوا الفساد في الحجاز في هذه الآونة وأخذوا الحجر الأسود إلى مدينتهم هجر عام ٣١٧هـ.

ووصل نفوذ الإخشيديين إلى الحجاز عام ٣٣٠هـ وبعد خمسة أعوام عاد الأخضرىون إلى الحجاز، ولكن أنهى القرامطة حكم الأخضرىين هناك عام ٣٥٠هـ، بينما أبقوه في نجد.

وجاء الفاطميون عام ٣٥٩هـ وأجلوا القرامطة عن الحجاز، واستمروا فيها حتى جاء السلاجقة عام ٤٦٣هـ، وورثهم الأيوبيون عام ٥٦٧هـ، ثم المماليك عام ٦٥٠هـ ثم جاء العثمانيون عام ٩٢٣هـ.

هذا بالنسبة إلى الحكومات أو الدول الأساسية، أما الحكم فقد كان بيد أسر تعود إلى بني الحسن بن علي بن أبي طالب عادة، فقد حكم الحجاز بعد زوال

القرامطة عام ٣٥٩ هـ أسرة بني موسى ، وتنسب إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما ، واستمر أمرها حتى عام ٤٥٣ هـ ، وبعد أمراؤها من عمال الفاطميين . ثم آل أمر الحجاز إلى أسرة بني فليته ، ويعودون أيضا في أصلهم إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبقوا في إمارتهم حتى عام ٥٩٨ هـ ، وكانوا عمالاً للفاطميين ثم للسلاجقة . وجاء الأيوبيون أيام السلاجقة .

وفي عام ٥٩٨ هـ جاء أمير ينبع أبو عزيز من بني قتادة فقضى على حكم بني فليته وأسس أسرة حكمت الحجاز حتى عام ١٣٤٢ هـ (١٩٢٤ م) ، وكان آخر أشرافها الحسين بن علي وابنه علي .

كانت شرافة مكة أيام أسرة بني قتادة قوية تصل إلى عسير أحيانا ، وتنكمش عنها أحيانا أخرى فيحتل العسيريون أجزاء من أطراف الحجاز ، وقد تتنازع الحجاز واليمن على عسير ، كذلك كانت تمتد سلطة بني قتادة أحيانا إلى نجد فتدين لهم الإمارات بالطاعة أو تقف في وجههم إمارات أخرى ، ولربما وصل نفوذ هؤلاء الأشراف إلى البحرين .

وعندما قامت الدعوة السلفية في نجد وقفت شرافة مكة في وجهها في الحجاز ووقع قتال بين الطرفين ، أما الإمارات الصغيرة الواقعة بين نجد والحجاز فكانت تارة تعاون الحجاز إذا وجدت في ذلك مصلحة لها ، وتقاتل نجدا ، وتنضم أحيانا إلى نجد ضد الحجاز إذا وجدت كفة نجد هي الراجحة .

أما نجد فقد انتهى حكم الأخيضريين فيها بزوال دولة القرامطة التي قضى عليها السلاجقة الذين سيطروا على بغداد عام ٤٤٧ هـ ، وقضوا على نفوذ البويهيين الذين كانوا من الشيعة ، كما قضوا على الحركات الشيعية الأخرى التي كانت تسيطر على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي ، منها المتطرفة أمثال القرامطة ، والحمدانيين في حلب ، والفاطميين في مصر ، والبويهيين في بغداد ، ومنها المعتدلة أمثال الأخيضريين في نجد ، وزال حكم الأخيضريين من نجد عام ٤٦٧ هـ . وضعف الأمر في المنطقة ، وانقسمت إلى إمارات صغيرة لا يزيد بعضها أحيانا على مدينة واحدة وما حولها ووقع الصراع بين هذه الإمارات فكان بعضها يخضع إلى بعضها الآخر ، وقد تمتد سلطة الحجاز إلى نجد أو يتسع نفوذ البحرين ليضم عددا من إمارات نجد ، وأخيرا خضعت نجد اسمياً للدولة العثمانية ولكن

الإمارات المتعددة بقيت على حالتها والتنافس بينها استمر على طبيعته، ودام الأمر حتى ظهرت الدعوة السلفية وقامت الدولة السعودية.

أما البحرين (شرق الجزيرة العربية) فقد وفد إلى المدينة المنورة وفد بني عبد القيس في السنة السابعة للهجرة، وأسلموا. وعندما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ارتد في البحرين بنو بكر بن وائل، وثبت بنو عبد القيس، وتمكن المسلمون من إحراز النصر على المرتدين بمساعدة القوة التي أرسلها لهم الصديق رضي الله عنه بإمرة العلاء بن الحضرمي. واشترك سكان البحرين بالفتوحات، ووصل بنو عبد القيس إلى الهند بالقرب من بومباي وإلى سيلان في غزواتهم، وكانت آخر غزوة لهم في العهد الراشدي أيام علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث ساروا بإمرة الحارث بن مرة العبدي وحصلوا على النصر وأصابوا مغانم كثيرة.

وفي العهد الأموي سيطر الخوارج بإمرة نجدة بن عامر الحنفي على البحرين، وقد اتخذ القطيف قاعدة له. ثم ولي مكانة أبو فديك أحد أنصاره السابقين، وهو من الخوارج أيضاً، واستمر في حكمه حتى أرسل له عبد الملك جيشاً قضى عليه عام ٧٣ هـ. وخرج بعد وفاة عبد الملك مسعود بن أبي زينب العبدي، ولكن مسعوداً لم يلبث أن قتل في معاركه مع الأمويين، وصار أمر الخوارج من بعده إلى هلال بن مدلاج، وثار بالخوارج المهير بن أبي سلمى بن هلال واستولى على البحرين، وفر منها واليها علي ابن المهاجر... وعندما مات المهير خلفه عبد الله بن النعمان، إلا أن الأمويين ولوا على اليمامة المثني بن يزيد بن عمر بن هبيرة فاستطاع ضم البحرين إليها.

وفي العهد العباسي كانت ولاية الجزيرة إلى داود بن علي عم الخليفة السفاح، ولكن كانت ولايته اسمية وبقيت البحرين تحت سلطة المثني بن يزيد، وعندما توفي داود بن علي تولى أمر الجزيرة زياد بن عبيد الله فاستطاع أن ينتصر على المثني، وأن يضم البحرين إليه.

وثارت البحرين على المنصور بإمرة سليمان بن حكيم العبدي عام ١٥١ هـ إلا أنه قتل بعد ستة أعوام وعادت البحرين تخضع للعباسيين حتى عام ١٩٠ هـ حيث خرج فيها سيف بن بكير العبدي ولكنه قتل. وعندما ضعفت الدولة

العباسية بعد أيام المتوكل أصبح للبحرين تاريخ منفصل وإن بقيت اسماً تتبع الدولة العباسية.

ومنذ عام ٢٤٩ هـ بدأت حركة الزنج في منطقة البحرين بمدينة هجر، وتبعها حركة القرامطة منذ عام ٢٨١ هـ وكان مقرها مدينة القطيف، واستمرت دولتهم حتى عام ٤٦٧ هـ، ومن البحرين امتدت إلى أرجاء واسعة حتى وصلت إلى بلاد الشام.

وجاءت بعد القرامطة الدولة العيونية، وبقيت حتى عام ٦٤٢ هـ إذ خلفهم بنو عقيل في حكم البحرين، واستمروا في سلطتهم حتى وصل البرتغاليون إلى المنطقة وقتلوا مقرر بن أجود بن زامل عام ٩٢٧ هـ، ولكن بقي بعض زعماء بني عقيل يحكمون تحت إشراف البرتغاليين.

وجاء العثمانيون فحكموا البحرين منذ عام ٩٤٥ هـ، ثم عاد البرتغاليون ثانية واحتلوا القطيف، وهجر، وجزيرة أوال، وتاروت، وسيهات، غير أنهم هزموا ثانية أمام العثمانيين عام ٩٤٤ والذين بقوا في البحرين حتى عام ١٠٨١ هـ حيث استقل بنو خالد، واستمروا في وضعهم حتى عام ١٢٠٨ حيث جاء السعوديون الذين بدأت غاراتهم على المنطقة منذ عام ١١٦٦ هـ، كما أنهم كانوا يغيرون أيضاً على نجد من جهة ثانية.

أما عسير فقد كانت جزءاً من الحجاز وأحياناً تتبع اليمن مدة الخلافة الراشدية والأموية، وكانت موطن قبائل أزد شنوءة، فلما دالت دولة بني أمية، وقامت دولة بني العباس، وبدأت ملاحقة الأمويين فر عدد من أمراء بني أمية إلى جهات مختلفة، ومنها عسير، فقد سار إليها علي بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وتحالف مع قبائلها، واستطاع بعد مدة وجيزة أن يكون صاحب الكلمة المسموعة، وصاحب النفوذ، ثم ثار ضد الخليفة العباسي الثالث محمد المهدي، فاتجه إليه الجيش العباسي السائر إلى اليمن بقيادة عبدالرحمن الغامدي فقتله عام ١٦٩ هـ، وضعف شأن أهله من بعده إلا أنهم تماسكوا وعاد لهم نفوذهم، وبقوا سادة المنطقة، وإن كانت الخلافات تقع أحياناً بين أفراد هذه الأسرة، كما حدث عام ٦٥٢ هـ إذ اختلف صقر بن حسان مع ابن عمه علي بن إبراهيم، وفي خلال هذه الخلافات يضعف أمرهم، فإذا كانت

قوة الحجاز قوية سيطرت على المنطقة، وإن كانت اليمن قوية ساد نفوذها أو اختلفت اليمن والحجاز على المنطقة، وإن كانت كلتاها ضعيفة مثل عسير فإن كل منطقة تبقى بحالتها لا تتفرغ لغيرها ولا تهتم بشؤون خارج دائرتها إلى أن يقوى أمر إحداهما. واستمر وضع عسير هذا حتى انتشرت في ربوعها الدعوة السلفية، واصطدم أتباعها بأمير المنطقة من آل يزيد محمد بن أحمد بن محمد فقتلوه عام ١٢١٦ هـ وأصبح محمد بن عامر المتحمي من أتباع الدعوة السلفية سيد المنطقة، ولكن أفراد الأسرة الأموية قد انضموا إلى الدعوة السلفية وأخلصوا لها فعاتت إليهم إمرة المنطقة، ومنهم سعيد بن مسلط، وعلي بن مجتل، وعائض بن مرعي، الذي أسس أسرة حكمت المنطقة، وانتهت عندما قامت الدولة السعودية الثالثة عام ١٣٤٢ هـ.

هذه المناطق الأربع: الحجاز، ونجد، وعسير، والمنطقة الشرقية تشمل أكثر أجزاء الجزيرة العربية، ومنها تشكلت المملكة العربية السعودية التي ستحدث عنها الآن، أما بقية الأجزاء فستحدث عن تطورها - إن شاء الله - عندما نتحدث عن الدول التي قامت فيها.

أ - المملكة العربية السعودية

كانت الفوضى تعم أرجاء الجزيرة العربية كلها في مطلع القرن الثاني عشر الهجري، بل كانت أحوال العالم الإسلامي على حالة لا يحسد عليها أهله. ومن هذه المناطق نجد بصفة خاصة فالقوضى السياسية قائمة ففي كل بلد أمير، وفي كل ناحية حاكم يأخذ مايجلو له من الثمار، وقد يأتي شريف مكة فيفرض نفوذه، وقد يسير حاكم الأحساء فيخضع الأمراء لسلطانه، وهم يتبعون له، ويغزو بعض الأمراء بعضاً، ويعتدي الجوار بعضهم على بعض، وغارات البدو لا تنقطع، وتسلط القبائل وشيوخها على الحضر لاينتهي، وانتشار اللصوص في كل مكان لاحدود له، ووجود الخراب في الطرقات والدروب.

ولا يقل الجهل في الأمور الدينية عن الفوضى في النظام فتقديس القبور

والمظاهر الخاصة بذلك قائمة، والتعامل بالربا، وارتكاب الفواحش، والإكراه على تزويج البنات، وانتشار الخرافات، والتوسل بغير الله من أضرحة الصالحين الأولياء، والاعتقاد ببعض الأشجار والأحجار بأنها تكون سبباً في إنجاب الأولاد، أو إيجاد الزوج، وحفظ النسل إذا قام الطالب عندها ببعض التصرفات... كل هذا كان قائماً وزيادة من الأمور التي يجد المرء صعوبة في ذكرها، وكان لابد من منادٍ للإصلاح وشاء الله أن يكون هذا المنادي الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي المولود في بلدة العينية^(١) عام ١١١٥ هـ، وكان أبوه قاضياً فيها، ثم انتقل إلى حريملاء^(٢) لاختلافه مع أمير العينية ابن معمر، وارتحل ابنه معه وذلك عام ١١٥٣ هـ، وقد انصرف إلى التأليف حسب نصيحة والده الذي لم يلبث أن توفي، فقام ابنه يدعو الناس إلى ترك ما دخل على الدين من بدع وخرافات، والتمسك بما كان عليه السلف الصالح، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ووجد أن الجو في حريملاء لا يناسبه فقرر العودة إلى العينية، وساعده أميرها عثمان بن معمر في نشر دعوته، وقطعت الأشجار التي كان يتبرك بها الناس، إلا أن ابن معمر لم يلبث أن تنكر للشيخ بناء على طلب حاكم الأحساء سليمان بن محمد بن غرير الذي كان ابن معمر يتبع له، ويتقاضى منه راتباً، فطلب ابن معمر من الشيخ أن يغادر بلده فارتحل إلى الدرعية^(٣) عام ١١٥٧، وكان أميرها محمد بن سعود منذ عام ١١٣٩ هـ، فاستقبله ودعمه، ومنعه، وبدأ دعوته فغدت الدرعية مركزاً دينياً ومقراً للنشاط. وبدأت إمارة محمد بن سعود تتوسع وتأسست الدولة السعودية الأولى.

الدولة السعودية الأولى :

ضمت إمارة الدرعية إليها العينية وحريملاء وبعض المناطق، ووقعت صدامات مع الرياض، ومع حاكم نجران، والأحساء، وبعض الأمراء الآخرين، وكان قائد جيوش الدرعية عبد العزيز بن محمد بن سعود.

توفي محمد بن سعود عام ١١٧٩ هـ بعد أن ضم إليه العارض عدا الرياض،

(١) العينية بلدة شمال الرياض تبعد عنها أربعين كيلو متراً.

(٢) حريملاء بلدة شمال الرياض على بعد ثمانين كيلو متراً.

(٣) الدرعية بلدة شمال الرياض على بعد عشرين كيلو متراً منها.

وأكير بلاد الخرج، وحائر، والوشم، والمحمل، وسدير. وخلفه ابنه عبد العزيز فضم الرياض عام ١١٨٧ هـ، والقصيم، والأحساء عام ١٢٠٨ هـ (١٧٩٧ م) ومكة والطائف عام ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م)، ووصلت إمارته إلى جنوبي العراق، ودخل كربلاء، كما وصلت إلى جنوب بلاد الشام، وكان ابنه سعود قائد جيوشه، وفي عام ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) طعن بيد شيعية وهو يصلي صلاة العصر.

تولى ابنه سعود الحكم بعده، وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد توفي عام ١٢٠٦ هـ (١٧٩١ م)، فغزا سعود جنوبي العراق في أواخر عام ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م)، ثم عام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) وعام ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨ م)، وأرسل ابنه عبد الله في غزو آخر عام ١٢٢٥ هـ.

وانتشرت الدعوة السلفية في عسير، وكان أميرها محمد بن عامر، وتمكن من قتل أميرها عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) وهو محمد بن أحمد بن محمد، ودخلت الحجاز في الطاعة، وأغار على أطراف الشام فوصل إلى مزيريب وبصرى وذلك عام ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م)، ومن ناحية الشرق وصلت الدعوة إلى عمان التي كانت تدخل في الطاعة بعض الأحيان، وتنقض العهد أحياناً أخرى. وهكذا دانت أكثر الجزيرة العربية إلى سعود، ولم يبق منها خارجاً عن الطاعة سوى جزيرة البحرين، وبعض مراكز النفوذ الانكليزي. إذ كانت الأحساء قد دخلت في الطاعة منذ عام ١٢٠٨ هـ (١٧٩٧ م)، واستولى طامي بن شعيب على تهامة، وكان يومها أمير عسير، كما أن إمام صنعاء المنصور وابنه المتوكل قد هادنا سعوداً واستجابا إلى شيء من الدعوة السلفية.

تأثرت الدولة العثمانية من الوضع الذي آلت إليه الجزيرة العربية، ولم يقو ولايتها في الشام والعراق على الوقوف في وجه الدولة السعودية، بل إن الدعوة السلفية قد بدأت تنتشر في كل مكان. فكلفت الدولة محمد علي باشا بقتال السعوديين ومحمد علي صاحب أطماع وتخافه الدولة العثمانية التي رأت ضربه بالسعوديين وضربهم به، وأعطته ولاية جدة ليبدأ الاحتكاك. فأرسل محمد علي باشا مندوباً له إلى الجزيرة العربية يستطلع الأوضاع الداخلية، ويتعرف على أحوال القبائل، ويتصل بالشريف غالب بن مساعد شريف مكة الذي صالح السعوديين، وأقر لهم بالطاعة وهل كان ذلك عن قناعة وعقيدة أم عن ضعف وخوف.، ووصل

المنسوب إلى الجزيرة بنية العمرة، ودخل مكة والتقى بالشريف فوجده على حذر شديد من السعوديين ويتربص بهم الدوائر، وهذا ما شجع محمد علي لحرب السعوديين. أرسل محمد علي حملة قوامها ثمانية آلاف من المشاة وألفان من الفرسان مع ماتحتاجه من عمال وفنيين وطهاة وغيرهم، وكانت بقيادة ابنه أحمد طوسون الذي لم يتجاوز السادسة عشر من عمره، والذي سار مع الفرسان برأ، وانتقل المشاة بحراً فسقطت مدينة ينبع بأيديهم عام ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م)، ثم اتجهوا نحو المدينة المنورة حسب نصيحة الشريف غالب الذي تنكر للسعوديين وقدم خدماته كلها لجيش محمد علي.

وتقدم السعوديون بقوة قوامها خمسة عشر ألفاً، وقد انضم إليها أمير الطائف عثمان المضيايفي وأمير عسير طامي بن شعيب، وانتصروا على الحملة المصرية في موقع الصفراء... إلا أن النجيدات قد وصلت إلى طوسون بناء على طلبه، وأعاد الكرة وحاصر المدينة المنورة عام ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) وتمكن من أخذها، وسار بعدها إلى مكة المكرمة وجدة فدخلها بمعونة الشريف غالب، وأسر الأمير عثمان المضيايفي. وجاء محمد علي بنفسه إلى مكة ليكون على مقربة من ميدان الأحداث وأقام فيها مدة، وقبض في أثناء ذلك على الشريف غالب وأمر بنقله إلى مصر، ثم إلى سالونيك باليونان حيث بقي فيها حتى مات بها.

أراد المصريون التقدم نحو نجد فهزموا في (الحناكية) شرق المدينة، كما هزموا على محور الطائف مرتين في (تربة)، وأرسلوا حملة إلى عسير عن طريق القنفذة فهزمت كذلك، وفي زحمة هذه الأحداث توفي سعود بن عبدالعزيز وخلفه ابنه عبد الله عام ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م).

حاول المصريون تطويق عسير فهزموا من كلا الجانبين من الغرب ومن الشمال، ولكن في الوقت نفسه هزم السعوديون الشرق الطائف في (بسل) وكانوا بإمرة فيصل بن سعود، وكانت هزيمة منكرة فبدأ محمد علي يطاردهم، وشن حرباً على القرى التي بدأت تستسلم للمصريين من الخوف الذي أصاب أهلها من ظلم محمد علي وطغيانه.

وتمكن المصريون من هزيمة عسير، وأسر طامي بن شعيب أمير المنطقة، ونقله مكبلاً إلى مصر ومنها إلى استانبول حيث صلب هناك.

وتقدم طوسون من المدينة شرقاً، ووصل إلى (الرس)، واستقر بالخبراء، والتقى بالسعوديين لكن صلحاً عقد بين الطرفين يقضى بوقف القتال، وانسحاب المصريين من نجد التي يستقل آل سعود بحكمها. وبقاء الحجاز لمحمد علي، وعدم منع أي حاج من تأديته فريضته. ورحل المصريون عن نجد، وسافر طوسون إلى مصر، إلا أن محمد علي قد رفض الصلح، وسير حملة بإمره ابنه إبراهيم باشا، فالتقى بالسعوديين في شرق المدينة فانتصر عليهم، وتابع حتى دخل مدينة الدرعية مقر حكم آل سعود، وسلم عبد الله بن سعود نفسه في ذي القعدة من عام ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م). فأخذ إلى مصر، ومنها إلى استانبول حيث أعدم هناك، كما نقلت أعداد من آل سعود و آل الشيخ إلى مصر، وهرب من تمكن منهم من الهرب، واختفى من اختفى، وهدمت الدرعية، وعاد إبراهيم باشا إلى القاهرة عام ١٢٣٥ هـ (١٨٢٠ م).

وانتهت الدولة السعودية الأولى بعد أن توالى على حكمها أربعة حكام.

وعادت الفوضى إلى نجد، ورجعت الإمارات الصغيرة، وبقي آل خالد زعماء الأحساء في مركزهم، وتسلبت الأشراف من جديد على الحجاز. وبعد أن رحل إبراهيم باشا عن الدرعية انقضض عليها أمير العينية محمد بن مشاري بن معمر وأخذ البيعة لنفسه، ثم تنازل لمشاري بن سعود الذي هرب من قافلة الأسرى وبإيعه، لكنه لم يلبث أن قاتله وأسره وسلمه إلى الأتراك فقتلوه، وعاد ابن معمر يحكم الدرعية، وسار إليه تركي بن عبد الله^(٤) فقتله عام ١٢٣٦ هـ (١٨٢١ م)، وجاءته قوة تركية دخلت الرياض فاضطر أن يغادرها عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م)، ثم رجع إليها وانتصر على الترك عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م).

الدولة السعودية الثانية :

استقر تركي بن عبد الله بالرياض، وأطاعه أهل نجد جميعاً، كما انتصر على بني خالد في المنطقة الشرقية فبايعته، وهكذا عادت الدولة السعودية من جديد، ولكن أصبح مقرها الرياض.

(٤) تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود هرب إلى الخرج وتحصن فيها عندما كان إبراهيم باشا يخاصر الدرعية، ثم حكم الرياض أيام ولاية ابن عمه مشاري بن سعود، ثم غادرها بعد عودة ابن معمر إلى الحكم.

فر من مصر مشاري بن عبدالرحمن (ابن اخت تركي) عندما وصل إليه خير تأسيس الدولة السعودية الثانية على يد خاله، ووصل إلى نجد عام ١٢٤٣ هـ (١٨٢٨ م)، ثم تمكن فيصل بن تركي من الفرار أيضاً، وكان عوناً لأبيه في توطيد دعائم الدولة، إذ كان قائد الجيوش.

كان فيصل بن تركي في المنطقة الشرقية يقاتل خصوم الدولة، ويحاصر الطائف وإذ يصل إليه مصرع أبيه في أواخر أيام عام ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) (٢٩ من ذي الحجة) على يد ابن أخته مشاري بن عبدالرحمن وتسلمه السلطة في الرياض، ففك الحصار عن الطائف، ورجع إلى الرياض، واستعاد الحكم بعد أن قتل عبد الله بن رشيد قاتل تركي في مطلع عام ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م)، وأصبح فيصل إمام الدولة، ودانت له البلاد كلها.

ضعفت قوة محمد علي في الجزيرة إذ ثار ضده شريف مكة، وهزم في عسير أمام آل عائض، وقام ضده أهل جدة، وقويت دولة آل سعود من جديد، فأراد أن يضرب بعض هذه الحركات ببعض، وأن يفرق الأسرة الواحدة. واستطاع أن يخذل ثورة شريف مكة يحيى بن سرور، وأن يعزله ويولي مكانه محمد بن عبدالمعين بن عون، كما سيطر على جدة، إلا أنه هزم في عسير. أما بالنسبة لنجد فقد أرسل حملة بإمرة خالد ابن سعود أخى الإمام عبد الله بن سعود الذي استسلم إلى إبراهيم باشا وأعدم في استانبول، ولعل في هذا الأمر تكون طاعة أهل نجد لخالد ذكرى لأخيه الامام، واستطاع خالد فصلاً دخول الرياض، وخرج منها فيصل إلى الخرج، ومنها إلى المنطقة الشرقية. وأصبح خالد بن سعود أمير نجد، وفي الوقت نفسه اتبع خالد سياسة محمد علي في تفريق الأسر، فقد عزل عن حائل أميرها عبد الله بن رشيد صديق فيصل، وولي مكانه عيسى بن علي.

ثار عبدالله بن ثنيان على خالد، واستطاع دخول الرياض، ففر خالد إلى الأحساء، ومنها إلى الكويت، فمكة وبقي فيها حتى مات. وكان الذي مكّن ابن ثنيان من النصر كره الأهالي لخالد. وبسط ابن ثنيان نفوذه، وساعده على ذلك ضعف حكومة محمد علي في مصر بعد هزيمته في الشام، وانحصر نفوذه في مصر بعد توقيع معاهدة لندن، فانسحب المصريون من الجزيرة وخلا الأمر لابن ثنيان في نجد حتى عام ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م).

هرب فيصل من سجنه في مصر، وانتقل إلى الجزيرة العربية حيث مر على حائل، ونزل عند صديقة عبد الله بن رشيد، واتجه نحو الرياض فحاصرها ثم فتحت له أبوابها فقبض على ابن ثنيان وأودعه السجن حتى مات فيه عام ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م)، واستعاد هو حكمة، إذ دانت له نجد ثم المنطقة الشرقية عام ١٢٦٠ هـ (١٨٤٤ م) وصالح شريف مكة محمد ابن عون الذي وصل إلى عنيزة في نجد.

امتد نفوذ الإمام فيصل على أكثر الجزيرة : فنجد والمنطقة الشرقية ضمن دولته، وعمان تدفع له الزكاة، وفي عسير حكومة آل عائض تؤيده وتدعمه، وقد شملت سلطتها تهامة وأكثر أرض اليمن، أما الحجاز فكانت تتبع العثمانيين، ويُسيّر الأشراف - أمورها.

وكانت حكومة فيصل قوية، والأمن موطداً، والاستقرار قائماً، وتمتد من جنوب بلاد الشام شمالاً إلى الربع الخالي جنوباً ومن الحجاز وعسير غرباً حتى الخليج شرقاً، وكان فيصل يتقي العثمانيين بأن يدفع لهم أحياناً بعض الأموال أو يظهر لهم التبعية الاسمية، وكانت صلته حسنة بالانكليز الذين لم يعترفوا بأية تبعية للعثمانيين على فيصل.

توفي الإمام فيصل عام ١٢٨٢ هـ ، وله أربعة أولاد، وقد بويغ عبد الله بن فيصل إماماً مكان أبيه، ولكن أخاه سعوداً نافسه وثار في الخرج عام ١٢٨٣ هـ إلا أنه هزم فالتجأ إلى عسير، ولما لم يدعمه ابن عائض تركه، والتجأ إلى نجران فوجد مساعدة فحارب أخاه غير أنه هزم ثانية، فسار إلى المنطقة الشرقية، واحتل بواحة البريمي، ولما قوي أمره عاد إلى حرب أخيه، فانتصر في هذه المرة، وغادر أخوه عبد الله الرياض، ولما لم يدخلها سعود فقد رجع إليها عبد الله.

زحف سعود إلى الرياض وتمكن من اقتحامها عام ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) فخرج منها عبد الله، واتجه إلى قبائل قحطان في الجنوب، وحاول العودة إلى الرياض إلا أنه هزم.

احتل العثمانيون المنطقة الشرقية فسار إليهم عبدالله وطلب مساعدتهم. وثار أهل الرياض على سعود وولوا مكانه عمه عبدالله بن تركي الذي تنازل بعد شهرين من حكمه لابن أخيه عبدالله الذي جاء من المنطقة الشرقية.

كان سعود بن فيصل قد فرّ إلى الخرج، وجمع جموعه وسار بهم إلى أخيه في الرياض فانتصر عليه، وفر عبد الله إلى الكويت ورجع سعود يحكم الرياض عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م).

حاول سعود دخول الأحساء ففشل، وطلب دعم الانكليز ففشل، واتفق الآن الأخوان سعود وعبدالله، وحاولا مهاجمة العثمانيين ولكن لم يفدهما هذا الاتفاق، وهزموا في الهجوم.

انسحب العثمانيون من الأحساء عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) بسبب ما أصابهم من أمراض، وقيام فيها عبدالرحمن إماماً لهم، وأيده أبناء أخيه سعود في البداية، ثم اختلقوا معه وأخرجوه من الرياض وحكموها.

اتفق أبناء فيصل (عبد الله، محمد، عبدالرحمن) ضد أبناء أخيهم سعود، فحكموا الرياض، وتولى عبدالله الأمر للمرة الثالثة، وخرج أبناء سعود منها، ولكن في عام ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) عاد النصر إلى جانب أبناء سعود فدخلوا إلى الرياض، وحكم محمد بن سعود، وسجن عمه عبد الله بن فيصل فسار من حائل أميرها محمد بن عبد الله بن رشيد إلى الرياض بحجة إعادة عبد الله بن فيصل إلى الحكم، إلا أن ابن رشيد بعد أن دخل الرياض أبقى فيها حاميته تدبير شؤونها بأمره وبقيادة سالم السبهان، وحمل معه عبد الله وعبدالرحمن بن فيصل بن تركي. وبعد مدة سمح ابن رشيد لابني فيصل بالعودة إلى الرياض التي سحب حاميته منها، ولكن لم يلبث أن توفي عبدالله بن فيصل بعد يومين من عودته وذلك عام ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م)، وأصبح عبدالرحمن هو الإمام المبايع. ولم يلبث ابن رشيد أن أرسل حملة انتصرت على أهل القصيم، وغادر عبدالرحمن الرياض إلى الأحساء فالقطيف، ومنها إلى الكويت، ثم إلى قطر والبحرين، وأخيراً سمح له أمير الكويت بالإقامة فيها، فانتقل إليها عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م)، وأصبح آل رشيد حكاماً لنجد، وانتهت الدولة السعودية الثانية بعد أن سادها الخلاف مدة ربع قرن.

الدولة السعودية الثالثة : (المملكة العربية السعودية) :

وقع الخلاف بين أبناء الصباح في الكويت، إذ ثار أبناء إخوة الشيخ مبارك

عليه واتجهوا إلى العراق يطلبون مساعدتهم من الدولة العثمانية، فأوكلت الأمر إلى ابن رشيد في حائل لمساعدة هؤلاء ضد عمهم الذي تفاهم مع الانكليز.

كان عبدالعزيز بن عبدالرحمن يقيم في الكويت مع والده، فرأي أن يستفيد من الخصومة بين الشيخ مبارك وآل رشيد فطلب من الشيخ مبارك أن يرسله بقوة يحتل بها الرياض وينقذها من آل رشيد، كي تضعف قوتهم ويقاقلوا في جبهتين، فوافق الشيخ مبارك، وسار عبدالعزيز بقوة إلى الرياض عام ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) وحاصرها غير أن هزيمة الشيخ مبارك اضطرتة إلى العودة من حيث أتى، ولكنه سار في العام التالي ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م)، ودخل الرياض على حين غرة من أميرها وقتله في قصره، وتسلم حكم الرياض، وبدأ يوسع نفوذه فاحتل الوشم وسدير عام ١٣٢١ هـ (١٩٠٤ م) وبريدة وعنيزة عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٥ م) وعلى بقية القصيم عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٧ م) بعد مقتل أمير حائل في المعركة التي دارت بينهما في روضة مهنا، ثم تجدد القتال بعد صلح، وبعد خلافات حدثت في آل البيت الرشيدي، وأخيراً دخل عبدالعزيز بن عبدالرحمن حائل ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م) قبل عام ١٣٣١ هـ (١٩٣١ م) بعد أن ضعفت الدولة العثمانية إثر حروب البلقان.

اصطدم عبدالعزيز بن عبدالرحمن مع شريف مكة الحسين بن علي الذي ثار على الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى وشعر بقوته، وتلقب باسم ملك العرب، وخاصة بعد أن حكم أولاده الأردن، والعراق، واستطاع السعوديون دخول الطائف عام ١٣٤٣ هـ بعد هزيمة (تربة) وتنازل الشريف حسين لابنه علي عن الملك وغادر البلاد، ثم تمكن السعوديون من دخول مكة المكرمة في العام نفسه، وانسحب علي بن الحسين إلى جدة، ثم تنازل عن الحجاز، ودخل السعوديون جدة والمدينة المنورة عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) بعد حصار، وهكذا انتهى حكم الأشراف عن الحجاز التي أصبحت جزءاً من ملك السعوديين.

كما استطاع الجيش السعودي دخول أبها عاصمة عسير عام ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م) وعاد آل عائض إلى الانتفاض على السعوديين ولكنهم هزموا عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م) بعد معارك دامية، ونقل آل عائض إلى الرياض.

كما ضم عبد العزيز بن عبدالرحمن تهامة التي كان الأدارسة قد استقلوا فيها

عن الدولة العثمانية، وتحالفوا مع الطليان ثم مع الانكليز . . . وثار السكان ضد على الإدريسي فالتجأ إلى الرياض، وباع أهل المنطقة عمه الحسن الذي فاوض انكلترا وأعطاهما حق التنقيب عن النفط في جزر فرسان، كما فاوض إيطاليا، وإمام اليمن، ثم فاوض السعوديين ونجح في ذلك، وضمت تهامة إلى السعوديين عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م).

بويع عبدالعزيز أميراً على نجد بعد أن دخل الرياض عام ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م)، وأصبح سلطاناً على نجد وملحقاته بعد أن دخل حائل عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م)، وغدا ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاته بعد أن استولى على الحجاز عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م)، وبعد عام أصبح ملك الحجاز ونجد وملحقاته، وأخيراً في ١٧ جمادى الأولى عام ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) أصبح ملك المملكة العربية السعودية.

استفاد ابن سعود من جماعة أسماها «الإخوان» وتضم الجماعة المتدينين من أهل البادية الذين استقروا في الهجر التي أسسها لهم، وقد ضحت هذه الجماعة بكل شيء في سبيل نشر الدعوة ثم بدأ الخلاف بينها وبين الملك عبدالعزيز، ودارت معارك بين الطرفين خرج عبد العزيز منها منتصراً، وقضى على خصومه.

وجرى الخلاف بين المملكة العربية السعودية واليمن على الحدود، وجرت مفاوضات بين الطرفين لحل هذا الخلاف غير أن اليمن قد احتلت جيزان وما حولها أثناء المفاوضات، فأرسل الملك عبد العزيز جيشاً بقيادة ابنه فيصل احتل (ميدي) و (الحديدة)، ثم تدخلت الدول العربية فتوقف القتال، وعقدت معاهدة الطائف عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٥ م) التي حددت الحدود بين الدولتين.

عمل الملك عبدالعزيز على تطبيق حدود الشريعة الإسلامية فساد الأمن، واستقر الوضع، ووجد النفط في المنطقة الشرقية من بلاده، فاتجهت أنظار الدول نحو الخليج أكثر من ذي قبل، واتفق مع الدول المجاورة ذات الشأن فرسمت الحدود، وعقدت المعاهدات لحسن الجوار، وتوفي عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣ م) فخلفه ابنه الأكبر سعود، حسب النظام القائم بحكم الولد الأكبر من أسرة الملك عبدالعزيز.

سار سعود بن عبد العزيز بالبلاد شوطاً، ثم انصرف عن الشؤون العامة فوقع الخلاف بينه وبين أخيه ولي عهده فيصل الذي كان نائبه على الحجاز، وبايع العلماء فيصلاً فنجح في نقل الملك إليه، وغادر سعود البلاد إلى أن توفي في مصر عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م).

قام الملك فيصل بالأمر وسار سيرة حميدة، ودعا إلى التكتل الإسلامي، وفي عهده زادت خيرات البلاد مع زيادة الثروة النفطية، والحاجة الماسة للنفط الذي أصبح شريان الحياة الاقتصادية، ونعمت المملكة بالرخاء، وسار الأمن والاستقرار، واتسع العمل، وجلبت الأيدي العاملة من جهة، وقتل من قبل ابن أخيه مساعد في ربيع الأول عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م)، فاعتلى الحكم أخوه خالد، وبايعته الأسرة جميعها، واستمر في الحكم حتى عام ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢ م) حيث توفي فجأة، فخلف أخوه فهد بن عبد العزيز. ولقد لقب بخادم الحرمين الشريفين، وشهدت البلاد في عهده ازدهارا وتطورا في شتى المجالات وحظيت بسمعة ومكانة دولية إسلامية وعربية.

ب - اليمن

تقع اليمن في جنوبي الجزيرة العربية، وهي منطقة جبلية، تنالها الأمطار الصيفية الناشئة عن الرياح الجنوبية الغربية، لذا عرفت من القديم باسم بلاد العرب السعيدة، وعمل أهلها بالزراعة، وأقاموا الدول مثل معين، وسبأ، وحير، ظهرت فيها بواذر الحضارة التي امتازت ببناء السدود مثل مأرب، وبناء القصور مثل رغدان. وكثر السكان فيها حتى وصلوا في عددهم إلى مايقرب من نصف سكان الجزيرة عامة.

ومع ضعف الدولة في اليمن بهجرة أعداد من سكانها من خراب سد مأرب، وانتقلهم إلى عمان (أزدعمان)، وإلى عسير (أزد شنوءة)، وإلى الحجاز (الأوس والخزرج) وإلى بلاد الرافدين (المناذرة)، وإلى الشام (الغساسنة)، تسلط الأحباش على اليمن، وانتشرت في أيامهم النصرانية، وكان الروم يدعمون الأحباش ويشجعونهم على نشر النصرانية، كما انتشرت اليهودية، وأراد بعضهم الهجوم على بيت الله الحرام فرده الله صاغراً، وأهلكه وعدداً كبيراً من جيشه بإرسال الطير

الأبائيل عليهم.

وقام بعض أبناء البلاد بمحاولة طرد الأحباش أمثال سيف بن ذي يزن، واستعانوا بالفرس على الأحباش، فنجحوا إلا أن نفوذ الفرس قد حل محل نفوذ الأحباش، واستمر ذلك حتى جاء الإسلام.

انتشر الإسلام في اليمن في عهد رسول الله ﷺ، وما أن انتقل الرسول الكريم من هذه الحياة الدنيا حتى بزغت قرون الردة، وقام الأسود العنسي متنبئاً وتبعه كثير من أهل اليمن فأرسل لهم الصديق رضي الله عنه الجيوش التي فرقت أمرهم فعاد إلى الإسلام من كتب الله له الخير، وقتل من قتل. ودخل أهل اليمن في الإسلام، وانطلقوا مع إخوانهم إلى الفتوحات وكان على أيديهم الخير الكثير.

وتوقفت الفتوحات الإسلامية بعد الخلاف الذي دب بين المسلمين، وبايعت اليمن عبد الله بن الزبير رضي الله عنها، وبعد مقتلة عادت فبايعت بني أمية حتى إذا دالت دولتهم بايعت بني العباس إلا أن أمرهم كان فيها ضعيفاً لبعدها عن مركز الحكم، ولطبيعتها الجبلية، ولو عورة أرضها، وللسبب نفسه كانت ملجأ لكثير من الفارين من الحكم أو الثائرين عليه. فقد قامت فيها دولة بني زياد عام ٢٠٤ هـ ثم سيطر القرامطة على اليمن بقيادة علي بن الفضل عام ٢٩٢ هـ ونهبوا مدنها، وفعلوا الأفاعيل، واستباحوا المنكرات، وقاموا بكل رذيلة. وقام بعدئذ بنو نجاح وهم من مماليك بني زياد، وحكموا زييد وملحقاتها عام ٤١٢ هـ وكان بنو يعفر يحكمون صنعاء من عام ٢٤٧ هـ وحتى عام ٣٨٧ هـ، بينما سيطر بنو صليح على صنعاء ٤٣٩-٤٩٢ هـ، وخلفهم بنو همدان حتى ٥٦٩ هـ. وآل أمر زييد إلى بني مهدي من ٥٥٤-٥٦٩ هـ. وتسلم آل زريع إمارة عدن ٤٧٦-٥٦٩ هـ. أما صعدة فكانت تحت حكم دولة (بني رس) الشيعية التي قامت عام ٢٨٠ هـ.

وجاء الأيوبيون عام ٥٦٩ هـ ففرضوا على عدد من الإمارات في اليمن، وجمعوا أمرها إذ أنهم حكموا بني همدان في صنعاء، وبني مهدي في زييد، وبني زريع في عدن، واستمر أمرهم حتى عام ٦٢٦ هـ.

خلف بنو رسول الأيوبيين في اليمن، ودام حكمهم أكثر من قرنين ٦٢٦-٨٥٨ هـ، ثم قام بعدهم بنو طاهر واستمر أمرهم حتى عام ٩٣٢ هـ حيث

جاء المماليك إلى المنطقة لرد البرتغاليين عن ديار الإسلام ثم لم يلبث أن جاء العثمانيون للغاية نفسها.

حاول المماليك الوقوف في وجه البرتغاليين، وبنوا أسطولاً لهذا الغرض، وحرصوا على تلبية نداء مسلمي الهند إلا أن أسطولهم قد هزم في معركة (ديو) في المياه الهندية عام ٩١٥ هـ. وحاول البرتغاليون عبور البحر الأحمر والسيطرة عليه بعد سيطرتهم على المياه الهندية والخليج العربي، وشن البورك هجوماً على عدن للسيطرة عليها عام ٩١٩ هـ غير أنه فشل، وقامت حملة برتغالية بقيادة سواريز للاستيلاء على جدة لكنها أخفقت، وتعاون البرتغاليون وتحالفوا مع الأحباش.

وقام العثمانيون يدرون الخطر عن ديار الإسلام، ويلبون نداء مسلمي الهند، ورفض المماليك التعاون معهم، فاحتل العثمانيون أرض الدولة المملوكية، وورثوا عنها المهمة الملقة على عاتقها وهي حرب البرتغاليين، ودخلوا اليمن بصفة أن أرضها قاعدة ارتكاز لمحاربة البرتغاليين سواء أكان ذلك في البحر الأحمر، أم في الخليج العربي، أم في المياه الهندية. كما أن العثمانيين قد بسطوا نفوذهم على السواحل الغربية للبحر الأحمر لضمان المحافظة عليه، ولإنقاذ المسلمين من سيطرة الحبشة حليفة البرتغاليين، وقد تم للعثمانيين ذلك عام ٦٩٥ هـ وكانت الحبشة في حالة من الفوضى بسبب الخلاف بين حكامها وارتباطهم بالكنيسة الغربية أو الكنيسة الشرقية، وهذا ما سهل للعثمانيين بسط نفوذهم على مصوع، وسواكن، وسواحل البحر الأحمر كافة، ولكنهم لم يستغلوا هذه الفرصة ويتوغلوا نحو الداخل لينهوا الحكم الحبشي الذي يتعاون مع كل صليبي، ويمد يده لكل دخيل نصراني يعمل ضد المسلمين، كما أنه يقاوم مسلمي الحبشة باستمرار وسيطر على المسلمين في المناطق الواقعة بين هضبة الحبشة والبحر الأحمر. ولم يزل هذا ديدنه حتى الآن.

وقبل أن يسيط العثمانيون نفوذهم على سواحل البحر الأحمر الغربية أرسلوا حملات إلى الخليج العربي لطرد البرتغاليين من هناك، ففي عام ٩٥٩ هـ أرسلوا حملة احتلت مسقط وهزمت أسطولاً برتغالياً، وحاصرت (هرمن) لكنها فشلت وعادت. وأرسلوا حملة ثانية عام ٩٦١ هـ لكنها هزمت، كما هزموا في حملة ثانية

في العام التالي، وبعدها انحصروهم العثمانيين بالدفاع عن البحر الأحمر وتوجيه الجهود إلى اليمن. وحرّم العثمانيون على السفن النصرانية دخول البحر الأحمر.

وعندما قام على بك الكبير بحركته ضد العثمانيين وانفرد بحكم مصر، فتح البحر الأحمر لسفن الدول النصرانية، وكان قد وقع تحت تأثير تاجر من البندقية هو (كارلو روسيتي) الذي أقنعه بضرورة فتح البحر الأحمر أمام مراكب الدول النصرانية لتشجيع التجارة والإفادة من ذلك.

وعندما دخل العثمانيون اليمن مرة ثانية عام ٩٧٧ هـ على يد سنان باشا، حرصوا على بقاء سيطرتهم على اليمن لما لها من أهمية، ولكن الولاة اختلفوا في سياستهم، وقامت عدة حركات ضد العثمانيين.

عندما استولى العثمانيون على اليمن كانت حال الأئمة الزيود في صنعاء جيدة وكانوا على رضي مع العثمانيين، ولكنهم حافظوا على استقلالهم في صنعاء، ثم بدأت حركات المقاومة منذ عام ٩٦٤ هـ، وكان الإمام المطهر قد عادى العثمانيين، واستطاع أن يستولي على صنعاء عام ٩٧٥ هـ، وهذا ما استدعى قدوم حملة عثمانية كبيرة بقيادة سنان باشا الذي استولى على اليمن... ولكن لم تلبث أن عادت الحركات بعد مدة.

ففي عام ١٠٠٨ هـ (١٥٩٩ م) قام الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بثورته التي شملت أجزاء واسعة في اليمن، واستدعت لإرسال عدة حملات عثمانية تمكنت في النهاية من إعادة توطيد الأمن. ثم تجدد النزاع بين العثمانيين والأئمة الزيود إذ شن المؤيد بالله محمد بن القاسم حرباً على الوالى العثماني أحمد فضلى عام ١٠٣٠ هـ (١٦٢١ م)، وتمكن الإمام نتيجتها من الاستيلاء على صنعاء، وتعزز، وعدن ثم أخرج العثمانيين من اليمن كلها عام ١٠٤٥ هـ وأسس دولة الإمامة الزيدية التي اتخذت صنعاء مقراً لها. وتوفي الإمام المؤيد بالله عام ١٠٥٢ هـ (١٦٤٢ م) وخلفه أخوه أحمد الذي اضطر بعد عامين للتنازل عن الحكم لأخيه إسماعيل بعد نخلاف بينهما.

وضعف الأئمة الزيديون نتيجة الخلاف على الإمامة، واستقلت القبائل عن صنعاء، كما انفصلت مناطق، فاستقلت حضر موت، ولحج عام ١١٤٥ هـ

(١٧٣٢ م)، وقوي أمر الإمام المهدي عباس ١١٥٩ هـ (١٧٤٦ م) ثم هبت رياح الفوضى في البلاد بعد موته، واستقلت تهامة الشمالية، واتخذت مدينة (أبو عريش) مقراً لها، وبدأت الدعوة السلفية تنتشر فيها، ثم استولى محمد بن عامر المتحمي على (أبو عريش) وعدد من موانئ اليمن حتى المخا، وقام مقامه أخوه عبد الوهاب، ثم طامي بن شعيب.

استنجد الإمام المتوكل على الله بالسلطان العثماني محمود الثاني فأرسل الأتراك مدداً إلى عسير وتهامة، وتمكن محمد علي باشا المكلف بحروب الدولة العثمانية من أسر طامي ابن شعيب ونقله إلى مصر ثم إلى استانبول حيث صلب هناك، وبذا استعاد الإمام عبدالله المهدي نفوذه، وبدأ يرسل جزية سنوية إلى السلطان العثماني.

وعادت القوة إلى عسير بعد محمد بن أحمد المتحمي وقيام سعيد بن مسلط بأمر العسيرين ومن بعده علي بن مجثل، وعائض بن مرعي فتوالت الحملات على المنطقة وجاءت حملة عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) بقيادة إبراهيم يكن، وتمكنت من القضاء على الثورة التي اندلعت في تعز ضد الإمام علي بن عبد الله المهدي وذلك عام ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م)، كما استطاعت بعض فرق الحملة العثمانية من دخول عدن.

احتل الإنكليز عدن عام ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م) وعسير بعد هزيمته في بلاد الشام، وعقد معاهدة لندن عام ١٢٥٦ هـ (١٨٤٠ م).

وضعف أمر الأئمة في هذه المدة إذ بدأ الخلاف بينهم، واستنجد الإمام محمد بن يحيى بالأمير عائض بن مرعي لنصرته فأرسل إليه قوة سارت عن طريق صحار، والأخرى عن طريق صعدة وكانت الثانية بإمرة الشريف حسين بن علي بن حيدر شريف (أبو عريش)، والأولى بإمرة يحيى بن مرعي أخى عائض بن مرعي، وتمكنت القوتان من دعم محمد بن يحيى وثبته في صنعاء وعُدّ والياً للأمير عائض بن مرعي، وخفّ الهجوم على الدعوة السلفية في اليمن. ولكن ما إن عادت القوة العسيرية حتى تنكر الإمام محمد بن يحيى للعسيرين والدعوة السلفية فكلّف عائض بن مرعي عامله على أبي عريش حسين بن علي حيدر بتأديب إمام صنعاء، إلا أن الحيدري قد هزم ووقع أسيراً بيد اليمنيين. وأراد

عائض مرعي أن يسير إلى صنعاء لإنقاذ واليه إلا أن العثمانيين كانوا قد وصلوا إلى اليمن.

تضايق العثمانيون من نجاح الدعوة السلفية، وانتصار عائض بن مرعي في اليمن، وخافوا مغبة الأمر، وفي الوقت نفسه فقد استنجد الإمام علي بن المهدي بالسلطان عبد المجيد ضد محمد بن يحيى وعائض بن مرعي، فأمر السلطان نائبه في جدة توفيق باشا بالتوجه إلى اليمن ومعه أمير مكة الشريف محمد بن عون، وسارت القوة من جدة ووصلت إلى الحديدة في ٢٢ جمادى الآخرة عام ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) وتابعت زحفها إلى صنعاء دون أن تلقى أية مقاومة. وما إن علم الإمام المتوكل محمد بن يحيى بهذا الأمر حتى أطلق سراح الشريف الحيدري، وأسرع للقاء توفيق باشا فاستقبله، واتفق معه، وصحبه إلى صنعاء وأنزله في قصر غمدان... وأنكر أهل صنعاء على الإمام فعلته وثاروا عليه في الحال وأرغموا الأتراك إلى العودة إلى الساحل، وألقوا القبض على محمد ابن يحيى، ونصبوا علي بن المهدي إماماً.

وحدثت خلافات بين علي بن المهدي بصنعاء، ثم الذي قام مكانه وهو المؤيد العباس ابن عبدالرحمن وبين المنصور أحمد بن هاشم بصعدة، وكادت رياح الفتن تعصف باليمن كلها.

كان العثمانيون قد قضوا على إمارة آل عائض في أبها وقتلوا محمد بن عائض، وحملوا جماعة من كبار القادة والعلماء إلى استانبول، وتولى أمر عسير أحمد مختار باشا بعد مقتل رديف باشا، استغل أحمد مختار الفوضى في اليمن فسار بقوة على طريق الساحل، ودخل صنعاء وأنهى هذه الخلافات، ولكنه لم يستطع أن ييسط نفوذه على شمال اليمن إذ بقي تحت سلطة المتوكل المحسن بن أحمد حتى توفي عام ١٢٩٥ هـ (١٨٧٧ م) فخلفه الهادي شرف الدين بن محمد.

تولى حكم اليمن عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٢ م) بعد أحمد مختار باشا مصطفى فاشتد على السكان الأمر الذي أدى إلى قيام ثورة قادها محمد بن يحيى حميد الدين الذي كان قد سجنه مصطفى باشا مع عدد من سادات البلاد في الحديدة، وفر من السجن وحمل لواء الثورة، وتلقب بالمنصور.

وفي الشمال اليمن توفي عام ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) الهادي شرف الدين بن

محمد فقرر السكان مبايعة محمد بن يحيى حميد الدين الذي استطاع أن يؤلف جيشاً، ومحارب الولاة العثمانيين، وأن ينتصر عليهم، وأن يحاصر صنعاء، واضطر العثمانيون إلى إعادة أحمد فيضي باشا إلى ولاية اليمن، فجأة بقوة كبيرة تمكنت من فك الحصار عن صنعاء ودخولها، وغادرها المنصور أحمد بن هاشم حيث اعتصم في (حاشد)، وحاول أحمد فيضي باشا القضاء عليه عدة مرات ولكنه فشل، واستمر الإمام في الشمال حتى مات عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م)، وخلفه ابنه يحيى الذي اتخذ لقب المتوكل، واتخذ بلدة (قفلة عدن) قاعدة له، وعاصمة مؤقتة.

أرسل العثمانيون قوةً لعجم عود الإمام يحيى فوجدوه صلباً، وقد هزمت قوتهم، وشجعت هذه الهزيمة سكان اليمن فقاموا بحركتهم التي دفعت القوات التركية نحو صنعاء فحاصروها، واضطرت إلى الاستسلام وفر القائد التركي إلى زبيد. فأرسلت الحكومة التركية أحمد فيضي باشا مرة ثالثة على رأس قوة كبيرة نزلت بالحديدة، واتجهت إلى صنعاء فدخلتها، وانتقل الإمام يحيى إلى (شهارة)، فلحقه أحمد فيضي باشا ولكنه هزم على أبواب شهارة هزيمة نكراء، وعندما وصل الخبر إلى الحكومة التركية أرسلت المشير عزت باشا الألباني مندوباً للمفاوضة، فاتصل بالإمام يحيى وعقد معه اتفاقية (دعان). ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى قامت الحرب العالمية الأولى وخرج الأتراك من اليمن.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى ضرب الإنكليز ميناء الحديدة واحتلوها بمساعدة الإدريسي في تهامة الذي كان يعمل بجانب الحلفاء، وعندما انتهت الحرب انسحبت القوات التركية من اليمن بعد هزيمتها أمام الحلفاء، وخرجت جنودها في اليمن عن طريق عدن.

وبقيت تهامة اليمن والحديدة تحت سيطرة الأدراسة حيث منحتهم انكلترا هذا المناطق، واختلفت الأدراسة بعد وفاة الإدريسي بين مؤيد لابنه علي بن محمد ولأخيه حسن بن علي، واستغل اليمنيون هذا الخلاف وزحفوا على تهامة واحتلوها وفر حسن بن علي الإدريسي إلى نجد وذلك عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) ووقع مع الملك عبد العزيز معاهدة مكة التي تتضمن دخول الإمارة الإدريسية ضمن الدولة السعودية.

عاد حسن بن علي الادريسي فتمرد ولكنه هزم وألغيت إمارة صبيا وأبو عريش، وقامت مفاوضات بين اليمن والدولة السعودية لتحديد الحدود، غير أن نائب الإمام في صعدة قد أرسل بعد رجاله فدخلوا نجران فتعكر جو المفاوضات، فأرسل الملك عبد العزيز ابنه فيصلًا على رأس قوة احتلت حرض، وميدي، والحديدة. وأرسل الإمام يحيى برقية إلى المجلس الاسلامي الأعلى الذي كان منعقدًا في فلسطين لإرسال وفد لرأب الصدع، فبعث المجلس وفدًا مؤلفًا من: الحاج أمين الحسيني، وهاشم الأتاسي، ومحمد علي علوبة، وشكيب أرسلان وعبد الرحمن عزام فانهى الخلاف، وانسحبت القوات للطرفين إلى ماكانت عليه، وعقدت معاهدة الطائف عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م)، ورأس وفد السعودية خالد بن عبدالعزيز، ووفد اليمن عبد الله بن أحمد الوزير.

شاركت اليمن مع وفود الدول العربية الأخرى لبحث قضية فلسطين. في القاهرة عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م)، وفي بلودان في سوريا عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م). وكانت من بين الدول التي ساهمت في انشاء جامعة الدول العربية، وانضمت إليها عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م)، ثم انضمت إلى الأمم المتحدة عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م).

أما على الصعيد الداخلي فقد تعرضت حكومة الإمام يحيى لتمرد قبائل المشرق عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) وقد أخضعتها قوة بقيادة عبد الله بن أحمد الوزير. وتمردت قبيلة الزرانيق عام ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩ م) عامين ثم قضى عليه سيف الإسلام أحمد بن الإمام يحيى. وقامت حركة محمد الدباغ بالبيضاء عام ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠ م) نفوذها، وأنهى التمرد الشريف عبد الله الضمين.

ثم قامت ثورة على الإمام يحيى في ربيع الثاني عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م)، أطاحت به، واشترك فيها عبد الله بن أحمد الوزير، وبعض أبناء الإمام، ونجحت ثم استطاع سيف الإسلام أحمد أن يعود وأن يقضي على الثوار، وأن ينتزع الملك. شاركت حكومة الإمام أحمد أيضاً في القضايا العربية والإسلامية كلها، كما انضمت إلى اتحاد الدول العربية الذي نشأ بعد الوحدة التي تمت بين مصر

وسوريا، بل هي الدولة الوحيدة التي انضمت إلى الوحدة وشكلت الاتحاد، وتوفي الإمام أحمد عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) بصورة غامضة، وخلفه ولده سيف الإسلام محمد البدر وتلقب بالمنصور بالله، وبعد ثمانية أيام قام فريق من الضباط بقيادة عبد الله السلال الذي كان سجيناً فأخرجته محمد البدر، وأعلن عبد الله السلال نهاية حكم الإمامة في اليمن، وقيام الجمهورية اليمنية، واستنجد بمصر فأمدته بقوات، وبدأ الصراع بين الملكيين والجمهوريين، واستمر سبع سنوات.

انسحبت القوات المصرية من اليمن عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) بعد لقاء بين الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية والرئيس جمال عبدالناصر رئيس الجمهورية المصرية في الخرطوم حيث كان لقاء لرؤساء الدول العربية، وما إن انتهى الانسحاب حتى قامت القوات اليمنية بانقلاب ضد عبد الله السلال الذي التجأ إلى بغداد، وتولى رئاسة اليمن مجلس يرأسه عبد الرحمن الإبراهيمي، واستمر القتال من جهة أخرى بين اليمن الشمالي والجنوبي، ولكن توقف في الأيام الأخيرة من عام ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م)، بعد أن خرجت أسرة حميد الدين من السعودية، وأدخل في الوزارة اليمنية الجديدة بعض أنصار الملكية.

خرج عبدالرحمن الإبراهيمي من البلاد، وأصبح نائب رئيس مجلس الوزراء للشئون الداخلي المقدم إبراهيم الحمدي رئيساً للدولة، ولكن بعد مرور عامين ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م)، قام بانقلاب آخر رئيس الأركان العقيد محمد الغشمي، وهو من رؤساء قبيلة همدان، وبعد عام آخر قام انقلاب تزعمه علي عبدالله صالح.

ج - اليمن الجنوبية

كانت جزءاً من اليمن، انفصلت عنها بعد أن احتلت انكلترا عدن عام ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م)، ومن ثم بدأت انكلترا توسع نفوذها على طول الساحل، وتحاول التوغل نحو الداخل، فعدت عدن مستعمرة ولم تكن لتزيد مساحتها على ١٩٥ كيلومتراً وتتبعها جزيرة بريم وجزيرة كارمن، وتقع كلاهما في مضيق باب

المنذب، وتعرفان باسم ميون. وعدت القسم الثاني محميةً، وخضعت للحماية الانكليزية في الفترة ١٢٢٨-١٣٣٣ هـ (١٨١٣-١٩١٥ م)، وتضم ثلاثاً وعشرين سلطنة، وتنقسم إلى قسمين: محمية عدن الغربية وتضم عشرين سلطنة، ومحمية عدن الشرقية وتشمل ثلاث سلطنات.

وفي منتصف عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) انضمت ست سلطنات بعضها إلى بعض وكونت اتحاداً فيما بينها، دعمته انكلترا، ثم انضمت للحج إلى هذا الاتحاد وبقيت تتابع السلطنات في الانضمام حتى بلغت اثنتي عشرة سلطنة ضمن الاتحاد، ثم انضمت مستعمرة عدن في عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) وأطلق عليه اسم اتحاد الجنوب العربي.

عارضت هذا الاتحاد بعض العناصر وعدته دولة مشبوهة، وكان في البلاد تنظيمان هما: جبهة تحرير جنوب اليمن ويتزعمها عبد القوي مكاي، وجبهة التحرير الوطنية ويتزعمها قحطان الشعبي.

أعلنت انكلترا أنها ستسحب من جنوب اليمن قبل حلول عام (١٩٦٨ م) أوائل شوال عام ١٣٨٧ هـ، فنشطت الجبهتان للسيطرة على مقاليد الأمور، وكانت مصر تدعم الجبهة الأولى، أما جبهة التحرير الوطنية فتلقى تعاطفاً من القوات المسلحة العدنية. كما بدأت الجبهتان بحرب العصابات ضد المحتلين، وتمكنت جبهة التحرير الوطنية من السيطرة على اتحاد الجنوب العربي، ويشمل سبع عشرة سلطنة وقر بعض السلاطين، واستقال بعضهم، وأسر آخرون. وفي الوقت نفسه فقد وقع صدام بين الجبهتين. وسلم الانكليز مقاليد الأمور لجبهة التحرير الوطنية برئاسة قحطان الشعبي، وغادروا البلاد في ٢٥ رجب ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م)، وأعلن قيام جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.

وفي عام ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) حدث تغيير في الحكم إذ وضع قحطان الشعبي تحت الإقامة الجبرية، وتولى السلطة سالم ربيع علي، وتولى رئاسة الوزراء محمد علي الهيثم، ثم علي ناصر محمد الذي يشغل أيضاً منصب وزير الدفاع. وجرت محاولات لقيام وحدة بين شطري اليمن إلا أن الشقة الواسعة بين نهجي البلدين قد حالت دون ذلك.

ثم قامت حركة تالية أزيح فيها سالم ربيع علي، وتسلم الأمر عبد الفتاح إسماعيل. وماهي إلا سنوات مضت حتى تلت حركة انتهى معها حكم عبدالفتاح إسماعيل وقام حكم علي ناصر محمد، وكل حركة جديدة تتهم سابقتها بما اتهمت به الأسبق.

ثم توحد شطرا اليمن في ٢٧ شوال ١٤١٠ هـ (٢٢ أيار ١٩٩٠ م) وتسلم رئاسة الدولة رئيس اليمن الشمالي ورئاسة الحكومة رئيس اليمن الجنوبي.

د - عُمان

تقع عمان في الزاوية الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة العربية. يحدها من الشرق خليج عمان، ومن الشمال اتحاد الإمارات العربية، ومن الغرب المملكة العربية السعودية ومن الجنوب المملكة واليمن الجنوبية.

اعتنق عرب عمان الإسلام في أعقاب ظهور الدعوة الإسلامية، واتصف اقليم عمان بنزعة القبلية، ومن الملاحظ أن عرب الجنوب كانوا هم أول الوافدين على عمان واستمروا يقومون بالسلطة في ذلك الاقليم، ولكن بمرور الزمن أخذت عناصر الشمال تغد إلى عمان واختلط العنصران عن طريق التزاوج وإن وقفت العصبية مع ذلك حائلا دون قيام اتحاد تام بين هذين العنصرين، كان من نتيجته أن بات كل عنصر يتطلع الى السيطرة على العنصر الآخر، ولا شك أن طابع ذلك التنافس هو من أهم السمات المميزة لتاريخ عمان القديم والحديث^(٥).

وبعد لإقليم عمان أهل المعازل الإباضية إذ يعتنق المذهب الإباضي معظم سكان هذا الاقليم وخاصة في الداخل، واشتهرت هذه المنطقة منذ القرن الأول الهجري بأنها مركز اضطراب دائم، فقد استقر بها الخوارج الإباضيون الذين قاموا بعدة ثورات على الخلفاء الأمويين والعباسيين. ونجح بنو جلندي بزعامة جلندي بن سعود الأزدي في تزعم حركة انفصالية بدأت عام ١٣٧ هـ. وحكم عمان من هذه

(٥) أحمد قاسم البوريني: الإمارات السبع على الساحل الأخضر، بيروت ١٩٥٧م، ص

السلالة تسعة وعشرون إماماً إباضياً، كان آخرهم أبو جاد موسى بن موسى المتوفي عام ٥٧٩ هـ. ولكن حكمهم لم يكن مستقراً. فقد تعرضوا لحملة عديدة أرسلها الخلفاء وبنو بويه. وخضعت البلاد للقرامطة أكثر من نصف قرن (٣١٧-٣٧٥). وحكم عمان بعد ذلك بنو نبهان ولقبوا بالملوك (٥٧٩-٨٠٩)، قامت ثورات كثيرة ضد النبهانيين لما كان يتصف به حكمهم من ظلم وجور، وأسفرت تلك الجهود عن القضاء على ملكهم وبعث الإمامة الإباضية (والأزد) من جديد في النصف الأول من القرن التاسع الهجري ٨٣٩ هـ^(٦).

وفي خلال حكم الأئمة الأزدية تعرضت عمان للغزو البرتغالي في عهد بركات بن محمد بن إسماعيل ١٠٦٨ هـ. فقد وصل البرتغاليون إلى مياه الخليج العربي في وقت خضعت فيه سواحل عمان لحكم ملك هرمز الذي أقام حصونا قوية في مسقط وغيرها من مدن الساحل العماني. وتعرض ميناء رأس الحد ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) لقصف الأسطول البرتغالي الذي دمر المدينة والسفن الراسية في الميناء. وتعرضت لمثل ذلك في العام نفسه موانئ مسقط، وصحار، وخور فكان، وهرمز نفسها. واستقر البرتغاليون في هرمز وبنوا فيها حصناً وخضع لهم ملكها، ولكنهم غادروها وهجروا حصنهم فيها بعد عامين.

وتنازع البرتغاليون والفرس والعثمانيون السيادة على مياه الخليج طيلة القرن العاشر ونجح شاه فارس في حمل ملك هرمز على تقديم ولائه له بعد جلاء البرتغاليين عن هرمز. وفشلت محاولة برتغالية لاستعادة هرمز ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) فقاد (البوكيرك) بنفسه أسطولاً في العام التالي وتمكن من إخضاعها. واعترف الشاه بالسيادة البرتغالية على هرمز مقابل وعد برتغالي بمساعدته ضد العثمانيين. ومالبث (البوكيرك) أن عاد مريضاً إلى الهند وتوفي آخر العام بعد أن حكم في الهند مدة، وخلفه (دالميدا) الذي قاد الأسطول البرتغالي في المياه الشرقية أكثر من عشرة أعوام. وشدد البرتغاليون قبضتهم على هرمز فسيطروا على جماركها عام ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) وقمعوا بشدة ثورات هرمز، ومسقط، وصحار والبحرين. ونصبوا محمود شاه ملكاً على هرمز وسنه لانتجاوز الثالثة عشرة، وأجبروا أباه على الفرار. ووقع محمود في رمضان ٩٢٩ هـ (١٥٢٣ م) معاهدة تسلم البرتغاليون بموجبها

Miles. col. S.B.: The countries and the tribes of the Persian Gulf 2vols. (London 1919) 157-158, 163.

مقاليد الأمور في هرمز، وفرضوا على ملك هرمز شروطاً جديدة عام ٩٢٩ هـ^(٧) وأستولى البرتغاليون كذلك على بعض الموانئ في شرقي إفريقيا.

وإزداد نشاط العثمانيين في مياه الخليج وقاموا بعدة محاولات للقضاء على النفوذ البرتغالي مكرسين موارد مصر لهذا الهدف. فقد وصل أسطول عثماني إلى الخليج عام ٩٣٥ هـ (١٥٢٩ م)، ولكن لم يلق ترحيباً فخسر الجولة بسبب عدم وجود قاعدة له في الخليج. ولم يكن العراق قد أصبح عثمانياً بعد. ووجد العثمانيون أنفسهم بحاجة إلى العراق وإلى ميناء البصرة كقاعدة لدفع الخطر البرتغالي، فاحتل العثمانيون العراق باستثناء البصرة التي احتلوها عام ٩٥٣ هـ (١٥٤٦ م)، وبدأوا بإعداد دار لصناعة السفن فيها. وخضع عرب القطيف للعثمانيين وسلموا إليهم حصناً فانتقم البرتغاليون من المدينة ودمروا الحصن عام ٩٥٨ هـ (١٥٥١ م) وفشلت محاولة بيرى بك عام ٩٥٩ هـ (١٥٥٢ م) في احتلال هرمز ولكنها استولت على مسقط. وعهد بقيادة أسطول البصرة إلى حاكم القطيف مراد بك فلم يستطع تحقيق شيء وفشل في إنجاد مسقط التي استعادها البرتغاليون^(٨).

وأعد العثمانيون أسطولاً رابعاً في السويس عهدوا بقيادته إلى سيدي (علي رئيس) أحد مساعدي خير الدين بربروسا وسان باشا. وأسند إلى سيدي علي قيادة أسطولى البصرة والسويس العثمانيين عام ٩٦٠ هـ (١٥٥٣ م) فتوجه إلى البصرة أواخر ٩٦١ هـ، وكان همه الأول إعداد سفنه بحيث تصبح صالحة لخوض معارك حربية. وأقلع الأسطول العثماني من ميناء البصرة إلى القطيف ثم إلى البحرين. وكانت البحرين عثمانية يحكمها آنذاك مراد رئيس، وعادت طلائعه تخبره بأن لا أثر للأسطول البرتغالي. ودام القتال طول النهار وانسحب البرتغاليون في الليل. واستمر الأسطول العثماني في سيره محاذياً ساحل عمان فالتقي ثانية بالأسطول البرتغالي المتمركز في مسقط، ولحقت بالأسطول العثماني إصابات بليغة حتى اضطر قائد الأسطول إلى نصب الشراع تمهيداً للانسحاب. ودفعته الريح باتجاه شمالي شرقي فوصل إلى ميناء بندر شاهبور الفارسي فتزودوا منها بالماء^(٩).

(٧) لوتروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي ح، بيروت دار الفكر، ٣٥٦ ط ١٩٧٥ م

(٨) عباس الغزاوي: عشائر العراق ج- بغداد ١٩٥٦ ص ٦٨ - ٧١.

(٩) المصدر السابق ص ٧١ - ٨١

ثم اتجه ثانية إلى اليمن فقارب ظفار ثم قدفته الرياح ثانياً إلى ساحل الهند، فإذا هو أمام (ديو) البرتغالية فسارع إلى تغيير اتجاهه حتى وصل إلى الكجرات، والتجأ إلى ميناء (سورات). وبادر الملاحون والجنود العثمانيون إلى هجر سفنهم والعودة إلى بلادهم. أما سيدي علي فقد باع سفنه وعاد براً حاملاً إلى السلطان ثمن أسطوله^(١١).

وضعت القوة البحرية البرتغالية والعثمانية في البحار الشرقية أواخر القرن العاشر (السادس عشر الميلادي) فلم يقدّم العثمانيون بأي محاولة جديدة كبيرة بعد فشل سيدي علي رئيس، أما البرتغاليون فقد ضمت بلادهم إلى أسبانيا سنة ٩٨٩ هـ (١٥٨٠ م) وأصبحت مملكتهم فريسة سهلة لأعداء إسبانيا. وكانت هولندا هي العدو الرئيسي لإسبانيا ثم تبعته انكلترا، واستطاع كلاهما أن ينتزع السيادة البحرية من إسبانيا والبرتغال. وفي عام ١٠٠٢ هـ (١٥٩٣ م) كان الهولنديون قد كوّنوا شركة الهند الشرقية الهولندية للتجارة، وبعد أعوام قليلة تبعهم الانكليز سنة ١٠٠٩ هـ (١٦٠٠ م) فمنحوا شركة الهند الشرقية البريطانية أول امتياز لها^(١٢).

غير أن الوضع الحربي في الخليج العربي قد تغير منذ مطلع القرن الحادي عشر (السابع عشر الميلادي)، فقد تحالف أمير البصرة مع البرتغاليين ضد الفرس، كما تحالف شاه فارس مع الانكليز والهولنديين. واستطاع الشاه بمساعدة حلفائه الجدد أن ينتزع البحرين من البرتغاليين ويضغط على هرمز. نجح البرتغاليون في الدفاع عن هرمز بل واحتلوا ميناء بندر عباس الإيراني عام ١٠٢١ هـ (١٦٢١ م). واستطاع الشاه بعد عامين أن يخرجهم من بندر عباس ثم منح الهولنديين قاعدة حربية فيها^(١٣).

وبدأت سفن شركة الهند الشرقية البريطانية تتردد على موانئ الخليج العربي والهند أوائل القرن الحادي عشر، وكانت ملكة بريطانيا قد منحت في عام ١٠٠٩ هـ (١٦٠٠ م) امتيازاً بتأسيس شركة الهند الشرقية الانكليزية كشركة

(١٠) عبدالكريم غرايبة: مقدمة في تاريخ العرب الحديث، ص ٢٦٤.

(١١) المصدر السابق.

(١٢) Wilson, A.:op. Cit. PP. 140-141

متمة لشركة الليفانت (الشرق) التي سبقتها بعشرين عاما. ونظمت شركة الهند الشرقية رحلات تجارية سنوية إلى الهند. وتمكن قائد أسطول الشركة عام ١٠٢١ هـ (١٦١٢ م) من انتزاع امتيازات من حاكم (سورات) الهندي فأقر امبراطور الهند المغولي هذه الامتيازات. وعينت الشركة بعد ثلاثة أعوام سفيرا انكليزيا في بلاط امبراطور الهند المغولي^(١٣).

وحاول الانكليز كسب ود شاه فارس والتقرب اليه والتحالف معه ضد السلطان العثماني، فنجحوا في استمالته إلى جانبهم، وأرسلت بريطانيا إلى شاه فارس خبراء في السياسة والشؤون العسكرية لتدريب جيشه، كما زودت الجيش الفارسي بالأسلحة. واستطاع شاه فارس بهذه القوة العسكرية طرد العثمانيين من جميع الأراضي الفارسية عام ١٠١٤ هـ (١٦٠٥ م). ومقابل ذلك منح شاه فارس الانكليز حق الاتجار مع بلاده عبر ميناء (جسك) ومنحهم امتيازا بذلك عام ١٠٢٥ هـ (١٦١٦ م)^(١٤).

وقدمت لأول مرة سفينة انكليزية إلى ميناء (جسك) قادمة من سورات) بالهند، وفشلت جهود البرتغاليين في التعرض للسفينة التي استطاعت أن تفرغ حمولتها وتبيعها بسهولة. وبعد أن تبين للتجار الانكليز أن هذه التجارة مربحة، بادروا إلى فتح وكالة تجارية لهم في الميناء الإيراني رغم معارضة السفير الانكليزي في دلهي. كما هزمت السفن الانكليزية أسطولاً برتغالياً حاول اعتراض طريقها^(١٥).

وعزم الشاه على الاستيلاء على هرمز بمعونة الانكليز. وتمكن الحليفان من احتلال الحصن البرتغالي في (قشم) على الساحل الإيراني ١٠٣١ هـ (١٦٢٢ م). وبدأ الحلفاء هجومهم على (هرمز) واستسلمت بعد شهرين ووقع في الأسر ثلاثة آلاف برتغالي. وهكذا طويت صفحة برتغالية في (هرمز) التي ارتفع عليها علم البرتغال أكثر من قرن. وأصبحت (هرمز) جزيرة إيرانية. ولم يبق بيد البرتغاليين في الخليج سوى ساحل مسقط. ووجه الشاه قواه بعد هذا النصر ضد بغداد

(١٣) Wilson. A.:op. Cit. PP 134-135

(١٤) Miss. S. B.: op. Cit. P175

(١٥) Mils. S. B. Op. Cit. PP.187-188.

فاحتلها في العام التالي. ولكنه فشل في احتلال البصرة وبقي أميرها مواليا للسلطان العثماني فقاوم الإيرانيين بمساعدة البرتغاليين^(١٦).

لم يبق بيد البرتغاليين غير مراكزهم على ساحل عمان. فانتزعوا (صحر) وأبادوا حاميتها، ولكنهم خسروا بعد أربعة أعوام مركزهم قرب رأس الخلية. وانتزع الإيرانيون لفترة قصيرة حصون (صحر) و (خور فكان) وحاولوا احتلال مسقط نفسها، ولكن عاد البرتغاليون فاستعادوا حصونهم المفقودة وأخرجوا الإيرانيين منها وهددوا الموانئ والسفن الإيرانية في الخليج. وسمح لهم أمير البصرة بفتح وكالة تجارية برتغالية في البصرة عام ١٠٣١ هـ (١٦٢٢ م)، وغدت البصرة مركزاً برتغاليا هاما^(١٧).

غير أن تطورات هامة حدثت في عمان غيرت استراتيجية الخليج العربي. فقد استتب الأمر في عمان للإمام الإباضي ناصر بن مرشد بن سلطان عام ١٠٣٤ هـ (١٦٢٥ م)، وأخضع «الملوك» المحليين واستولى على الميناء العماني الوحيد الذي لم يكن بيد البرتغاليين وهو ميناء (لادة). وشرع الإمام ناصر بمهاجمة الحصون البرتغالية ففشل في احتلال (مسقط) ولكنه نجح في احتلال (صحر). وتابع الإمام سلطان بن سيف سياسة ابن عمه وسلفه في تطهير البلاد من البرتغاليين فحرر مسقط وهي آخر معقل للبرتغاليين، ولم يكتف بذلك بل قام بمهاجمة الحصون البرتغالية في الهند فقصص (ديو) وسواحل (الكجرات) وعاد بغنائم كبيرة^(١٨).

أصبح العمانيون بعد نجاحهم في طرد البرتغاليين من الخليج العربي وشرقي إفريقيا قوة ذات خطر، كما أضحى أسطولهم الشراعي يسيطر على التجارة في المحيط الهندي، وساعدهم على ذلك أن سياسة الدول الأوروبية التي خلفت البرتغال في البحار الشرقية لم تكن قائمة على سياسة الاحتكار التجاري كما كانت

(١٦) Wilson, A.: op. Cit., PP. 143-149.

(١٧) Miles, S. B.: op. Cit., PP. 187-189.

(١٨) جمال زكريا قاسم: دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ص ٢١ وانظر كذلك نورالدين عبدالله السالمى: تحفة الأعيان بسيرة آل عمان آل عمان، ج، ص ١١. (القاهرة ١٣٣٠هـ)

سياسة البرتغاليين، وإنما انصرفت إلى تأسيس المستعمرات واستغلال الأهالي وتكوين الامبراطوريات. أما في التجارة فقد أفسحت المجال للعناصر التي كانت تعمل فيها من قديم لتعمل فيها من جديد، وإنما حرصوا في الوقت نفسه على تأمين المواصلات لامبراطوريتهم الاستعمارية، وترتب على ذلك دخولهم في علاقات مع القوى المسيطرة على أهم القواعد في طريق هذه المواصلات كفارس وعمان والدولة العثمانية^(١٩).

ومهما يكن من أمر، فإن دولة اليعاربة التي كان لها دور كبير في طرد البرتغاليين، سرعان ما أصابها الوهن والضعف، وتفشت فيها الفتن والثورات مما أضعفها وأدى إلى نهايتها لتقوم على أنقاضها دولة (البوسعيد) بزعامة الإمام أحمد بن سعيد الذين حكموا عمان منذ عام ١١٥٤ هـ (١٧٤١ م) حتى يومنا هذا.

نجح أحمد بن سعيد مؤسس تلك الأسرة في طرد الفرس من عمان ١١٥٧ هـ (١٧٤٤ م)، وبذلك أصبح الطريق ميسراً أمامه للوصول إلى الإمامة خاصة بعد النجاح الذي أحرزه على الفرس، الذين آثروا تركه يصرف شؤون البلاد على شرط تقديم الجزية لهم والاعتراف بسيادتهم على البلاد. على أن الظروف لم تلبث أن سنحت لأحمد بن سعيد ليعلن استقلاله عن الفرس منتهزاً حالة الفوضى والاضطرابات التي تردت فيها الدولة الفارسية عقب اغتيال نادر شاه في عام ١١٦٠ هـ (١٧٤٧ م)، وبذلك استطاع أن ينأي ببلاده عن كل تبعية، كما كان لتزعمه حركة التحرير العمانية ضد الفرس أثر كبير في عقد البيعة بالإمامة له^(٢٠) وبنى السلطان الإمام أحمد أسطولاً حربياً قوياً فطهر شواطئ (ملبار^(٢١)) من القراصنة وانجد البصرة ضد الفرس عام ١١٨٨ هـ (١٧٧٤ م)، ولكنه فشل في القضاء على حكم اليعاربة في بعض المناطق (الحزم والنخل)، كما بقيت بلاد الظاهرة وواحة البريمي وساحل عمان الشمالي الغربي بيد بني غافر القيسيين العدنانيين^(٢٢).

(١٩) جمال زكريا: المصدر السابق، ص ٢٥

(٢٠) نورالدين عبدالله بن حميد السالمي: تحفة الأعيان بسيرة آل عمان جـ ص ١٢٦ القاهرة (١٣٣٠هـ)

(٢١) شواطئ الهند الغربية.

(٢٢) عبدالكريم غرابية: مقدمة تاريخ العرب الحديث ص ٢٦٩

اشتهر أحمد بن سعيد بإدراته الحازمة فعند وصوله إلى السلطة قام بوضع كثير من القوانين لإدارة جهاز حكومته مهتماً بصفة خاصة بإرساء القواعد الاقتصادية والقضائية والإدارية. ومع ذلك فإن الظروف اضطرت الإمام أحمد إلى تكوين حكومته على شكل لامركزي حينما ترك اليعاربة والغافريين يمارسون سلطتهم على بعض مقاطعات البلاد على الرغم من الجهود التي بذلها، لكي ينتزعها من سيطرتهم ويضمها إلى حكمه. والذي يؤخذ على الإمام أحمد مشاركة أبنائه معه في الحكم فقد كانت العواقب وخيمة في حياته وكان كثيراً ما يضطر إلى التداخل ليحمي أبنائه من هجوم بعضهم على بعض، بل إنه كان يضطر أحياناً إلى حماية نفسه من هجوم أبنائه عليه. وهكذا ورثت أسرة بوسعيد التنازع الأسري والاضطراب الداخلي^(٢٣).

وقد حدثت فتنة أواخر عهد الإمام أحمد بو سعيد وبعد وفاته، فقد ثار عليه والداه سيف وسلطان كما ذكرنا واستطاع أحمد أن ينهي هذه الفتنة بصورة سلمية. وبإيعاد الناس بعده ابنه سعيداً ولكنه ابنه حمد ثار عليه، وبدأت الاضطرابات في البلاد فخرج على حمد عمه سيف الذي فشلت ثورته ففر إلى زنجبار، وتولى حمد فحاول أبوه سعيد أن يستعيد السيطرة الفعلية إلا أن أخاه سلطان بن أحمد استولى على الحكم واستبد بالأمر^(٢٤).

توصل سلطان بن أحمد إلى الحكم ١٢٠٧ هـ (١٧٩٢ م) فوجد عمان بلداً مجزأاً ومهدداً، فقد استقل إمام عمان في داخل البلاد متخذاً (رستاق) عاصمة له، وانفصل بنو غافر في البريمي والظاهرة، واستقر القواسم في رأس الخيمة والسواحل القريبة. ولم يبق بيد سلطان مسقط سوى ساحل الباطنة. ولم يمض زمن قصير على ولاية سلطان حتى كان إبراهيم بن سليمان بن عفيصان قد استقر في البريمي لنشر الدعوة الوهابية. وفرض الوهابيون معاهدة ولاء على القواسم عام ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م) وسيطروا على (الزبارة). وفشلت محاولات سلطان بن أحمد لصددهم، ولم يستطع الحصول على مساعدة شريف مكة. وألحق الوهابيون به هزيمة كبيرة وكادوا يحتلون مسقط نفسها لو لا وصول أبناء وفاة الأمير

(٢٣) جمال زكريا: المصدر السابق ص ٤٢

(٢٤) miles. S.B.: op. cit. pp. 278-285.

عبدالعزیز^(٢٥).

ولكن سلطان نجح في مشروعاته الخارجية، فقد احتل (بندر عباس) و (هرمز) وبعض الموانئ في (مكران) على الساحل الفارسي. وعقد سلطان معاهدة مع بريطانيا عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) تعهد بموجبها بعدم التعامل مع فرنسا والسماح بإقامة وكالة بريطانية، وحامية عسكرية في ميناء بندر عباس الإيراني التابع لإمام مسقط. ووصل إلى مسقط في العام التالي مندوب بريطاني استطاع أن يقنعه بقبول ممثل بريطاني في مسقط. وعادت علاقات الإمام بفرنسا ودية بعد جلاء الفرنسيين عن مصر عام ١٢١٦ هـ^(٢٦).

وقتل سلطان في طريق عودته إلى مسقط على يد القواسم في ١٣ شعبان ١٢١٩ هـ فنشبت فتنة بين ولديه سالم وسعيد وعمه سعيد الذي بقي إماماً رمزياً في (رستاق) واستنجد ولداه بشاه إيران ضد الوهابيين، ولكن الحملة الإيرانية فشلت في إبعاد الخطر الوهابي. وسيطر على الأمور بمساعدة الوهابيين بدر بن سيف الذي حكم باسم سعيد ابن سلطان، إلا أن سعيداً اغتاله وتسلم الحكم بنفسه عام ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) عمه قيس بن أحمد بن سعيد حاكم (صحار) للاستيلاء على الحكم^(٢٧).

حكم سعيد بن سلطان ساحل عمان قرابة نصف قرن ١٢٢١-١٢٧٢ هـ (١٨٠٦-١٨٥٩ م) واستطاع في أوائل عهده أن يستعيد ممتلكاته الإفريقية التي شغلته عن كثير من الأمور الهامة في بلاده. وتعرض لخطر وهابي شديد فالحق به الوهابيون هزائم متعددة، فاشترك في حلف مع الانكليز ضد رأس الخيمة، كما شارك في الحملات التي أرسلها الانكليز لإخضاع رأس الخيمة والتي أدت إلى خضوع هذه الإمارات والشيخات للإنكليز وإجبارها على توقيع ١٢٣٥ هـ (١٨٢٠ م) وعقد مع الانكليز عام ١٢٥٥ هـ (١٨٤٠ م) معاهدة تجارية، كما وقّع معهم اتفاقيات لمكافحة تجارة الرقيق، ومنح الإنكليز إعفاءات جمركية واسعة، وتوثقت علاقاته مع بريطانيا فأهداها جزر (كوريا موريا). ولكن بريطانيا لم تقدر

(٢٥) Wilson, A: op. cit. pp. 231-233

(٢٦) ج.ج. لوريير: دليل الخليج ج١، قطر ١٩٧٥، ص ٦٦١-٦٧٠

(٢٧) المصدر السابق ص ٦٨٤ - ٦٨٩.

له صداقته حينما وقفت موقفاً عدائياً لعمان إبان النزاع بين عمان وإيران. فقد احتلت إيران المراكز العمانية في (بندر عباس) وساحل (كرمان)، وفي العام نفسه الذي تخلى فيه السلطان عن جزر (كوريا موريا) لبريطانيا. واستطاع السلطان أن يستعيد ممتلكاته الإيرانية إلا أن الشاه أرسل حملة ثانية فاحتلها، وتدخلت بريطانيا لتمنع السلطان من استعادتها، ولتفرض معاهدة إيرانية عمانية ١٢٧٢ هـ (١٨٥٩ م). تخلى السلطان بموجبها عن ممتلكاته الإيرانية. ومالبث سعيد أن توفي حزناً بعد نصف عام^(٢٨).

ونشبت فتنة بين أولاده ماجد وتركبي وثويني. وتدخل الانكليز فقسموا الدولة بين ماجد وثويني عام ١٢٧٧ هـ (١٨٦٤ م). ونال ماجد الممتلكات الإفريقية وزنجبار ومباسا مقابل تعهده بدفع تعويض سنوي لسلطان مسقط. أما تركبي فقد اعتصم في المناطق الجنوبية ورفض الاعتراف بسيادة أخيه الأكبر ثويني، الذي حكم البلاد عشر سنوات كانت مليئة بالاضطرابات مما اضطره إلى أن يستنجد بالوهابيين الذين أنجدوه، ولكنهم فرضوا عليه دفع إتاوة سنوية. وكثر عليه الثوار فأنجده الانكليز وأمدوه بالمدافع والعتاد وشجعوه على غزو البريمي. وكافأ ثويني الإنكليز بمنحهم حقوق مد خطوط هاتفية، وفشل ثويني في الاستفادة من الاتفاقية البريطانية الفرنسية الموقعة عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦٥ م) والتي اعترف فيها الطرفان باستقلال سلطنتي مسقط وزنجبار^(٢٩).

وانتهت حياة ثويني نهاية مفاجئة. فقد تأمر ضده ابنه سالم واغتاله واعتقل تركبي بن سعيد. واعترفت بريطانيا بسلطنة سالم ولكن أهل عمان لم يعترفوا به، وثاروا عليه بزعامة عزان بن قيس. كذلك أفلت تركبي من سجنه واحتل (صحار)، وكاد يدخل مسقط لولا تدخل الانكليز الذين اعتقلوه ونفوه الى الهند. وكثرت الثورات على سالم ففر الى الرياض طالبا المساعدة الوهابية بعد أن تخلى عنه الانكليز، وباع أهل عمان عزان بن قيس لإماما، واحتل عزان واحة البريمي بالاشتراك مع حاكم أبو ظبي وشيخ بني عامر. واختلف عزان مع حلفائه الذين هزموه. وعاد أثناء ذلك تركبي بن سعيد من الهند فتغلب على عزان، وقتله وأعلن

(٢٨) عبدالكريم غرابية: مقدمة في تاريخ العرب الحديث، ص ٢٧٠ - ٢٧١

(٢٩) جمال ذكرى قاسم: المصدر السابق ص ٢٥٥ - ٢٦٨.

نفسه سلطانا ١٢٨٨-١٣٠٥ هـ (١٨٧٠-١٨٨٧ م). أما البريمي فقد احتلها حاكم الشارقة وأعادها للوهابيين. وازداد النفوذ البريطاني في عهد تركي وابنه فيصل فقد عقد تركي معاهدة مع بريطانيا لمكافحة تجارة الرقيق عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٢ م)، واعترف بالانفصال البريطاني قاضيا يفصل في الخصومات بين الرعايا البريطانيين كما سمح للقنصل بحرس بريطاني. وتعهد تركي ألا يتنازل عن أي جزء من ممتلكاته وألا يفرض قيوداً على التجارة إلا بموافقة بريطانية. ومع ذلك لم يقدم الانكليز له أية مساعدة عندما ثارت عليه القبائل عام ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) ولم يتدخلوا إلا بعد نجاحه في إخماد الثورة إذ قدمت له حكومة الهند كمية من الأسلحة والذخيرة^(٣٠).

وكان تركي قد سمح للفرنسيين بفتح فنصلية وأعطى مثل هذا الحق للولايات المتحدة الأمريكية. وازداد فيصل تقرباً من الفرنسيين فمنحهم حق إقامة مركز تموين للفحم، ولكن بريطانيا أجبرته على إلغاء هذا الامتياز. وخلف فيصل ابنه تيمور الذي حكم البلاد ثمانية عشر عاماً ١٣٣١ - ١٣٥٠ هـ (١٩١٢-١٩٣٢) ثم تنازل عن السلطنة لابنه السلطان سعيد بن تيمور. وشغل تيمور وابنه سعيد نزاع شديد مع سكان الداخل. فقد ثار سكان داخل عمان وانتخبوا سالم بن راشد الخروصي إماماً، وسيطر سالم على معظم عمان باستثناء مسقط وبعض الموانئ التي أعلنت بريطانيا حمايتها لها منذ عام ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م).

واضطر السلطان تيمور إلى توقيع معاهدة (المسيب) مع الإمام الجديد محمد بن عبدالله الخليل عام ١٣٣٩ هـ (١٩٢١ م)، اعترف بموجبها باستقلال عمان. وهكذا انقسمت البلاد الى قسمين: ١ - إمامة عمان في الداخل، ٢ - سلطنة مسقط على الساحل. وكان لكل من هذين القسمين حكومة صورية وحدود وهمية. غير أن السلطان نقض المعاهدة بايعاز من بريطانيا، وأرسل حملة عسكرية بقيادة ضابط بريطاني فاحتلت (نزوى) عاصمة إمامة عمان في ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤ م)^(٣١) وأصبحت البلاد موحدة تحت حكم السلطان سعيد بن تيمور ولم يهتم السلطان سعيد بترقية أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية مما

(٣٠) Wilson, A: OP.cit., PP.237-240

(٣١) زاهية قدوره: تاريخ العرب الحديث ص ٧٤ - ٧٥

اضطر بعض المخلصين بالتعاون مع ولده قابوس إلى إبعاد السلطان سعيد عن الحكم واستيلاء ولده قابوس في عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م)، والذي أخذ يعمل بسرعة على ترقية أحوال البلاد في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وفي عهد السلطان قابوس الحالى دخلت سلطنة عمان الجامعة العربية وهيئة الأمم لأثر استقلالها. وفي عهده كذلك تم القضاء على ثورة ظفار التي اندلعت قبل توليه السلطة بخمس سنوات (٣٢).

هـ - دولة الإمارات العربية المتحدة

تقع هذه الدولة على طرف الجزيرة العربية الشرقي محاذية للخليج العربي وخليج عمان ممتدة من الغرب إلى الشرق في سبع إمارات عربية هي: أبو ظبي، ودبي، والشارقة، وأم القيوين، عجمان، رأس الخيمة ثم الفجيرة التي تقع على خليج عمان.

وهذه الإمارات تشكل امتداداً طبيعياً لشبه الجزيرة العربية يطل على خليج عمان والخليج العربي. وتبلغ مساحة هذه الدولة ١٦٧٠٠٠ ميل مربع ويسكنها حوالي نصف مليون نسمة، وقد أطلق على هذه الإمارات قبل استقلالها اسم مشيخات الساحل العماني، وأطلق عليها الاستعمار ساحل القرصان، ثم غُيّر هذا الاسم ليصبح مشيخات الساحل المهادن.

كان لهذه المنطقة دور هام في منطقتي ساحل عمان والخليج العربي قبل عام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م)، ففي عام ١١٦٠ هـ (١٧٤٧ م) أسس رحمة بن مطر القاسمي دولة امتد نفوذها على طول الساحل الشرقي والشمالي للخليج العربي وبلغت حدودها الشواطئ الهندية والبحر الأحمر، واستطاعت أن توطد أركانها بأسطول بحري ضخم كان يسيطر سيطرة شبه تامة على مياه الخليج والبحر العربي كله. واتخذ من الشارقة عاصمة له، ووقفت هذه العائلة (القواسم) على قدم المساواة في معاملاتها مع سلطان مسقط والأمير السعودي.

شهدت هذه الدولة أول انتصار لها على البرتغاليين الذين كانوا يحتلون ساحل عمان كله سنة ١٠٢٨ هـ (١٦١٩ م)، وبعد تقلص النفوذ الفارسي إثر وفاة نادر شاه عام ١١٦٠ هـ (١٧٤٧ م) ازداد نفوذ القبائل العربية التي عادت إلى التجمع على ساحل الخليج بعد مدة طويلة من الرعب والإرهاب والنزوح إبان الحكم البرتغالي، واستوطنت الساحل وأخذت تعمل في الصيد والسيطرة على البحار والاستيلاء على سفن الأعداء، إذ كانت تعد أن هذا العمل جهاد إسلامي مشروع وعمل شريف في حين أن الأعداء يسمونه قرصنة، ولذلك أطلقت بريطانيا على هذا الساحل ساحل القرصان، وعندما تهادن معها سمى بالساحل المهادن. سيطر القواسم على الخليج سيطرة تامة وأثار ذلك حنق بريطانيا عليهم، لأنها عدت هجمات القواسم على سفن الانكليز في الخليج تدخلا في شؤون الامبراطورية البريطانية التي كانت تربطها علاقات تجارية واسعة بالشرق. فأرسلت الحملات البحرية البريطانية للقضاء على قوة القواسم (حكام الشارقة ورأس الخيمة) وبدأت أول حملة ١٢٢٠، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٣٤ هـ (١٨٠٥-١٨١٩ م). استطاعت في نهايتها تدمير رأس الخيمة، وكذلك تدمير أسطول القواسم، ووقعت بريطانيا مع شيوخ الإمارات معاهدة في عام ١٢٣٥ هـ (١٨٢٠ م) نصت على وقف الهجمات على السفن الأجنبية في الخليج، وبذلك أنهت هذه المعاهدة قوة العرب البحرية في مياه الخليج، وبدأت معها على الفور الحماية البريطانية على المنطقة بأسرها.

ولكن المعاهدة لم تتعرض للنشاط البري ولم تضع حدا للقتال البري بين الشيوخ، فقد وقعت عدة منازعات وخصومات بين شيوخ أبوظبي و دبي، وكان شيخ الشارقة (سلطان) يقوم برأب الصدع وحل الخلافات بينهما. وبعد وفاة شيخ الشارقة سلطان تفككت إمارته فانفصلت أم القيوين وعجمان والفجيرة عن الشارقة. كما انفصلت مؤخراً رأس الخيمة في عام ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م). وعلى ذلك لم يكن في إمارات الخليج ذات دور مهم سوى الشارقة والتي لعبت دورا هاما في التاريخ الحديث.

نعود بعد ذلك إلى علاقة بريطانيا بدول الخليج، فمنذ أن سيطرت بريطانيا على هذا الساحل منذ عام ١٢٣٥ هـ (١٨٢٠ م)، كانت هذه المعاهدات تخرق

بين الحين والحين، وتقوم بريطانيا بتجديدها سنوياً كما فرضت معاهدة عام ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) مدتها عشر سنوات ثم جعلتها عام ١٢٧٠ هـ (١٨٨٨ م) معاهدة دائمة أبدية تعهد بموجبها شيوخ الشارقة، ودبي، والعجمان، وأبى القيوين، وأبى ظبي بوقف الأعمال الحربية بحراً. وأتبعها عام ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م) بمعاهدة أعطت بريطانيا وضعاً خاصاً، وحرمت على الشيوخ التصرف بأرضهم ومنح امتيازات أو قواعد دون موافقة بريطانيا، ولم تمنحهم بريطانيا مقابل ذلك أية حماية ضد الغزو البري، بل تركتهم يحارب بعضهم بعضاً، ومنحت بريطانيا نفسها حق القيام بأعمال قرصنة سياسية ضد هذه المشيخات، فنهاها تهديد وتقصف رأس الخيمة أكثر من مرة. وتابعت بريطانيا هذه السياسة حتى في السنين الأخيرة. فقد قصفت الفجيرة عام ١٣٧١ هـ (١٩٥١ م) وحاصرت دبي عام ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤ م) ولكن وقفت على الحياد عندما نشب القتال بين دبي وأبى ظبي عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م). وكانت المحميات هذه تابعة للحكومة الهند البريطانية.

وكانت إمارات ساحل عمان تخضع مباشرة للمقيم السياسي البريطاني في (بوشهر) في إيران منذ عام ١٢٣٩ هـ (١٨٢٧ م) وحتى عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م)، ثم انتقل المقيم السياسي البريطاني إلى البحرين، وعين أول ضابط سياسي بريطاني مقيماً سياسياً في الشارقة في العام نفسه، ثم أنشئت هناك عام ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) دار الاعتماد البريطاني نفسه، وانتقلت إلى دبي عام ١٣٤٧ هـ (١٩٥٤ م). ونظمت بريطانيا مؤتمراً سنوياً للشيوخ فاجتمع المؤتمر الأول في ١٣٦٤ هـ (١٩٤٣ م) في البريمي برئاسة المندوب البريطاني، وشكلت بريطانيا عام ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م) قوة محلية بقيادة بريطانيا جاوز عدد أفرادها الألف واستخدمتهم في عملية احتلال البريمي. ولعل هذه المنطقة من المناطق القليلة في العالم التي تستطيع فيها دولة كبيرة متمدنة أن تقوم بأعمال قرصنة دون أن يعلم الرأي العام العالمي، ليفرض على هذه الدولة وجوب اتباع خطط أكثر إنسانية.

ومن الجدير بالذكر أن المعاهدات اقتصررت على الشؤون الخارجية للإمارات. وحفظ الأمن فيها، وأبقت الشؤون الداخلية طوال مدة الحماية في أيدي حكام

الإمارات الذين تعاقبوا على حكمها، غير أن التطورات المعاصرة في منطقة الخليج العربي حدت بحكام الخليج إلى أن يوحدوا إماراتهم، خاصة بعد إعلان بريطانيا عن عزمها الانسحاب من منطقة الخليج في موعد أقصاه عام ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م).

وفي ١٨ شوال عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) قام الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان (حاكم أبوظبي) بتشجيع من بريطانيا بزيارة إلى دبي وبحث مع حاكمها الشيخ راشد بن سعيد المكتوم إقامة اتحاد يضم الإمارتين المتجاورتين تكون مهمتها الإشراف على الشؤون الخارجية والدفاعية، والأمن، والخدمات الصحية، والتعليمية والسكانية لكل من الإمارتين. واتفق الحاكمان على دعوة حكام الإمارات السبع الأخرى، وكذلك البحرين وقطر للاجتماع في دبي، لمناقشة موضوع الدعوة إلى الاتحاد، ولدى الحكام الدعوة واجتمعوا في دبي في شهر ذي القعدة ١٣٨٧ هـ. وانبثقت عن هذا الاجتماع اتفاقية اتحاد الإمارات العربية التسع وهي الاتفاقية المعروفة «باتفاقية دبي» ونصت على أن يبدأ العمل بها في ١/١/١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م). وجاء في الاتفاقية أنه تم الاتفاق على إنشاء اتحاد للإمارات العربية في الخليج العربي، لتوثيق الصلات والعلاقات بين الإمارات العربية، وتقوية التعاون بينها، وتنسيق خطط تقدمها وتوحيد السياسة الخارجية والتمثيل الخارجي، ودعم الدفاع الجماعي لها ضمن احترام سيادة واستقلال كل منها.

وفي ٢٥ صفر ١٣٨٨ هـ عقد الاجتماع الأول للمجلس الأعلى لاتحاد الإمارات العربية في مدينة أبوظبي، وقد تم فيه اختيار الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيساً للمجلس الأعلى للاتحاد، وشكلت عدة لجان لمتابعة دراسة الموضوعات الأخرى. وعقدت الدورة الثانية للمجلس الاتحادي الأعلى في الدوحة (قطر)، وتقرر إنشاء قوة مسلحة برية للاتحاد.

وفي ٢٠ صفر ١٣٩٩ هـ (١٩٦٩ م) عقدت الدورة الثالثة للمجلس الاتحادي الأعلى واتفق فيها على أن يكون للمجلس الأعلى الاتحادي رئيس ونائب رئيس، ينتخبان من بين أعضائه لمدة سنتين، واتفق كذلك على تشكيل مجلس وزراء وعلى إنشاء علم واحد، وتشكيل لجنة لوضع الدستور المؤقت للاتحاد.

ووضع الدستور، وعقدت الاجتماعات، وظهرت صعوبات وعقبات، وبذلت حكومة أبوظبي جهوداً كبيرة لتذليل هذه الصعوبات والعقبات، ولم يكتب لهذه الجهود النجاح. كما فشلت جهود الوساطة الكويتية السعودية في عام ١٣٩١ هـ نحو تحقيق هذا الهدف.

ولما تعذر قيام اتحاد الإمارات التسع، سارع حكام إمارات الساحل العماني إلى الاجتماع في منتصف عام ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م) في دبي حيث تكلفت جهودهم بالنجاح بإقامة إتحاد سباعي يضم إمارات الساحل العماني، وأعلن مولد دولة الإمارات العربية المتحدة في ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م). وتنفيذاً لبيان المجلس الأعلى لحكام الإمارات الصادر بتاريخ ٢٠ ربيع الثاني ١٣٩١ هـ اجتمع المجلس المذكور في شوال عام ١٣٩١ هـ، وأعلن رسمياً قيام «دولة الإمارات العربية المتحدة» التي ضمت آنذاك ست إمارات هي: أبوظبي - دبي - الشارقة - عجمان - أم القيوين - الفجيرة. ثم لم تلبث إمارة رأس الخيمة أن انضمت بعد ذلك إلى الدولة الجديدة في ٢٤ ذي الحجة عام ١٣٩١ هـ (١٩٧٢ م)، وقد انتخب في احتفال رسمي حاكم أبوظبي رئيساً لدولة الإمارات العربية المتحدة، كما انتخب حاكم دبي نائباً للرئيس، وعين ولي عهد دبي رئيساً لوزراء حكومة الاتحاد.

وفي اليوم نفسه الذي أعلن فيه قيام الدولة الجديدة اجتمع الشيخ «زايد بن سلطان آل نهيان» رئيس الدولة مع السير «جيفري آرثر» المقيم السياسي البريطاني في الخليج حيث تبادل الطرفان وثائق إنهاء المعاهدات والاتفاقات السياسية، كما وقع الطرفان معاهدة صداقة لمدة عشر سنوات. وقد قبلت الدولة الجديدة عضواً في الجامعة العربية في شوال ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م)، كما وافقت الجمعية العمومية للأمم المتحدة على قبولها عضواً في الشهر نفسه، وبعد ثلاث أيام فقط، وأصبحت العضو الثالث والعشرين بعد المائة.

ملحق خاص بالإمارات
(عام ١٣٩١ م)

الإمارة	عدد سكانها	مساحتها
أبوظبي	١٥٠٠٠٠ نسمة	٢٦٠٠٠ ميل مربع
دبي	١٤٠٠٠٠ نسمة	١٥٠٠ ميل مربع
الشارقة	٥٠٠٠٠ نسمة	١٠٠٠ ميل مربع
عجمان	٥٠٠٠ نسمة	١٠٠ ميل مربع
أم القيوين	٥٠٠٠ نسمة	٣٠٠ ميل مربع
رأس الخيمة	٥٠٠٠٠ نسمة	٦٥٠ ميل مربع
الفجيرة	١٠٠٠٠٠ نسمة	٤٥٠ ميل مربع

و - قطر

تقع شبه جزيرة قطر داخل الخليج العربي، وفيها تقع دولة قطر وعاصمتها الدوحة، ومن أشهر بلدانها (الزبارة) و (دخان)، وهي منطقة حقول الزيت، وتبلغ مساحة قطر ثمانية آلاف ميل مربع (١٧٥٠٠ كم^٢) وسكانها زهاء مائتي ألف. وهي غنية بالنفط الذي نال امتياز شركة قطر التي تشبه في تشكيلها شركة نفط العراق. وبدأ إنتاج النفط عام ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م) وغدت قطر البلد الحادي عشر في إنتاج النفط في عالم^(٣٣).

كانت قطر جزءاً من البحرين يحكمها حاكم من قبل آل خليفة وأحياناً يستقل بهذه المناطق، وفي كثير من الأحوال كانت منطقة البصرة أو اليمامة هي التي تشرف على المنطقة. وفي القرن الثامن الهجري - استولى بنو نبهان العمانيون على قطر،

(٣٣) د. عبدالكريم غرابية: مقدمة تاريخ العرب الحديث ص ٢٦٠ دمشق ١٩٦١ م

ولم يطل مقامهم بها، ومن بعدهم تناوب على قطر وغيرها من مناطق البحرين كثيرون من أهل البلاد. وفي عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) استولى البرتغاليون على قطر، وفي عام ٩٤٣ هـ (١٥٣٧ م) أرسل السلطان سليمان القانوني أسطولاً بقيادة سليمان باشا والي مصر لمحاربة البرتغال وطردها، ونجح هذا الأسطول في مهمته، فطرد البرتغال من البحرين، والقطيف، وقطر واستولي عليها، كما استولي على الأحساء. وعندما ضعفت الدولة العثمانية استطاع آل حميد من بني خالد أن يطردوا العثمانيين سنة ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ م) ويصبحوا حكام الأحساء.

وعندما قامت الدولة السعودية الأولى مدت سلطانها إلى قطر في عهد عبدالعزيز بن محمد، وأرسلت حملتين إحداهما سنة ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧ م) بقيادة سليمان بن عفيصان، والثانية سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣ م) بقيادة إبراهيم بن عفيصان. وبعد سقوط الدرعية مدّ آل خليفة أمراء البحرين سلطانهم إلى قطر^(٣٤).

ولعل من المفيد أن نتتبع تطور القوى المحلية في قطر منذ البداية، فمن المعروف أن العتوب هاجروا من موطنهم في نجد في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الهجريين، فنزلوا في منطقة قطر في ظل قبيلة آل مسلم التي كانت تحكم تلك المنطقة من شرقي الجزيرة العربية. وقد استقر العتوب في قطر مدة تقرب من نصف قرن، تعلموا خلالها ركوب البحر، وأصبحوا مهرة في شؤون البحار، وعرفوا صيد اللؤلؤ والتجارة البحرية، وخبروا مزايا موقع أرضهم الجديدة في شرق الجزيرة العربية، وبمرور الوقت نمت القوة الاقتصادية البحرية للعتوب، وأصبحوا يمثلون خطراً حقيقياً لآل مسلم حكام قطر. وشعر هؤلاء - أي آل مسلم - أن استمرار وجود آل صباح وآل خليفة في قطر يشكل خطراً عليهم، لذا فقد نشب النزاع بينهم، واضطر العتوب (آل صباح وآل خليفة) إلى الهجرة بحراً نحو رأس تنورة في الأحساء، وتبعهم آل مسلم ليحطموا قواهم حتى لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك، وبعد تنقل وتشتت حطّ العتوب الرحال في ثغر الكويت، واستقروا بعد أن سمح لهم بنو خالد بالإقامة هناك (أي في الكويت). واقتسم العتوب الحكم في الكويت، فكان لآل صباح إدارة شؤون الحكم ولآل خليفة إدارة شؤون التجارة، وللجلاهمة إدارة شؤون البحر. ومالبث آل خليفة

(٣٤) د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ج٧، القاهرة ١٩٧٧، ص ٦٤٦

أن هاجروا من الكويت إلى قطر ثانية في عام ١١٨٠ هـ (١٨٦٦ م) أي بعد خمسة عشر عاماً من إقامتهم في الكويت^(٣٥).

أسس آل خليفة مدينة الزبارة، وسرعان ما نمت وازدهرت لتتحول إلى مركز تجاري نشيط، راح ينافس ميناءى العقير والقطيف على ساحل الأحساء بل وراح ينافس أيضاً موانئ الفرس على الخليج. وفي عام ١١٩٨ هـ (١٧٨٣ م) كان بدء الصدام بين القوى النامية الجديدة وبين القوى القديمة التي أحست بخطر الوافد الجديد، فكان هجوم الفرس بقيادة الشيخ ناصر حاكم بوشهر على الزبارة، وقد دحر هذا الهجوم، وتراجعت السفن القادمة بعد أن تكبدت أفدح الخسائر، وكان من الطبيعي أن تحس القوى الجديدة بذاتها، وأن تزداد لديها التطلعات والآمال^(٣٦).

وكان التطلع نحو البحرين هو هدف القوى المحلية، ففي عام ١١٩٨ هـ (١٧٨٣ م) قامت قبائل العتوب بغزو البحرين بأسطول كبير من شبه جزيرة قطر، وحاصرتها لمدة امتدت حوالي الشهرين، وانتهى الحصار بفتح جزر البحرين، وبعد فتح البحرين تغير ميزان القوى في المنطقة، فبعد أن كان اهتمام آل خليفة مركزاً في قطر، تحول هذا الاهتمام إلى البحرين. وإذا كان دخول البحرين قد تحقق باتحاد قبائل قطر وتكامل وتحالف وقوة العتوب (آل خليفة والجلاهمة وآل صباح) إلا أن الجلاهمة خرجوا من الفتح دون أن ينالوا ما يوازي ما قدموه. لذلك فإن البنيان الجديد أخذ يهتز من داخله ويحمل بين طياته عوامل فنائه، إذ اجتاحت نزاعات، انتهت بانفصال قطر عن البحرين، بعد أن تبلورت في قطر قوة محلية تحت زعامة واحدة بقيادة قاسم آل ثاني^(٣٧).

ونتيجة لما قدمه آل ثاني من مساعدات لآل خليفة في فتح البحرين، عين آل خليفة آل ثاني حكاماً لقطر يحكمونها باسمهم، وهكذا أصبح آل ثاني هم زعماء الشعب في قطر، وقد حافظوا على زعامتهم الشعبية منذ ذلك الحين، وكان ابنه

(٣٥) د. عبدالعزيز المنصور ود. فتوح الخدش: نشوء قطر وتطورها. الكويت دار ذات

السلاسل ١٩٧٧ ص ٣٩، ٤٠

(٣٦) لوريمر. ج.ج: دليل الخليج (التاريخي) ج١، ص ١١٩٧ (قطر ١٩٧٥)

(٣٧) عبد العزيز المنصور، وفتوح الخدش: نشوء قطر وتطورها، ص ٤١

الشيخ قاسم نائباً له في أثناء حياته، ولكنه كان من عظماء السياسة، فبدأ يستقل بالأمر دون أن يعود لاستشارة آل خليفة، فطلب آل خليفة من والده الشيخ محمد أن يرسل لهم ابنه الشيخ قاسم (لتجديد الصلحة ولإزالة الشبهة) فاستجاب لهم^(٣٨). إلا أن البحرين قد ألقت القبض عليه واعتقلته. وهاجم قومه البحرين لإنقاذه ولكنهم هزموا، وتعبتهم قوات البحرين إلى ساحل قطر، وكان ذلك عام ١٢٨٤ هـ (١٨٦٦ م)، وتمكن أهل قطر من اختطاف أحد أقارب شيخ البحرين، ثم أخلوا سبيله مقابل فك أسر الشيخ قاسم الذي أصبح سيد قطر الفعلي^(٣٩).

وكان لتدخل بريطانيا أثر كبير في فصل قطر عن البحرين، فقد عقدت بريطانيا اتفاقية مع الشيخ محمد آل ثاني زعيم قطر تعهد فيها بالآلا يقوم بأي عمل عدواني ضد جيرانه، كما تعهد بالآلا يرتكب أي عمل عدواني في البحر، بل عليه أن يحل كل الخلافات والمنازعات التي قد تنشأ بينه وبين جيرانه بتوجيهها إلى المقيم البريطاني للفصل فيها^(٤٠). وحددت بريطانيا كذلك العلاقات بين قطر و البحرين. وقد وضع هذا الاتفاق أساس استقلال قطر عن البحرين. وكان على قطر أن تدفع ضريبة لحاكم البحرين غير أن الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني الذي تولى الحكم بعد أبيه امتنع عن دفع الضريبة مدعماً بذلك استقلاله^(٤١).

وقد وحد الشيخ قاسم ١٢٩٥ - ١٣٣٢ هـ (١٨٧٧ - ١٩١٣ م) قطر، وقضى على مناوئيه فتألق نجمه، وعلت مكانته، ومن هنا خشي العثمانيون أن يخرج عن طاعتهم كما فعل آل خليفة، فهاجمت القوات العثمانية قطر عام ١٢٨٨ هـ (١٨٧٠ م) واحتلتها وأجبرت الشيخ قاسم على الفرار، واعترف العثمانيون أول الأمر بزعامة أحمد أخي قاسم ثم اعتقلوه. ولكن الشيخ قاسم تمكن من إلحاق هزيمة بالعثمانيين وتحرير أخيه واستعادة سيطرته على قطر. ونجح قاسم في صد حاكم أبي ظبي، واستعادة الدوحة منه، وفرض عليه صلحاً عام

(٣٨) مصطفى كامل الدباغ: قطر ماضيها وحاضرها، ص ١٧٧

(٣٩) عبد الكريم غرابية: مقدمة تاريخ العرب الحديث، ص ٢٥٩

(٤٠) لوريمر. ج. ج: دليل الخليج جـ، ص ١٢١٦

(٤١) أمين الريحاني: تاريخ نجد وملحقاته، ص ١١٣

١٣٠٦-١٣٠٣ هـ (١٨٨٥-١٨٨٨ م)، وفشلت محاولة قاسم لغزو البحرين عام ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) إذ تدخل الأسطول البريطاني، وحطم قوارب الغزو القطرية، وفرض على الشيخ قاسم معاهدة صلح^(٤٢)

وكان الشيخ قاسم سعى العلاقة بالانكليز يعارض سياستهم ولايسير في فلكتهم، مما جعل بريطانيا تتحين الفرصة للانتقام منه، واغتنتم بريطانيا فرصة نشوب الحرب العالمية الأولى، وجلاء القوات والنفوذ العثماني عن قطر، ففرضت في عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٦ م) معاهدة حماية على قطر بعد أن تنازلت لها الدولة العثمانية عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٣ م) عن حقوقها في قطر في العام الذي توفي فيه الشيخ قاسم. وقد جاء في هذه الاتفاقية «تتنازل الدولة العثمانية عن جميع حقوقها في شبه جزيرة قطر التي سيستمر في حكمها الشيخ قاسم بن ثاني وخلفاؤه من بعده، وتعلق الحكومة البريطانية أنها لن تسمح بتدخل شيخ البحرين في أمور قطر الداخلية أو ضمها إلى أراضيها»^(٤٣)

خلف الشيخ قاسم ابنه الشيخ عبدالله الذي لم يكن في حزم أبيه ومكانته، فأصبح النفوذ البريطاني في عهده قوياً وعقد معاهدة مع بريطانيا، وفي عهده اكتشف النفط فمنح امتيازاً لاستثمار النفط عام ١٣٥٥ هـ (١٩٣٤ م)، وظل الشيخ على في الحكم حتى عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م) وفي عهده حدثت زيادة هائلة في النفط في قطر نتج عنه ارتفاع في مستوى المعيشة وزيادة في العمران. ولكن الشيخ علي تنازل لابنه الشيخ أحمد ليصبح أميراً لقطر، ونصت وثيقة التنازل على أن يكون الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني (ابن أخي الشيخ علي) ولياً للعهد ونائباً للحاكم الجديد، وقد ظل الازدواج قائماً حتى عام ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م) حيث عزل الشيخ أحمد، وأصبح الشيخ خليفة بن حمد هو أمير قطر وحاكمها، وما زال حتى اليوم، وهو الذي أعلن استقلال البلاد عام ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م)^(٤٤).

(٤٢) عبدالكريم غرابية: تاريخ العرب الحديث، ص ٢٦٠

(٤٣) مصطفى الدباغ: قطر ماضيها وحاضرها، ص ١٩٤

(٤٤) المرجع السابق.

ز - البحرين

مجموعة من الجزر تقع في الخليج الكائن بين شبه جزيرة قطر وساحل المنطقة الشرقية (الأحساء) بالمملكة العربية السعودية، لاتزيد مساحتها جميعاً على ٥٧٥ كيلو متراً مربعاً. ويزيد عدد الجزر على إحدى عشرة جزيرة، أكبرها جزيرة البحرين التي أعطت اسمها للدولة كلها، والذي أخذته من اسم المنطقة كاملة، وكانت من قبل تعرف باسم جزيرة (أوال).

سبق أن ذكرنا أن بني خليفة وهم من العتوب قد غادروا القرين (الكويت) مغاضبين أبناء عموماتهم آل الصباح لسبب من الأسباب، واتجهوا نحو الجنوب، ورغبوا في الاستقرار في جزيرة البحرين، ولكن حكام الجزيرة من بني مذكور من قبيلة المطاريش لم يسمحوا لهم بذلك مما اضطرهم إلى متابعة السير إلى (الزبارة) في قطر فنزلوا فيها عام ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) بإمرة شيخهم محمد بن خليفة، وكانت المنطقة من ديار بني مسلم.

حصن آل خليفة الزبارة، وحصلوا على نوع من الاستقلال الذاتي ولما طالبهم آل مسلم بدفع الزكاة لهم رفضوا ذلك، ولم يمض بعد على استقرارهم أكثر من عامين. وعمل آل خليفة بصيد اللؤلؤ، ونمت تجارتهم، وعفوا البضائع من الرسوم فتطورت مدينتهم وجذبت إليها عدداً من القبائل الأخرى منها عدد من العتوب من الكويت، مثل قبيلة الجلاهمة التي منها آل جابر أشهر قبائل العتوب في ركوب البحر، وكان المهاجرون من الكويت من الكثرة حتى اضطر أهل الزبارة إلى رفض بعضهم وطردهم وإعادتهم إلى الكويت.

ضعفت دولة آل خالد في المنطقة وحصل كثير من أتباعهم على الاستقلال مثل آل الصباح في الكويت، وآل مسلم في قطر، وسار على طريقهم آل خليفة في (الزبارة).

وقع خلاف بين آل خليفة وآل جابر، واعتزل آل جابر في منطقة (الرويس)، وعملوا في بناء أسطول خاص بهم، ثم تجدد الخلاف فقتل زعيم آل جابر، وأبيد

أكثرهم، ولم ينج منهم إلا القليل وأكثرهم من النساء والأطفال.
وحصل نزاع بين آل خليفة في (الزبارة) وبين حكام (بوشهر) و (الدورق) و (بندر رق) وهؤلاء لهم السيطرة على جزيرة البحرين، ونتيجة الصراع سيطر آل خليفة على جزيرة البحرين.

وبدأ الصدام بين السعوديين في الأحساء وآل خليفة في (الزبارة)، وذلك عام ١٢١٠ هـ (١٧٩٥ م)، ابتداء السعوديون بالهجوم على الزبارة بقيادة إبراهيم بن عفيصان وألقوا الحصار على المدينة، ولما اشتد الأمر على سكانها قرروا إخلاءها وتخريبها وارتحلوا عنها بصورة جماعية إلى البحرين، إلا أن قادتهم قد وقعوا أسارى بين ابن عفيصان الذي عين حاكماً على البحرين من قبله.

رجع سلمان بن خليفة عام ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م) حاكماً على البحرين، ولكنه تعرض في العام التالي لهجوم سلطان مسقط عليه، إلا أن هذا الهجوم قد فشل غير أنه نجح في المرة الثانية بعد سنة، وفتحت مدينة المنامة أبوابها لسلطان مسقط الذي نقل بعض الرهائن من آل خليفة إلى مسقط على حين هرب بعضهم إلى (الزبارة).

واستطاع آل خليفة بعد عامين من الرجوع إلى جزيرتهم، وكان النفوذ السعودي ينتشر في البحرين فاستعان آل خليفة بالسعوديين ضد العثمانيين. وتوطدت العلاقات بين آل سعود وآل خليفة، وخاصة عندما رجع سلمان بن خليفة إلى الحكم بمساعدة عبد العزيز بن محمد آل سعود عام ١٢٢٤ هـ (١٨٠٩ م)، بعد أن أجبر على تركه بسبب هجوم سلطان عمان.

تمكن الجيش السعودي من طرد سلطان عمان، ولكنه أخذ بعض آل خليفة إلى نجد حيث احتجزهم الإمام سعود الكبير هناك. لكن آل خليفة استعانوا بأعدائهم السابقين العثمانيين ضد السعوديين. وأخرج السعوديون من البحرين بمساعدة الأمير عبد الله بن أحمد الذي ثار عليه بعد مدة أحد أبناء عمومته، وهو محمد بن خليفة بن سلمان، إلا أن محمداً هذا قدهزم في معركة (الناصفة) فالتجأ إلى عبد الله بن ثيان من آل سعود، وكان وقتذاك في المنطقة الشرقية. ولكن ابن ثيان لم يستفد من خلاف آل خليفة لأن حكمه قد انتهى بمجيء فيصل

بن تركي. فذهب محمد بن خليفة يطلب النجدة من قطر فحصل عليها، واستطاع الانتصار على ابن عمه عبدالله بن أحمد، وتسلم الحكم عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م).

فر عبد الله بن أحمد إلى إيران، وطلب النجدة، ولكنه لم يوفق، أما من الجهة الثانية فقد تمكن الإمام فيصل بن تركي آل سعود من دخول مدينة الدمام وانتزاعها من أيدي البحرينيين، وأراد السيطرة على البحرين كلها.

انتقل عبدالله بن أحمد إلى الدمام ولكنه لم يستفد شيئاً، وتوفي عام ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م)، وصفا الجولم محمد بن خليفة الذي استمر في الحكم حتى عام ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م)، وكان قد عقد معاهدة مع بريطانيا عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م).

انتقل الحكم إلى علي بن خليفة بعد وفاة محمد غير أنه قتل بعد عدة أشهر بيد أخيه ناصر، ولكن عيسى بن علي قد قبض على زمام الأمر، وتسلم الحكم حتى عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٦ م)، وعقد معاهدة عام ١٢٩٨ هـ (١٨٨٠ م) مع بريطانيا وجددت عام ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م) وبموجبها لا يحق لأمير البحرين أن يتنازل عن أي جزء من أراضيه إلى أية جهة سوى بريطانيا، ولا أن يعقد أية علاقة مع أية دولة دون علم بريطانيا، وأن يقيم مستشار بريطاني في المنامة بجانب الأمير.

توفي الأمير عيسى بن خليفة عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) فتسلم الحكم بعده ابنه أحمد حتى عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م)، وفي عهده وجد النفط في البلاد بكميات تجارية. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية وقعت بريطانيا نيابة عن شيخ البحرين معاهدة تمنح الحكومة الأمريكية بموجبها حق اتخاذ البحرين مقراً لقيادة أسطولها في الشرق الأوسط.

تسلم الحكم في البحرين بعد وفاة الأمير أحمد ابنه سلمان حتى عام ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م)، وقد طرد سلمان المستشار البريطاني من البلاد عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) وبدأت البلاد تسير نحو الاستقلال الذي تم في عهد عيسى بن سلمان الذي لا يزال أميراً على البلاد، إذ أجري استفتاء في البحرين من قبل الأمم

المتحدة استقلت على إثره عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م)، وانضمت إلى الأمم المتحدة وإلى جامعة الدول العربية.

ح - الكويت

تقع الكويت في الزاوية الشمالية الغربية من الخليج العربي على هيئة مثلث، ضلعه الشمالي عند حدود العراق، وضلعه الجنوبي على مشارف المملكة العربية السعودية، وضلعه الثالث الشرقي على شاطئ الخليج العربي. ويبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٢٨٠ كيلو متراً وعرضها من الشرق إلى الغرب ٣٨ كيلومتراً ومساحتها ١٥٠٠٠ كم^٢، وعدد سكانها حوالي مليون وربع مليون. وأرضها صحراوية قارية المناخ ترتفع درجة الحرارة فيها صيفاً إلى ٤٨° درجة مئوية في الظل أثناء النهار، ولا تهطل فيها أمطار إلا نادراً وتفتقر إلى الينابيع. ويقع على طول الساحل عدد من الجزر الصغيرة أهمها جزيرة بوبيان، وهي أكبرها ولكنها غير مسكونة، وجزيرة فيلكا التي يسكنها عدد قليل^(٤٥).

ولم يكن اسم الكويت معروفاً قبل القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، فقد كانت منطقة الكويت تحمل اسم القرنين بسبب وقوعها على خليج الكويت الذي يشبه القرن، أما كلمة (كويت الحالية) فهي تصغير لكلمة كوت، والكوت عبارة عن حصن صغير كان موجوداً فيها، وبناه محمد بن عريعر زعيم قبيلة بني خالد التي كانت تسيطر على تلك المناطق فأقام فيها بعض أتباعه، واتخذوا منه مستودعاً للزاد والدخيرة، وما يحتاجون إليه، فإذا أرادوا الغزو شمالاً أو المرعى قريباً من ذلك الحصن تزودوا بما يريدون، ونسبة إلى الكوت سميت الكويت، وذلك بعد هجرة آل الصباح إليها.

والواقع أن استقرار الحكم لآل صباح في الكويت قد مر بمراحل عدة، فقد هاجر آل الصباح من نجد ومعهم آل خليفة وبعض جماعات العتوب، فوصلوا إلى الزبارة في شبه جزيرة قطر، فأقاموا فيها بعض الوقت غير أنهم لم يلبثوا أن

(٤٥) عبدالكريم غرابية: تاريخ العرب الحديث ص ٢٤٤ - ٢٤٥

غادروها إثر معركة دارت عند رأس تنورة رغم أن النصر كان حليفهم، ومن ثم واصلوا سيرهم بحراً حتى وصلوا الى منطقة الكويت. فزلوا بجوار كوت بني خالد استأذنوهم في النزول فرحب بنو خالد بهم وكان ذلك عام ١١٢٩ هـ (١٧١٧ م). فاتفق جماعة العتوب على إدارة شؤون البلاد إدارة مشتركة، على أن يتولى آل صباح شؤون الحكم، وأن يتولى آل خليفة شؤون المال والتجارة في حين يتولى الجلاهمة شؤون العمل في البحر. فاستقل آل صباح بحكم الكويت ١١٧٠ هـ (١٧٥٦ م) بعد أن هجرها آل خليفة وتبعهم الجلاهمة، واختار اهل الكويت في عهدهم وازدادت أهميتها مما أدى الى قيام نوع من العلاقات المحلية والمنافسات الدولية بشأنها.

وأقام آل الصباح علاقات ودية مع القوي المحلية المجاورة، فاتفقوا مع بني خالد على حسن الجوار وعدم الانضمام إلى أعدائهم مقابل استقلال آل الصباح في حكم الكويت، ولكنهم (آل صباح) مالبثوا أن تخلصوا من هذا الارتباط واستقلوا بالكويت. أما بالنسبة لبنى كعب (أمراء عربستان) فقد كانوا يسيطرون على الخليج ويفرضون الضرائب على سكان المنطقة، ولكن آل صباح رفضوا أن يدفعوا هذه الرسوم، فجرت معركة بحرية بين الطرفين في موقعة الرقة وانتصر فيها الكويتيون بقيادة الشيخ عبدالله الأول الصباح ١١٧٦-١٢٢٩ هـ (١٧٦٢-١٨١٧ م)، وتابع الكويتيون حروبهم مع بنى كعب في عهد الشيخ جابر الأول الملقب بجابر العيش، ١٢٢٩-١٢٧٦ هـ (١٨١٧-١٨٥٩ م) وأحرزوا انتصارات كثيرة مكنتهم من توطيد نفوذهم في البلاد. وساعد آل صباح أبناء عمومته من آل خليفة حينما استولوا على البحرين.

ونمت الكويت بسرعة وازداد عدد سكانها، وأصبح لها أسطول تجاري من ثمانمائة مركب شراعي، كما ازدادت أهميتها التجارية بعد سقوط البصرة. وتعرضت الكويت أواخر عهد عبدالله لخطر الوهابيين. وتدخل الانكليز لمنع الجيش المصري من التمرکز في الكويت عام ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م) فاكثفوا بإرسال مندوب سياسي إليها. وفي عهد الشيخ جابر الأول توطدت علاقة الكويت مع العثمانيين، وقدم لهم مساعدات عسكرية، وذلك بسبب الهجمات الوهابية على الكويت. ولم يحدث ما يستحق الذكر في عهد صباح ١٢٧٦-١٢٨٤ هـ (١٨٥٩-١٨٦٦ م) سوى

تأزم العلاقات بينه وبين عبدالله بن فيصل آل سعود.

وازداد النفوذ العثماني في عهد عبدالله الثاني بن صباح بن جابر (١٢٩٣-١٣٠٩ هـ (١٨٧٥-١٨٩١ م)، فقد اتبع عبد الله سياسة موالية للعثمانيين فعينه مدحت باشا قائمقام (أي متصرفاً) على الكويت مرتبطاً بولاية البصرة. وقدم الشيخ عبدالله مساعدة عسكرية للحملة العثمانية التي أرسلها مدحت باشا لاحتلال الأحساء. وخلفه في الحكم أخوه محمد ١٣٠٩-١٣١٣ هـ (١٨٩١-١٨٩٥ م) والذي كان كأخيه موالياً للعثمانيين وشارك محمد أخاه جراحاً بالحكم فأغضب بذلك الأخ الثالث مبارك. واعترفت الحكومة البريطانية في عهده في عام ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م) بتبعية الكويت للعثمانيين.

استولى مبارك على الحكم ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) بعد أن قتل أخويه محمداً و جراحاً، وعمل على النهوض بالكويت فزاد من عمرانها، واتسعت مساحتها، وكثرت منازلها، وتقدمت تجارتها، وزادت ثروتها بفضل الاهتمام بحرفة الغوص، واستتب الأمن والنظام في عهده، وأسس أول مدرسة نظامية والتي حملت اسمه (المدرسة المباركية) ولا تزال قائمة حتى اليوم.

ومنذ أن تولى مبارك الحكم ساءت علاقته بالدولة العثمانية خاصة بعد أن فر يوسف آل إبراهيم وأولاد محمد وجراح إلى البصرة، واستنجدوا بوالي البصرة ضد مبارك معترضين على الطريقة التي استولى بها مبارك على الحكم، غير أن الدولة العثمانية اضطرت للاعتراف به حاكماً على الكويت. ولجأ يوسف إلى قاسم بن ثاني شيخ قطر فاستعان مبارك بمتصرف الأحساء واستنجد يوسف بابن الرشيد فهزم ابن الرشيد مباركاً في معركة (الصريف) ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) وكان الأمير عبدالرحمن بن سعود و ابنه عبدالعزيز قد لجأ إلى الكويت فراراً من ابن الرشيد. ولكن مباركاً ساعد آل سعود ضد ابن الرشيد فتمكن عبدالعزيز آل سعود من احتلال الرياض ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) واستراح مبارك بعد أن تخلص من أعدائه إثر وفاة خصيمه يوسف آل إبراهيم وابن الرشيد.

ولكن علاقاته مع الدولة العثمانية ظلت متوترة، فقد رفض السماح للعثمانيين بتعيين مشرف عثماني لميناء الكويت وإيفاد موظف للحجر الصحي، وإقامة دار عوائل فيها. ووجود قوات عثمانية في الكويت. فوجهت الحكومة العثمانية إنذاراً

إلى الشيخ مبارك طلبت فيه أن يتخلى عن بريطانيا، وعرضت على مبارك عضوية مجلس الشورى في استانبول أو الإقامة في أي مكان والتخلي عن مشيخة الكويت على أن تدفع له مرتباً كبيراً. واستنجد مبارك بالانكليز الذين أيدوه وعقد معهم معاهدة ١٣١٦ هـ (١٨٩٩ م) تعهد فيها بوضع الكويت تحت الحماية البريطانية.

والواقع أن محاولات بريطانيا ومساعدتها المستمرة قد كللت بالنجاح، فقد حاولت بريطانيا مراراً قبل عهد الشيخ مبارك أن تعقد معاهدة ولكن محاولاتها باءت بالفشل، إلا أنها نجحت مع الشيخ مبارك الذي تعهد بجعل سياسته الخارجية مرتبطة ببريطانيا كما ألزم نفسه وورثته من بعده بالألا يتنازل أو يؤجر أو يبيع أو يرهن أي جزء من أراضيه إلى حكومة أخرى دون موافقة بريطانيا.

ويمكن تفسير هذه الاتفاقية (المعاهدة) على أنها التزام من جانب واحد هو الكويت، وليس فيه التزام من جانب بريطانيا. وقد حصلت بريطانيا بموجب هذه الاتفاقية على امتيازات مختلفة منها حظر استيراد الأسلحة إلى الكويت أو تصديرها، وإقامة مكتب بريد انكليزي وإقامة لاسلكي واتفاق حول النفط.

ووقف الشيخ مبارك إثر ذلك موقفاً حازماً من العثمانيين. فلم يرحب بالبعثة الألمانية التي وصلت إلى الكويت عام ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) برئاسة القنصل الألماني في بغداد لدراسة خط حديد برلين بغداد. وانتقم منه العثمانيون بمصادرة أملاكه في البصرة. وسويت علاقاته بالعثمانيين الذين تخلوا عن الكويت واعترفوا بالأمر الواقع، وأعادوا إليه أملاكه في البصرة. وحاول مبارك بدوره مجاملة العثمانيين ف تبرع لضحايا حريق استانبول عام ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م)، كما تبرع لحرب طرابلس فمنحه السلطان العثماني الوسام المجيدي، وتنازل العثمانيون عن الكويت عام ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) واعترفوا بمركز بريطانيا الممتاز فيها. كذلك اعترف ابن سعود بالوضع الجديد في الكويت. وأيد مبارك الحملة البريطانية ضد البصرة أثناء الحرب العالمية الأولى، فتعهدت بريطانيا بالاعتراف باستقلاله تحت الحماية البريطانية.

وفي عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٥ م) توفي الشيخ مبارك، وخلفه في الحكم ابنه جابر الذي حكم لمدة سنتين فقط والذي خفض الرسوم على تجارة اللؤلؤ وأعفى الناس من ضريبة العقارات، وفي عهده عقد مؤتمر الكويت لحكام الخليج لدعم ثورة

الشيخ حسين. وخلفه في الحكم أخوه سالم والذي عمل على تنمية التجارة في عهده فخفض الرسوم الجمركية على الواردات إلى ٤٪، وألغى كافة الرسوم عن الصادرات، وربط الكويت بالعالم الخارجي عن طريق محطة البرق. وأقيم في عهده سور الكويت لحمايتها من الأعداء. أما سياسته الخارجية فقد تميزت بالتوتر مع بريطانيا والسعوديين، فقد رفض محاولات بريطانيا فرض حصارٍ على بلاده لمنع تصدير الأسلحة للعثمانيين في بلاد الشام، ولكنه اضطر تحت التهديد الانكليزي بوضع لجنة مراقبة انكليزية في ميناء الكويت إبان فترة الحرب. وبالنسبة لعلاقته مع السعوديين فقد ساءت بسبب مسألة الحدود بين البلدين وجرت معركة (حمض) ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م) جنوبي الكويت هزم فيها الكويتيون واضطروا إلى بناء السور، كما وقعت معركة (الجهراء) ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م) والتي كاد يسيطر فيها السعوديون بقيادة فيصل الدويش لولا تدخل بريطانيا. وظلت العلاقات سيئة مع أن أهل الخير حاولوا إصلاح ذات البين بين السعوديين والكويتيين إلا أن القدر لم يمهل الشيخ سالماً ليرى نتيجة الصلح.

تولى الشيخ أحمد الجابر ١٣٤١-١٣٧٠ هـ (١٩٢٢-١٩٥٠ م) الحكم عقب وفاة عمه الشيخ سالم، وقد شهدت البلاد نهضة في عهده فقد شكل مجلس الشورى، ومجلس البلدية، والمعارف، والمجلس التشريعي، وذلك استجابة لرغبات المواطنين بالاشتراك بالحكم إلا أن هذه التجربة فشلت لأن الشيخ أحمد الجابر لم يرد لها النجاح بسبب الخلاف بين الحكومة والمجالس. وقد عني كذلك بتشجيع الحركة العلمية والأدبية والفكرية في الكويت، كما أسست في عهده الدوائر الحكومية، وتدفق النفط في عهده بكميات تجارية صارت تصدر منذ عام ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م) ونجح الشيخ أحمد الجابر في حل مشكلاته مع السعوديين وخاصة مسألة الحدود المسابغة (التجارة) فقد نجحت بريطانيا بحل هذه المشكلات بعد عقد مؤتمر العقبة ١٣٤٢ هـ (١٩٢٤ م) لحل مشكلة الحدود. وتوطدت علاقته مع السعودية ومع البلاد العربية الأخرى.

وخلفه في الحكم ابن عمه الشيخ عبدالله سالم الصباح ١٣٧٠-١٣٨٥ هـ (١٩٥٠-١٩٦٥ م)، وقد عمل الشيخ عبدالله على توجيهِ ثروة البلاد وطاقاتها وإمكاناتها لتطوير الكويت في نظم الحكم والادارة والنهوض بها في جميع الشؤون

العلمية والاجتماعية والاقتصادية. وفي عهده استقلت الكويت في عام ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م) ودخلت الجامعة العربية، وهيئة الأمم، وفي المجال الداخلي وجد بالكويت الدستور والمجلس النيابي، وتشكلت حكومة من ١٤ وزيراً، كما تقدمت الحالة العلمية، والاجتماعية، والاقتصادية في عهده. وفي المجال الخارجي أسهمت الكويت بنصرة القضايا العربية وخاصة قضية فلسطين من بلاد الشام، كما ساهمت في تقديم العون المادي للدول العربية، وتطورت الكويت في عهده تطوراً كبيراً فاق كل التصورات.

وتابعت الكويت مسيرتها الحضارية في عهد كل من الشيخ صباح الصباح (١٣٨٥-١٣٩٨ هـ (١٩٦٥-١٩٧٨ م) وحاكمها الحالي الشيخ جابر الأحمد الجابر فقد شهد عهد الشيخ صباح افتتاح جامعة الكويت، وازدياد المدارس، والمعاهد العليا الفنية، كما تقدمت كافة الخدمات الصحية والاجتماعية، واشتركت الكويت في مؤتمرات القمة العربية، والمؤتمرات الإسلامية، والمؤتمرات الدولية، ومازالت الكويت تنمو وتتطور في عهد حاكمها الحالي الشيخ جابر الأحمد الجابر.

وقد حاول الاتحاد العربي الذي تألف من العراق والأردن ضم الكويت إليها على أنها جزء من العراق، ثم حاول عبد الكريم قاسم ذلك عام ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م)، واحتلها بعدئذ صدام حسين عام ١٤١١ هـ ٢ أغسطس (١٩٩٠ م) فكان ذلك سبباً في حرب الخليج، وتشنت شمل المسلمين، وذهبت ریحهم، وأجبر صدام حسين حاكم العراق على الانسحاب من الكويت.

٢ - بلاد الشام

كانت بلاد الشام كلها جزءاً واحداً منذ أن فتحها المسلمون وقبل ذلك، وكانت ضمن أجزاء الدولة الإسلامية أيام الراشدين، ومقر الدولة الأموية، ثم تبعت العباسيين، وخضعت أجزاء منها للطولونيين في مصر، وقامت في الشمال الدولة الحمدانية، وتقاسمت بلاد الشام مع الأخشيديين في مصر، وكان صراع دائر بين الطرفين على أرضها. وقامت الدولة الفاطمية في مصر، وكان نفوذها يمتد

إلى بعض أطراف الشام التي ضعفت هيبة الحكم فيها تماماً، وجاء الصليبيون وحصلوا على بعض النصر وشكلوا إمارات في الرها، وطرابلس، وعكا، واستولوا على القدس، وقام آل زنكي يقفون في وجه الصليبيين، وقضى صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية في مصر، واتحدت الشام ومصر تحت نفوذ الدولة الأيوبية، وأخرج صلاح الدين الصليبيين من القدس عام ٥٨٢ هـ، وقام يقاتلهم، ولكن ضعف الأيوبيون من بعده، وإن استمر الصراع مع الصليبيين، وقامت الدولة المملوكية في مصر على أنقاض الدولة الأيوبية عام ٦٥٨ هـ.

وكانت الدولة العباسية قد سقطت على أيدي المغول عام ٦٥٦ هـ فتعرضت الشام للغزو المغولي فسادت الفوضى وحل الدمار كما حدث أيام الصليبيين، ووقف المماليك في وجه المغول وانتصروا عليهم في معركة عين جالوت عام ٦٥٨ هـ، كما أن هؤلاء المماليك تمكنوا من التخلص من الصليبيين نهائياً والقضاء على مراكزهم جميعاً في الشام ومصر، وتوسع نفوذ المماليك، وامتدت الدولة على أرجاء واسعة، ثم اعترها الضعف.

وجاء البرتغاليون من الجنوب وقد التفوا حول إفريقية، جاءوا يريدون تطويق المسلمين لحصارهم والقضاء عليهم، جاءوا يحملون الحقد الصليبي وقد أخرجوا المسلمين من الأندلس عام ٨٩٧ هـ واحتلوا عدن عام ٩١٩ هـ (١٥١٣ م)، كما ركزوا أنفسهم في الخليج العربي عام ٩٢١ هـ (١٥١٥ م)، وقد تساهل الصفويون حكام فارس معهم، أو لقوا شيئاً من الدعم منهم، وحاول المماليك الوقوف في وجه البرتغاليين، ولكنهم هزموا أمامهم، فساد الفزع المسلمين، وعم الخوف.

وتحرك العثمانيون من الشمال يريدون أن يقفوا في وجه البرتغاليين للدفاع عن الإسلام وأرضه. ورفض المماليك مرور العثمانيين من أرضهم خوفاً على أنفسهم منهم، وخوفاً من انتقام خصوم العثمانيين من المماليك. فما كان من العثمانيين إلا أن دخلوا الشام عنوةً ثم مصر، ورحب الشعب بهم بحرارة، بل طلبوا منهم ذلك، إذ جاءوا حماة ومنقذين، فالمماليك ضعاف وقساء من جهة، والبرتغاليون يهددون ويحملون معهم الحقد الصليبي الذي لا يزال يتناقل أهل الشام مآسيه، وانضم الشاميون وقادتهم إلى العثمانيين القادمين بقيادة السلطان سليم في معركة مرج دابق شمال حلب عام ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) فهزم المماليك وقتل قائدهم

قانسوره الغوري. ثم دخل السلطان سليم بقية الشام دون مقاومة بل بالترحيب. وأصبحت بلاد الشام جزءاً من الدولة العثمانية التي غدت أقوى الدول الإسلامية، ومقر الخلافة. كانت استانبول عاصمة هذه الدولة التي تقدمت في أوروبا بل وصلت إلى أواسطها وحاصرت فيينا عدة مرات. وخافت أوروبا ورأت في ذلك قوة للإسلام من جديد فقامت تقاتل الدولة العثمانية وتعمل على تجزئتها وتدعم كل حركة تقوم فيها، وتضفي عليها صفة الاخلاص والوطنية مادامت ضد العثمانيين، وأخذنا نحن هذا بعد ذلك من الأوربيين - مع الأسف - عندما سجلنا التاريخ، وقعلاً قامت بعض الحركات من الفئات المعادية للإسلام أمثال المعنيين أمراء الدروز في لبنان ثم خلفائهم الشهابيين، كما قام بعض المتمردين من قطاع الطرق أمثال ضاهر العمر، وكلهم أخذوا صفةً فيما بعد أسموها الوطنية كما نعتهم أوروبا. كما قام المهاليك في مصر، وتقدموا في جنوب بلاد الشام. كما تقدم الفرنسيون أثناء حملة نابليون على مصر ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م)، ولكن هزموا أمام أسوار عكا وصمود واليها. وفشلت الحركات كلها.

وقامت أوروبا تدعم الطائفية في الشام، وقد يدها للنصارى في جبال لبنان، وتؤسس المدارس لهم حتى قوي أمرهم، ولا تتمكن أوروبا من ذلك إلا بسبب ضعف الدولة العثمانية، وأوجدت أوروبا لهؤلاء النصارى فكرة القومية (العصبية الوطنية) يستترون بها، وليس لهم دعوة سواها حتى بزغ قرنهما، وقوي أمرها، وانطلقت الدعوة لها. ووصلت هذه الدعوة إلى الدولة العثمانية، وسيطر الاتحاديون أنصار الدعوة القومية على مقدرات الخلافة، فوجدت قوميتان وبدأ الصدام، واستفاد مروجوها فأثاروا العرب ضد الترك وضموها إلى جانبهم في الحرب العالمية الأولى، إذ تحرك الشريف حسين من مكة وقاد ابنه فيصل القوات المنضمة إليه ضد العثمانيين الذين هزموا أمامهم وأمام الانكليز المتقدمين من مصر ودخلوا بلاد الشام. ونتيجة الصراع بين هاتين القوميتين فقد أضفى الوطنية على كل الذين حاربوا العثمانيين مدى التاريخ سواء أكانوا حاقدين على الإسلام أم قطاع طرق، أم خونة متصلين مع الغرب، أم مخلصين فعلاً ينشدون الإصلاح والعودة بالإسلام إلى النبع الأصيل بعد أن شابت أعمال أبنائه الشوائب.

وفي الوقت نفسه فقد تفاهمت الدول الأوروبية على تقسيم بلاد الشام فيما بينها،

فكان نصيب فرنسا بلاد الشام الشمالية (سوريا ولبنان)، ونصيب انكلترا بلاد الشام الجنوبية (الأردن وفلسطين)، واحتلت انكلترا فلسطين أثناء مطاردة الترك، وانسحبت من الأراضي التي دخلتها في الشمال، وتقدمت بعد ذلك إلى شرق الأردن، وانزلت فرنسا قواتها على ساحل بلاد الشام الشمالية، استقرت في لبنان ثم تقدمت نحو الداخل. وأصبح لكل جزء من هذه الأجزاء تاريخ نضال خاص. ومن المؤسف حقاً أننا قبلنا تقسيم الغرب، وتعصّبنا للانفصالية، ورسخنا جذور هذه التجزئة بجهلنا، وغدت الشام أجزاء يفاخر أبناء كل جزء بجنسيتهم التي حملوها نتيجة عمل الصليبيين المستعمرين.

١ - سوريا

الحكم العربي في سوريا ١٣٣٧ - ١٣٣٩ هـ (١٩١٨ - ١٩٢٠ م)

احتل جيش الثورة العربية بقيادة فيصل الأول دمشق في أيام عام ١٣٣٦ هـ (٢٣ ذي الحجة) ودخلت معه الجيوش البريطانية، ثم استمرت الكتائب العربية في الزحف إلى ما وراء دمشق، حتى دخلت حمص وحماه وحلب من جهة، ومن جهة أخرى استمر الزحف الساحلي الذي بدأ في حيفا وعكا إلى صور وصيدا وبيروت، وطرابلس وبذلك تم الاستيلاء على الشام.

قوبل دخول فيصل إلى الشام بحماسة كبيرة في جميع المدن الشامية التي أخذت ترفع الأعلام العربية، وتعلن انضمامها للثورة واستجابتها لأوامر القيادة العربية، قبل أن تصل إليها كتائب الجيش الظافر، لإيادتها بأنها بأن دخول فيصل دمشق هو تحقيق لآمال رجال الحركة العربية في الاستقلال بعد ما عُدّيت بفكرة الصراع بين العرب والترك، وبعد أن أعدم جمال باشا الذين يتعاونون مع الانكليز والفرنسيين لطرد الترك من بلاد الشام إثر دخوله سفارتي هاتين الدولتين، ولم يعلم الشعب هذه العلاقات فأضفى صفة الشهداء على هؤلاء الذين أعدموا نتيجة صلاتهم مع الأجانب. وقد أيدت بريطانيا هذا الحديث، لهدف يختلف تماماً عن أهداف السكان، لإيادتها بأن حكومة عربية بقاعدتها الواسعة كانت قادرة على

امتصاص حساسة وتضحيات الثوار، وجعلها مسألة. وكان أول عمل قام به فيصل في دمشق أن شكل حكومة عسكرية برئاسة رضا باشا الركابي، تشمل صلاحياتها الشام كلها، وأرسل شكرى باشا الأيوبي إلى بيروت لتأسيس إدارة عسكرية فيها. وقد ضمت حكومة فيصل سوريين وفلسطينيين ولبنانيين وعراقيين وحجازيين، وأخذوا يعملون يداً واحدة في مجابهة دسائس الاستعمار، ووضع أسس جديدة لدولة عربية حديثة حديثة تحمل الفكر اللاديني (العلماني) الذي ينادي به ويعمل له (ساطع الحصري) الذي كان ظل فيصل، وقد أو كل إليه توحيد التعليم في الشام.

وفي هذه الأثناء، وقبل إقرار الأوضاع شرعياً ودولياً، قسمت البلاد السورية الى ثلاث مناطق بإشراف الجنرال اللنبي. وكان المنطقة الأولى الشرقية: وتشمل (سوريا وشرق الأردن) برئاسة الأمير فيصل، والثانية المنطقة الغربية: وتشمل الساحل السوري (صور، صيدا، بيروت، طرابلس، اللاذقية، وقضائي انطاكية واسكندرونة) وهي تحت الحكم الفرنسي والمنطقة الثالثة: شملت، سهول عكا، وسارونة، ومنطقة القدس ونابلي «فلسطين»، ووضعت تحت الحكم البريطاني.

وسرعان ماتطورت الأمور لتكشف حقيقة نوايا الدول الغربية، فقد ساورت الشكوك السكان حول هذه التقسيمات ووجدوها أنها مطابقة للمخطط الاستعماري الذي وضعه الانكليز والفرنسيون (سايكس - بيكو ١٣٣٥ هـ - ١٩١٦ م) وقد عرف هذا فيصل في العقبة أثناء تحرّكه نحو الشمال إذ التقى بجمال باشا، وأطلعته على تفاصيل هذه الاتفاقية، وقد حصل عليها عن طريق حلفائه الألمان، ولكن لم يعلم الشريف حسين بذلك، إلى جانب الشائعات التي تناقلتها الصحف. وتحولت شكوكهم إلى يقين عندما أقدمت الجيوش الفرنسية على احتلال بيروت وسائر المدن الساحلية في بلاد الشام، وأنزلت الأعلام العربية عن المباني الرسمية، وطردت ممثل حكومة فيصل من بيروت. وأدى ذلك إلى قيام حركة تمرد في الجيش العربي، مما جعل فيصل يطلب من الجنرال اللنبي توضيح الموقف، فصدر على الإثر البيان البريطاني الفرنسي في اليوم الأول من شهر صفر عام ١٣٣٧ هـ ٢٧ تشرين الثاني (١٩١٨ م) الذي أكد للعرب أن هدف فرنسا وبريطانيا من خوض الحرب في الشرق هو تحرير الشعوب التي رزحت أجيالاً طويلاً تحت مظالم الترك

تحريرا نهائيا وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيارها الأهالي الوطنيين لها اختيارا حرا. «وقد أسكت هذا البيان الشعب» لأن قاداته قد سكتوا ورضوا، بل كانوا راضين إلا أمام شعورهم.

انتهت الحرب العالمية الأولى، وعقدت الهدنة في ٤ صفر عام ١٣٣٧ هـ (١٩١٨ م)، بين الفريقين المتحاربين الحلفاء وألمانيا، فاطمأن قادة العرب لطرد الأتراك من البلاد العربية، وباتوا ينتظرون تحقيق وعود الحلفاء. ذهب فيصل إلى باريس في أواخر ربيع الأول ١٣٣٧ هـ (١٩١٩ م) لحضور مؤتمر الصلح بصفته رئيسا للوفد الحجازي، ويمثلا لوالده الشريف حسين، فواجهته صعوبات كثيرة في باريس منها: عدم اعتراف فرنسا به بحجة أن الحلفاء لم يعترفوا بعد بالحجاز دولة مستقلة، واعتراض فرنسا كذلك على تسلم فيصل رئاسة جزء من الشام، ثم جابته اتفاقية (سايكس بيكو)، وقضية ما عُرف باسم فلسطين وما يحيط بها من ضغط صهيوني واستعماري.

اشترك فيصل في مؤتمر الصلح بعد أن تراجعت فرنسا عن موقفها، وبذل جهودا كثيرة منها مذكورة قدمها إلى المؤتمر في شوال ١٣٣٨ هـ (١٩١٩ م) ثم ألقى خطابا في المؤتمر مذكرا بحقوق العرب في الاستقلال الوحدة، وأشار إلى مبادئ ولسن بحق الشعوب في تقرير المصير، كما أشار إلى الدور الذي لعبه العرب في الحرب، وندد باتفاق سايكس - بيكو وطالب بتحقيق وعود الحلفاء للعرب. واقترح أن يرسل مؤتمر الصلح لجنة تحقيق تزور سوريا وفلسطين للتأكد من رغبات السكان وحققهم في تقرير مصيرهم، ورغم كلامه عن العرب، إلا أن حديثه كان يقتصر على الشام التي مناه بها الحلفاء بشكل غير مكتوب، وقد سال لعبه على ذلك.

وقد قرر المؤتمر فصل البلدان العربية (لبنان وسوريا وفلسطين والعراق) عن تركيا على أن تكون تحت إشراف وصى يعمل باسم عصبة الأمم. ووافق المؤتمر على اقتراح فيصل بإرسال لجنة دولية إلى بلاد الشام لاستفتاء الشعب. ووافق المؤتمر على اقتراح فيصل بإرسال لجنة دولية إلى بلاد الشام لاستفتاء الشعب. فرفضت بريطانيا وفرنسا الاشتراك فيها، فتألفت اللجنة من أعضاء أمريكيين عرفت باسم لجنة كنج - كراين King crane.

ولإزاء هذه الأحداث، تنادى الزعماء العرب من أعضاء حزب الاستقلال العربي بعد عودة فيصل وبايعاز منه، إلى تشكيل مجلس وطني منتخب وعقد مؤتمر عام عرف بالمؤتمر السوري [رغم مناداته باسم العرب] وضم مندوبين عن الشام كلها (فلسطين وسوريا) وحالت فرنسا دون وصول ممثلي جبل لبنان. وقد تم الاجتماع بالفعل في دمشق وحضره معظم الأعضاء وعددهم ٦٩ عضواً، وكان ذلك في رمضان من عام ١٣٣٧ هـ (١٩١٩ م). واتخذ المؤتمر عدة قرارات هامة من أهمها: استقلال سوريا [بلاد الشام] ووحدتها برئاسة الأمير فيصل والاعتراف باستقلال العراق، وإلغاء اتفاقية سايكس بيكو، وإلغاء وعد بلفور، وأقر المؤتمر كذلك رفض الوصاية السياسية، وتنصيب فيصل ملكاً دستورياً على سوريا، وأن تكون الحكومة في سوريا والعراق لا مركزية. وقوبلت هذه القرارات بالترحيب والحماس لدى عامة الشعب، وانطلقت المظاهرات تعبر عن فرحتها، واجتمعت الوفود لتحیی فیصلاً والمؤتمر السوري العام.

وأثناء انعقاد المؤتمر السوري العام، حضرت لجنة كنغ-كراين الأمريكية، وقضت ستة أسابيع في زيارة الشام عدا جبل لبنان والساحل المقابل له (فلسطين ولبنان وشرق الأردن)، ومنعتها بريطانيا من الذهاب إلى العراق، وقامت بتحقيق واسع في تلك المدة، وقابلت عدداً كبيراً من الوفود، ودارت مناقشات بينها وبين الكثير منهم، وتلقت مايزيد على ١٨٠٠ عريضة، وقدم لها المؤتمر السوري مذكرة تضمنت المقررات التي أصدرها في اجتماعه السابق الذي وضع ميثاق الاستقلال، وبعد ذلك كله أجرت اللجنة استفتاء ورفعت تقريراً إلى الرئيس ولسن الذي أرسل نسخاً منه إلى حكومات الحلفاء.

كان التقرير إلى حد كبير موضوعياً، متجرداً، وجاءت معظم بنوده في مصلحة السكان مرحلياً وأبرزها، تكوين اتحاد من لبنان، وسوريا، وفلسطين، وشرق الأردن تتولى زعامته إحدى هذه الدول، وأن تكون الوصاية على هذا الاتحاد إلى دولة يرغبها السكان، ويفضلون أمريكا أو بريطانيا. وأشارت اللجنة إلى الأطماع الصهيونية وحذرت من قيام دولة يهودية، كما اقترحت الحد من الهجرة اليهودية، ومع ذلك فقد أهمل الحلفاء هذا التقرير ولم يعملوا به، بل ولم يطلع عليه القادة.

وكانت فرنسا قد خشيت أن يعمل الحلفاء بتقرير اللجنة ويبعدوها عن سوريا،

فشنت صحفها حملة على فيصل وحكومته، ونشرت في لبنان دعاية واسعة للانفصال عن سوريا وقبول الانتداب الفرنسي عن أعوانها من النصارى، ودفعت إدارة لبنان ليرفع قراراً إلى مؤتمر الصلح بذلك. كما قامت في فرنسا نفسها حملة من الاتهامات ضد بريطانيا يقودها عدد من الكتاب والسياسيين أبناء المدرسة الاستعمارية. وكان موطن الهجوم على بريطانيا أنها حاولت التخلي عن الالتزامات التي يفرضها عليها اتفاق سايكس - بيكو متذرعةً بمختلف الوسائل كتأكيد فيصل، وتشجيع العرب على مقاومة حقوق فرنسا في سوريا. وحقيقة الأمر أن بريطانيا كانت تهدف إلى إبعاد فرنسا من المنطقة، وإبقائها تحت حكم فيصل الذي سيكون تابعاً ومؤيداً لبريطانيا حسب التفاهم بين الطرفين.

ولم يكن من سبيل لإرضاء فرنسا إلا حصولها على حصتها من سوريا، وهي المنطقة التي حددها لها اتفاق سايكس بيكو. فقدم لويد جورج (رئيس الوزارة البريطانية) إلى كليمانصو (رئيس الوزارة الفرنسية) اقتراحاً بسحب القوات الانكليزية من المنطقة الغربية «الزرقاء»، لتحل محلها كتائب فرنسية، أما المناطق الداخلية، بدءاً من العقبة وثمان حتى حلب، فتبقى في أيدي القوات العربية، مع بقاء القوات الانكليزية في فلسطين وتخلي فرنسا عن الموصل.

وافق كليمانصو مبدئياً على هذا الاقتراح، شريطة ألا تؤثر هذه الموافقة في التسوية لشؤون الانتداب وتقرير الحدود، وكان كليمانصو يعني بذلك أن الحكومة الفرنسية ترغب في مد نفوذها على سوريا الداخلية في النهاية، وأنها لا ترضى أن تكون خارجة عن السيطرة الفرنسية، وقد أقر مجلس الحلفاء الأعلى في باريس هذا الاتفاق (٢٠ ذي الحجة ١٣٣٧ هـ (١٩١٩ م) المعروف باتفاق لويد جورج - كليمانصو.

أبرق لويد جورج إلى فيصل يدعو إلى أوروبا لبحث القضية العربية، فوصل فيصل إلى لندن، واتصل برئيس الوزارة البريطانية واطلع منه على ماجرى في باريس، فاعترض فيصل وقدم احتجاجاً رسمياً بصورة مذكرة، أبان فيها أنه حين سحب جيوشه بعد الهدنة بقليل إلى داخل سوريا، فإنه لم يفعل ذلك إلا بناء على تأكيد صريح من الجنرال اللبني بأنها خطة حربية، وبأن الحاميات الانكليزية ستظل في البلاد حتى تتم التسوية النهائية في مؤتمر الصلح. فاتفق لويد جورج

- كليمانصو إنما هو نتيجة طبيعية لاتفاق سايكس - بيكو الذي لم يكن العرب طرفا فيه.

والتمس فيصل عقد مؤتمر من الدول الثلاث (بريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة) لبحث في مستقبل البلاد العربية [بلاد الشام] على أساس العهود التي قطعها الحلفاء والمبادئ التي أعلنوها، ولكن احتجاج فيصل واقتراحه كانا عديمي الجدوى، على الرغم من اقتناع بريطانيا بأن القضية التي عرضها فيصل في المذكرة لا تقبل جدلا. وقد أوقع بريطانيا في الحيرة اعتقادها الراسخ أن غرض الفرنسيين، في النهاية احتلال سوريا الداخلية، لذلك ضغطت على فيصل ليدخل في مفاوضات مباشرة مع كليمانصو، أملا في إنقاذها من التزاماتها المعقدة والمتناقضة، أمام العرب والفرنسيين على السواء. فذهب فيصل إلى باريس. ووقع مع كليمانصو اتفاقاً تضمن مايلي:

التزام فرنسا بمعونة سوريا وضمان استقلالها، والتزام فيصل بأن يطلب من فرنسا الخبراء والمستشارين والفنيين لتنظيم الإدارة المدنية والعسكرية، وفرنسا حق الأولوية بالمشروعات، وحق التمثيل السياسي في الخارج لمصالح سوريا، كما يمثل سوريا في باريس مندوب سياسي، وتحترم سوريا احتلال فرنسا للبنان وسائر المناطق الساحلية شمالا حتى اسكندرونة، وأخيرا ينشر فيصل دستورا يضمن حقوق السكان وحررياتهم. وهو بهذا الاتفاق قد وافق على اقتطاع الساحل الشمالي كله لفرنسا، واقتطاع الساحل الجنوبي والقدس لانكلترا.

والواقع أن فيصلا قد عقد هذا الاتفاق لقناعته بأن فرنسا المنتصرة غير مستعدة لقبول تنازلات أكثر، وشعوره كذلك بأن انكلترا قد تخلت عنه، والملاحظ أن هذا الاتفاق يجسد اتفاقية سايكس بيكو فيما يتعلق بالشام.

وصلت أخبار الاتفاق إلى البلدان العربية وفيصل لا يزال في باريس، وكان الدكتور أحمد قدرى أمين سر فيصل، قد عاد من باريس، وتخلّى عن فيصل لتساهله في القضية الوطنية أمام الفرنسيين، فاتصل بالأحزاب الوطنية، وكان من زعمائها، وأخبرها بالاتفاق الذي وقعه فيصل مع كليمانصو. كما شكّا فيصلا إلى أبيه، فأرسل أبوه يحذره ويأمره بالعودة وأبرق إليه أخوه زيد (نائبه في حكومة دمشق)، يخبره أن النقمة الشعبية على الاتفاق قد اجتاحت مدن الشام، وأنه

يخشى أن تتحول تلك النقمة إلى ثورة عامة، وناشده أن يرفض أي مشروع لايحقق رغبات الشعب.

وكان الفرنسيون قد أنزلوا العلم العربي في ما أسموه لبنان، ومهدوا لحكمه لمصلحتهم، وأخذوا يجاربون الحكم العربي في ما أسموه سوريا، ويدفعون الأموال للزعماء وللصحفيين للعمل ضد فيصل، تمهيدا لاسقاط حكمه والقضاء على استقلال سوريا واحتلالها.

وأدرك الشعب في سوريا نيات الفرنسيين، وأيقن أن إخراجهم من الساحل لن يتم بالسياسة، وأنه لابد من استعمال السلاح، فبدأت قوات من الثوار تهاجم مراكز الفرنسيين في اللاذقية، وهي الثورات الأولى على الفرنسيين.

وفي ذلك الجو الثائر المكفهر، وصل فيصل إلى بيروت فدمشق، فاستقبل في دمشق بفتور ظاهر، ولمس خفيه أمل الشعب في اتفاه مع كليمانصو. وكانت المظاهرات المنادية بالوحدة والاستقلال تمثل الاستنكار الذي عبر عنه الزعماء بصورة مادية مجسمة. وحاول إقناعهم بالموافقة على عودته إلى باريس بصحبة وفد منهم، فكان جوابهم المتكرر: لا، لأن محادثات باريس تهدف إلى تجزئة سوريا [بلاد الشام] واحتلال قوات أجنبية لأجزاء منها، وعليه فإنها لا تصلح أساسا للمباحثات. وعبثا حاول إقناعهم بأن اتفاق باريس لم يكن نهائيا، وأنه عندما وافق عليه فإنها أذعن للأمر المحتوم.

وكانت الأنباء قد وصلت إلى دمشق عن انعقاد المجلس الأعلى للحلفاء، لبحث مصير البلاد السورية الطبيعية [سورية، ولبنان، وفلسطين، والأردن]، إلى جانب عدد من المشكلات التي لم يتوصل مندوبو الدول إلى حل لها، ووصلت إلى فيصل دعوة من الحكومة البريطانية، ليذهب إلى المؤتمر، بصفة شخصية ويعرض قضية بلاده. وقصد من «العودة الشخصية» إقصاء الحكومة السورية الوطنية عن المؤتمر. فقرر فيصل العودة إلى باريس لعله ينجح فيها عجز عنه من قبل. إلا أن زعماء الحركة الوطنية خافوا أن يتنازل عن مبدأ الوحدة والاستقلال. فأرادوا إجراحه وتقييده من جهة أخرى فقررُوا دعوة المؤتمر السوري العام إلى الانعقاد.

اجتمع المؤتمر في ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م)، وقرر إعلان استقلال سوريا بحدودها الطبيعية (أي سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) دولة ذات سيادة و ملكية دستورية على رأسه الأمير فيصل. كما انعقد في اليوم نفسه في دمشق، مؤتمر عراقي اتصل بالمؤتمر السوري وقرر إعلان استقلال العراق، واختيار أحد أبناء الحسين الأول ملكا عليه (المقصود عبدالله)، وتأييد استقلال سوريا، والاتحاد معها سياسيا واقتصاديا. وجرت في اليوم التالي حفلة مبايعة فيصل بالملكية، فاحتشد الشعب في ساحة الشهداء، وتلى عليه قرار المؤتمر السوري من شرفة البلدية المطلّة على الساحة. وألفت أول وزارة دستورية برئاسة رضا باشا الركابي، ومن أعضائها فارس الخوري، وساطع الحصري. وتضمن قرار المؤتمر السوري بنداً خاصاً بمنح لبنان الحكم الذاتي داخل إطار الوحدة السورية، وبندا خاصاً باستقلال العراق وإقامة اتحاد سياسي واقتصادي بينه وبين سوريا. كما أصدر المؤتمر بياناً تاريخياً يندد فيه بالمؤتمرات الأوروبية والصهيونية، ويفضح أساليبها ومخططاتها، وعدّ المؤتمر هذه القرارات دستورا للدولة فأقسم فيصل له يمين الولاء، وبذلك أصبح مقيدا بدستور خلافا لما كان عليه من قبل.

قوبلت مقررات المؤتمر السوري بحماسة عظيمة في البلدان العربية جميعها وبسخط شديد في دوائر الحلفاء، لأنهم عدوها تمردا على القيادة البريطانية العليا واستباقاً لمقررات مؤتمر الصلح وخروجاً على صلاحياته. حتى أن اللورد كيرزون وزير الخارجية الانكليزية، احتج على ذلك ببرقية شديدة اللهجة جاء فيها: «إن بريطانيا لا تسمح لأية هيئة في دمشق بحق التكلم عن فلسطين أو العراق» واشتد النزاع بين المملكة السورية المستقلة وبين الحلفاء الذين لم يعترفوا بفيصل ملكا، بل استمروا يعدونه أميراً هاشمياً واشتد الخلاف كذلك من جهة أخرى، بين الحكومة العربية السورية في سوريا وبين فرنسا حول قضيتين:

أولاهما: تأسيس بنك سوريا ولبنان الفرنسي، وإصداره أوراقا نقدية إجبارية رفضت الحكومة السورية قبوها.

وثانيهما: عدم سماح الحكومة السورية للجيش الفرنسي بالمرور ضمن سوريا الداخلية للوصول إلى تركيا، ومحاربة الأتراك الذين أخذوا يهاجمون القوات الفرنسية المرابطة على الحدود السورية التركية.

ولإزاء ذلك، أسرع مجلس الحلفاء الأعلى إلى الانعقاد في «سان ريمو» بإيطاليا، وقرر هذا المؤتمر في رجب من عام ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م) وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ووضع العراق وشرق الأردن وفلسطين تحت الانتداب الانكليزي مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور في فلسطين. وتخلي فرنسا عن الموصل وإلحاقها بالعراق لقاء حصّة لفرنسا من نفط الموصل، وكان المفروض أن يكون الانتداب من نوع (أ) بحسب المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم، إذ تعد بموجبها البلاد التي يقع عليها الانتداب بلاداً مستقلة تتمتع بسيادة داخلية وخارجية، وأن لا تتعدى صلاحيات الدولة المنتدبة النصح والإرشاد، غير أن فرنسا وانكلترا ظلتا تعملان لدى عصبة الأمم حتى استطاعتا أخذ موافقة العصبة على صكوك الانتداب التي أصبحت بموجبها فرنسا وانكلترا وصيتين على هذه البلاد لامتدبتين عليها.

أثارت هذه المقررات في البلاد مشاعر السخط والاستياء لدول الغرب، لتكرها لأهداف الشعب المتمثلة في الاستقلال والوحدة. فعمت البلاد نقمة عامة على الدول الاستعمارية، وقامت مظاهرات صاخبة نددت بالاستعمار، وغدّره بأمني السكان وأهدافهم، واستقالت الوزارة الأولى، وتألّفت وزارة دفاعية عسكرية برئاسة هاشم الأتاسي، ومن أعضائها عبدالرحمن شهبندر، ويوسف العظمة وزير الدفاع، بهدف منع تلك المقررات بالقوة. وسارعت الوزارة إلى اتخاذ التدابير الدفاعية الفعالة، وأعلنت الجندية الإجبارية، وشجعت الثوار على الفرنسيين في المنطقة الساحلية المحتلة.

عزم فيصل على السفر إلى أوروبا رداً على التحديات. وكان الجنرال غورو قد أصبح قائداً مفوضاً سامياً لفرنسا في سوريا ولبنان، فاستقدم قوات فرنسية جديدة بلغت مائة ألف، للقضاء على استقلال سوريا قبل أن يشتد عودها. وأبلغ غورو فيصلاً ضرورة التريث في السفر قائلاً: «لدينا مطالب سنقدمها بعد عدة أيام، ولا يمكننا أن نسمح للأمير بالسفر إلى أوروبا ما لم يلب هذه المطالب. وإذا سافر عن طريق آخر، فإن فرنسا ستمتنع بصورة قطعية عن الاعتراف به، ومفاوضته بأي شكل كان».

كان فيصل فيها موزعابين رسالة الغطرسية التي بعث بها الجنرال غورو وبين

مشاعر السخط عند المواطنين، وعلى الرغم من أن مقررات مؤتمر سان ريمو قد هزت ثقته بالحلفاء، فإنه لم يفقد أمله فيهم عن طريق مؤتمر تعقده بريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة. ولكن الجنرال غورو أرسل إليه في ٢٨ شوال ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م) إنذاره المعروف، وفيه خمسة شروط، إن لم يستجب إليها خلال أربعة أيام، فإن الحكومة الفرنسية ستكون حرة التصرف في العمل وفق مآثره مناسبة ويحقق مصالحها. وهذه هي شروط الإنذار:

- ١ - تسليم سكة حديد رباق - حلب إلى السلطة العسكرية الفرنسية.
- ٢ - إلغاء الجندية الإجبارية وتسريح الجيش.
- ٣ - قبول الانتداب الفرنسي قبولا غير مشروط.
- ٤ - قبول العملة التي أصدرتها الإدارة الفرنسية.
- ٥ - معاقبة الثائرين على فرنسا والذين قاموا ضدها بأعمال عدائية.

أثار هذا الإنذار الجماهير الشعبية وعدته ذروة الاستخفاف بكرامة البلاد فرفضه المؤتمر السوري، وقرر المجابهة والدفاع عسكريا عن البلاد، وعهد بالمهمة إلى يوسف العظمة وزير الحربية. وكان فيصل قد استشار «اللنبي» فنصحه بالاستسلام، وأرسل إليه اللورد «كرزون» وزير الخارجية الانكليزي، برقية تحمل النصيحة نفسها. فاجتمعت الوزارة السورية وقررت قبول الإنذار، وأبلغت المعتمد الفرنسي بدمشق ذلك القبول، فأبرق به إلى غورو الذي طلب تأييداً خطياً لقرار الوزارة.

ومع ذلك، فقد بدأت الحكومة بتنفيذ شروط الإنذار مخالفة قرار المؤتمر السوري، فسرحت الجيش، وألغت التجنيد الإجباري، وأجلت المؤتمر السوري لمدة شهرين، وأجابت خطياً بقبول الإنذار في وقت بلغت فيه المظاهرات الشعبية ذروتها وهي تطالب بحمل السلاح والدفاع عن البلاد.

احتج الجنرال غورو بأن جواب الوزارة الخطي قد تأخر وصوله نصف ساعة عن صدور الأوامر بزحف الجيش الفرنسي على دمشق وعلمت دمشق بتقديم جيش فرنسا إليها لاحتلالها دون أن يكون لديها قوات تدافع وتحمي البلاد، بسبب تسريح الجيش السوري، فثار الشعب واضطرب الملك وحكومته، وسارع يوسف العظمة إلى تجهيز قوات للدفاع عن دمشق، وتوقفت عمليات التسريح التي كانت

جارية، وأذاع الملك فيصل بياناً يدعو فيه الشعب لصد الغزاة. فتقدم قرابة ثلاثة آلاف متطوع لشد أزر يوسف العظمة وتجمعوا في ميسلون. وعندما جرت المعركة كان فيها ستون جندياً نظامياً فقط، أما بقية المحاربين فكانوا من المتطوعين الذين قدمتهم الأحزاب الوطنية، ومن جماهير الشعب المتحمس لصد العدوان دون نظام، وبأسلحة قد لا تتفق مع الذخيرة الموجودة. وفي صباح السبت ٨ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م)، التقى الفريقان في ربي ميسلون، وفي خلال ساعات، حصدت مدافع الفرنسيين وطائراتهم الجنود والمجاهدين السوريين، وسقط يوسف العظمة صريعاً إذ لم تنجح التمثيلية الحكومية التي أسرع لإحباط آخر فصولها رصاص المقاتلين وقد اختلط الأمر. وفي اليوم التالي دخل الفرنسيون دمشق، وقلوب المواطنين تمتلئ بالحقد والألم. وهكذا زالت في ساعات الدولة التي عاشت أقل من سنتين.

أصدر الجنرال غورو أمره إلى الملك فيصل بمغادرة البلاد، فاحتج فيصل وأبرق بذلك إلى الدولة الخليفة بريطانيا ثم ذهب إلى درعا، والتف حوله الناس وتأملوا أن يتوجه إلى إقليم عجلون بشرق الأردن ليقود من هناك الحركة الوطنية ضد الفرنسيين، فأنذره الفرنسيون بمغادرة المنطقة أو قصفها إلى أوروبا في ١٠ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م).

وبعد دخول القوات الفرنسية إلى دمشق، توجه الجنرال غورو إلى ضريح صلاح الدين الأيوبي وخطب أمامه قائلاً «هانحن عدنا يا صلاح الدين». وكان بذلك يرد على قول صلاح الدين للصليبيين: «إنكم خرجتم من الشرق ولن تعودوا إليه». قد سبق للجنرال اللنبي هو الآخر، أن قال مثل هذا القول عندما دخل مدينة القدس: «الآن انتهت الحروب الصليبية». وهكذا يتبين لنا أن القوى الاستعمارية كانت تقوم بدورها في محاربة العالم الإسلامي وبسط سيطرتها عليه بروح صليبية، ولكن باسم جديد هو الاستعمار أو الانتداب والوصاية. ومن المؤسف أن بعض القادة انجرفوا في تيار الاستعمار وساندوه واعتمدوا عليه حتى آخر لحظة بل ربطوا مصيرهم به ليحصلوا على الحكم أو ليقبى لهم.

ومهما يكن من أمر، فإن الظروف التي رافقت الحكم الوطني كانت ظروفًا صعبة حملت معها كل ألوان الغدر والتآمر الأجنبي على البلاد. لقد حقق الشعب

استقلاله بجهوده وتمتع بالاستقلال في غمرة من حماسة الجماهير وأفراحهم الوطنية، ومارس حق السيادة على أراضيه وعلى الرغم من قصر مدة الحكم الوطني، وافتقار المسؤولين إلى الخبرة في الإدارة والتنظيم، إلا أن هذا الحكم حقق بعض المنجزات العامة في ميدان التجربة والتاريخ.

الحكم الفرنسي والثورات الوطنية ١٣٣٧ - ١٣٦٤ هـ ١٩١٩ - ١٩٤٦ م:

بدخول الجيوش الفرنسية إلى سوريا، قضى على سيادة الدولة المستقلة وعلى مظاهر الحكم الوطني بها. فقد أنزل الفرنسيون العلم العربي، ورفعوا مكانه العلم الفرنسي، وفرضوا الحكم العسكري على البلاد، وتم إعدام جماعة من الوطنيين، وقامت السلطات الفرنسية بنزع السلاح من بقايا الجيش العربي وتسليم معداته إلى الجيش الفرنسي، كما طلبوا تسليم المدنيين الثوار، ونزع سلاح الأهالي، وفرضوا على كل مدينة أن تقدم كمية من الأسلحة، فعلى دمشق وحدها فرضوا عشرة آلاف بندقية، وفرضوا جزية مقدارها ١٠ ملايين فرنك، (٢٠٠ ألف ليرة) وألغوا جميع القوانين التي صدرت في العهد الوطني.

نفذت فرنسا وصايتها على سوريا قبل صدور صك الانتداب بستين: فألغت صلاحيات الحكومة السورية، وسيطرت على الجيش، والأمن العام، والجمارك والشركات، وخط حديد الحجاز، وحكمت بالتشريع (غير الديني) واخضعت الأوقاف لسلطتها المباشرة، وفرضت اللغة والثقافة الفرنسية في الإدارات والمحاكم وأهملت شأن اللغة العربية، وعملت على إثارة التفرقة العنصرية بين الطوائف الدينية، والمجموعات العنصرية، وتشجيع الخلافات المذهبية بين السكان واستغلالها، وتجنيد بعضها ضد بعض، كما عملت على ربط الاقتصاد السوري بالاقتصاد الفرنسي، وربط العملة السورية بالعملة الفرنسية، إضافة إلى استخدام جميع وسائل القمع والإرهاب، والسجن، والنفي، والتعذيب، وتدمير القرى لمنع كل حركة مقاومة تقوم في البلاد. ورسخت فكرة التجزئة تحت اسم الوطنية، والحماسة لها، والعاطفة، فقبل العامة لجهلهم هذا فحلت فكرة «السورية» محل الإسلام، وغدت «السورية» فكرة وكأنها تختلف عن بقية بلاد الشام. وأعلنت كذلك تجزئة سوريا ولبنان إلى دولتين منفصلتين، وقسمت سوريا إلى أربع

محافظات أو دول: دمشق، حلب، العلويين، جبل الدروز، ووضعت للواء الاسكندرونة نظاماً خاصاً، وأنشأت دولة لبنان الكبير في مطلع عام ١٣٣٩ هـ. بعد أن ضمت اليه بيروت، وصور، وصيدا، وطرابلس ثم ألحقوا به بعلبك، والبقاع، وراشيا، وحاصبيا، وقسما من عكا وقسما من حصن الأكراد بعد فصلها عن سوريا. وقد جرى ذلك على الرغم من المؤتمرات الكثيرة التي عقدت لهذه الغاية.

وحكم البلاد المفوض السامي حكما مطلقا بفرض الأحكام العرفية التي ظلت سارية إلى عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م)، واحتل الفرنسيون الإدارات والوظائف، وأثاروا النعرات الإقليمية، والطائفية، وخنقوا الحريات، وضيقوا على الرجال الأحرار فزجوا بهم في السجون، ولاقوا صنوف التعذيب، وتأخرت الحالة الاقتصادية بسبب التجزئة وماتبعتها من حدود وجمارك وضرائب، وحوربت الصناعات الوطنية، بينما شجعت فرنسا صناعاتها ومنتجاتها.

لم يستسلم الشعب العربي في سوريا لهذه التدابير، فقامت هنا وهناك بعض الحركات المسلحة إيدانا بذلك الرفض، وتعبيرا عن سخط الشعب على السياسة الفرنسية الغاشمة، وكانت انكلترا تغذى هذه الحركات نتيجة التنافس بين الدولتين، والهجوم الذي لقيته انكلترا من فرنسا بسبب المراوغة الانكليزية في المفاوضات أو المرونة والظهور بمظهر اللين والتفهم للواقع. فقامت ثورة حوران في مطلع عام ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م) والتي قامت بقتل بعض الجنود الفرنسيين مع بعض الوزراء السوريين [الدروبي واليوسف] الذين قدموا لإقناعهم بقبول الانتداب الفرنسي، وعطلوا السكة الحديدية، وقطعوا المواصلات الهاتفية، فأرسلت فرنسا حملة عسكرية استطاعت أن تخمد الثورة بالقوة وبعد أن دمرت القرى بالطائرات. وتلا ذلك حادثة القنيطرة ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) والتي هاجم الثوار فيها الجنرال غورو وحقي العظم حاكم دمشق وأصابوها بجراح، فأرسل الفرنسيون حملة دمرت عدة قرى. كما قامت ثورة أخرى بقيادة الشيخ صالح العلي ١٣٣٨ - ١٣٤٠ هـ (١٩١٩ - ١٩٢١ م) في جبل العلويين، وكبدت الفرنسيين خسائر فادحة ولم تستطع فرنسا تصفية الثورة إلا بعد أن حشدت قوات كبيرة ضدها، وكانت هذه الثورة قد قامت منذ أن احتل الفرنسيون الساحل، وبرز

الشيخ صالح العلي إثرها وارتفع اسمه لغاية أرادها الطرفان. وفي الوقت نفسه قامت ثورة أخرى في جبل الزاوية وأطرافه بزعامة إبراهيم هنانو الذي عرف بالتمرد على السلطة من قبل، واتصل بالشيخ صالح العلي وشجعه على المثابرة في ثورته، وأخيراً عززت فرنسا قواتها، وحاصرت فانسحب إلى حمص ومنها إلى عمان فالقدس حيث السيطرة الانكليزية. وقامت حركات أخرى في الفرات، وحماة، ومعرّة النعمان، وغيرها وجرت اضطرابات في دمشق عندما زارها المستر كراين Crane (رئيس لجنة الاستفتاء الأمريكية) في رمضان عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م)، فتظاهر الشعب السوري، وخطبوا أمامه منددين بالسياسة الفرنسية، ومناذرين بالحرية والاستقلال. فقبضت السلطات الفرنسية على بعض الوطنيين (من بينهم عبدالرحمن الشهبندر)، وسجنت بعضهم، ونفت آخرين إلى جزيرة أرواد، وأضربت دمشق عدة أيام، وأيدتها المدن السورية الأخرى بالمظاهرات، فأعلنت الأحكام العرفية، وسقط عدد من القتلى، واشتركت نساء دمشق في هذه المظاهرات، وهاجمن المصفحات، وهتفن بالاستقلال والحرية.

ونظر المقاومة الشعب السوري لسياسة الانتداب الفرنسي والتجزئة، صدر في شوال ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م) قرار بإنشاء اتحاد بين دمشق، وحلب، واللاذقية، ولكن بقيت الحكومات الثلاث منفصلة في شؤونها الداخلية جميعها. فاحتج الوطنيون إلى عصبة الأمم يستنكرون أساليب الحكم الفرنسي الذي لا يتقيد حتى بنظام الانتداب، حيث قرر غورو إنشاء مجلس تمثيلي لكل دولة، فقاطعت دمشق انتخاب مجلسها، وأضربت عشرة أيام، فعين المفوض السامي أعضاءه تعييناً. واستدعت فرنسا غورو، وبعثت بالجنرال «ويغان» مفوضاً سامياً جديداً، فأعلن عن تأليف «دولة سوريا» من دمشق، وحلب وعهد برئاستها إلى صبحي بركات.

وعلى الرغم من هذه الإجراءات، فإن الشعب السوري لم يستسلم ولم يستكن، بل واصل ثوراته ضد الفرنسيين وتابع مسيرة كفاحه ونضاله بعد الثورات التي أشرنا إليها والتي مهدت للثورة السورية الكبرى ١٣٤٤-١٣٤٦ هـ (١٩٢٥-١٩٢٧ م) التي استمرت سنتين، وشملت مناطق كثيرة من سورية، وقد حدثت هذه الثورة بعد أن تراجعت فرنسا عن قرارها الذي يقضي بأن يكون حاكم الجبل درزيا، فعينت حاكماً فرنسياً لجبل العرب والذي أساء معاملته سكان

الجليل، الذين رفضوا قبول الأوامر وعدّوها مهينة لهم، وقرروا مقابلة الجنرال «سراى» خليفة ويغان لتنفيذ الاتفاق السابق أو تبديل الضابط الفرنسي كارتيه) حاكم الجليل. فلم يحسن سراى استقباهم وواجههم بعنف ورفض مطالبهم، فاتصلوا به مرة أخرى في بيروت فأصر على رفضه وأمر بنفي بعض وجهائهم إلى تدمر والحسكة، فكانت الشرارة التي اندلعت منها نيران الثورة، وحرصت انكلترا أنصارها الدروز على هذه الثورة، وتعهّدت بحماية كل من يلتجئ إليها في الأردن، وبالفعل كانت الأردن وجهة المنهزمين أو الفارين من وجه الحكم الفرنسي في سورية.

انطلقت شرارة الثورة من جبل العرب، واتجهت شمالاً وعمت سوريا غرباً حتى جبال لبنان، وشمالاً حتى حماه، وشرقاً حتى الجزيرة. وإذا كان السبب المباشر لهذه الثورة خلاف الدروز والفرنسيين حول تعيين حاكم الجليل، وتحريض الانكليز إلا أن الشيء الذي قاله قادة الثورة أن أهدافها الحقيقية كانت أبعد وأعمق بكثير، ومن هذه الأهداف: توحيد أجزاء سوريا الطبيعية وقيام دولة واحدة مستقلة، ووضع دستور للبلاد، وتأليف جيش وطني قوي يقوم بحماية الوطن والمطالبة بجلاء القوات الأجنبية عن البلاد.

وقد انضوي تحت لواء هذه الثورة الجمعيات العاملة في ذلك الوقت كجمعية العهد، وجمعية العزبية الفتاة، وحزب الاستقلال، والعاملين في السياسة جميعهم، وأفراد الشعب، كما أيدها الكثير في العراق، ومصر. وبقيت أجزاء بلاد الشام (فلسطين ولبنان والأردن).

نشبت معارك ضارية في أماكن متعددة من البلاد كمعركة المزرعة في جبل الدروز، والمسيفرة في حوران، والمعارك التي حدثت في الغوطة، وانحصر نفوذ الفرنسيين في بعض أحياء دمشق فقط في حين تمردت الأحياء الأخرى وشاركت في الكفاح، فما كان من الفرنسيين إلا أن أصلوا مدينة دمشق ناراً حامية من مدافعهم وقنابلهم التي أحرقت البيوت بمن فيها دون سابق إنذار، وشهدت المدينة فظاعة وقسوة، وقصفت مرتين، ولعل اسم حي الحريقة في دمشق اليوم خير شاهد ودليل على تلك الوحشية، إذ استخدم الفرنسيون منتهى القسوة والوحشية لمجابهة الثورة، من إلقاء القنابل على المدن والقرى دون تمييز، إلى جموع

القرويين، وإبادتهم جماعات دون تحقيق أو محاكمة، إلى اقتلاع الأشجار، وقطع المياه عن الناس. وقد شهدت سوريا على يد القوات الفرنسية من الفظائع مالم تشهده من قبل.

أثارت أعمال القمع الفرنسية ضد السوريين استياءً ظاهرياً في العالم، وهزّت الضمير العالمي الحر، فانحالت على عصبة الأمم ولجنة الانتدابات الاحتجاجات عن فظائع الفرنسيين. فعملت فرنسا على تهدئة الخواطر، واستدعت المفوض السامي العسكري (سراي)، وعينت مكانه مفوضاً سامياً مدنياً هو «دجوفنيل» أو كلت إليه أمر التفاوض مع الوطنيين وإنهاء الثورة. وقد وصل المفوض الجديد إلى سوريا والثورة في ذروتها، وقابل عدداً من الزعماء السوريين الذين قدّموا إليه مطالب الشعب لإنهاء الثورة وهي إعلان الاستقلال، والوحدة والجلء. فدعا الشعب إلى انتخابات نيابية تنبثق عنها حكومة وطنية تفاوض فرنسا، ولكن الانتخابات قوطعت لتدخل الفرنسيين، وقامت المظاهرات والاضطرابات في المدن، وحاول دجوفنيل إرضاء السكان، فألف حكومةً جديدةً دخل فيها بعض الوطنيين على أساس إنهاء الثورة وتحقيق الأمان الوطنية. ثم سافر إلى باريس ليحصل على موافقة حكومته على تحقيق برنامج، فأخفق واستقال.

أدرك الوطنيون سياسة فرنسا في المhapلة، لكسب الوقت وقمع الثورة، فاستقال الوزراء الوطنيون، فاعتقلتهم السلطات الفرنسية. وشدّدت ضرباتها على الثوار، فاحتلت السويداء وهاجمت مرارا حي الميدان أغني أحياء دمشق فهذمت، وقضت على الحياة الاقتصادية، وضاعفت حملاتها على دمشق حتى قضت على الثورة بقسوة ووحشية.

بعد استقالة دجوفنيل، عينت فرنسا «هنري بونسو» مفوضاً سامياً على سوريا ولبنان معاً، فأعلن عن إجراء انتخابات من أجل جمعية تأسيسية تضع دستوراً للبلاد، وألغى الأحكام العرفية، وأصدر عفواً عن بعض الوطنيين المبعدين، وعين حكومة مؤقتة برئاسة الشيخ تاج الدين الحسني للإشراف على الانتخابات، وقبل الوطنيون أن يشتركوا في تلك الانتخابات، وفازوا فيها..

وافتححت الجمعية التأسيسية أولى جلساتها في ١٩ ذي الحجة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨ م) برئاسة هاشم الأتاسي، وانتخبت لجنة لإعداد الدستور برئاسة ابراهيم

هنا، فأنتم هذه اللجنة صياغته، فجاء مؤلفا من (١١٥) مادة، تنص على أن سوريا وحدة لا تتجزأ، وأن نظام الحكم فيها جمهوري نيابي، وتكون السلطة التشريعية فيها من مجلس واحد، والسلطة التنفيذية في يد رئيس الجمهورية، ويساعده مجلس الوزراء والوزارة مسؤولة أمام المجلس النيابي، ولكن فرنسا لم تقبل بهذه المواد. ووجه المفوض السامي إلى الجمعية التأسيسية كتاباً يطلب فيه إلغاء ست مواد من الدستور، وهي المواد المتعلقة بالوحدة السورية، والتمثيل الخارجي، وتنظيم الجيش، وسلطات رئيس الجمهورية، فرفضت الجمعية طلب المفوض السامي، فأصدر قراره بتعطيل الجمعية ثلاثة أشهر ثم تعطيلها إلى أجل غير مسمى. وفي الأيام الأخيرة من عام ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠ م) أعلن بونسو عن دستور جديد هو دستور الجمعية التأسيسية نفسه مع إضافة مادةٍ أخيرةٍ إليه، تنص على وقف تنفيذ المواد التي تمسّ صلاحيات الدولة المنتدبة والتزاماتها.

وقد قبل نشر هذا الدستور بالاستنكار والاحتجاج، وأضربت البلاد إضراباً عاماً شاملاً، وقامت المظاهرات الصاخبة في كل مكان، وعقد الوطنيون اجتماعاً عاماً في حلب، قرروا فيه رفض الدستور الجديد، وأطلقوا على أنفسهم اسم «الكتلة الوطنية» التي تزعمت حركة المقاومة ضد الفرنسيين.

بقيت الأمور معلقة أربع سنوات مشحونة بالاضرابات والاحتجاجات والمقاومة حتى عام ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) وبقي الشيخ تاج في الحكم، وأخيراً اضطُر المفوض السامي إلى إقامة حكومة الشيخ تاج وتألّفت حكومة انتقالية برئاسة (سولومياك) مندوب المفوض السامي بدمشق للإشراف على الانتخابات حيث جرت الانتخابات، واجتمع المجلس النيابي ١٠ صفر ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م)، وانتخب محمد علي العابد رئيساً للجمهورية، وألّف حقي العظم الوزارة التي دخل فيها عضوان من الكتلة الوطنية لإجراء المفاوضات مع فرنسا، ثم استقالا بسبب مماطلة بونسو في حل القضية الوطنية.

عينت الحكومة الفرنسية (الكونت دومارتيل) مفوضاً سامياً جديداً، فقدّم مشروع معاهدةٍ لتحقيق آمال الشعب في الجلاء والوحدة. وعرضت هذه المعاهدة على المجلس النيابي لإقرارها، فرفضت في جلسةٍ صاخبةٍ وقد رفضها رئيس المجلس صبحى بركات أيضاً، كما رفضها أحد الوزراء، كما أريق الدماء في

الشوارع بين المتظاهرين والجنود، وأقيل حقي العظم، وعين الشيخ تاج مرة أخرى رئيساً للوزراء.

عادت الاضطرابات الدامية الى البلاد في عهد الشيخ تاج الذي عرف بسياسة اللين في عام ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) انفجر بركان الاضطرابات والمظاهرات حتى شمل المدن جميعها، فقامت القوات الفرنسية باعتقال عدد من الزعماء الوطنيين (الكتلة الوطنية) وأغلقت مكاتب الكتلة، فأعلن الشعب الإضراب العام الذي شمل المدن السورية كلها، واستمر الإضراب مدة شهرين في دمشق، وعرف باضراب الستين يوماً، وحوالي شهر ونصف في معظم المدن.

واضطرت السلطات الفرنسية إلى عزل الشيخ تاج، وأعلنت عن استعدادها لإطلاق سراح المعتقلين، وإصدار عفو عام إذا قبل الوطنيون إنهاء الإضراب، والدخول في مفاوضات لعقد معاهدة على أساس الاعتراف باستقلال سوريا ووحدتها. وبناءً على ذلك انتهى الإضراب، وتقرر إرسال وفد سوري - برئاسة هاشم الأتاسي وعضوية فارس الخوري، وجميل مردم، وسعد الله الجابري، ومصطفى الشهابي وغيرهم - إلى باريس ليمفاوض حكومتها على عقد معاهدة تكون على غرار معاهدة العراق. وأدت تلك المفاوضات التي تخطت ستين شهراً - بسبب إجراء انتخابات نيابية في فرنسا وفوز الجبهة الشعبية والاشتراكيين الفرنسيين - إلى عقد المعاهدة بين البلدين والتي تنص على اعتراف فرنسا باستقلال سوريا، وتشاورها في الشؤون الخارجية، ومدة المعاهدة ٢٥ سنة، ومنح قواعد عسكرية خلال مدة التحالف، وحددت مدة الانتقال بثلاث سنوات توضع المعاهدة في نهايتها موضع التنفيذ.

استقبل الشعب السوري المعاهدة بالرضا لا باعتبارها تمثل أماني الشعب، ولكن لأنها أول اعتراف رسمي فرنسي باستقلال سوريا وسيادتها ووحدتها. وأعلن المفوض السامي ضم مقاطعتي اللاذقية وجبل الدروز إلى سوريا، ودُعي الشعب لانتخاب مجلس نيابي جديد فاز معظم أعضائه من الكتلة الوطنية، وقام المجلس الجديد بانتخاب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية بعد استقالة محمد علي العابد، وتألّفت وزارة جديدة برئاسة جميل مردم، وضمت شكري القوتلي، وسعد الله الجابري، وعبدالرحمن الكيالي، وقدمت هذه الوزارة المعاهدة للمجلس النيابي

فصدق عليها. وأخذت الوزارة الوطنية تتابع مفاوضاتها لتتسلم سلطاتها من الفرنسيين تنفيذا للمعاهدة، وشرعت في تعيين المحافظين وموظفي السلك السياسي، ومارست حقوق السيادة. ولكن المجلس النيابي الفرنسي الذي يضم أكثرية اشتراكية لم يصدق على المعاهدة، وأخذت فرنسا تماطل وتسوف كعادتها، وتثير الصعاب والعقبات في وجه الحكومة الجديدة، وذلك عن طريق رفض الموظفين الفرنسيين تسليم سلطاتهم إلى الحومة الوطنية، وكذلك عن طريق إثارة الحركات الإقليمية، والطائفية في اللاذقية، وجبل الدروز. وفي غمرة هذه الأحداث قامت فرنسا بضرب الحكم الوطني ضربة قاضية في لواء الاسكندرونة.

استغلت تركيا الأوضاع الدولية، واحتجت على معاهدة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) بحجة أنها أعلنت توحيد البلاد، فوجدت فرنسا الفرصة سانحة للاستغلال بهدف زعزعة الحكم الوطني فدخلت مع تركيا في مفاوضات بشأن لواء الاسكندرونة - اللبي وعدت فرنسا تركيا بشأنه عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م) بعدم دمج مع سوريا - فوافقت فرنسا وكذلك بريطانيا على سلخ الاسكندرونة من سوريا وإعطائها لتركيا مقابل وقوف تركيا إلى جانب الحلفاء في الحرب المتوقعة إذ كانت أوروبا مشحونة، وسحب الحرب تؤذن بالانفجار لأهميتها الاستراتيجية، وأرادت الدولتان إخراج الموضوع بشكل شرعي فقررتا إجراء استفتاء شعبي. ولكن فرنسا أعلنت أنه كان لصالح تركيا ودعتها لتسلم اللواء مخالفة بذلك صك الانتداب نفسه. ودخلت الجيوش التركية إلى الاسكندرونة في ربيع الثاني قبيل ثلاثة أشهر فقط من اندلاع الحرب العالمية الثانية. وكانت الحكومة الفرنسية قد سحبت المقيم الفرنسي (دومار تيل) وعينت بدلا منه (غبريل بيب)، فأعلن أن حكومته عدلت عن سياسة المعاهدة وعادت إلى سياسة الانتداب، عندئذ استقالت الوزارة الوطنية واستقال رئيس الجمهورية، وعادت الاضطرابات إلى البلاد، وسادها جو من الإرهاب وخنق الحريات. وفي هذه المدة اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية.

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية، كانت البلاد العربية معظمها خاضع للحلفاء، وكان الشعب العربي ناقماً على الاستعمار وأعوانه، ومتعاطفاً مع دول المحور، ويود أن تنتصر إذ وعدته بالاستقلال، ليستطيع القضاء على الاستعمار والصهيونية، مع العلم أن إيطاليا إحدى هذه الدول كانت تستعمر ليبيا وإريتريا

وجزءاً من الصومال.

وخلال الحرب العالمية الثانية هاجم الألمان فرنسا هجوماً ساحقاً حطم قواتها وأجبرها على الاستسلام بعد ثلاثة أسابيع من بدء المعارك، فدخلت الجيوش الألمانية باريس ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠ م) وألف المارشال (بيتان) حكومة فيشي الموالية للألمان، ووقع الهدنة معهم ومع الطليان غير أن بعض الضباط رفضوا مهادنة الألمان، وألّفوا حكومة فرنسا الحرة في لندن برئاسة الجنرال ديغول. وخضعت مستعمرات فرنسا لحكومة فيشي الموالية للألمان والتي طبقت شروط الهدنة على سوريا ولبنان، وعينت الحكومة الفرنسية الجديدة مقيماً عاماً في سوريا هو (الجنرال دانتز) وطالبه الشعب بالاستقلال فرفض. واستغلت دول المحور (ألمانيا وإيطاليا) هزيمة فرنسا لتمد نفوذها إلى الشرق فاستخدمت المطارات السورية، وأثار ذلك مخاوف بريطانيا وحلفائها سيما بعد قيام ثورة الكيلاني في العراق، فقررت انتزاع سوريا من أيدي حكومة فيشي الموالية للألمان، واتفقت بريطانيا مع ديغول زعيم الفرنسيين الأحرار على احتلال سوريا، وتم ذلك بالفعل في صيف عام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) عندما احتلت القوات الانجليزية والفرنسية الحرة سوريا دون مقاومة تذكر، وأذاعت حكومة فرنسا الحرة على لسان الجنرال (كاترو) باسم الجنرال ديغول بياناً وعد فيه السوريين واللبنانيين بالاستقلال وكان هدف الحلفاء من وراء هذا البيان هو جذب السكان ليقفوا إلى جانبهم أثناء زحفهم لاحتلال البلاد.

وقد علق الوطنيون على هذه الأحداث الآمال، ولكن كاترو أبطأ في تحقيق وعده، غير أن الضغط الشعبي اضطره بأن يذيع بياناً أعلن فيه إلغاء الانتداب واستقلال سوريا حرة موحدة. ثم تألفت وزارة جديدة، وعين الشيخ تاج الدين الحسيني رئيساً للجمهورية واعترف الحلفاء باستقلال سوريا، وأعلن كاترو من جديد ضمّ محافظتي اللاذقية وجبل الدروز إلى سوريا (مع مطلع عام ١٣٦١ هـ (١٩٤١ م) ولكن الشعب طالب بإعادة الحياة الدستورية الصحيحة وتأليف حكومة تنبثق عن إرادته لتحقيق الأماني الوطنية.

وتوفي رئيس الجمهورية الشيخ تاج الدين في أواخر عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م)، وطالب الوطنيون بإنشاء حكومة دستورية، فأجريت الانتخابات

الوطنية التي فاز بها الوطنيون بأغلبية ساحقة، وانتخب السيد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية في ٤ شعبان ١٣٦٢ هـ (١٩٤٣ م)، وألّف الوزارة سعد الله الجابري. وفي خلال هذه المدة بدأ النفوذ الانكليزي، اذ توجد في البلاد وحدات من الجيش الانكليزي دخلت في أثناء طرد حكومة فيشي، كما أن انكلترا كانت تدعم الوطنيين لتوطد نفوذها مكان الفرنسيين المستعمرين الذين يكرههم الشعب، وفي الوقت نفسه كان الوطنيون يجدون في انكلترا ليونة أكثر من فرنسا، ويلجأون إلى مناطق نفوذهم إذا دعتهم الحاجة وتستقبلهم وتدعمهم.

أظهرت الحكومة الوطنية إرادة قوية ووعياً تاماً في التمسك بحقوقها كحكومة مستقلة، فعينت الممثلين السياسيين لدى الدول الصديقة، وساهمت في تأسيس الجامعة العربية، كما أعلنت الحرب على دول المحور لتستفيد من معاهدات الصلح، وأسهم وفدها برئاسة فارس الخوري في مؤتمر سان فرانسيسكو بتأسيس الأمم المتحدة. ثم طالبت فرنسا بتسليم الجيش والجللاء عن البلاد، ولكن الفرنسيين رفضوا ذلك محاولين فرض معاهدة مع سوريا تعطيهم حق استخدام القواعد الجوية والبحرية في البلاد، وعندما رفض الشعب السوري هذه المطالب الفرنسية استخدمت فرنسا القوة، إذ قامت القوات الفرنسية في ١٥ جمادي الثانية بقصف مدينة دمشق بالمدفعية والطائرات لمدة أربع وعشرين ساعة ونصف، ومثلث أبشع تمثيل بحامية المجلس النيابي، ففقت الأعين، وقطعت الأعضاء عضواً عضواً، ودفنت بعض الجنود أحياء، فذب الهلع في نفوس السكان، حتى أن المرضى تركوا مستشفياتهم بحثاً عن ملجأ لهم، وأحرقت الأحياء والمتجر، فكان لذلك كله صدى علمي سيء، فاحتجت الدولة على هذا التصرف وخاصة بريطانيا حيث أنذر تشرشل رئيس الحكومة البريطانية فرنسا بوقف إطلاق النار فوراً، خشية أن تفقد بريطانيا صداقة العرب إلى الأبد، فاستجابت فرنسا للأنذار البريطاني. وبعد ذلك عرضت المشكلة السورية على مجلس الأمن الذي قرر جللاء القوات الفرنسية عن سوريا، وتم الجلاء التام بالفعل في ١٥ جمادي الأولى ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م)، وكان ذلك بداية عهد الاستقلال.

وحقيقة الأمر أن بريطانيا أيدت سوريا في مطالبتها بالجللاء الفرنسي عن أراضيها، خدمة لمصالحها وتحقيقاً لأهدافها الاستراتيجية في المنطقة، وذلك لأن

بريطانيا كات تعمل على تعزيز نفوذها في سوريا ولبنان بعد طرد النفوذ الفرنسي، وإخضاع المنطقة العربية كاملة لنفوذها.

عهد الاستقلال

تسلمت الحكومة الوطنية زمام الأمور، وكان عليها مسؤوليات جسام، وكان أول ما بدأت به إصلاح نظام التعليم الذي هو بحق عصب الحياة ومنطلقها، فكان على الحكومة الوطنية أن تعمل على استبعاد الأثر الفرنسي الذي كان مسيطراً على التعليم من حيث الغلو في تدريس اللغة الفرنسية، فكان على سوريا أن تحارب الاستعمار الثقافي الفرنسي بعد أن تخلصت من الاستعمار السياسي. واتجهت كذلك الى تعزيز الحياة الاقتصادية وخاصة الزراعية منها، كما اهتمت بتقوية الجيش الوطني وتسليحه إضافة إلى اهتمامها بالنهضة العمرانية والفنية. وفي عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) أجريت انتخابات جديدة وأعيد انتخاب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية بعد تعديل الدستور.

وبينما كانت الحكومة السورية جادة في إصلاح ماأفسده وخربه الاستعمار طيلة عدة قرون واجهت مشكلات خارجية منها: حرب فلسطين عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) والتي اشترك الجيش السوري فيها وهزم كغيره من الجيوش العربية، ونتج عن ذلك كارثة فلسطين وقيام دولة لليهود فيها، وبعد الحرب العالمية الثانية أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية زعيمة الكتلة الغربية فأرادت أن تحل محل نفوذ أصدقائها فرنسا وإنكلترا، وأن يكون نفوذاً واحداً للغرب بزعامة الولايات المتحدة بدلاً من التنافس الاستعماري القائم، وكي يقف الغرب كتلة واحدة أمام كتلة الشيوعية، وقد عمدت إلى الانقلابات العسكرية لتحقيق هذا إن عجزت عن النفوذ الاقتصادي.

وأدى ذلك كله إلى قيام سلسلة من الانقلابات العسكرية في سوريا، وذلك إثر حصول الأزمة الوزارية ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م) واحتدام النقاش في المجلس النيابي بين السياسيين والعسكريين حول ميزانية الدفاع، واتهام السياسيين للعسكريين بالتقصير في حرب فلسطين. فقام الانقلاب العسكري الأول بقيادة الزعيم حسني الزعيم في مطلع جمادي الثانية ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م).

استولى الجيش على السلطة في البلاد، واعتقل رئيس الجمهورية شكري القوتلي ورئيس الوزراء خالد العظم، وحل المجلس النيابي، وأعلن حسني الزعيم نفسه رئيساً للوزراء ثم أعلن نفسه رئيساً للجمهورية ورئيساً للوزراء، وأجرى استفتاء سوريا مؤيداًه، وكلف محسن البرازي بعد ذلك بتشكيل الوزارة واعترفت مصر والسعودية بالنظام الجديد، وتوقف العراق، وجاء رئيس وزرائه نوري السعيد الى دمشق ليستطلع الأحوال، ولكن حسني الزعيم فاجأ الناس بزيارة الى القاهرة، وحلّ النفوذ الأمريكي محل الانكليزي هذه المدة.

وبعد أربعة أشهر من الانقلاب الأول، حصل انقلاب آخر بزعمامة الفريق سامي الحناوي رئيس أركان الجيش السوري حينذاك، وكان من نتيجته قتل حسني الزعيم ومحسن البرازي وزرائه بعد ساعة من نجاح الانقلاب، وكانت سياسة هذا الانقلاب الخارجية تميل إلى الاتحاد مع العراق الذي يمثل النفوذ الانكليزي، وقد تعاون الحناوي مع المدنيين وسلمهم السلطة وسيطر هو وجماعته على الجيش. غير أن انقلاباً عسكرياً ثالثاً وقع في ٢٦ صفر ١٣٦٩ هـ (١٩٤٩ م) بزعمامة الزعيم فوزي سلو والعقيد أديب الشيشكلي لإبطال مشروع الاتحاد مع العراق، ومع هذا فقد تابعت الجمعية التأسيسية التي انتخبت أعمالها وانتخب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية، وشكل ناظم القدسي الوزارة، ثم تطورت الأمور إلى أن استقل الشيشكلي بالأمر وقام بعد عامين بانقلاب آخر، وأعلن الشيشكلي دستوراً جديداً لسوريا، وأصبح هو بموجبه رئيساً للجمهورية، كما انتخب مجلس نيابي جديد، ولكن اضطهاد الشيشكلي لجميع الأحزاب وابتعاده في الوقت نفسه عن الجيش أوقعه في انقلاب عسكري، وغادر سوريا والتجأ إلى الأرجنتين ولكنه بقي مصرعه بعد خمس سنوات من مغادرته على أيدي أحد الدروز، الذين حاول الشيشكلي إخضاع جبلهم.

أعيد كل ماكان قبل الشيشكلي إلى سابق عهده فالأتاسي رئيساً للجمهورية، وقدم معروف الدواليبي الذي كان مكلفاً بتشكيل الوزارة استقالته، ثم استؤنفت الحياة الدستورية في البلاد ثم انتهى الأمر بانتخابات نيابية، واختبر شكري القوتلي رئيساً للجمهورية بعد انتهاء هاشم الأتاسي في ٢٨ ذي الحجة عام ١٣٧٤ هـ (١٩٥٥/٨/١٦ م). وكان الحكم النيابي ضعيفاً لأنه يدين للجيش

بوجوده، وعادت الأحزاب التقليدية إلى الحكم، وظهر بجانبها حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي، ولكنها كانت ضعيفة أيضا أمام الجيش وضباطه الشباب، وقد زاد في ضعفها أنها لم تستطع التصرف تجاه العواصف السياسية والمؤامرات الدولية بدءاً بخلف بغداد، ومحاولات العراق لاحتلال سوريا وزيادة النفوذ الشيوعي. وإزاء ذلك اضطرت سوريا إلى أن تتقرب من مصر وتعتد معها معاهدة الدفاع المشترك، ولما كثرت المؤامرات عليها وبلغ التوتر السياسي بين الجيش والحكم حده الأقصى، رأى ضباط الجيش أن أحسن حل للأزمة في البلاد هو في اتحاد سوريا مع مصر. فذهب وفد من الضباط إلى مصر يطلب من رئيسها جمال عبد الناصر وحدة سوريا مع بلاده فقبل عبد الناصر تحت إلحاحهم، وطلبوا من الحكومة السورية اتخاذ الخطوات الفورية للوحدة، فتوجت المحادثات بتوقيع اتفاقية الوحدة في ١٦ رجب عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٨ م) ثم جرى استفتاء عليها في ٨ شعبان، وأعلن عن قيام الجمهورية العربية المتحدة برئاسة جمال عبد الناصر، وتنازل شكري القوتلي، وأعطى لقب المواطن العربي الأول، وسميت سوريا بالاقليم الشمالي بينما سميت مصر الاقليم الجنوبي.

كانت الوحدة تحقيقاً لأمني الشعب العربي، وكانت أول تجربة وحدوية في العصر الحديث، ولكن التنافس الاستعماري، إذ ضعف النفوذ الانكليزي في خلال هذه المدة لصالح النفوذ الأمريكي ونقمت بعض القطاعات الاقتصادية على القرارات الاشتراكية، ووقوع بعض الأخطاء في طريقة الحكم في سوريا ومنها التسلط المصري، كل ذلك أدى إلى قيام انقلاب عسكري أطاح بالوحدة في ١٨ ربيع الثاني ١٣٨١ هـ (٢٨ أيلول ١٩٦١ م) بعد ٤٤ شهراً من قيامها، وأعلن عن انفصال سوريا عن مصر، وأيد حركة الانفصال حزب البعث الذي طالب بالوحدة. بل كانت شعاره، وقد قوي شأنه أثناء الوحدة لإرضاء لقاداته العسكريين و الشعبين. وشكل مأمون الكزبري أول وزارة ثم تلتها وزارة عزت النص التي أشرفت على الانتخابات فقامت حكومة دستورية برئاسة الدكتور معروف الدواليبي إثر انتخابات نيابية، وانتخب الدكتور ناظم القدسي رئيساً للجمهورية وظهرت قوة البعثين والإخوان المسلمين في هذه الانتخابات، وفي شوال ١٣٨١ هـ (١٩٦٢ م) حصل انقلاب عسكري أطاح بالدكتور القدسي رئيس الجمهورية،

وبالدكتور الدواليبي رئيس الوزراء، وتولى الجيش مهام الأمور وتخلص من بعض العسكريين الذين قاموا بالانفصال وهما عبد الكريم النحلاوي ومهيب الهندي اللذان أخرجوا من البلاد. إلى أن تم تشكيل حكومة انتقالية. وبعد خمسة عشر يوماً عاد الدكتور ناظم القدسي إلى رئاسة الجمهورية بدعوة من القائد العام، ثم عهد الدكتور القدسي إلى الدكتور بشير العظمة بتشكيل حكومة انتقالية تضم أعضاء من اليمين ومن اليسار المعتدلين، وبعض رجال ممن كانوا في حزب البعث العربي الاشتراكي، وفي ربيع الأول من عام ١٣٣٨٨٢ هـ استقالت حكومة العظم بسبب هجوم عصام العطار زعيم الإخوان المسلمين عليها لعدم استقامتها في الطريق السليم. وعهد رئيس الجمهورية إلى الدكتور ناظم القدسي بالاتفاق مع الجيش إلى خالد العظم برئاسة الحكومة الجديدة التي استمرت في الحكم حتى قيام انقلاب جديد في منتصف شهر شوال ١٣٨٢ هـ (١٩٦٣ م) برئاسة لؤي الأتاسي، ومحمد الصوفي، وزياد الحريري قائد الجبهة، فأسندت رئاسة مجلس الثورة إلى لؤي الأتاسي ورئاسة الوزارة إلى صلاح الدين البيطار الزعيم البعثي الذي واكب الخط الوحدوي مرحلياً وكان هذا الانقلاب هو بداية تسلم حزب البعث للحكم إذ انفرد بالسلطة وطرد أصدقاء الأمس وسار في خط انفصالي بعد أن كان شعاره العودة إلى الوحدة.

وبعد أن قام بدور تمثيلي في محاولة إقامة وحدة مع مصر، والعراق، وسوريا ولكن فشلت المحادثات ورفض عبدالناصر جميع محاولات حزب البعث وحدثت ثورة في حماه في شوال عام ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) ثم في دمشق بعد عام، وظهر في تهديئة الأوضاع الحقد على الإسلام بشكل واضح، ثم حصلت انشقاقات في حزب البعث حسب تكوينه الطائفي فتخلص النصيريون من الدروز الذين كان يمثلهم سليم حاطوم، ثم من الاسماعيلية الذين كان يجمعهم عبد الكريم الجندي، ورغم أنه من أهل السنة لكنه من بلدة السلمية، وهو عدو لدود للإسلام، ثم من أهل السنة الذين كان منهم أمين الحافظ رئيس الدولة ورئيس الوزراء صلاح البيطار، وبقي النصيريون يحكمون برئاسة صلاح جديدة من وراء واجهة من أهل السنة على رأسها نور الدين الأتاسي، وواجهت هذه القيادة هزيمة حرب ٢٧ صفر ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) وضياح الجولان بعد اعتقالات واسعة بين

صفوف المسلمين، كما يحدث قبل كل حرب خارجية وفي شعبان ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) قامت حركة في سوريا بقيادة الفريق حافظ الأسد وزير الدفاع، وقائد السلاح الجوي، ونجح في الاستيلاء على السلطة بانقلاب أبيض تصدر فيها النصيريون الحكم، وبدأ حقدهم على الإسلام يظهر بشكل سافر ثم مالبت أن أعلن عن سياسته التي كانت أبرز ملامحها الانفتاح على العالم العربي بصورة أوسع تغطية للوضع الداخلي، ومن مظاهر هذا الانفتاح الانضمام إلى ميثاق طرابلس، الذي يضم اتحادا رباعيا بين مصر والسودان، وليبيا، وسوريا. ثم دخلت في اتحاد مصر، وليبيا بعد عام. ولكنه اتحاد شكلي فقط، ولم يلبث أن فصمت عراه لأنها كانت واهية من الأساس، إذ لم يكن صانعوه جادين فيه. وتحسنت علاقة سوريا مع لبنان، والسعودية. وبعد أقل من سنة اختير حافظ الأسد رئيسا للجمهورية ولازال حتى الآن.

ومن أبرز مظاهر السياسة السورية في عهده توثيق العلاقات مع الدول العربية، واشتراكها بحرب رمضان ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) وقد استطاع ارجاع جزء من الجولان بعد مفاوضات أجرتها مع العدو بواسطة كيسنجر ولازالت أراضيها محتلة، وشاركت في قوة حفظ الامن في لبنان بعد الثورة الأهلية التي قامت فيه ١٣٩٥ - ١٣٩٧ هـ، وقام الضباط السوريون وجنودهم وخاصة النصيريين منهم بأعمال يندى لها الجبين حتى لقي اللبنانيون منهم الأمرين ورأوا في إسرائيل منقذاً لهم من السوريين وتصرفاتهم، وهي رؤية الشعب السوري نفسها لما عاني من حكمه، وهذا كل مايريد اليهود، ويريدون أن يصلوا إليه.

وتدعو الحكومة السورية بالتوجه نحو الاتحاد السوفيتي في حين ترتبط بالولايات المتحدة.

ب - لبنان

فتح العرب المسلمون لبنان عندما تقدموا في بلاد الشام، وبقيت جماعات من النصارى التي تعود في أصولها إلى المردة في المرتفعات، وأهمها المسلمون لضالة شأنها، ورغبة في إسلامها مع الزمن، ومع أنها عاشت بأمن، واستقرار، وراحة،

وحرية، إلا أنها كانت على صلة مستمرة بالرومان نتيجة صلة العقيدة معهم، ومع هذا فقد كان المسلمون يعفون عنهم في كل مرة من باب الرحمة وإعطائهم درساً في الحرية.

ثم انتشر مذهب الدروز في مطلع القرن الخامس في وادي التيم، ثم توسع وانتشر، ومع ذلك فقد بقي لبنان جزءاً من بلاد الشام، وتاريخه جزءاً من تاريخها، وجاء العثمانيون وخضع لهم لبنان كبقية مناطق الشام. وكان نفوذ الدروز قد زاد وتسلم فخر الدين المعني إمارة لبنان... أثناء دخول العثمانيين فساعدتهم رغبة في زيادة نفوذه، ولكن عندما ظهرت أطماعه عزل، وعزل ابنه قرقماس، ثم قام فخر الدين المعني الثاني في النصل الأول من القرن الحادي عشر (السابع عشر الميلادي) وبدأ يتصل بالإمارات الإيطالية، ويقوّي نفوذه، ولما اشتد ساعده ثار ضد العثمانيين، واستطاع ضم أجزاء مما جاوره إلى إمارته فجرد العثمانيون إليه حملة هزمته للمرة الأولى ففر إلى إيطاليا ثم عفت الدولة عنه فعاد إلى سيرته الأولى فهزم ثانية، وقبض عليه وقتل عام ١٠٤٥ هـ (١٦٣٥ م)... ويُعد في نظر الأوروبيين عظيماً لأنه كان على صلة معهم ضد العثمانيين المسلمين، وعن الأوروبيين نقل التاريخ ثم زاد التركيز على هذا الرجل مع نشوء فكرة القومية، والتهادم مع الفكرتين القوميتين المتجاورتين، ومن الصعب التعايش بين القوميات نتي. التعصب، وهو درزي، ضد المسلمين وليس من أمر يرفعه القومية حيث كان درزياً ضد المسلمين، وعلى صلة مع الطليان وهذا ينافي ما يسمى بالوطنية.

وبعد المعنيين برز اسم الشهابيين في لبنان وهم من الدروز أيضاً، وتسلموا إمارة المنطقة، وظهر بشير الشهابي فجمع الدروز إليه وجلبهم من مناطق في شمال سوريا. وقوي أمره، وحكم لبنان، وساعد أحمد باشا الجزائر ضد بعض خصومه وتسلم مبعائهم ومنهم ابن عمه يوسف الشهابي بعد قتله. وتوقف عند قدوم نابليون إلى عكا عن مساعدة الجزائر، وعندما فشل نابليون في دخول عكا ورجع عنها بدأ الجزائر يضايق الشهابي حتى أجبره على الفرار من لبنان، ثم تدخلت انكلترا ومحمد علي لدى الجزائر فأعيد الشهابي إلى إمارته، وقال: ان هذا التدخل كان بداية الصلة بين الدروز وانكلترا والتي امتدت إلى الآن.

ثم انضم الشهابي إلى والي عكا الجديد عبد الله الخازندار في نزاعه مع

السلطان، وعندما هزم عام ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣ م) فر الشهابي إلى مصر، فتوسط محمد علي باشا لدى السلطان وعاد الشهابي إلى لبنان.

وانضم الشهابي إلى جيوش إبراهيم باشا عندما دخلت بلاد الشام... ولما كانت لبنان تضم جماعات من النصارى وأخرى من الدروز فقد انتقل بشير الشهابي إلى النصرانية المارونية ليكسب تأييدهم مادام ضامناً جماعته الدروز، ومات عام ١٢٥٦ هـ (١٨٤٠ م) بعد صداماته مع النصيرية، وطردهم إلى الشمال.

وضعت الدولة العثمانية، وبدأت الدول الأوربية تتصل بالأقليات، وخاصة في لبنان وتخرضهم ضد العثمانيين، وكانت فرنسا قد وطدت علاقاتها مع الموارنة، ووثقت انكلترا صلاتها مع الدروز، ومع التنافس الاستعماري بين فرنسا وانكلترا امتد الخلاف إلى أصدقائهم، ونتيجة هذا الخلاف فقد اضطرت الدولة العثمانية عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) إلى تقسيم جبل لبنان إلى قسمين شمالي وعينت عليه حاكماً نصرانياً مارونياً، وجنوبي وعينت عليه حاكماً درزياً، ومع ذلك فقد وقعت الاضطرابات والحوادث الدموية عام ١٢٦١ هـ (١٨٤٥ م) فأوجدت الدولة مجلساً منتخباً بجانب كل حاكم، ثم تجددت الاضطرابات عام ١٢٧٧ هـ (١٨٦٠ م)، وتدخلت الدول الأوربية صاحبة النفوذ وأرسلت فرنسا حملة مؤلفة من ستة آلاف جندي، إلا أن الدولة العثمانية قد أسرعت وحلت الموضوع بشكل يرضي النصارى... فعندما وصلت الحملة الفرنسية وجدت الأمر متتهياً فاضطرت إلى الانسحاب بعد أن قدمت الهدايا لأنصارها.

وجاءت لجنة من الدول الأوربية إلى استانبول، واتفقت مع السلطان العثماني على منح جبل لبنان نظاماً إدارياً خاصاً، حيث يصبح متصرفية مستقلة استقلالاً إدارياً يديرها نصراني من خارج لبنان، يقترحه السلطان وتوافق عليه الدول الأوربية ويتصل مباشرة بالسلطان دون الرجوع إلى ولاية دمشق، ويساعد هذا الحاكم مجلس يمثل الطوائف جميعاً، وكانت هذه المتصرفية لاتشمل سوى الجبل، وبقي هذا الوضع قائماً حتى الحرب العالمية الأولى.

وعندما تم الاتفاق بين انكلترا وفرنسا على تقسيم المناطق التي كانت خاضعة للدولة العثمانية (اتفاقية سايكس-بيكو) كانت منطقة لبنان ضمن مناطق النفوذ

الفرنسية. وعندما انسحب العثمانيون من بلاد الشام، ودخلتها القوات العربية والانكليزية، أنزلت فرنسا قواتها على الساحل وبقيت مرابطة هناك باسم الخطة الحربية، واستمرت بعد وقف الحرب وإعلان الهدنة، ثم قرر الحلفاء في سان ريمو الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان. وجاء المندوب السامي الجنرال غورو إلى لبنان، ومنها تقدّم، واخل دمشق، كما رأينا.

وفي ١٦ ذي الحجة ١٣٣٩ هـ (١٩٢١ م) أصدر غورو قراراً نص على إيجاد دولة لبنان الكبير تتألف من متصرفية جبل لبنان، ولواء بيروت الذي يضم صيدا، وصور، ومرجعيون، وكذلك من منطقة طرابلس التي تضم قضاء عكا، ثم أربعة أقضية هي بعلبك، والبقاع، وحاصبيا، وراشيا وقد أخذت من ولاية دمشق، وعُين على هذه الدولة الجديدة حاكماً فرنسياً، وجعل اللغة الفرنسية لغة التعليم بدلاً من اللغة العربية، ولم يبق بين هذه الدولة ودمشق من صلة سوى مصلحة الجمارك، بعد أن كانت جزءاً من بلاد الشام في العصور التاريخية جميعها.

وفي عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) أصدر المندوب السامي دستوراً أصبح بموجبه لبنان جمهورية، وعين شارل دباس أول رئيس لجمهورية في لبنان، ثم علق المندوب السامي الدستور عام ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) وأصدر للجمهورية نظاماً مؤقتاً وعين بموجبه حبيب باشا السعد رئيساً للجمهورية عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) لمدة عام وجدد له عاماً آخر.

وفي عام ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) عقد مجلس النواب جلسة وانتخب فيها أميل آدة رئيساً للجمهورية وبعد عام أصدر المندوب السامي قراراً جعل فيه مدة الرئاسة ست سنوات والفترة واحدة. ويمكن إعادة انتخاب رئيس الجمهورية ثانية بعد مرور ست سنوات على تركة الرئاسة أول مرة.

وعقدت فرنسا معاهدة مع لبنان عام ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) على نمط المعاهدة الفرنسية السورية التي تم عقدها في ذلك العام، وتضمنت السماح للقوات الفرنسية بالبقاء في لبنان دون تحديد زمن لذلك البقاء.

قامت الحرب العالمية الثانية، وهزمت فرنسا أمام ألمانيا، وتشكلت حكومة فيشي الموالية للألمان، وتبعته أكثر المستعمرات ومناطق النفوذ، ومنها سوريا ولبنان،

وأرسلت لها مندوباً سامياً هو الجنرال دانتر، ثم لم تلبث أن دخلت بلاد الشام قوات فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ديغول مع القوات الانكليزية، وأصبح الجنرال (كاترو) المندوب السامي الجديد، وأراد التقرب من الشعب فأعلن أنه قادم لإنهاء الانتداب واستقلال البلاد، وعندما أراد الإبطاء في وعده بدأت مطالبة الشعب فاضطر إلى إعلان الاستقلال عام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) بعد إعلانه استقلال سورياً بشهرين.

استقال رئيس الدولة أيوب ثابت ورئيس الحكومة سامي الصلح، وتشكلت حكومة برئاسة الفرد ثابت، أشرفت على انتخابات نيابية عام ١٣٦٢ هـ (١٩٤٣ م)، وانتخبت بشارة الخوري رئيساً للجمهورية فكلف رياض الصلح بتشكيل الوزارة، وعندما ألقى رئيس الوزارة بيانه الوزاري الذي عرف بوثيقة الاستقلال، وأصبح العرف هو الذي يحكم به لبنان فيتألف المجلس النيابي من ٩٩ نائباً ينتخبون على أسس طائفية لمدة أربع سنوات، فيمثل النصارى ٥٤ نائباً والمسلمون بالطوائف المتعددة التي تندعي الانتساب إلى الاسلام بـ ٤٥ نائباً.

عدد النواب	التنصاري	عدد النواب	المسلمون
٣٠	موارنة	٢٠	من المسلمين «السنة»
١١	أرثوذكس يونان	١٩	من المسلمين «الشيعة»
٦	كاثوليك يونان	٦	الدروز.
٤	أرثوذكس أرمن.		
١	كاثوليك أرمن		
١	بروتستانت		
٥٣		٤٥	

وبمقتضى هذا العرف يكون رئيس الجمهورية من النصارى الموارنة، وهو رئيس السلطة التنفيذية، والوزير الأول الذي يطلق عليه رئيس الوزراء من المسلمين السنة، ورئيس المجلس النيابي من المسلمين الشيعة، كما يكون قائد الجيش من النصارى أيضاً. ويكون نائب رئيس المجلس النيابي من النصارى الأرثوذكس. ومع أن هذا التقسيم لا يعتمد على إحصاءات دقيقة إذ أن نسبة المسلمين في لبنان تزيد على ٥٧٪ إلا أن هذا العرف بقي هو المعمول به، ويصّر عليه النصارى.

إلا أن المندوب الفرنسي الجديد «هيلو» قام يوم ١٣ ذي القعدة ١٣٦٢ هـ (١٩٤٣ م) باعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة، وبعض أعضاء الحكومة، ونائب طرابلس عبد الحميد كرامي، وزجهم في قلعة راشيا سجناء، وأصدر مرسوماً بحل المجلس النيابي، وإلغاء الدستور، وتعيين أميل آده رئيساً للجمهورية، فحدثت الاضطرابات وعمت الفوضى، وجاء الجنرال كاترو إلى بيروت، واضطرت الحكومة الفرنسية بعد أحد عشر يوماً إلى إعادة الحكومة الشرعية، ورئيس الجمهورية.

أجليت الجيوش الفرنسية عن لبنان في ٥ ذي القعدة عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) أي بعد جلالتها عن سوريا بخمسة أشهر ونصف.

ومنذ عام ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) بدأ نفوذ الولايات المتحدة يزداد في لبنان، وعندما أراد كميل شمعون تجديد انتخابه لرئاسة الجمهورية للمرة الثانية حدثت اضطرابات، وبدأت بواذر الحرب الأهلية، وتقدم الأسطول الأمريكي نحو سواحل لبنان، فتنازل شمعون كرهاً عن رأيه، وانتخب فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية في غرة عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م)، وغادرت القوات الأمريكية لبنان بعد شهرين.

ثم انتخب شارل الحلو لرئاسة الجمهورية، وحدثت عام ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) مصادمات بين الجيش اللبناني والفدائيين الفلسطينيين، وفي عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) انتخب سليمان فرنجية رئيساً للجمهورية وفي عهده حدثت الحرب الأهلية ١٣٥٩-١٣٩٧ هـ، وتلاه إلياس سركيس، ودخلت قوات الردع

لبنان، وحدثت فوضى شديدة، وحاول الموارية الاستقلال في جزء من البلاد حتى قسمت العاصمة بيروت إلى قسمين: شرقية بيد الكتائب أكبر أحزاب الموازنة، وغربية بيد المسلمين.

ولم ينته الأمر حتى حدثت انتخابات رئاسة الجمهورية، لكن اليهود احتلوا لبنان وحاصروا بيروت الغربية، ولم يتمكنوا من دخولها حتى خرجت منها المقاومة الفلسطينية برأيها حرصاً على المدينة.

وارتكب اليهود جرائم نكراء بحق الفلسطينيين بعد خروج المقاومة إذ ذبحوا ستة آلاف نفس بين طفل، وامرأة، وشيخ، وأعزل في مخيمي صابرا، وشاتيلا.

وكان قد انتخب رئيس ميليشيات الكتائب بشير الجميل رئيساً للجمهورية، ولكنه قتل بحادث، إذ نسف البناء الذي يلقي فيه خطاباً، ويبدو أن لليهود يدا في الأمر لإثارة الفتنة بين المسلمين والنصارى، وبالفعل فقد أعقب ذلك جريمة صبرا وشاتيلا.

واختبر أمين الجميل خلفاً لأخيه المقتول، ولم يخرج اليهود بعد من لبنان، ووقعت حوادث بين النصارى والدروز بتحريض من اليهود الذين يدعمون تارة الدروز وأخرى النصارى.

ولبنان له وضعه الخاص إذ يتركز المسلمون في طرابلس وعكار، والساحل، ويزداد الشيعة في الجنوب، وبعبك، ويكثر الدروز في الشوف والمتن، ويتركز النصارى في بقية الجبل شمال طريق دمشق - بيروت.

وأخيراً توقفت الحرب الأهلية، وانتخب الياس هزوي رئيساً للجمهورية، ولا يزال لسوريا دورها في لبنان.

ج - فلسطين

قضية فلسطين اليوم هي قضية كل مسلم، والخطر الصهيوني فيها هو الخطر الاستعماري الداهم الذي لا يهدد فقط إقليم فلسطين وسكانه، بل ويهدد أراضي واسعة من بلاد المسلمين حولها بالغزو والاحتلال ويهدد ثرواتهم بالنهب، وجهودهم

للتنمية بالاستنزاف كما يهدد وجودهم ومستقبل أجيالهم، وكذلك يؤثر على عقيدتهم باحتلال مقدساتهم وتوجيه أبنائهم توجيهاً ضالاً وفاسداً، ولكن هذه المشكلة أصبحت مشكلة دولية بعد أن تدخلت فيها الدول الكبرى التي تلعب بالقضية وتتدخل بشؤون المسلمين بصور شتى، ولا بد في فهمها من الرجوع إلى الجذور التاريخية الأولى للقضية الفلسطينية.

تقوم أطماع الصهيونية في إقليم فلسطين على إدعاء مزيف باطل مؤداه أن هذه البلاد بلادهم منذ أقدم العصور، وأنهم أخرجوا منها كرهاً، فهم يعودون إلى بلادهم لينشئوا لهم فيها دولة هي دولة إسرائيل.

فاليهودية دين اليهود وليسوا من جنس واحد كما يدعون، إذ انتشرت اليهودية بين القبائل الخزرية، وتنسب جماعات من اليهود حالياً إلى تلك القبائل خضعوا في إقليم فلسطين من بلاد الشام للإبادة والترحيل على يد بختنصر والرومان، ولم يبق في فلسطين منهم إلا أعداد قليلة حماهم المسلمون، وقد عاشوا في ذمة المسلمين عيشة هنيئة، ومع ذلك فقد قاموا - كعادتهم - بأعمال غير طيبة مما جعل المسلمين لا يقبلون منهم أن يتجمعوا في القدس وماحولها.

ولم يكن عدد اليهود عند صدور وعد بلفوريزيد على أحد عشر بالمائة (٨٣ ألف نسمة فقط) على حين كان عدد السكان المسلمين ٦٩٧٠٠٠، على حين أن عدد النصارى يساوى ٦٠ ألفاً وتعادل نسبتهم ٨٪.

أما في أواخر العهد العثماني فكانت النسب على الشكل التالي:

المسلمون	٩٠٪ من السكان
النصارى	٨٪ من السكان
اليهود	٢٪ من السكان

الصهيونية والاستعمار :

الحركة الصهيونية حركة عنصرية دينية سياسية استعمارية، ترمي إلى «جمع» شتات اليهود وإعادةهم إلى فلسطين لتأسيس دولة لهم تحمي مشردى اليهود الذين تشردهم مختلف أمم الأرض وشعوبها لأعمالهم الإجرامية وغير الأخلاقية. وقد اشتق أقطاب اليهودية العالمية اسم هذه الحركة من جيل «صهيون» أحد جبال

القدس والذي تردد ذكره في التوراة والانجيل، وكان غرضهم من اختيار ذلك الاسم هو إثارة الشعور الديني في بلاد العالم واكتساب تأييد العناصر النصرانية الغربية وعطفها، ولا يخفي أن هذه الحركة الصهيونية توسعية عدوانية، ليس فقط بالنسبة لفلسطين، بل وبالنسبة للبلدان العربية المجاورة لفلسطين وينهض دليلاً على ذلك «الوطن الصهيوني» في نظر غلاة الصهيونيين هو تلك المنطقة من الشرق العربي التي تمتد من وادي النيل إلى الفرات. كوحدة اللغة، ووحدة التاريخ، ووحدة الأرض، ووحدة الحياة الاقتصادية المشتركة ووحدة التكوين النفسي المشترك، فاليهود في القرن الثالث عشر كانوا موزعين في أقطار مختلفة من العالم ولا يجمع بينهم سوى أمل القدوم إلى فلسطين التي فيها بعض الأماكن المقدسة بالنسبة لهم، واليهود جميعاً يؤيدون ذلك باطنياً، وإن أخفي بعضهم ظاهراً، ذلك لأسباب سياسية يستفيد من ورائها اليهود، واتخذها بعض الساسة خطة سياسية أو قالوا بها جهلاً بواقع ملموس.

ولقد نشأت الحركة الصهيونية في أواخر القرن الثالث عشر (التاسع عشر الميلادي) في أعقاب الاضطهادات التي نزلت باليهود في أجزاء متفرقة من العالم ولا سيما في روسيا، وبولونيا، ورومانيا ووقعت الاضطهادات ضد اليهود بسبب عدم ولائهم للبلاد التي يعيشون فيها كمواطنين وبسبب سيطرتهم على الرأسمالية الكبيرة وتفوقهم في مجالات المال والاقتصاد والأعمال اللاأخلاقية التي يلجأون إليها لتحقيق أغراضهم والجرائم التي يرتكبها بعض عناصرهم لأخذ الدماء غير اليهودية لعمل فطير صهيون أيام أعيادهم، لذا فقد نظرت الشعوب الأوروبية إلى اليهود نظرة ضيق وتبرم، كما أشارت اليهم أصابع الاتهام كلما أصيبت الدولة بهزيمة عسكرية أو نكسة مالية، وأدت تلك الاضطهادات إلى أن يقوم اليهود بتكوين منظمة «محبى صهيون» في روسيا وتأسيس أول مستعمرات صهيونية في فلسطين عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م)، كما حفزت هذه الاضطهادات أحد الزعماء الصهيونيين (ليون بنسكر) إلى تأليف كتاب أسماه التحرير الذاتي قال فيه: إن العلاج ناجح لحل المشكلة اليهودية هو انتقالهم إلى بقعة واحدة من الأرض يكون لهم فيها وطن ودولة، فكان المكان الأول الذي اختاره أعضاء منظمة «محبى صهيون» هو إقليم فلسطين لما تأصل في اعتقادهم الديني من فكرة العودة إلى أرض الميعاد بزعامة زعمائهم.

ولقد كانت العزلة العنصرية التي فرضها اليهود على أنفسهم طوال عصور التاريخ وبتأثير بعض ماتضمنته تعاليم التوراة المحرفة والتلمود من تكريس للعنصرية، ومن تمجيد لليهود على أنهم شعب الله المختار السبب الرئيسي في محاولة السيطرة عن طريق المال، لأن هذه الطريق هي الوسيلة الوحيدة التي تلجأ إليها الأقليات التي تريد لنفسها هذا الوضع الاجتماعي في محاولة إثبات وجودها، والدفاع عن مصالحها، وتحاول عن طريق السيطرة الاقتصادية التعويض عن أوضاعها كأقليات منعزلة في سائر المجتمعات العالمية للوصول إلى السيطرة السياسية الخفية على مقدرات الأمور في البلاد التي تحقق سلطانها الاقتصادي، ولعل الوسيلة غير الأخلاقية كانت تلعب دوراً كبيراً لدى اليهود للتمكن من الحصول على المال والسيطرة الاقتصادية، هذا بالإضافة إلى الأعمال الربوية والاستغلال.

وعقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال بسويسرا عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) بدعوة من تيودور هرتزل زعيم الصهيونية الأول وقد حضر المؤتمر ٢٠٤ من مفكري اليهود من مختلف أنحاء العالم.

وكان هرتزل قد كتب كتاب «الدولة اليهودية» حاول فيه أن يقيم الدليل على أن اليهود يمثلون أمة متميزة، وفي السنة نفسها أسس هرتزل مجلة أسبوعية أسماها «العالم» التي أصبحت ناطقة بلسان الحركة الصهيونية، واتخذ هذا المؤتمر قراره المشهور بإنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، كمرحلة لبناء دولة إسرائيل الكبرى، التي تمتد من الفرات إلى النيل، مع تأكيد الوسائل اللازمة لتحقيق هذا الهدف كإنشاء المنظمة الصهيونية العالمية التي تتولى تمويل الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ولقد انتخبت المنظمة الصهيونية هرتزل رئيساً لها، ومنذ ذلك الوقت أخذت المنظمة الصهيونية العالمية تسعى للحصول على ترخيص من الدولة العثمانية بتأسيس شركة تكون مهمتها تهجير اليهود إلى فلسطين، وقد عرضت أوغندة لتكون مكان اليهود، كما اقترحت ليبيا لكنهم رفضوا ذلك.

وأدى نشوب الحرب العالمية الأولى إلى تحول مركز ثقل الحركة الصهيونية من أوروبا إلى بريطانيا حيث كان يقيم الدكتور (حايم وايزمان) الذي أصبح من زعماء المنظمة الصهيونية البارزين، وكان يعمل أستاذاً للكيمياء في جامعة

مانشستر، وقد أتاحَت فرصة اشتغال (وايزمان) بالتدريس في جامعة مانشستر مجالاً طيباً له للقيام بنشاط سياسي كبير هناك، وللتعرف على عدد من رجالات الانكليز السياسيين، وكان من بينهم (آرثر جيمس بلفور) وزير خارجية بريطانيا آنذاك. وقد بذل (وايزمان) جهوداً كبيرة لدى المسؤولين في انكلترا لحملهم على إصدار تصريح بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وكلف رئيس الوزراء البريطاني (لويد جورج) سير (مارك سايكس) بالدخول في مفاوضات مع الصهيونية، وفي شوال ١٣٣٥ هـ (١٩١٧ م) قدم الدكتور حاييم وايزمان إلى سير مارك سايكس مذكرة بعنوان «خلاصة برنامج لإعادة الاستعمار اليهودي لفلسطين يتفق وأماني الحركة الصهيونية».

وقد تناولت المادة الأولى من هذا البرنامج الصهيوني أهمية الاعتراف بالكيان اليهودي في فلسطين نظرياً، واستهدفت المادة الثانية الحصول على اعتراف بالكيان اليهودي في فلسطين من الناحية العملية، وتناولت المادة الثالثة والوسائل التي يمكنها إقامة الدولة اليهودية في فلسطين، في حين تناولت المادتان الرابعة والخامسة البحث في تطور الحكم الذاتي في فلسطين، وفي تقدم المؤسسات التي أوجدها اليهود في فلسطين.

وعقد أول مؤتمر بين الجانبين البريطاني والصهيوني في لندن في ذي القعدة ١٣٣٥ هـ (١٩١٧ م) وقد الصهيونيون لسايكس تأكيداً رسمياً بأنهم يعترضون بشدة على إقامة إدارة دولية في البلاد المقدسة، مهما كان نوعها حتى ولو كانت إدارة مشتركة بين بريطانيا وفرنسا وحدهما، وأنهم سيعملون من الآن فصاعداً على وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية إذ أيدهم بريطانيا في تحقيق أمانهم القومية، وهذا هو أساس الصفقة التي أدت إلى إصدار وعد بلفور بعد تسعة شهور حين ذاع بين الناس أن لويد جورج وزملاءه قدموا للعالم دليلاً جديداً على المثل العليا الإنسانية التي يعتنقونها بتبنيهم قضية اليهود المضطهدين بجرأة.

والواقع أنه بحلول عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٧ م) عندما كان جيش اللبني يقف أمام مدينة القدس كانت الوزارة البريطانية مستعدة للوصول إلى قرار بشأن أحلام الصهيونية ومطامعها في إقليم فلسطين العربي، فبدلاً من جعل فلسطين «دولة يهودية» كانت الفكرة تتخذ شكل وطن قومي يهودي في فلسطين «ويقول هربرت

صمويل: إن مشروع نص الوعد البريطاني وضع بخط يد لورد ملنر Milner وأرسل إلى عدد من كبار زعماء الصهيونية فأدخلت عدة تعديلات على المشروع. ووما يجدر ذكره أن بعض الصهيوينيين كانوا يطالبون بريطانيا «بالاعتراف بفلسطين كوطن قومي للشعب اليهودي» ولكن حكومة لندن لم تشأ أن تلزم نفسها بتعهد متطرف إلى هذا الحد، ورفضت أن تعد بشيء أكثر من النظر بعين الارتياح «إلى إنشاء وطن قومي في فلسطين» ووطن قومي غير محدود، والفارق بين الفكرتين هو الفارق بين وطن قومي يهودي محدود في فلسطين ووطن قومي غير محدود وأخيراً قبل الصهيوينيون الأمر الواقع ووافقوا على صيغة التصريح النهائية، وكانت قد عرضت على الرئيس الأمريكي ويلسون، وحظيت بموافقة.

تلك كانت الظروف التي صدر فيها وعد أو تصريح بلفور في ١٥ محرم ١٣٣٦ هـ (٢ تشرين الثاني ١٩١٧ م).

تصريح بلفور (١٥ حرم ١٣٣٦ هـ) :

وكان تصريح بلفور عبارة عن خطاب موجه من وزير خارجية بريطانيا لورد آرثر جيمس بلفور إلى اللورد روتشيلد (أحد أركان الصهيونية في بريطانيا) ونصه : إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جلياً أنه لن يؤدي بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا بالحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى.

والذي يجدر ذكره أن هذا التصريح يطابق تماماً نص المذكرة التي قدمتها المنظمة الصهيونية العالمية إلى الحكومة البريطانية، والتي سبق الإشارة إليها بتاريخ ٢٨ رمضان ١٣٣٥ هـ (١٩١٧ م) كذلك مما يجدره ذكره أنه قد ثبت أن تصريح بلفور هذا كان قد عرض قبل إعلانه على الرئيس الأمريكي ويلسن، وحظى بموافقة في آخر يوم من أيام عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٧ م)، كما أيدته الحكومة الفرنسية في ربيع الثاني ١٣٣٦ هـ (١٩١٨ م) تأييداً علنياً ثم تلتها الحكومة الإيطالية فأيدته ولكن ما هي العوامل التي دفعت بريطانيا إلى إصدار هذا الوعد.

لقد ذكر المعاصرون والمؤرخون أسباباً متعددة لصدور وعد بلفور، فعزاه بعضهم إلى رغبة الحلفاء في كسب الحركة الصهيونية إلى جانبهم حتى تقوم بدور المخرب في ألمانيا والدول المتحالفة معها. وعزاه بعضهم الآخر إلى رغبة انكلترا في دفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى الدخول في الحرب إلى جانبها سيما وأن اليهود يسيطرون على الرأي العام الأمريكي، وقبل أيضاً أن الحكومة البريطانية أعطت وعد بلفور رغبة منها في مكافأة وإيزمان على استنباطه مادة الأستون التي تدخل في صناعة الذخائر والمتفجرات الأمر الذي ساعد بريطانيا على كسب الحرب العالمية الأولى.

وواقع الأمر أن العوامل التي دفعت بريطانيا إلى احتضان الحركة الصهيونية وإصدار وعد بلفور يمكن ردها إلى ثلاثة أصول:

أولاً :- محاولة إبقاء روسيا في الحرب بعد قيام الثورة الشيوعية فيها وسقوط القيصر، لأن اليهود كانوا يسيطرون على الصناعة في روسيا ولاسيما الصناعات الحربية، ولهم دور قيادي واضح في الثورة الشيوعية.

ثانياً :- الرغبة في سيطرة بريطانيا على فلسطين لحماية مركز بريطانيا في مصر ولتأمين طرق مواصلاتها البرية في الشرق، سيما وأن فلسطين غدت ذات قيمة استراتيجية لبريطانيا خلال الحرب.

ثالثاً :- إفادة بريطانيا من وجود اليهود في فلسطين حيث يقول ونستون تشرشل في مذكراته «ولإذا أتيح لنا في حياتنا وهو ماسيقع حتماً أن نشهد مولد دولة يهودية لا في فلسطين وحدها بل على ضفتي الأردن معا تقوم تحت حماية التاج البريطاني، وتضم نحواً من ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود فإننا سنشهد وقوع حادث يتفق تمام الاتفاق مع المصالح الحقيقية للامبراطورية البريطانية».

ولقد تأكد هذا المعنى الذي صدر عن تشرشل في حديث لوايزمان مع لورد بلفور وقال فيه وايزمان: «وقد بينت للورد أن إقامة مجتمع يضم أربعة أو خمسة ملايين من اليهود في فلسطين سيكون قاعدة اقتصادية كافية يستطيع اليهود منها أن ينتقلوا بطريق الإشعاع إلى الأجزاء الباقية من الشرق الأدنى... لكن هذا العمل يتطلب تنمية الوطن القومي اليهودي في فلسطين تنمية حرة وغير مقيدة

بحيث نتمكن من إسكان أربعة ملايين أو خمسة ملايين من اليهود في فلسطين في غضون جيل واحد، ويجعل من فلسطين بلاداً يهودية في ظل التاج البريطاني، قد اقنعت اللورد بأن ما يسمى بالاستعمار ليس إلا الصهيونية بعينها، وقال أحد الصهاينة أيضاً: لقد أيدنا الثورة التركية على ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) بالمال والتنظيم، ولكننا من الآن فصاعداً قد نفضنا أيدينا من الأتراك فلم يضمن لنا الجوّ الذي نستطيع فيه أن نجلب رؤوس أموال أمريكية ويهودية إلى فلسطين إلا حكومة أوربية، ويبدو واضحاً أن مثلهم الأعلى هو فلسطين انكليزية أو فلسطين أمريكية، وهم يفضلون فلسطين انكليزية نظراً لعلاقات بريطانيا التجارية مع مصر ومركز بريطانيا لدى العرب.

رابعاً :- الحقد الصليبي على المسلمين والذي أثار الأوروبيين قروناً طويلة لسيطرة النصارى على القدس. وإن وجود دولة لليهود وسط العالم الإسلامي بل في مركزه ليساعد على إفساد المسلمين وإضعافهم بإبعادهم عن عقيدتهم نتيجة الأخلاق اليهودية.

ويتضح إذن أن الصهيونية كانت تعد بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية بأن تحول فلسطين من أرض مسلمة إلى قطعة من الغرب بما يضمن للدول الاستعمارية بوجه عام وبريطانيا بوجه خاص وجوداً مستديماً في العالم الإسلامي وبما يؤكد هذه الحقيقة أن الحركة الصهيونية قد تحالفت بادئ ذي بدء مع الاستعمار البريطاني، وعن طريق هذا التحالف كانت بريطانيا تتطلع للوصول إلى فلسطين، وقد قال أحد الانكليز «إن الصهيونية كانت منذ البداية حركة انكليزية وليست حركة يهودية فحسب».

وهنا ملاحظات عامة حول وعهد بلفور :-

أولاً :- ليس من حق بريطانيا أن تصدر وعداً تمنح بموجبه بلاداً لا تملكها ولا تسيطر عليها ولم يكن لها سلطان للتصرف في أراضيها.

ثانياً :- جاء في تصريح بلفور «ينشأ في فلسطين» أي أن انكلترا لم تتعهد بأن تكون فلسطين كاملة وطناً قومياً لليهود، فإن عبارة وطن قومي تعني الملجأ أو المأوى الذي يستطيع اليهود أن يفروا إليه من الاضطهادات التي تعرضوا إليها في أوروبا.

ثالثاً :- وجاء في تصريح بلفور عبارة أن «لايسمح بإجراء شيء» يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن «وهذه العبارة مضللة وغريبة فقد عدت بريطانيا مسلمي فلسطين - ويمثلون ٩٠٪ من السكان بينما لا يمثل اليهود سوى ٢٪ وحتى لو كانوا ٧٪ بعد مجيء دفعات من اليهود - طوائف غير يهودية، وبذلك جعلت فلسطين كأنها بلاد يهودية وسائر السكان من غير اليهود دخلاء أو أقليات ضئيلة، والحقيقة أن المسلمين في فلسطين هم الذين يشكلون غالبية السكان ٩٠٪ ويملكون ٩٥٪ من الأراضي، ويعيشون في فلسطين بلا انقطاع منذ أكثر من ١٣٩٠ سنة.

رابعاً :- ونص التصريح على المحافظة على الحقوق التي يتمتع بها اليهود في البلدان الأخرى وبمركزهم السياسي فيها، ويلاحظ أن اليهود انفسهم هم الذين طلبوا ذلك لأن عدداً كبيراً في أمريكا وفي غيرها من دول أوروبا، ممن تنجسوا بجنسية البلاد التي يقيمون بها يخشون من أن إنشاء الدولة اليهودية قد يحرمهم من جنسيتهم التي يحملونها ونشاطهم الاقتصادي الذي يزاولونه.

أما موقف المسلمين من تصريح بلفور فقد أثار هذا التصريح حيرة وفزعاً في العالم الإسلامي، إذ رأي فيه المسلمون اعتداء على جزء من أراضيهم هو فلسطين، وسلب حقوق أهله وتسليمه لليهود، وبذلت بريطانيا جهوداً طائلة لتبديد مخاوف المسلمين حتى لا تتوقف مساعدتهم للحلفاء والحرب لا تزال دائرة، فأرسلت بريطانيا مبعوثاً خاصاً هو «غارث» لمقابلة الشريف حسين بن علي وطمأنته على حسن نوايا الحكومة البريطانية وأقنعتة بأن التعاون بين المسلمين واليهود يحقق الخير لهم جميعاً.

والواقع أنه في هذا العالم المادي لاحق إلا للقوة التي يجب أن يسعى إليها المسلمون، ويعدوا العدة لها.

وكان تصريح بلفور هو بداية مشكلة فلسطين، إذ سعي اليهود في مؤتمر الصلح وفي مؤتمر سان ريمو ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م) لوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وتضمين صك الانتداب بنوداً تهدف إلى تحقيق وعد بلفور.

الانتداب البريطاني في فلسطين :

حتى عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م) كانت فلسطين بمفهومنا الحالي جزءاً من الدولة العثمانية، وتتألف من ثلاث متصرفيات منها: متصرفيتا عكا ونابلس وهما تابعتان لولاية بيروت، ثم متصرفية القدس الشريف وهي متصرفية مستقلة تتبع مباشرة استانبول، وتضم أربعة أفضية هي بافا، وغزة، وبشر السبع، والخليل.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى استولت الحملة البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي على فلسطين في ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م) وخضعت فلسطين للإدارة العسكرية البريطانية ١٣٣٦-١٣٣٩ هـ (١٩١٧-١٩٢٠ م) على اعتبار أنها جزء من أراضي العدو المحتلة، وتقرر انتداب بريطانيا عليها في مؤتمر سان ريمو، وتضمنت بنود صك الانتداب شروط إنشاء وطن قومي لليهود، وإقامة وكالة يهودية لتقديم النصيح والمعونة للإدارة الفلسطينية في النواحي الاقتصادية والاجتماعية التي تتصل بإقامة الوطن القومي لليهود، «كما نص صك الانتداب على تسهيل هجرة اليهود وإقامتهم، دون إضرار بحقوق ووضع العناصر الأخرى من السكان».

وهكذا جاء صك الانتداب من الأصل منافياً للهدف الذي توخته العصبة من وراء نظام الانتداب، وهو مساعدة الشعوب غير المتطورة على الحكم الذاتي بواسطة دولة كبيرة متقدمة، بل إن صك الانتداب على هذا النحو قد وضع أساس إبادة سكان فلسطين الذين لم يشر إليهم في صك الانتداب بكلمة واحدة مع انهم الأغلبية الساحقة هناك حينذاك. والواقع أن عصبة الأمم لم تكن لتتجه إلى جانب إلا والحق الصليبي هدفها، وإن الدول الكبرى يعني النصرانية التي تحمل الصليبية بين جوانحها وإن ادعت تحت العلمانية، وكذلك هي جمعية الأمم الآن.

شرعت بريطانيا في تهويد فلسطين فعينت السير هربرت صموئيل مندوباً سامياً لفلسطين، وهو يهودي متحمس للصهيونية، وقد رشحته الحركة الصهيونية وأقام صموئيل إدارة إستعمارية صهيونية كاملة فاختر (بنتويش) نائباً له، وهو صهيوني، ورفع عدد الموظفين اليهود في إدارة الى أربعة أضعاف عدد الموظفين المسلمين، وعين مديري الهجرة، والجنسية، والتجارية من الصهيونيين، وأخذت تلك الإدارة تصدر القرارات والقوانين التي تهدف إلى صبغ فلسطين بالصبغة اليهودية

الصهيونية، فعدت اللغة العبرية لغة رسمية إلى جانب اللغة العربية وظهرت طوابع البريد، وقطع النقود تحمل كلمة «أرض إسرائيل بالعبرية» ترجمة لكلمة فلسطين بالعربية، وعملت الإدارة البريطانية على السماح لأكثر عدد من اليهود بالهجرة إلى فلسطين وتمليكهم أكبر مساحة من الأرض، كما سمحت للوكالة اليهود بتمثيل اليهود في فلسطين وجعلتها دولة في داخل دولة، ولاتقر بريطانيا أمراً في فلسطين إلا بالاتفاق معها، وتركت لها حرية إقامة المدارس، والمستعمرات، والتشكيلات العسكرية، وتحديد أعداد المهاجرين ومنح الجنسية، والتصرف الاقتصادي، وبينما كانت عملية تهريب السلاح مقبولة لليهود كان المسلم الذي يضبط معه مسدس يحكم عليه بالسجن مدة خمس عشرة سنة وأحياناً بالإعدام.

وهكذا تكون بريطانيا قد أوفت بالتزامها نحو الصليبية وتعهدتها نحو اليهود بوضع وعد بلفور موضعاً عملياً وتطبيقه فعلاً، ونجحت السياسة الانكليزية خلال الانتداب في زيادة عدد اليهود في فلسطين، وزيادة تملكهم الأراضي في فلسطين، وإقامة قوتهم العسكرية.

أدرك سكان فلسطين ما يدبر لهم، وانفجر الشعور الوطني منذ الانتداب وحتى قيام الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ في مظاهرات، واضطرابات، وثورات دامية عبروا فيها عن سخطهم على السياسة البريطانية وحليفها الصهيونية، وتحملوا عبء الكفاح ضد الصهيونية والاستعمار، قاموا بتوحيد القوى الوطنية في فلسطين إثر إعلان وعد بلفور في ١٥ محرم ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م)، فقد عقدوا مؤتمراً في القدس سنة ١٣٣٨ هـ أعلن فيه المؤتمرون عن رغبتهم في الاستقلال الكامل، والوحدة مع سوريا، ورفض وعد بلفور، وأجمعوا على قراراتهم هذه أمام لجنة (كنغ - كرين) التي جاءت للتحقيق في السنة نفسها كما اشتركوا مع المؤتمر السوري بدمشق سنة ١٣٣٩ هـ، وأجمعوا قراراتهم مع قراراته، وأعلنوا استقلال سوريا بما فيها فلسطين، وتتويج فيصل ملكاً عليها.

وتبلور البرنامج الفلسطيني في الأهداف الرئيسية التالية وهي :- إلغاء وعد بلفور - رفض الانتداب البريطاني، استقلال فلسطين - تشكيل حكومة فلسطينية نيابية - حق سوريا ولبنان وفلسطين في قيام وحدة بينهم والاستقلال، فهم منطقة طبيعية واحدة.

وفي عام ١٣٣٩ نشبت الاضطرابات في فلسطين، وهاجم السكان اليهود، فقد رفض الزعماء في فلسطين أن يعترفوا بشرعية الانتداب، أو بحق البريطانيين في تنفيذ وعد بلفور، وطالبوا بالاستقلال، وكانوا في البداية يوجهون عداؤهم نحو اليهود وحدهم، ولكن مع مرور الزمن تغير هذا الاتجاه، وتبلور استياء السكان من الإدارة البريطانية في فلسطين، واتخذ شكل العمل ضد الحكومة وحاولت الحكومة البريطانية تهدئة العرب، وتحويل الحركة الوطنية عن غاياتها الرئيسية، فكانت تشكل لجناً للتحقيق تارة، وتدعو زعماء العرب إلى المؤتمر تارة أخرى، ثم تصدر كتباً بيضاء تبين فيها سياستها، ولكن دون جدوى، بل بالعكس فقد زاد سخط السكان على السياسة البريطانية المتحالفة مع الصهيونية طالما بقي وعد بلفور قائماً تحميه الحراب البريطانية، وقد انفجرت تلك الاضطرابات نتيجة لخيبة الأمل في عدم تحقيق وعود الاستقلال التي بذلت لهم في أثناء الحرب، والاعتقاد بأن تصريح بلفور قد انطوى على إنكار لحق تقرير المصير، وخوفهم من أن تقضي الهجرة اليهودية إلى إخضاع المسلمين اقتصادياً وسياسياً لليهود.

وعلى العموم فقد كان التعارض بين أغراض الانتداب وبين مطالب العرب المشروعة منشأ كل الاضطرابات التي وصمت عهد الانتداب البريطاني في البلاد، وباءت المحاولات البريطانية جميعها لتسوية المشكلة بالفشل.

أما المسلمون في بقية الأمصار فيها فكانوا في غفلة وجهل، وظلم وضغط من المتسلطين عليهم من المستعمرين وأعوانهم، وهم يعيشون في حالة لا تمكنهم من رؤية أو معرفة أو التفكير في شيء أكثر مما يعانونه.

ففي عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م) قامت اضطرابات خطيرة في فلسطين، وشكلت لجنة للتحقيق، ثم دعي زعماء العرب الفلسطينيين إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية في موضوع تأسيس حكومة فلسطينية، وأصر العرب على ضرورة البدء بالغاء تصريح بلفور ووقف الهجرة اليهودية، ولكن الحكومة البريطانية أصدرت الكتاب الأبيض الأول ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) والذي ينص على استمرار الهجرة اليهودية في حدود الطاقة الاستيعابية، كما وعد بإنشاء مجلس تشريعي ينتخب أكثر أعضائه، وقد رفضه السكان وقبله اليهود.

وتدفق المهاجرون اليهود على فلسطين حتى دخلها في السنوات العشر

(١٣٣٩-١٣٤٩ هـ) ٧٦٦٠٠ مهاجر، كما زادت مساحة الأراضي التي كانوا يمتلكونها بتشجيع من السلطات البريطانية، وسبب ذلك أزمة، وضاعت سبل المعيشة أمام السكان بينما كان اليهود يتلقون المساعدات المالية من الهيئات الصهيونية بالخارج، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية.

ويحدث الاضطرابات في فلسطين في عام ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩ م) بسبب حادث البراق (حائط المبكى)، وذلك لأن اليهود أقاموا ستارا على الحائط ورفضوا إزالته فثارت ثائرة المسلمين، وقام اليهود بمظاهرات صاخبة واصطدموا بالمسلمين، وسقط مئات من القتلى والجرحى، فشكلت بريطانيا لجنة للتحقيق (لجنة شو) فأوصت بتحديد الهجرة اليهودية، وفرض قيود على انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود، كما أوصت باستئناف المباحثات لوضع دستور للحكم الذاتي، وعلى الرغم من ذلك فقد أصدرت بريطانيا الكتاب الأبيض الثاني في عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) تمسكت فيه بتصريح بلفور، والانتداب، وأعلنت عن تشكيل مجلس تشريعي، وتحديد الهجرة اليهودية، ووقف انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود، وعلى الرغم من أن تلك القرارات لا تحقق الأهداف الرئيسية للسكان إلا أن اليهود شنوا عليها حملة شعواء حتى اضطرت الحكومة البريطانية إلى التراجع فأصدرت كتابا آخر (١٣٥٠ هـ) - دعاه العرب بالكتاب الأسود - تعهدت فيه الحكومة البريطانية بتسهيل الهجرة اليهودية، وشرائهم أراضي العرب، وعلى إثر ذلك عمت فلسطين المظاهرات للاحتجاج ضد الحكومة، وعقد مؤتمر شعبي في نابلس دعا إلى عدم التفاهم مع الانكليز إلا على أساس المطالبة بالاستقلال ضمن وحدة بلاد الشام.

وكان السبب الرئيسي في ازدياد هجرة اليهود في الفترة ما بين ١٣٥٢-١٣٦٥ هـ هو اضطهاد النازية الألمانية لليهود بعد أن تولى هتلر الحكم فأخذ اليهود يهاجرون من ألمانيا فراراً من الاضطهاد النازي، وشهدت فلسطين - ابتداءً من عام ١٣٥٢ هـ سيلا من المهاجرين اليهود فوق ماتحتمله طاقة البلاد على نحو ما يوضحه الإحصاء الآتي الذي يبين تعداد اليهود في فلسطين في سنوات مختلفة:-

سنة ١٣٤١	٨٣,٧٠٠	من مجموع سكان فلسطين	٦٤٩,٠٤٨
سنة ١٣٥٠ هـ / ١٩٢٢ م	١٧٤,٦٠٦	من مجموع سكان فلسطين	٩٦٦,٧٦١

سنة ١٣٥٤ / ١٩٣٠م	٣٥٥,١٥٧	من مجموع سكان فلسطين	١,٢٤١,٥٥٩
سنة ١٣٥٩ / ١٩٣٥م	٤٦٣,٥٣٥	من مجموع سكان فلسطين	١,٤٧٧,٩٧٧
سنة ١٣٦٥ / ١٩٤٦م	٦٠٨,٢٣٠	من مجموع سكان فلسطين	١,٨٤٥,٥٦٠

وباطراد هجرة اليهود ازدادت المقاومة وفي رجب ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٤م قام العرب بإضراب عام بعد أن عقدوا مؤتمراً في القدس في ذي القعدة ١٣٥١ هـ وقرروا فيه منع الهجرة، ومنع بيع الأراضي لليهود، ورفض التعاون مع بريطانيا، ونشبت الاضطرابات وعمت المظاهرات في أنحاء البلاد احتجاجاً على السياسة الانكليزية، وتلا ذلك ثورة الشيخ عز الدين القسام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٦م) كما قدمت الأحزاب الفلسطينية مذكرة إلى الحكومة البريطانية ضمنيتها مطالب الحركة الوطنية الفلسطينية الخاصة بتشكيل حكومة نيابية، ووقف الهجرة، وعدم بيع الأراضي، فأجابت انكلترا بتكوين مجلس تشريعي، ورفضت موضوع وقف الهجرة، ووقف بيع الأراضي، ولم يجد المسلمون مناصباً من إعلان الثورة على بريطانيا.

وفي أواخر عام ١٣٤٥ هـ قامت ثورة عنيفة لم تحمد حتى قامت الحرب العالمية الثانية ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩م) وبدأت الثورة بإعلان الإضراب العام في البلاد الذي استمر ستة شهور حتى شلت حياة البلاد الاقتصادية، واتحدت الأحزاب العربية المختلفة في هيئة واحدة باسم «الهيئة العربية العليا» وقطعت خطوط المواصلات والبرق، وهو جمت المعسكرات البريطانية، واشتدت السلطات البريطانية في أعمال القمع من سفك الدماء، وحرق القرى، والسجن، والنفي، والتعذيب.

وكان للثورة الفلسطينية صداها القوي في سائر العالم الإسلامي رغم ضعف وسائل الإعلام يومذاك إذ اعتقد السكان جميعاً أن قضية فلسطين لم تعد قضية أهلها وحدهم، وإنما غدت قضية المسلمين جميعاً فقامت في العواصم العربية مظاهرات الاحتجاج على السياسة البريطانية وتوافد المتطوعون من جهات متعددة لنصرة إخوانهم الفلسطينيين.

ولم يقف الإضراب، وتهدأ الثورة إلا بعد أن تدخل رؤساء الدول العربية وتوسطوا بين حكومة بريطانيا والثوار والفلسطينيين فتوقف الإضراب في رجب

١٣٥٥ هـ ، وأفقد ذلك التدخل الحركة العربية في فلسطين جانباً كبيراً من قوتها واندفاعها فجاء وقف الثورة في صالح الأطماع الاستعمارية.

وعادت بريطانيا إلى سياسة اللجان فشكّلت لجنةً بيل لدراسة أسباب الاضطراب الأخير في فلسطين، واقترحت اللجنة إنهاء الانتداب، وتقسيم فلسطين إلى دولة عربية، ودولة يهودية وبقاء الأماكن المقدسة تحت سيطرة الدولة المنتدبة، ورفض كل من المسلمين واليهود تقرير (بيل) واستؤنفت الثورة في عام ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) واشتدت في عام ١٣٥٧ هـ بل لم تنقطع الاضطرابات، والثورة حتى قيام الحرب العالمية الثانية ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) أي أن الثورة الفلسطينية قد استمرت ثلاث سنوات وخمسة أشهر، من ذي الحجة ١٣٥٤ إلى رجب ١٣٥٨ هـ . وقد كتب المجاهدون الفلسطينيون خاصة والشعب الفلسطيني عامة في ثورتهم هذه أروع آيات البسالة والفداء.

لقد كان مسلمو فلسطين الذين يتجاوز عددهم مليوناً ونصف مليون نسمة يقارعون في ثورتهم هذه الامبراطورية البريطانية والصهيونية العالمية معاً، بكل ماتملك هاتان القوتان من جنود وحشود وأموال ووسائل عسكرية وسياسية واقتصادية وكانوا يقارعون تلك القوى العالمية وهم قلة لا تكاد تذكر في العدد والسلاح والمال، وفي كل وسائل الحروب والقتال، وكان إيمانهم ويقينهم هو الذي يدفعهم للاستماتة في سبيل غايتهم المثلى وهدفهم الأسمى.

وشهد العالم بأسره على بطولة الشعب الفلسطيني في تلك الثورة، واخذت صحف العالم وإذاعاته تردد صدًى هذه الثورة الفريدة ووقائعها البارزة بما لم يسبق له مثيل من العناية والاهتمام، كما اضطرت الصحف البريطانية نفسها للاعتراف ببطولة الثوار الفلسطينيين الذين قاموا بمقاومة تبهر العالم بما فيها من بأس واستماتة، وتثير الحماسة بين المسلمين من سكان الأمصار العربية بحكم الجوار والقرب، واعترف وزير المستعمرات البريطانية كذلك بخطورة الثورة وقوتها وشجاعة الثوار الذين تدفعهم عقيدتهم لركوب الأخطار، وأشاد هتلر بالشعب الفلسطيني، وببطولته الخارقة في تلك الثورة التي قارعت الاستعمار والصهيونية معاً.

وأدركت بريطانيا استحالة تقسيم فلسطين وأن أضمن قاعدة للسلام والتقدم

في فلسطين هي التفاهم بين المسلمين واليهود، ودعت إلى عقد مؤتمر مائدة مستديرة في لندن في الوقت الذي كانت فيه الثورة الفلسطينية لاتزال محتدمة، وقد وجهت الدعوات لحضور هذا المؤتمر في لندن إلى كل من مصر، والعراق، والسعودية، واليمن، وشرق الأردن، بالإضافة إلى عرب فلسطين، والوكالة اليهودية، واجتمع المؤتمر في الأيام الأخيرة من عام ١٣٥٧ هـ ولكن ما إن بدأت اجتماعاته حتى انقسم إلى قسمين، لأن عرب فلسطين رفضوا أن يجلسوا على المائدة التي جلس عليها المندوبون اليهود، وقد انفض المؤتمر في مطلع ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) دون أن يصل إلى أي اتفاق.

في ٢٧ صفر ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) أصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض الثالث الذي يشتمل على المقترحات الجديدة، التي تهدف إلى إنشاء دولة فلسطينية مستقلة، خلال عشر سنوات على أن تحدد علاقاتها مع بريطانيا بمعاهدة تكفل لكل من الدولتين احتياجاتها التجارية والاستراتيجية في المستقبل، ولم توضح بالضبط صيغة الدستور الجديد، ولن ذكر بشكل مهم أن «إنشاء دولة مستقلة والتخلي تماما عن إشراف الانتداب على فلسطين يستلزمان قيام علاقات بين العرب»^(٤٦) واليهود تجعل في حيز الإمكان قيام حكومة صالحة» وكان البريطانيون بعد مرور ثلاث سنوات على الثورة الفلسطينية الكبرى لا يزالون يأملون في التوفيق بين الطرفين. أما فيما يتعلق بالهجرة فقد ذكر الكتاب الأبيض ضرورة تحديدها بإضافة ٧٥٠٠٠ خلال السنوات الخمس التالية، وقد قوبل الكتاب الأبيض بالرفض من قبل الجانبين العربي الفلسطيني واليهودي، كما رفض توصيات الكتاب الأبيض الثالث مندوبو الدول العربية عدا مندوب حكومة شرق الأردن.

وجدت الحكومة البريطانية نفسها في موقف صعب مليء بالتناقضات والأخطار حقيقة أن المصالح الامبراطورية قد أملت عليها ضرورة مواصلة إقامة علاقات

(٤٦) كان المستعمرون يستعملون كلمة «عرب» بدلاً من «مسلمين» رغم أن كلمة «عرب» تدل على جنس، وكلمة يهود تدل على دين، وذلك خوفاً من إثارة الجانب الديني وإعلان الجهاد والحرب المقدسة هذا من جانب، ومن جانب آخر حتى يدخلوا بين المسلمين بعض النصارى فكانوا عيوناً لهم على المسلمين، ويرتكزون عليهم في مصالحهم.

حسنة مع العرب، إلا أن ضغط الساسة العرب على بريطانيا لم يكن فعالاً، وكان من الطبيعي أن تكون الحكومة البريطانية أكثر عطفاً على المطالب العربية، وبخاصة ما لم يهدد منها السيطرة البريطانية على فلسطين. وما يجدر ذكره أن سيطرة بريطانيا على الأراضي المتاخمة لقناة السويس من جهة الشمال كانت تحتل مكاناً هاماً في خطتها الخاصة بوجود وطن قومي لليهود في فلسطين، وبدأ هذا واضحاً حين ازدادت الملاحقة والمواصلات الجوية، وفي الوقت نفسه ازداد النقد العلني في بريطانيا لمنح تنازلات على حساب اليهود في الوقت الذي نظم فيه اليهود الهجرة غير المشروعة على مدى أوسع من ذي قبل إلى أن نشبت الحرب العالمية الثانية.

وبنشوب الحرب العالمية الثانية دخلت قضية فلسطين في دور جديد وأجل الزعماء اليهود والعرب نزاعهم مع بريطانيا، وظلت فلسطين هادئة نسبياً حتى عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) وحين انحسرت الحرب عن البلدان العربية شدد اليهود نضالهم ضد تنفيذ سياسة الكتاب الأبيض، وركز الصهاينة الجانب الأكبر من دعايتهم في الولايات المتحدة مستغلين ما يتمتع به اليهود من نفوذ كبير في عالم المال والاقتصاد والصحافة والاعلام، فعقدوا في (بليمور) في خلال عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) مؤتمراً كبيراً للبحث في مستقبل الخطط الصهيونية، وقرر المؤتمر فتح باب الهجرة غير المحدودة على أن تشرف عليها الوكالة اليهودية، وأن ينشأ في فلسطين اتحاد يهودي، وأن يشكل جيش يهودي، ونظم اليهود في فلسطين حملة منظمة ضد الحكومة البريطانية، وكثرت حوادث الإرهاب، ورغم أن الوكالة اليهودية قد وعدت بالتعاون ضد الإرهابيين إلا أنها لم تفعل شيئاً يذكر.

حينئذ انتقل مركز ثقل الحركة الصهيونية من انكلترا إلى الولايات المتحدة، وبدأ أن الرأي العام الأمريكي يميل إلى العطف على الحركة الصهيونية بتأثير العدد الكبير من اليهود الذين يتمتعون بنفوذ كبير وبخاصة في نيويورك، واتخذ الكونغرس الأمريكي قراراً يعضد إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، فأصدر في محرم ١٣٦٣ هـ (١٩٤٤ م) قراراً بتشجيع الهجرة اليهودية غير المحددة، وتأسيس دولة يهودية، وكان هذا الاتجاه يجد تعصيلاً من جانب المستر ترومان رئيس الولايات المتحدة الذي يعطف على أمانى الصهيونية، ومن جانب الجزيرين الرئيسيين في الولايا المتحدة وهما الحزب الجمهوري، والحزب الديمقراطي وبتأثير

اليهود طالب ترومان ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥ م) بفتح أبواب فلسطين لقبول مائة ألف مهاجر يهودي دفعة واحدة كحل لمسألة اليهود المشردين في أوروبا وألح في ذلك كثيرا وإزاء ذلك قررت الحكومة البريطانية أن تدعو الحكومة الأمريكية للتعاون معها لتشكيل لجنة تحقيق مشتركة.

بدأت اللجنة عملها فطافت ببلاد كثيرة في أوروبا، وفي فلسطين، والبلاد العربية ثم أصدرت تقريرها في عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) وقد جاء وثيقة متناهية في ظلم المسلمين والإجحاف بحقوقهم، وقد سلمت اللجنة بأن فلسطين وحدها لا تستطيع أن تحل مشكلة هجرة اليهود من ضحايا الاضطهاد النازي والفاشي، ومع ذلك فقد أوصت اللجنة بالسماح لمائة ألف يهودي بالدخول الى فلسطين دون إبطاء خلال عام ١٣٥٦ هـ (١٩٤٦ م). أما بخصوص فلسطين فقد رأت اللجنة ألا تتحول سواء إلى دولة يهودية أو إلى دولة عربية بل أن تبقى تحت الوصاية لمدة غير محدودة. وأما التوصيات الأخرى فقد شملت فتح باب الهجرة أمام اليهود دون قيد أو شرط، وإلغاء قوانين عام ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠ م) الخاصة بالأراضي، وزيادة، التسهيلات المقدمة لنشر التعليم والتقدم الاقتصادي، واستمر الرئيس ترومان يزاوّل ضغطه بقصد السماح بادخال ١٠٠,٠٠٠ يهودي إلى فلسطين في الحال، وقامت بريطانيا بمجهود آخر لحل القضية الفلسطينية فدعت العرب واليهود الى مؤتمر بلندن عقد في ذي القعدة ١٣٥٦ هـ ومحرم ١٣٦٦ هـ ولكن رفضه الجانبان، وباءت محاولات بريطانيا بالفشل.

وفي خلال عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ م ازدادت هجمات الارهابيين اليهود اتساعا فنسفت الجسور، ودمرت السكك الحديدية، وبثت الألغام في مراكز الشرطة والمصارف المالية، ومحطات السكك الحديدية، وهوجمت معسكرات الاعتقال، وأطلق سراح المهاجرين اليهود غير الشرعيين الذين اشتدت الحملة بسببهم لإدخالهم الى فلسطين، ولجأوا الى الاغتيال السياسي، فنسفوا فندق الملك داود بالقدس، وكانت تشغله أمانة سر حكومة فلسطين، واغتالوا لورد موين وزير الدولة البريطانية في القاهرة، وحاولوا اغتيال المندوب السامي البريطاني في فلسطين.

ولما تبينت بريطانيا استحالة الوصول إلى حل يوافق عليه العرب واليهود قررت رفع المشكلة إلى الأمم المتحدة للفصل فيها فقد كان العرب يرغبون في إقامة دولة

عربية مستقلة على حين كانت الوكالة اليهودية تطالب بهجرة غير محدودة حتى تصبح لليهود أغلبية عددية تمكنهم من إنشاء دولة يهودية مستقلة.

الأمم المتحدة وتقسيم فلسطين سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م)

وبذلك انتقلت مشكلة فلسطين إلى المنظمة الدولية التي خصصت بضع جلسات (رُجِب عام ١٣٦٦ هـ وذي الحجة ١٣٦٦ هـ) فقررت تعيين لجنة فرعية خاصة للتحقيق، وانتهت اللجنة الخاصة من وضع تقريرها في شوال ١٣٦٦ هـ وعرضته على الجمعية العامة للأمم المتحدة، وتضمن التقرير اثني عشرة توصية تقضي بإنهاء الانتداب ومنح فلسطين الاستقلال، وإقامة نظام دستوري ديمقراطي يتمشي مع حقوق الإنسان، وحقوق الأقليات مع إلغاء الامتيازات، والمحافظة على الوحدة الاقتصادية لفلسطين، على أن تتوقف أعمال العنف فوراً وأن تحل هيئة الأمم المتحدة على الفور مشكلة المشردين اليهود في أوروبا.

ولكن اختلفت اللجنة حول الخطة التي يجب أن تنفذ بها هذه التوصيات، وظهر مشروعات أحدهما للأكثرية والثاني للأقلية، ودعا مشروع الأكثرية إلى تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين:-

١ - دولة يهودية تبلغ مساحتها ٥٦٪ من مجموع مساحة فلسطين بينما كانت مساحة الأراضي التي كان يملكها اليهود ضمن فلسطين كلها لا تزيد على ٧٪ فقط هذا ويلاحظ أيضاً أن عدد اليهود في هذه الدولة اليهود كان لا يكاد يصل إلى نصف مليون نسمة بينما كان عدد المسلمين فيها نحو ٨٠٠ ألف نسمة.

٢ - دولة عربية تمثل ٤٣٪ من مجموع المساحة، وقدر عدد العرب فيها بـ ٧٢٥ ألفاً، أما تعداد اليهود فلا يزيد على عشرة آلاف.

٣ - قطاع دولي يشمل مدينة القدس وما يحيط بها.

واشترط التقرير على أن تستقل كل من الدولتين العربية واليهودية بعد سنتين وأن تدير انكلاً شؤون فلسطين خلال مدة الانتقال هذا، على حين أن مشروع الأقلية اقترح إنشاء دولة مستقلة اتحادية وقد رفض العرب مشروع الأكثرية والأقلية بينما رحبت الدوائر اليهودية بمشروع الأكثرية آملّة أن تسعى بعد ذلك

توسيع الرقعة التي خصها المشروع للدولة اليهودية.

وفي ١٤ ذي الحجة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) عرض المشروع على الجمعية العامة للأمم المتحدة ففاز قرار التقسيم بأغلبية ٣٣ صوتاً ضد ١٣ صوتاً وأعلن وزير خارجية بريطانيا بأن بلاده ستسحب من فلسطين، وستنهي انتدابها يوم أوائل جمادي الآخرة ١٣٦٧ هـ. وبما يجدر ذكره أن مشروع التقسيم دار جدل عنيف حوله، وطالت المناقشات بشأنه، وكافح ممثلو الدول العربية كفاحاً مريراً للاحتفاظ بوحدة فلسطين، ولكن الضغط الأمريكي والصهيوني استخدم شتى الوسائل حتى يجيء التصويت إلى جانب مشروع التقسيم وتعرض مندوبو بعض الدول إلى صنوف الإرهاب والابتزاز حتى يوافقوا على المشروع مثلما حدث مع مندوبي ليبيا وهاتيتي والفليين، وذلك لتوافر أغلبية ثلثي أعضاء الجمعية العامة للحصول على الموافقة على المشروع.

حرب عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م)

رفض الفلسطينيون والعرب جميعاً قرار التقسيم واحتدمت الاضطرابات المسلحة بين العرب واليهود وانفجرت ثورة الشعب الفلسطيني فوقعت الاصطدامات بين العرب واليهود، قتل فيها عدد كبير من الجانبين، وأخذت السلطات اليهودية تستورد السلاح بكميات كبيرة، وتفتح الاعتمادات لإنشاء جيش كبير، وحينئذ اقترحت الولايات المتحدة وقف تنفيذ قرار التقسيم، وفرض الوصاية على فلسطين تأجيلاً للحل النهائي دون أن تبدى استعدادها لقبول هذه الوصاية لأنها لم تكن ترغب في إرسال قوات مسلحة إلى فلسطين بعد أن استنزفت قواتها خلال الحرب العالمية الثانية، ورفض اليهود ذلك، كما رفضت انكلترا والاتحاد السوفيتي الاقتراح الأمريكي.

وكون العرب «جيش الإنقاذ» وأخذ المتطوعون المسلمون من البلاد العربية المجاورة يجتازون الحدود لنصرة إخوانهم في فلسطين، وارتكب اليهود فظائع تقشعر لها الأبدان، ومنها مذبحه ديرياسين، وذلك لبث الإرهاب كي يترك الناس أوطانهم وينسحبوا منها، كما أسرع اليهود في احتلال بعض المدن العربية تساعدهم حكومة بريطانيا المتدبة بالألحة، بينما تحرم على المسلمين حمل السلاح، ونتج عن العنف والمذابح هجرة عدد من سكان فلسطين إلى الخارج.

وما إن أعلنت بريطانيا إنهاء الانتداب البريطاني حتى أسرع اليهود بإعلان قيام دولتهم «إسرائيل» وكانت حكومة الولايات المتحدة أول من اعترف بها وتلاها الاتحاد السوفيتي وبقية الدول الأخرى.

ولإزاء ذلك الوضع المتردى قررت الدول العربية التدخل العسكري في فلسطين، لإنقاذ أهلها ومساعدتهم على إقامة حكومة وطنية موحدة في فلسطين، كما أدخل رجالات الحركة الإسلامية السجون، لأنه من المحتمل أن يقوموا بحركات لا تتفق مع ماهو مرسوم، وقد تكرر هذا قبل كل حرب جرت بين العرب واليهود. وعلى الرغم من أن الجيوش العربية قد تدخلت عسكريا دون سابق استعداد مما أظهر نقصا فاحشا في التسليح والتدريب والتنظيم إلا أنها أحرزت بعض الانتصارات على أرض فلسطين في الأسبوع الأول من الحرب، وفي الوقت نفسه كان لهذا الدخول أثر سلبي إذ طلبت من السكان الخروج من مدنهم كي لا يتأثروا بدخول الجيوش العربية، ولم يتجاوز بعضها حدود فلسطين التي رسمت بعد الحرب العالمية الأولى وذلك ضعفا أو حسب خطة مرسومة - الله أعلم - لأن قادة العرب يعرفون النتيجة. وقدم المندوب الأمريكي بإيعاز من دولة اليهود اقتراحا إلى مجلس الأمن لوقف القتال لمدة شهر فوافق العرب شريطة أن تتوقف شحنات الأسلحة إلى اليهود ويتوقف أيضا سيل المهاجرين الجدد، ولكن مجلس الأمن أوقف القتال وحرم على الطرفين جلب الأسلحة مع السماح للمهاجرين اليهود بالقدوم على ألا يشتركوا في القتال خلال الهدنة وهكذا فرضت الهدنة الأولى في فلسطين ابتداء من شعبان ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م)، ولاشك أن هذه الهدنة، قد أعطت لليهود فسحة من الوقت لتنظيم قواتهم وجلب السلاح الذي كان يعوزهم، وخاصة سلاح الطيران، والمدفعية والمدافع الثقيلة على الرغم من مخالفة ذلك لشروط الهدنة هذا في الوقت الذي بقي فيه العرب على حالهم من فقر في السلاح والمعدات، وانقسام في الخطط العسكرية، إلى جانب الخلافات السياسية، حتى إذا تجدد القتال في رمضان بدأ رجحان كفة اليهود في فلسطين في مختلف الجبهات، وعاد مجلس الأمن فأوقف القتال بعد عشرة أيام وفرض الهدنة الثانية، وقد كسب اليهود في خلال هذه الأيام العشرة مزيدا من أرض فلسطين بلغ ثلاثة أضعاف ما كسبوه في الجولة الأولى، واستطاعت دولة اليهود أن تحقق مزيدا من الانتصارات وكسبا الأراضى بسبب خلافات الدول العربية، وفشلت

الدول العربية في تحرير فلسطين، وفي عام ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م) عقدت معظم الدول العربية اتفاقيات هدنة دائمة مع دولة اليهود.

ونج عن حرب فلسطين لعام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) قيام دولة اليهود، وبقي في يد العرب منطقتان: الضفة الغربية، وقد ضمت للأردن، وقطاع غزة وقد بقي تحت الإدارة المصرية، وتشريد ثلاثة أرباع مليون لاجئ فلسطيني لجأوا إلى البلاد العربية المجاورة.

القضية الفلسطينية بعد عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م)

وبعد ثمانية أعوام من الحرب الأولى ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) بين العرب واليهود، حدث العدوان الثلاثي (انكلترا - فرنسا - إسرائيل) على مصر، وأخذ قطاع غزة من أيدي القوات المصرية، وقد سبق هذا ضرب للحركة الإسلامية في مصر، فعند العدوان كانت المهيضة الجناح لاتستطيع أن تفعل شيئاً، وهي التي فعلت الكثير ضد اليهود عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م)، وضد الانكليز في القناة عام ١٣٧٠ هـ. وبعد ثلاثة أيام من العدوان تدخلت الولايات المتحدة فتوقف القتال.

إن مشكلة اللاجئين العرب تشكل مأساة من مآسي الانسانية الكبرى، وقد تفاقمت نتيجة لحرب ٢٥ صفر ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) واستيلاء اليهود على سائر الأراضي الفلسطينية إضافة إلى سيناء في مصر، والجولان في سورية، إذ أن حكومة اليهود ضربت دولة دولة، فبدأت بمصر فالأردن وسورية، بحيث كانت كل دولة تنتظر دورها حتى يتم نقل الجنود اليهود من جبهة وأخرى، كأن الخطة مرسومة أو تمثيلية هادفة، وسبق هذه الحرب ما سبق غيرها من زج أصحاب الحركات الاسلامية في السجون، وخاصة في مصر وسورية. ورفضت إسرائيل عودة اللاجئين إلى ديارهم، وقد تحولت قضية فلسطين منذ قيام إسرائيل عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) إلى مشكلة دولية عالمية، فأصبحت الولايات المتحدة تقدم الدعم المادي والعسكري لدولة اليهود، بينما تحولت الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي عن تأييد دولة اليهود بعد أن تبين لها أن هذه الدولة ليست إلا امتداداً للقوى الاستعمارية في المنطقة وأنها تستعمل أداة بيد الدول الغربية، فتوقف الدعم العسكري، وإن كانت تزودها بالعقول البشرية التي تهاجر باستمرار من الاتحاد السوفيتي إلى دولة اليهود، إضافة إلى أن الدول الاشتراكية لم تكن لتحرك ساكناً

وقت الأزمات، ويعتريها الصمت.

وأمنت الدول الغربية الكبرى في تأييدها لدولة اليهود، فأصدرت دول الغرب الكبرى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا في رجب ١٣٦٩ هـ مايو ١٩٥٠م تصريحاً مشتركاً أعلنت فيه عزمها على المحافظة على السلام والاستقرار في هذه المنطقة، ومعارضتها الأكيدة لاستخدام أية دولة في هذه المنطقة القوة أو التهديد بالقوة، كما أعلنت أنها ستعمل بكل ما في وسعها لمنع أية دولة من نقض الهدنة أو تعديل خطوطها، وكذلك عبرت الدول الثلاث في هذا التصريح عن معارضتها لأي سباق للتسلح بين الدول العربية وإسرائيل. وهكذا حرص الغرب على سلامة إسرائيل وضمان حدودها حتى لقد امتنع عن تزويد الدول العربية بالسلاح، بينما مضت إسرائيل تتزود بالسلاح من الولايات المتحدة الأمريكية.

وبفضل مساندة الدول الغربية الكبرى لليهود فقد أمنت دولتهم في نقص الهدنة كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وخاصة عام ١٣٧٤ هـ حين قامت بعدوان غادر على قطاع غزة، وقامت بعدوانها على مصر عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦م) بالاشتراك مع انكلترا وفرنسا، وقد استخدم الاستعمار اليهود كمخلب قط واتخذ دولتهم قاعدة للعدوان في العالم الإسلامي يزودها باستمرار بالمساعدات السياسية والعسكرية والمالية والفنية، وقامت دولة اليهود أيضاً بعدوان في صفر ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧م) واحتلت بقية فلسطين والجولان وسيناء، ورفضت الانصياع لقرارات مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة بالانسحاب وعودة اللاجئين إلى ديارهم، ونتج عن حرب ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧م) قيام الثورة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية التي اعترف بها العالم بأسره ممثلاً للشعب الفلسطيني.

فقام العرب بشن حرب ١٠ رمضان ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣م) وأحرزوا انتصارات عسكرية وسياسية محدودة من جهة، وأحرز اليهود انتصارات أيضاً بعد الأيام الأولى التي انتصر فيها العرب وجاءت صفارة الحكم لوقف القتال والعمل للحل السلمي.

وبدأ عمل الفدائيين الفلسطينيين الذين تجمعوا في لبنان، وسدت في وجههم بقية الحدود، وظهر أثرهم على لبنان، كما ظهر في فلسطين على اليهود. وقامت الحرب الأهلية في لبنان ١٣٩٥ - ١٣٩٧ هـ (١٩٧٥ - ١٩٧٧م).

وتدخلت بعض الدول العربية ونال الفلسطينيون قسطا من الضرب والقتال وخاصة في تل الزغتر .

واشتركت بعض الدول العربية في إرسال قوات من جيوشها كقوة للردع للمعتدي في لبنان، وبعد مدة بقيت القوة السورية وحدها، ثم دخل اليهود لبنان من الجنوب، وحاصروا بيروت الغربية، ولم يتمكنوا من دخولها مادامت فيها مقاومة فلسطينية، ثم انسحبت هذه المقاومة حماية للمدينة وبعثر الفدائيون الفلسطينيون في سوريا، والعراق، والأردن، واليمن، ومصر، والسودان، وتونس، و... .

ثم إن اليهود قد أقدموا على ارتكاب جريمة بشعة ونكراء، إذ دخلوا على مخيمي صابرا وشاتيلا، وذبحوا عدة آلاف من الفلسطينيين، ولم يخرج اليهود بعد من لبنان.

ح - المملكة الأردنية الهاشمية

كانت المناطق في شرق الأردن قطعةً من بادية الشام تتبع في أيام الحكم العثماني ولاية دمشق، ولم يكن حتى في المشروعات الاستعمارية مشروع لجعلها دولةً خاصةً لفقر المنطقة وقلة سكانها، ومعظمهم من البدو.

وقد فتحتها القوى العربية أثناء الحرب العالمية الأولى، وهي في الطريق الى دمشق، وكانت قطعة من مملكة فيصل التي أقيمت في سوريا عام ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م) ولم بيد الانكليز الذين كانوا يحتلون فلسطين أي اهتمام بشأنها، فلما كان تقسيم الانتداب بينهم وبين فرنسا في مؤتمر سان ريمو، وكان جنوب الشام من حصتهم، لم يسرعوا لاحتلالها بل وعدوها بالاستقلال إثر دخول الفرنسيين دمشق، وتركوها تخضع لأربع حكومات محلية منفصلة بعضها عن بعض في اربد، وعجلون، وعمان، والكرك تحت إدارة المندوب السامي في القدس.

وحين رأوا الأمير عبد الله بن الحسين يجمع في جنوب هذه المنطقة قوي بدوية يريد بها الثار للملك أخيه فيصل الذي أخرجه الفرنسيون من دمشق، رأوا أن يجعلوا من شرقي الأردن منطقة فاصلة ويستفيدوا من موقعها ذي الأهمية الخاصة

بمراقبة الشرق العربي كلها منها، سواء سوريا وفلسطين من جهة أو العراق والسعودية من جهة أخرى. كما رأى الانكليز أيضا أن هذه البقعة الموات تهيء لهم مع العراق فرصة التعويض عن عهودهم المنكوثة مع الحسين بن علي الهاشمي، وتكفيهم مؤونة التفكير بدفع أي هجمة قد يقوم بها الهاشميون في الحجاز لإفلاق انتدابهم في الشام.

وهكذا أَرْضَى الانكليز الملك فيصل بعرش العراق، واقتنعوا معه بارضاء أخيه الأمير عبدالله الذي كان ثائرا يحمل علم الثورة العربية في منطقة معان بجعل شرق الأردن إمارة له.

وقد قصد تشرشل وزير المستعمرات القاهرة، ثم القدس في عام ١٣٣٩ هـ (١٩٢١ م) وبعث إلى الأمير عبدالله فاجتمع به، واتفق معه اتفاقا لم يغيب عنه الفرنسيون على أن يقوم في شرق الأردن حكومة تتمتع بالاستقلال الإداري، وتسترشد برأي المفوض السامي في القدس وعلى رأسها الأمير عبدالله الذي يتعهد بالمحافظة على فلسطين وسوريا من كل اعتداء. وكان المقصود بهذا الشرط قطع الطريق على أي مطالبة هاشمية بأرض الشام، وفي مقابل ذلك تدفع إنجلترا معونة مالية سنوية لتأمين مصاريف الدولة. وحين أقرَّ صك الانتداب في صفر عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) عينت حدود الإمارة، وبعثت إليها بمعمد بريطاني على رأس كتلة من المستشارين وأهمهم (غلوب) باشا الذي تسلم قوي البدو. ومع كل ذلك فان بريطانيا لم تعترف رسميا بقيام هذه الإمارة إلا في تصريح عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) خلال زيارة المندوب السامي لعمان.

وكان التصريح واضح الإشارة إلى التبعية الاستعمارية، فقاومة الشعب بشدة، وثاروا ضده، فوجهت بريطانيا إنذاراً إلى الأمير بتسليم الثوار، وكذلك تسليم مالية الدولة للانكليز، وتأليف حكومة يتولى ثلاثة من الانكليز وزاراتها الأساسية. وعملت بريطانيا على تمكين سيطرتها وسلطانها في الأردن وإخماد كل حركة مقاومة مناوئة للاستعمار والحكم، وضم قوة الشرطة إليها. فأثار ذلك سخط الشعب، مما اضطر الأمير لتحقيق رغبات الشعب، واشترك ممثلوه في وضع أسس التشريع والإدارة. وألفت لجنة من ممثلي الشعب برئاسة ناظر العدلية، ووضعت قانون الانتخاب لمجلس نيابي سليم، وأقرته الحكومة وذلك عام ١٣٤٢ هـ

(١٩٢٤ م). وحاولت بريطانيا نفس ذلك المشروع بوضع قانون جديد للانتخاب، وألغت القانون السابق. كان هذا دافعاً لانفجار الشعب وإجماعه على المعارضة فاجتمع أحرار الشعب الأردني، وبعثوا بمذكرة إلى عصبة الأمم جاء فيها: باسم الحضارة والإنسانية نلفت نظر عصبة الأمم إلى جميع الحقائق المؤلة التي يوقعها ممثلو بريطانيا العظمى، ونرجو إيفاد لجنة حيادية نزيهة للنظر في تحقيق المطالب الوطنية في الأردن.

وقد وسع الأمير عبدالله إمارته على حساب مملكة أبيه إذا أقنعه بالتنازل له شخصياً عن منطقتي معان والعقبة سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) وكانتا تتبعان مملكة الحجاز فلما انهارت هذه المملكة في السنة التالية ألحقها عبد الله رسمياً ببلاده في مطلع عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) واعترفت الدولة السعودية بذلك في عام ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) إثر توقيع معاهدة جدة بين بريطانيا والسعودية.

كان أحرار العرب يلقبون الأمير عبدالله بمنقذ سوريا. فلما قام بهذه الإمارة خاصموه، وانفضوا من حوله فأصدر ضدهم عدداً من القوانين التي تجمع كل حركة في شرقي الأردن، ثم نسج على منوال أخيه فيصل فعقد في أواخر عام ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) معاهدة مع انكلترا احتفظت فيها بريطانيا بالشؤون الخارجية والرقابة الاقتصادية والقضائية وبقوات عسكرية للدفاع عن البلاد. فعارض الشعب هذه المعاهدة واشتعلت الثورة في البلاد ضد المعاهدة فأخذها الانكليز بقوة السلاح، ولكن الشعب لم ييأس ولم يستسلم بل استمر في نضاله ضد الاستعمار.

وكان من نتيجة المعاهدة نشر الدستور الأردني في شوال ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨ م) وهو من وضع الانكليز فلم يكن للأمير ولا للشعب فيه من حقوق تذكر. ولكنه ينظم السلطات التشريعية في مجلس تشريعي، ويعطى للأمير حق تعيين مجلس المدن أو القبائل. وعقد زعماء الشعب مؤتمراً في عمان رفض الدستور، وقاوم الانتخابات التي تبعتها، ولكن السلطات البريطانية مضت في طريقها الاستعماري دون أن تأبه للمعارضة.

استمر الشعب الأردني في كفاحه فحمل ذلك الحكومة على المطالبة بإلحاح لتعديل المعاهدة، مما اضطر انكلترا في مطلع ربيع الأول ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م)

لتلبية مطالب الأردنيين، فأبرمت اتفاقاً آخر مكماً لمعاهدة ١٣٤٧ هـ يجعل للأمير حق تعيين ممثلين قنصليين لإمارته لدى الدول العربية، ولكن هذا الاتفاق أبقى الجيش تحت سيطرة انكلترا، كما قضى بتقديم انكلترا المعونة المالية للأردن والتي بلغت في الأربعينات (٢ مليون جنيه) مما أفسح المجال لتدخل بريطانيا بشؤون الأردن الحساسة. وقد أحدث هذا الاتفاق هزة وطنية في الأردن وسائر الأقطار العربية، يعود الفضل فيها إلى الشباب الواعي.

وكان من أهم مظاهر التطور في إمارة شرق الأردن، تأسيس الفيلق العربي الذي أنشئ عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م) من فرقة صغيرة تبلغ ألف رجل، ثم أخذ ينمو تدريجياً من ناحية العدد والأهمية، وقد أشرف على تنظيمه قواد انكلترا من أشهرهم غلوب باشا، وكان الالتحاق مسموحاً لكل القادرين من العرب، ولذا ضم الفيلق إلى جانب الأردنيين جنوداً عراقيين، وحجازيين، وفلسطينيين، وسوريين وغيرهم ومعظمهم من البدو. ولقد كان من الممكن أن يصبح الفيلق نواة حقيقة للجيش العربي الخالص في شرق الأردن، لولا أن خضوعه للقادة البريطانيين جعله أداة لتحقيق اتجاهات السياسة البريطانية في الشرق الأوسط.

وإلى جانب الفيلق العربي، وجدت بإمارة شرق الأردن قوة عسكرية عرفت بفرقة الحدود الأردنية التي تألفت بعد إبرام المعاهدة البريطانية الأردنية عام ١٣٤٧ هـ وكانت مهمة هذه الفرقة تنحصر في الدفاع عن الحدود، كما كانت قوة عسكرية بريطانية تحت قيادة المندوب السامي البريطاني في فلسطين.

وفي أواسط عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) وافقت الحكومة البريطانية على أن يحل محل المجلس التنفيذي مجلس للوزراء يكون مسؤولاً أمام الأمير. وتشكل مجلس الوزراء برئاسة توفيق أبو الهدى الذي شغل منصب كبير الوزراء منذ ١٣٤٧ هـ، وقد شهدت إمارة شرق الأردن تطوراً آخر هو إنشاء طريق حيفا - بغداد بين سنتي ١٣٥٧-١٣٦٠ هـ الذي بلغ طوله ١٠٨٠ كيلو متراً، امتد بأراضي شرق الأردن منها ٣٤٠ كيلومتراً. ولما كان هذا الطريق يمثل معبراً بريطانياً، بالإضافة إلى استخدامه أثناء الحرب في نقل مواد حربية ضخمة، فقد ضاعف من أهمية شرق الأردن الاستراتيجية بالنسبة لبريطانيا.

وفي خلال الحرب العالمية الثانية وقف الأردن إلى جانب الحلفاء، كما شاركت

القوات الحربية الأردنية القوات البريطانية في المجهود الحربي. واستخدمت بريطانيا إمارة شرق الأردن كموقع هام لمواصلاتها الشرقية، وضربت بريطانيا بواسطة الفيلق العربي الأردني وقوة الحدود الأردنية المسلحتين بالأسلحة الحديثة حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) وأخمدتها، كما اشترك الفيلق العربي وقوة الحدود الأردنية تحت القيادة الانكليزية في الغزو البريطاني لسوريا في الحرب العالمية الثانية بعد ذلك مباشرة والواقع أن الدور الذي لعبه الفيلق العربي في الشرق الأوسط في خدمة المصالح البريطانية، هو الذي أقنع بريطانيا بإبان الحرب العالمية الثانية وبعدها بزيادة مساعداتها لشرق الأردن. ومن ناحية أخرى، كان الفيلق العربي الذي يشكل قوة عسكرية لا تتناسب على الإطلاق مع مساحة شرق الأردن وفقرها هو العامل الرئيسي الذي مكن الأمير عبدالله من أن يلعب دورا رئيسيا في تطور الموقف بعد الحرب العالمية الثانية في فلسطين بوجه خاص، وفي العالم العربي بوجه عام.

كما اتجه الأمير عبدالله خلال الحرب العالمية الثانية نحو طلب الاستقلال والتعاون مع بريطانيا وأراد تحقيق أحلامه السياسية، خاصة وأنه كان يأمل في إقامة مملكة تشمل سوريا الطبيعية (بلاد الشام) وقدم مذكرة إلى بريطانيا بهذا الخصوص إلا أن بريطانيا لم تأبه بهذا الطلب وأهملته، واستبدلت به مشروع جامعة الدول العربية. غير أن الأمير عبدالله استمر في محاولاته لتحقيق مشروعة دون جدوى.

وتبدلت المذاكرات في عامي ١٣٦٢، ١٣٦٣ هـ ١٩٦٣ و ١٩٤٣ م بين بريطانيا والأردن حول منح الأردن استقلاله وقد كللت هذه المساعي بالنجاح، فوقعت بريطانيا معاهدة مع الأردن بتاريخ عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) وهي قريبة الشبه بالمعاهدة العراقية البريطانية عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) وبموجب هذه المعاهدة اعترفت بريطانيا رسميا بشرق الأردن دولة مستقلة، ووافقت على تبادل التمثيل السياسي معها، وعلى الاستمرار في تقديم المساعدات المالية للفيلق العربي. كما تعهدت بريطانيا بالدفاع عن الإمارة ضد أي عدوان خارجي. وفي مقابل ذلك، حصلت بريطانيا على حق السماح لقواتها بالمرابطة في شرق الأردن، وتعهدت الحكومة الأردنية بتقديم كل التسهيلات الضرورية لها.

وكان بعد إبرام المعاهدة أن أعلن الأمير عبدالله ملكاً على شرق الأردن وقامت الحكومة البريطانية بتعيين وزير مفوض لها في المملكة الجديدة. بيد أن الدوائر الوطنية في شرق الأردن لم تكن راضية عن المعاهدة، ولما كانت بريطانيا قد أقدمت في أعقاب الحرب العالمية الثانية على الدخول في مفاوضات مع مصر، والعراق لإعادة النظر في معاهدي ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) (مع مصر) و ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) (مع العراق) فقد وافقت بريطانيا على الدخول في مفاوضات مع شرق الأردن من جديد في عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م)، وهي المفاوضات التي انتهت بعقد معاهدة بريطانية أردنية جديدة في عمان ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م). وقد نصت المعاهدة الجديدة على الدفاع المشترك بين البلدين في حالة الحرب وعلى الاحتفاظ بوحيدات من سلاح الطيران الملكي في عمان، والمفرق، وإنشاء مجلس للدفاع المشترك الانكليزي الأردني.

ومع أن المعاهدة البريطانية الأردنية الجديدة قد خفضت بعض الشيء من قبضة بريطانيا على شرق الأردن، إلا أن النفوذ البريطاني قد ظل قوياً في البلاد، بفضل القيود التي احتفظت بها في تلك المعاهدة، والتي ربطت شرق الأردن بعجلة الاستعمار البريطاني، الأمر الذي أقلق الدوائر الأردنية الوطنية والتي لم تستطع القيام بكفاح مسلح ضد الانكليز بسبب شدة ضغطهم عليه، وتمكن قبضتهم منه من جهة واندماج عاهل الأردن في سياستهم وجنوحه إلى سياسة التهدة من جهة أخرى.

على أن دراسة التطور السياسي في شرق الأردن تتطلب ولاشك الإلمام بدور الملك عبدالله بن الحسين في فلسطين. والواقع أن دور عبدالله كصديق لبريطانيا ظلّ وتوثق خلال الزمن التالي، إذ تسلّم القائد العام للقوات العربية، وذلك بجهود أصدقائه أو رغبتهم في ذلك، وكان يرغب في ضم أجزاء من فلسطين إلى مملكته وخاصة القدس لوضعها الديني المعروف، وكان حسب رأي أصدقائه رجلاً متزن التفكير واقعي الاتجاه، إذ أنه الزعيم العربي الوحيد الذي ينظر نظرة واقعية إلى الصهيونية، وكان يدرك استحالة إزالة الوطن القومي اليهودي. ولذا أراد أن يوفق سياساته مع واقعه، ودخل الجيش الأردني إلى فلسطين في الحرب الفلسطينية ليحتل القسم المخصص للعرب بموجب مشروع التقسيم، ولم يتمكن من مهاجمة

المناطق المخصصة لليهود حسب الأوامر التي أعطيت له.

وأُسفرت اللقاءات السرية عن حلقات متوالية من المؤامرات ضد فلسطين تمثلت في ضياع مدينتي اللد والرملة وتسليمهما إلى اليهود، وضياع المثلث العربي الذي يمثل أخصب بقعة في فلسطين في معاهدة رورس بين اليهود وبعض الدول العربية، وضياع صحراء النقب، كما أن المناورات السياسية والعسكرية قد سمحت لليهود بمهاجمة الجيش المصري بعد كشف ميمنته وتسليم مناطق البوتاس في البحر الميت مقابل مبالغ معينة بالإضافة.

وفي أواخر عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) أعلن الملك عبدالله ضم الأراضي الفلسطينية إلى الأردن ووافق المجلس النيابي الأردني على هذا الضم، وأطلق على الدولة اسم المملكة الأردنية الهاشمية.

وفي عام ١٣٧٠ هـ (١٩٥٠ م) قتل الملك عبد الله أثناء تأديته صلاة الجمعة فخلفه ابنه طلال وهو من المناوئين لسياسته، وكذلك من المعارضين للاستعمار البريطاني.

فقد مكث طلال في الحكم حوالي ثلاثة شهور قام خلالها بأعمال جليلة للشعب، فقد أطلق حرية الشعب، واعتبر الشعب مصدر السلطة والقوة، فقيّد بذلك حرية الملك في الوقت الذي أقرّ فيه للشعب بحريته، ممثله في مجلس الأعيان الجديد. كما نص الدستور الجديد الذي وضعه الملك طلال على هذه القضايا والتي أحدثت شبه انقلاب في النظم والتقاليد الأردنية آنذاك، كما كانت هذه الخطوط العريضة أيضاً لسياسة الملك طلال تتجلى في رغبته وإيمانه بالتعاون العربي في سبيل قضاياهم، إلى جانب اهتمامه بالقضية الفلسطينية وحقوق اللاجئين. غير أن هذه المساعي وتلك الأمانى التي كان قد قام بها الملك خلال حكمه القصير لم يتيسر لها أن تبلغ نهايتها وتمامها، ذلك أنه استبعد عن العرش بزعم أنه مصاب بمرض نفسي، ونفي إلى استانبول، وبقي هناك حتى وافته المنية عام ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م). وكانت بريطانيا وراء عزله والاتيان بابنه الحسين مكانه.

وقد عهد إلى مجلس وصاية لتولى شؤون البلاد، وتم تنصيب الحسين بن طلال ملكاً قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وتسلم سلطاته الدستورية في ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣ م).

ومن أبرز ملامح عهد الملك حسين قبول الأردن عضواً في الأمم المتحدة عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) واتباعه سياسة وطنية في مطلع عهده، كان من ملامحها طرد غلوب باشا القائد الانكليزي، وإلغاء المعاهدة مع إنجلترا ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م)، وجلاء الجيوش الانكليزية عن المملكة، والاشتراك مع سوريا ومصر والسعودية في القيادة العربية المشتركة، والوقوف مع مصر ضد العدوان الثلاثي، كما قام بحكم وطني في الأردن. وفي عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) أعلن اتحاد العراق والأردن، ولم يدم سوى خمسة شهور تقريباً ثم انهار بقيام الثورة العراقية.

وشارك الأردن في مؤتمرات القمة العربية، كما اشترك في حرب حزيران ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) ولكنه خسر الضفة الغربية شأنه شأن الدول العربية الأخرى التي خسرت كل منها جزءاً من بلادها.

٣ - العراق

العراق هو أحد الأقطار العربية الكبرى، يرجع تاريخه إلى أقدم العصور، ويسمى ببلاد الرافدين (دجلة وفرات). وتبلغ مساحته حوالي ٤٤٨٧٤٢ كم^٢ وعدد سكانه حوالي ثلاثة عشر مليون نسمة ونيّف. ويشكل العراق النصف الشرقي من الهلال الخصيب، أما النصف الغربي فهو بلاد الشام.

نشأت في العراق حضارات ومدنيات قديمة ترجع إلى الألف الثالث ق.م. وتعاقبت على أرضه عدة امبراطوريات، لعبت دوراً هاماً في عصور التاريخ، نظراً لموقعه الجغرافي المتوسط بين الشرق والغرب، ولوفرة الأاضي الخصبة وغازة المياه، وكذلك لوجود معادن هامة في أراضيه. ومن أهم هذه الامبراطوريات الأكادية، والبابلية، والأشورية، والكلدانية. وبضعف الكلدانيين احتل الفرس العراق عام ٥٣٩ ق.م وظل الفرس يحكمون العراق مدة ألف سنة إلى أن هزمهم المسلمون عام ١٤ هـ. وخضعت العراق بذلك للحكم الإسلامي، وظلت العراق تتلأأ وتزدهر تحت الحكم العربي الإسلامي إلى زمن آخر خلفه عباسي وهو المستعصم بالله، الذي سقطت بغداد في زمنه على يد المغول سنة ٦٥٦ هـ، والتي دك هولاكو عرضها وأنزل بها الخراب والتدمير.

منذ سقوط الدولة الإسلامية العباسية. عاش العراق عدة قرون في ظل عدة حكومات، المغولية، الإيلخانية، والجلاليرية، والقرّة قونيلو، والأق قونيلو الصفوية، ووجه العراق صوب الشرق حتى استولى عليه العثمانيون على دفعات ٩٥٢/٩٢٠ هـ (١٥١٤-١٥٤٥ م)، وتنازعت الدوتان العثمانية والفارسية فيما بينهما على العراق، فكانت الجيوش الإيرانية تحتاج العراق من وقت إلى آخر، ولا تلبث أن تطردها الجيوش العثمانية. ولكن مدة الوجود الفارسي في العراق كانت قليلة جدا إذا قيسست بالحكم العثماني الذي امتد من ١٣٣٧/٩٤٠ هـ (١٥٢٣-١٩١٩ م)، حيث وقع العراق في قبضة الانكليز والذين ظلوا يسيطرون عيه بطرق شتى إلى أن تحرر في عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م). ولقد كان في العراق نظام حكم مملوكي بدأ عهده منذ منتصف القرن الثاني عشر الهجري. ولم يستطع ممالك العراق أن يفرضوا أنفسهم بقوة على البلاد كلها، وإنما تحكموا فقط في المدن العراقية، مع أن الغالبية العظمى من التشكيل البشري كانت قبلية، متصارعة فيما بينها، أو نائرة ضد حكومة الممالك، حتى أن تاريخ الممالك كان عبارة عن سلسلة متواصلة من قتال بينهم وبين القبائل العربية، أو الكردية أو صراعات بين الأكراد بعضهم مع بعض أو بين العشائر نفسها، أو بين العشائر العربية والعشائر الكردية. فكان أن أصيب العراق بتدهور اقتصادي متواصل، في الوقت الذي كان فيه نشاط شركة الهند الشرقية البريطانية في الخليج العربي وفي العراق يتصاعد سنة بعد أخرى، على حساب اقتصاديات وتجارة المنطقة.

ويرجع اهتمام بريطانيا بالعراق والخليج العربي وتطلعها إلى السيطرة عليهما منذ القرن الحادي عشر الهجري، وذلك لموقعهما الجغرافي وأهميته الاستراتيجية، لوقوعه على طريق مواصلاتها على طريق الهند (درة التاج البريطاني) هذا فضلا عن أهميته الاقتصادية، ووجود النفط في أرضه، وقربه من حقول النفط البريطانية في إيران، وأهميته كمجال حيوي لاستيطان عدد كبير من السكان الذين يزدون على قابلية الهند.

بدأ تسرب النفوذ الانكليزي إلى العراق عن طريق دخول التجار والرحالة الانكليز إلى ربوعه منذ أواخر القرن العاشر الهجري، ثم عن طريق شركة الهند الشرقية البريطانية التي أنشأت أول وكالة لها في البصرة سنة ١٠٥٣ هـ

(١٦٤٣ م)، ثم أصبح لوكيل الشركة مهمة سياسية، إضافة لعمله فيها، عندما أصبح قنصلا لدولته، وقد عينت قنصلا في بغداد ونائب قنصل لها في الموصل سنة ١١٦٩ هـ (١٦٥٥ م)، وإثر قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر عززت انكلترا نفوذها في العراق. ومنذ أوائل القرن الثالث عشر الهجري أصبح العراق طريقا للبريد البريطاني إلى الهند عبر الشواطئ السورية ومدينة حلب.

غير أن النفوذ الانكليزي لم يلبث أن واجه منافسة خطيرة من قبل روسيا التي احتلت شمالي إيران، في محاولة منها للوصول إلى الخليج العربي فالمحيط الهندي، وتحويل تجارة إيران والهند وآسيا الوسطى لمصلحة روسيا. فلجأت بريطانيا إلى تشكيل شركة ملاحية وهي شركة «لنش» (Lunch) للملاحة والتجارة في دجلة والفرات، وكانت لها سفن وبواخر كثيرة، كما اتسعت أعمالها وازدادت مالا ونفودا. وكانت الحكومة البريطانية تدعمها، لأن الشركة المذكورة كانت تعمل على تقوية النفوذ البريطاني في العراق حتى تفاقم وأصبح خطرا على كيانه، ولا سيما بعد أن أصبح الانكليز يشرفون على الملاحة في شط العرب وعلى عملية إرشاد السفن فيه، الأمر الذي حدا بنواب العراق في مجلس المبعوثان (النيابي) العثماني سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) لإثارة البحث حول وضع الشركة. وقد أدى عدم اهتمام المسؤولين في دولة الاتحاديين آنذاك بهذا الخطر إلى استياء العرب.

وما زالت انكلترا تعزز نفوذها السياسي في العراق سواء عن طريق التجارة أم خطوط البريد والبرق وإرسال البعثات للكشف عن آثار العراق، أو إقامة مشروعات وتحرص على جعل هذه الأمور محصورة فيها دون غيرها من الدول، حتى واجهت المشروع الألماني الخاص بسكة حديد بغداد، فأوقفت المشروع ببسط نفوذها على الكويت عام ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م)، وظلت تقاوم كل المحاولات الدولية الرامية للسيطرة على الخليج والعراق حتى قيام الحرب العالمية الأولى.

اغتنمت بريطانيا فرصة الحرب العالمية الأولى، ودخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا، فقامت بإرسال حملة بحرية لتحتل العراق بالقوة وتحقيق ما كان التجار والبحارة والسياسيون والسياح والخبراء قد مهدوا له ووضعوا أسسه خلال ثلاثة قرون. فتحركت الحملة من بومباي في أواخر عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) بقيادة ديلامين W.S. Delamain واتجهت نحو البحرين ورابطت فيها، وفي ١٣ ذي الحجة

من العام نفسه (١٣٣٢ هـ) أطلقت الباخرة البريطانية قنابلها على حصن الفاو القريب من ضفاف شط العرب، وكانت بريطانيا قد أصدرت منشورا تحرض فيه القبائل على تركيا وتحاول استمالتهم.

نزلت القوات البريطانية إلى البر على شط العرب في البصرة. وقد صاحب الحملة السير بيرسي كوكس أول رئيس للحكام السياسيين في الخليج والذي أصدر منشورا لام فيه الأتراك على دخولهم الحرب، كما حاول استمالة العرب المقيمين على الشط، وطمأنهم على أموالهم وأنفسهم إن أيدوا بريطانيا.

دافع الأتراك عن مراكزهم وخطوطهم ببسالة إلا أن البريطانيين أخذوا يتقدمون إلى أن دخلوا البصرة وهي ميناء العراق الوحيد، ثم واصلوا الزحف واحتلوا القرنة والعمارة، فضمنوا مصالحهم النفطية بعد أن طردوا الأتراك واستمالوا معظم الشيوخ. وكانت هذه المرحلة الأولى من الاحتلال. وتبدأ المرحلة الثانية بفكرة الزحف إلى بغداد، إذ هاجم الإنكليز الأتراك بالقرب من سلمان باك، فردهم الأتراك وانسحب الإنكليز إلى الكوت، وتعقبهم الأتراك وحاصروهم فيها - بمساعدة أحد القواد الألمان - حصاراً محكماً لمدة خمسة أشهر تقريباً، مما أجبر الإنكليز على الاستسلام في منتصف عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م) فكان لهذه الهزيمة أثر بالغ في نفوس الإنكليز، غير أنهم لم يتنازلوا عن فتح بغداد لأنهم رأوا من الضروري أن يتمسكوا بالعراق وسيطروا عليها نظراً لأن الخطر الروسي بدأ يلوح من الشمال عن طريق الموصل، وقد عمل بعض ساسة الإنكليز على إبعاد الأتراك عن مناطق النفوذ بتعاون الشريف حسين مع الحلفاء مقابل وعود بريطانيا له وللعرب بالحرية والاستقلال، فكان بعد ذلك للاتفاقات والمعاهدات المعقودة بين الدول أثر في تحقيق تلك الفكرة، خاصة اتفاقية سايبكس - بيكو السرية التي نصت على توزيع مناطق النفوذ بين انكلترا وفرنسا.

ولإزاء ذلك، قامت بريطانيا بتجهيز حملة قوية بقيادة الجنرال مود، فهاجمت القوات التركية في ربيع الأول ١٣٣٥ هـ (١٩١٧ م) ثم تعقبتهن إلى سلمان باك (المدائن) فاضطر الأتراك إلى الانسحاب من بغداد، فدخلها الإنكليز في جمادى الأول ١٣٣٥ هـ (١٩١٧ م). وأصدر الجنرال مود منشورا تاريخياً محاولاً التقرب من أهل العراق قائلاً: «إننا لم ندخل بلادكم أعداء فاتحين وإنما دخلناها

محررين»، وذكرهم بما حاق بهم من ظلم واستبداد منذ أيام هولاء إلى أيام الحكم التركي. ومما قاله أيضا إنها ليست أمنية جلالة ملكي بمفرده بل أنها أمنيات الحكومات المتحالفة مع جلالته أيضا أن تفلحوا كالسابق، حينما كانت أراضيكم خصبة وكان العالم يتغذى من ألبان آداب أجدادكم وعلومهم وحرفهم يوم كانت بغداد «إحدى عجائب الدنيا». ثم تابع الجيش البريطاني زحفه على الجهات الأخرى بقيادة الجنرال مارشال الذي خلف مود، فاحتل سامراء، ثم الرمادي وقرى أخرى، كما توجهت الجيوش الغازية إلى الموصل فوقفت عند النقطة التي تبعد ١٢ ميلا عن الموصل إلى أن أعلنت الهدنة في ٥ صفر ١٣٣٧ هـ (١٩١٨ م)، لأن الموصل كانت قد وضعت ضمن النفوذ الفرنسي في معاهدة سايكس بيكو السرية، بينما وضعت بغداد والبصرة ضمن النفوذ البريطاني، غير أن بريطانيا ظلت مصممة على نقل الموصل إلى نفوذها فاحتلتها مع النقطة التابعة لها على أن تأخذ فرنسا مقابل ذلك حصة من النفط، وهكذا أصبح العراق كله تابعا لبريطانيا.

كان الاحتلال تحقيقا لجزء من الاتفاقية السرية (اتفاقية سايكس - بيكو)، التي اقتسم بها الانكليز مع الفرنسيين مناطق النفوذ والسيطرة الاستعمارية في الشام والعراق. ولكن العراقيين كانوا قد تسامعوا من جهة أخرى نجاح الثورة العربية في الحجاز واشترك قسم منهم فيها، وسمعوا بوعود الحلفاء للعرب فلم يقدموا أي مساعدة للأتراك في انتظار ما يأتي به النصر. وكان الانكليز قد أعطوا أنفسهم ثوب المحررين فأعلنوا حين احتلالهم بغداد رغبة الحلفاء في النهوض بالعنصر العربي ليأخذ مكانه بين الأمم، وفي التدرج نحو الاتحاد لتحقيق تلك الغاية.

ولهذا فوجيء العراقيون غداة النصر بإنشاء إدارة استعمارية في العراق على نمط الإدارة في الهند وشعر الانكليز بضرورة تنظيم الإدارة في العراق على شكل يحقق مطالب الجيش الفاتح من جهة، ويؤمن السلام العام للأهلين، ويوفر نوعا من الرخاء الاقتصادي والنشاط التجاري يحجب العهد الجديد إلى أكبر عدد من السكان، ويصرفهم عن المقاومة الجديدة، والحنين إلى العهد التركي السالف أو الرغبة في الاستقلال التام من جهة أخرى.

ولكن بريطانيا لم تحاول شيئا من ذلك بل عمدت إلى تأمين مقتضيات

الاحتلال ومتطلباته قبل كل شيء، والعمل على «تهنيد» العراق وخاصة القسم الجنوبي منه، وذلك باشاعة النظم والقوانين والمبادئ الإدارية الهندية تمهيدا لضم جنوب العراق الى الهند، كما عملت على الاهتمام بالعشائر لخدمة المصالح البريطانية فاتفقت مع شيوخ العشائر وزودتهم بالمال والسلاح ومنحتهم إقطاعات كبيرة من الأرض. وكان الانكليز يعاملون الأهلين معاملة العدو المغلوب، واستولوا على جميع الوظائف في الدولة، وجندوا الفلاحين للعمل الإجباري، وحظروا تجارة المواد الغذائية إلا بعد تأمين حاجة الجيش، ونفوا زعماء العشائر والضباط العرب الذين اشتركوا في الثورة العربية إلى الهند وسيلان ومصر.

وتحول الشعور بالدهشة والاستغراب والمفاجأة من هذه الأعمال إلى نقمة ثورية حين سمع العراقيون بإقامة حكومة عربية في دمشق، وبمبادئ ويلسون الأربعة عشر وخاصة مبدأ حق تقرير المصير للشعوب، لهذا بادروا إلى تكوين جمعيات تطالب بالاستقلال مثل (حرس الاستقلال)، وجمعية «العهد»، وتشجع بعض الضباط العراقيين، فأرسلوا مذكرة إلى الحكومة البريطانية تطالب بإقامة حكومة وطنية في العراق. ولكن الرد البريطاني كان مخيبا للآمال لأنه قال: إن أي محاولة لإجراء تجارب دستورية في العراق تعد سابقة لأوانها مالم يصدر مؤتمر الصلح قراراته. والحقيقة أن الرأي البريطاني فيما يتعلق بتقرير المصير للعراق لم يكن متفقا على خطة معينة. فبينما كان بعض البريطانيين يرون أن لا تعطى البلاد أكثر من الحكم المحلي، كان بعضهم الآخر يرى تقسيمها إلى دولتين في الشمال والجنوب، وجماعة ثالثة ترى تنصيب ملك عليها من بعض الأمراء العثمانيين أو من الأشراف وإقامة نظام جمهوري ولكن تحت النفوذ البريطاني دوما.

وأراد حزب العهد في العراق إحراج الاحتلال الانكليزي، فأعلن اختيار الأمير عبد الله بن الحسين ملكا على العراق يوم تتويج أخيه فيصل في دمشق في رجب ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م). لكن الحلفاء من جهتم كانوا يدبرون مصيرا آخر أعلنوه بعد شهر ونصف الشهر في مقررات سان ريمو التي اتفقوا فيها على وضع اتفاقية سايكس بيكو موضع التنفيذ وفرض الانتداب على العراق، فلم يبق شك عند أحد في نوايا الحلفاء الاستعمارية وفي ضرورة الكفاح المرير للخلاص من الاحتلال الجديد.

تجمعت عدة عوامل لثورة العراقيين ضد الانكليز منها انتشار الروح الوطنية واصطدام الأمانى العراقية بمقررات سان ريمو، وسقوط حكومة فيصل بدمشق، وسوء معاملة الانكليز للشعب العراقي، والتأثر بثورة مصر ١٣٣٧ التي عمل لها سعد زغلول. وكان السبب المباشر لثورة العراق ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م) هو قيام الحاكم الانكليزي في الرميثة (على الفرات الأوسط) بالقبض على أحد شيوخ العشائر، فدخل رجاله عنوة إلى سراى الحكومة، وأطلقوا سراح شيخهم وقتلوا الحراس، وقلعوا السكة الحديد شمال الرميثة وجنوبها.

وهكذا اندلعت الثورة وامتدت الى النجف، وكربلاء، والديوانية، والسماوة، ودياب، وقامت الاضطرابات في البصرة، والموصل، واريل، وأصبحت بغداد مهددة، فاضطر الانكليز لجلب إمدادات كبيرة من الهند لتعزيز قواتهم في العراق بحيث تستطيع إخماد الثورة، كما أن أسلحة الثورة قد قلت، فتمكنت بريطانيا بعد أن حشدت قواتها الضخمة، وبعد أن استعانت بطائراتها من القضاء على الثورة والتي استمرت حوالي ستة شهور.

وكانت خسائر البريطانيين ٤٢٦ قتيلًا و ١٢٢٨ جريحًا و ٦١٥ مفقودًا في حين بلغت الخسائر المادية ٢٠ مليون جنيه استرليني. أما خسائر العراقيين فتشير المصادر البريطانية إلى أنها كثيرة وقد بلغت (٨٠٠٠) قتيل. ولا شك أن خسائر العراقيين كانت أكثر لتفوق البريطانيين بالسلاح، ومع ذلك فقد استطاع الثوار أن يعبروا عن سخطهم بصورة فعلية جذبت انتباه حكومة لندن والعالم إلى قضيتهم، كما أظهروا من الشجاعة والبطولة ما هو جدير بالإعجاب والتقدير العظيمين.

وما يجدر ذكره أن الثورة كشفت عن عدة أمور مهمة منها: وحدة الشعور والتضامن بين العراقيين على اختلاف فئاتهم، والنضج السياسي، والقابلية العسكرية. غير أن نقطة الضعف التي كشفت عنها الثورة هي عدم استطاعة العراقيين في مختلف أنحاء العراق القيام بالثورة في آن واحد. بل وعدم مشاركة بعض أنحاء العراق، وبعض عشائره في القيام بواجبها في هذه الثورة الوطنية، هذا فضلا عن وقوع أخطاء فردية، وعدم وجود قيادة عامة، وعدم وجود دولة تساند الثورة.

وقد أظهرت هذه الثورة صعوبة استمرار الحكم البريطاني المباشر للعراق، مما اضطر الانكليز إلى إعادة النظر في سياستهم تجاه العراق، وأن الخسائر البشرية والمادية التي منيت بها بريطانيا أثارت جدلاً عنيفاً في المجلس النيابي والصحافة الانكليزية، حتى طالب بعض السياسيين بانسحاب الحكومة من العراق والاحتفاظ بولاية البصرة فقط، وطالب بعضهم بالجلء عن العراق بأجمعه لأن احتلاله يكلف دافع الضريبة البريطاني كثيراً. فرأت الحكومة البريطانية أن تحكم العراق بصورة غير مباشرة وذلك بإقامة حكومة وطنية فيه.

وأُسِّرت الحكومة البريطانية إلى تأليف أول حكومة وطنية مؤقتة برئاسة نقيب الأشراف عبد الرحمن الكيلاني، وروعي في توزيع كراسي الوزارة التمثيل الديني والطائفي والعشائري للبلاد، ووضع بجانب كل وزير مستشار انكليزي، كما كانت الحال في سوريا. وأعلنت بريطانيا رغبتها بإقامة ملكية عراقية رشح لها عدد من العراقيين أمثال طالب النقيب، والملك فيصل بعد خروجه من سوريا على أثر موقعة ميسلون وذهابه إلى لندن.

قدم فيصل إلى العراق بعد إعلان ترشيحه، ونظمت السلطات الانكليزية والحكومة المؤقتة الدعاية له فزار فيصل مدن العراق وتعرف إلى رجالها، ووصل بغداد في شوال ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م) وبعد إجراء استفتاء شعبي، كانت نتيجته ٩٦٪ تأييداً لفيصل، وتوج فيصل في ١٨ ذي الحجة ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م) ملكاً على العراق.

بعد تتويج فيصل، ألف عبد الرحمن الكيلاني وزارة وطنية، إلا أن فيصلاً واجه مشكلات داخلية وخارجية معاً، أما المشكلات الداخلية فكانت كثيرة، وأهمها المشكلات المتعلقة بالقبائل والأقليات - كالأكراد والآشوريين - والانقسام الطائفي بين السنة والشيعة. إذ أن العراق لم يكن مجتمعاً واحداً منزهاً في القرن الرابع عشر، وظل يعاني من فقدان التجانس الاجتماعي هذا أمداً طويلاً، ولعل أعظم مشكلاته تكمن في هذا الوضع الغريب.

وقد عمل فيصل على تأسيس الجيش العراقي الحديث، وإنشاء الكلية العسكرية ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) وتقديم التعليم، وإرسال البعثات العلمية إلى الخارج، واستقدام المدرسين والمهندسين والفنيين من مصر، وإنشاء عدة كليات

كانت نواة لجامعة بغداد، كما عمل على توسيع الزراعة عن طريق مشروعات الري الحديثة، وقيام الصناعات النسيجية الآلية، واستغلال آبار النفط. وعقد كذلك معاهدات صداقة وحسن جوار مع كل من المملكة العربية السعودية، والأردن، وتركيا في عام ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) وإيران في عام ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) وأنهى الخلافات القديمة بينه وبين هذه الدول وحل مشكلات الحدود.

كما سمح بإنشاء الأحزاب السياسية على النمط الأوربي الغربي لكي تساعد على نمو تطور الديمقراطية في البلاد، فبعد اعتلاء فيصل عرش البلاد، وفي عهد وزارة عبد الرحمن الكيلاني تشكلت ثلاثة أحزاب، كان اثنان منها يمثلان المعارضة هما الحزب الوطني العراقي، وحزب النهضة، بينما يؤيد الحزب الثالث وهو الحزب الحر العراقي الحكومة وقد أغلق المندوب السامي البريطاني حزبي المعارضة، وتشكلت كذلك أحزاب أخرى هي: حزب الأمة ١٣٤٣ هـ، ويهدف إلى تأييد الاستقلال التام، ونشأت في الموصل أحزاب ثلاثة أهمها حزب الاستقلال، وجمعية الدفاع الوطني العراقي، وكانت تدافع عن قضية الموصل، وتطالب بأن تكون هذه الولاية ضمن حدود العراق، كما تشكل حزبان آخران في بغداد هما حزب التقدم، وحزب الشعب، وفي عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) شكل نوري السعيد حزب العهد الموالي لبريطانيا. وفي الخمسينات ظهرت أحزاب وطنية هي الحزب الوطني، وحزب الإخاء، واندجما معا في حزب واحد هو حزب الإخاء الوطني، وكذلك جماعة الأهالي، والحزب الشيوعي العراقي، وأخذت هذه الأحزاب على عاتقها قيادة الحركة الوطنية في البلاد بما يحقق للعراق استقلاله التام وسيادته الوطنية ومعارضة النفوذ البريطاني والمطالبة بتعديل المعاهدة البريطانية في عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م).

أما في مجال السياسة الخارجية فكانت أهم مشكلات العراق الخارجية تتمثل في علاقاته مع بريطانيا، إذ أن العلاقات بين العراق وبريطانيا في عهد فيصل دارت حول الوضع الذي أراده العراقيون لبلادهم وهو الاستقلال. هذا بينما كانت بريطانيا التي تقدر قيمة العراق الاستراتيجية والاقتصادية، تحرص على استمرار سيطرتها هناك بطريقة أو بأخرى ولكن بريطانيا تعلمت من ثورة

١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م) أن تعالج المسألة العراقية بحذر تام، ومن هنا فقد رفضت بريطانيا أن تطلب من عصبة الأمم المتحدة إقرار انتدابها على العراق رسمياً، ورأت أن تستبدل بالانتداب تنظيم علاقاتها مع العراق على أساس معاهدة تحالف أبرمت بالفعل في منتصف صفر ١٣٤١ هـ (١٠/١٠/١٩٢٢ م)، وكانت صورة مستورة لصك الانتداب الذي يمقته الشعب العراق.

وهكذا فإن مجيء فيصل إلى العراق لم يحمل إليه الاستقلال الكامل العاجل كما كان يتوقع هو والعراقيون، فمعاهدة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) التي وعدت تشرشل فيصلاً بأن تحل محل الانتداب، تضمنت كل شروط الانتداب دون شكله، وقد أعرب فيصل في ساعة من ساعات اليأس عن عدم رضاه على المعاهدة قائلاً: «ليست هذه هي المعاهدة التي وعدني تشرشل بها في لندن».

غير أن تجربة فيصل المريعة في سوريا قد لفتته درساً في عدم الاصطدام بدولة عظمى في العراق، وكذلك عدم الاستجابة لنصائح الوطنيين المتطرفين، ومن ثم، فقد اتبع سياسة «خذ وطالب» التي كانت تعنى السير بالبلاد في طريق الاستقلال خطوة بعد أخرى، تلك السياسة التي كانت تلائم نمط السياسة البريطانية الاستعمارية، التي سمحت للمستعمرات بالتطور نحو الحكم الذاتي بطريقة بطيئة وسلمية.

ومن الجدير بالذكر أن فيصلاً كان يعتقد أن المصالح البريطانية والمصالح العراقية غير متعارضة، وكان هذا الاعتقاد وارتباطاته مع بريطانيا من أهم نقاط ضعف مركزه في العراق. ومع ذلك، فإن فيصلاً كان متأكداً من أن مساعدة بريطانيا وعطفها أمران ضروريان لحمايته من جيرانه المعادين من جهة، ولإنهاء نظام الانتداب من جهة أخرى. وهذا يفسر إرغامه وزراره على التوقيع على معاهدة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) رغم عدم رضاه عليها.

وعلى كل حال، فإن معاهدة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) قد علمت كلا من فيصل وبريطانيا أنها لا يمكن أن تكون الأساس لصدقة إنكليزية عراقية دائمة، والواقع أن الوطنيين العراقيين لم يكونوا مستعدين لقبول أي مشروع يخلو من الاستقلال التام وإنهاء الانتداب. ولذا عدلت معاهدة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) باتفاق ربيع الثاني ١٣٤٢ هـ (١٩٢٢ م) الذي أنقص مدة المعاهدة من عشرين سنة إلى أربع

سنوات فقط، ثم استبدل بها عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) (معاهدة أخرى من أجل قضية الموصل)، كما عقدت معاهدة عام ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) أدت إلى تقليل الرقابة والإشراف البريطاني في العراق على الشؤون العسكرية والمالية، كما تضمنت ضمان المعاهدة وعداً من جانب بريطانيا بتأييد ترشيح العراق لعضوية عصبة الأمم في عام ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م)، وعلى العموم فرغم أن معاهدي ١٣٤٥، ١٣٤٦ لم تحققا للعراق استقلاله التام إلا أنها كشفتنا بوضوح أن بريطانيا على استعداد لمنح العراق استقلاله شيئاً فشيئاً.

وفي عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) أمكن التوصل إلى تسوية نهائية بين بريطانيا والعراق، فقد قررت معاهدة غرة صفر ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) التي وقعها المعتمد البريطاني فرنسيس همفريز، ونوري السعيد بوصفه وزيراً للخارجية، إنشاء محالفة عراقية بريطانية لمدة خمس وعشرين سنة، وأكدت بريطانيا فيها عزمها على تأييد ترشيح العراق لدخول عصبة الأمم في عام ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م)، ثم إعلان استقلال العراق وانتهاء الالتزامات التي كانت على بريطانيا بحكم الانتداب الذي كان لها، وذلك يوم دخول العراق عصبة الأمم.

وقد نصت المعاهدة على التعاون في السياسة الخارجية والحرب، اذ تعهدت بريطانيا بالدفاع عن العراق في مقابل تقديم التسهيلات كافة لبريطانيا، كما نصت على إنشاء قواعد حربية جوية في البصرة، والحبانية مع منح القوات البريطانية حق المرور، من الأراضي العراقية، وتعهدت بريطانيا بتدريب الجيش العراقي، وتزويده بالأسلحة.

وقد قوبلت المعاهدة بأراء مختلفة، فقد وجد فيها فيصل ونوري السعيد خطوة أولية موفقة نحو الاستقلال التام مع حفظ بعض المصالح البريطانية، هذا بينما عدّها المتطرفون العراقيون صكاً انتدابياً مغلفاً، ووسيلة لتدعيم النفوذ البريطاني في بلاد الرافدين.

وبما تجدر الإشارة إليه أن معاهدة ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) العراقية البريطانية قد غدت نموذجاً لمعاهدات أخرى مع الدول العربية الأخرى مثل معاهدة مصر مع بريطانيا ١٣٥٥، ومعاهدة فرنسا مع سوريا ولبنان في العام نفسه. وقد أدت هذه المعاهدة إلى انقسام السياسيين العراقيين إلى فئتين: فئة تؤيد

التحالف البريطاني، وفئة أخرى تعارض هذا التحالف، وترأس المجموعة الأولى نوري السعيد وأعوانه، على حين ضمت المجموعة الثانية ياسين الهاشمي، وحكمت سليمان، ورشيد عالي الكيلاني، وكامل الجادرجي، وكانت هذه المجموعة تعارض معاهدة ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) على أنها لم تحقق أماني العراق. وظلت هذه المعاهدة محور الصراع بين القوى الوطنية في العراق من جهة، وبريطانيا وأعوانها من العراق من جهة أخرى. واستمر هذا الصراع حتى نجحت هذه القوى في الإطاحة بالحكم في ثورة [٢٦ ذي الحجة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٨ م)] قبل انتهاء العام بأربعة أيام وإلغاء المعاهدة.

ومع ذلك فإن هذه المعاهدة قد حققت للعراق استقلاله الذاتي، ودخل عصبة الأمم عام ١٣٥١، وكان أول بلد عربي مستقل دخل عصبة الأمم، وباستقلال العراق نظر العرب إليه نظرة أمل في أن يسهم ينصيب كبير في مساعدة البلدان العربية الأخرى لنيل استقلالها وتحررها. وكان مما زاد في الأمل وأنعشها أن تدفق النفط في الأربعينات من أرضه، ورأى العرب فيه غداً مشرقاً يحول النفط الأسود ذلهم إلى ازدهار. وأصبح العراق في مطلع الخمسينات يملك أضخم ثروة معدنية في المنطقة العربية.

وساعدت هذه الظروف على أن يكون العراق ملجأ للعرب الذين فروا من التنكيل والملاحقة من سلطات الانتداب، أو السلطات المحلية في كل بلاد الشام وتجمع العشرات منهم ليشكلوا تياراً وطنياً ينادى بتحرير البلدان العربية ومقارعة الانتداب، ويدعو فيصلاً إلى الخروج عن عزلته وقيادة حرب التحرير العامة، لإقامة دولة واحدة من العراق وبلاد الشام تحت العرش الفيصلي.

وتصوّر بعضهم أن العراق يمكن أن يلعب دوراً أساسياً في الاتحاد العربي، ونظر هؤلاء إلى بريطانيا فوجدوها تكيد للبلاد، ولاتعمل شيئاً يدعم التعاون الذي نصت عليه معاهدة ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) العراقية البريطانية، ورأوا أن النظام القائم في العراق، ماهو الإبناء اصطناعي، أوجدته بريطانيا ليلائم مصالحها وأغراضها الامبراطورية، وهو لذلك لا يستحق الحياة والبقاء، وإنما الجدير بالبقاء والحياة هو النظام الذي يشكل فيه العراق جزءاً من الدولة العربية الموحدة، ولم يكن منح بريطانيا الاستقلال للعراق ليرضى النزعة الوطنية لأن معظمهم كان

يتطلع إلى تحرير البلدان العربية واندماجها في وحدة شاملة، وذلك بسبب ارتفاع مد الحركة العربية في العراق، ونفوذها إلى أذهان الجبل الجديد فيه.

ولقد أصبح العراق مركز الثقل في الحركة العربية في المدة ما بين الحربين العالميتين، كنتيجة للمرارة التي تركزت في نفوس العرب، لغدر الانكليز بأمانهم في التحرر والوحدة إبان الحرب العالمية الأولى، تلك المرارة التي زادت اشتعالا في الخمسينات المهجرة اليهودية الى فلسطين وعدم منح سوريا استقلالها، مما ساعد على ظهور الحركة العربية في العراق. وكانت هذه الحركة تصب فيها روافد القضايا العربية الأخرى أكثر مما كانت تتحكم فيها ظروف العراق الخاصة.

وتأسيسا على ماتقدم أنشئت منظمات وطنية من أهمها نادى المثني، ومنظمة الفتوة، كما أن أعمال الحكومة كانت تنسجم مع هذا الاتجاه الوطني إلى حد كبير، فالعلم كان عربيا منذ البداية، وكذلك نظم الادارة وأنشيد الطلبة وبرامج التعليم. وأراد فيصل أن يجعل من بغداد مركزاً عربياً قوياً، فأقام حكومة العراق العربية، وكان يميل دائما إلى الاتحاد بين سوريا والعراق، وليجعل لبلاده واجهة بحرية تساعد على تقوية البلدين وتنمية مرافقها الاقتصادية، وسعى إلى توثيق علاقاته مع الدول العربية الأخرى. وسار على نهجه ابنه غازي الذي خلفه، وقطعت الحركة العربية مراحل أبعد بكثير مما كان متصورا. وأسهمت الصحافة العراقية في تنوير الرأي العام عن القضايا العربية، وأزرت الحركة الوطنية في العراق، ودافعت عن قضية فلسطين، وهاجمت فرنسا، وأشادت بوطنية سوريا وجدارتها بالاستقلال. وشارك عدد من العراقيين في ثورات فلسطين ١٣٥٥، (١٩٣٦ م)، وشجب الملك غازي الاستعمار بأشكاله كافة في سوريا وفلسطين، وكان الوطنيون العرب يذيعون بيانات تندد بالاستعمار من إذاعة خاصة أعدها غازي لهم في قصر الزهور ببغداد حيث يقيم الملك نفسه.

وعلى العموم، فإن العراق قد تقدم وتطور خلال حكم الملك فيصل ١٣٤٠-١٣٥٢ هـ ونتيجة لمواقف الملك فيصل الرائدة في المجالات الداخلية والعربية والدولية، فإنه قد حظى بحب الجماهير وتأييدها، إلا أن الأجل لم يمهله لمتابعة مسيره الكفاح والنضال فتوفي عام ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م)، خلفه ابنه غازي الذي حكم في المدة (١٣٥٢-١٣٥٨).

وفي عهده شهدت البلاد كثرة تغير الوزارات، وفساد الحياة النيابية، وعجز التنظيمات السياسية الحزبية عن المعارضة الكلامية السلمية داخل المجلس النيابي أو على صفحات صحفها، أدى ذلك كله إلى التجاء المعارضة للعشائر العراقية، وخاصة في منطقة الفرات الأوسط - لممارستها العمل السياسي واستغلال قواها في إسقاط الوزارات، وتسلم زمام السلطة، كما حدث بالنسبة لوزارة علي جودت الأيوبي ١٣٥٣ هـ ووزارة جميل المدفعي الثالث ١٣٥٤ هـ حيث تسلم ياسين الهاشمي الحكم بتأييد الجيش الذي كان أخوه طه الهاشمي يتولى رئاسة أركانه. وبذا فتحت صفحة جديدة في السيطرة على الحكم كوسيلة للتغيير وتسلم السلطة بدلاً من العشائر.

ولقد أصبح الجيش العراقي قوة وطنية ضاربة خاصة وأن الحكومة العراقية بعد الاستقلال اهتمت بتكوين نواة جيش يتفق مع الوضع الجديد واحتياجات الدولة. وبدأ بعد عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) التوسع في الجيش فأدخل نظام التجنيد الإجباري في عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) وأخذ الكثيرون من أبناء الشعب يلتحقون بالكلية الحربية، ويصلون إلى صفوف الضباط الصغار، وبذلك أصبح الجيش العراقي يشمل قطاعاً وطنياً عريضاً. ولاننسى أن طبيعة القوة العسكرية في البلاد المستعمرة تختلف اختلافاً بيناً عن طبيعتها ووظيفتها الجيش في البلاد صاحبة الامبراطوريات، فبينما في الثانية كانت وظيفتها أولاً بناء الامبراطورية الاستعمارية ثم الدفاع عن هذه الامبراطورية الاستعمارية، كانت القوة العسكرية في المستعمرات - رغم استخدامها أحياناً في قمع الحركات الوطنية - تنتمي في حقيقة الأمر إلى هذا القوة الوطنية، فهي لم تبني امبراطورية ولم تدافع عن امبراطورية، بل كان يتنابها دائماً الإحساس بضرورة مساندة الحركة الوطنية.

ولقد حدث في تاريخ الجيش العراقي ما ساعد على بلورة هذه الحقيقة أي تحول الجيش إلى قوة وطنية تحمي مصالح العراق، ويتمثل ذلك في إخماد الجيش العراقي لفتنة الأشوريين عام ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م)، وكذلك إخماد ثورات الفرات الأوسط (الرميثة وسوق الشيوخ والمنتفق) عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م)، ثم قمعة لحركة بارزان والزيدية في الشمال خلال عامي ١٣٥٤ هـ و ١٣٥٥ هـ. وقد اندلعت هذه الثورات والانتفاضات بإيعاز من رجال السياسة في بغداد أو بسبب معارضة

القبائل لقانون التجنيد الإجباري.

وعلى العموم فقد قام الجيش بأول انقلاب عسكري في العراق بقيادة بكر صدقي للإطاحة بوزارة ياسين الهاشمي، غير أن ضباط الجيش أطاحوا به بعد عشرة أشهر فقط وذلك لأنهم كانوا يريدون إنهاء مظاهر التدخل الأجنبي، ووضع نظام سياسي سليم مستقر، وتحرير الدول العربية الشقيقة التي كانت تسعى للحرية والوحدة. وظل الجيش - بعد مقتل بكر صدقي في أول جمادى الأولى ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) القوة المحركة للسياسة العراقية من وراء ستار، وصار هو الذي يقر تشكيل وإسقاط معظم الوزارات بين عامي ١٣٥٦-١٣٦٠ هـ عن طريق الانقلابات العسكرية.

وشهدت هذه الفترة توقيع العراق على اتفاق ميثاق سعد أباد ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) بين كل من العراق وتركيا وأفغانستان وإيران، وكذلك توقيع معاهدة تقسيم شط العرب بين إيران والعراق، وتوقيع معاهدة الإخاء والتحالف بين العراق والسعودية وبين العراق واليمن ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م).

ونظراً لأن الملك غازي كان يولي القضايا الوطنية جل اهتمامه، حيث تبنى مهاجمة الاستعمار وخصص إذاعة خاصة من قصرة لتذيع البيانات الوطنية ضد الاستعمار الانكليزي والفرنسي، فقد عمد الاستعمار إلى التخلص منه، وقد قتل في حادث سيارة غامض ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م). وهاج الشعب العراقي وماج وندد بالاستعمار البريطاني وهجم المتظاهرون على مبني القنصلية البريطانية في الموصل، وقتلوا القنصل البريطاني هناك. ونودي بابنه فيصل الثاني ملكاً على البلاد، وكان عمره أربعة أعوام، وعين خاله الأمير عبد الإله وصياً على العرش، والذي ظل يحكم البلاد بالتعاون مع نوري السعيد منفذاً مصالح بريطانيا في العراق.

بعد قيام الحرب العالمية الثانية ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) قطعت الحكومة العراقية علاقاتها السياسية مع ألمانيا، وحجزت الرعايا الألمان وأملاكهم في العراق. وفي ربيع عام ١٣٥٩ هـ استقالت وزارة نوري السعيد، وتألّفت وزارة جديدة برئاسة رشيد عالي الكيلاني، والتي مالت في البداية إلى التفاهم مع بريطانيا شريطة أن تتعهد بريطانيا بمنح فلسطين استقلالها، وتعديل الكتاب الأبيض الخاص بفلسطين، تساعد على استقلال سوريا مقابل أن يقوم العراق من جانبه بإعلان

الحرب على المحور، والانضمام إلى الحلفاء وإرسال فرقتين عسكريتين من العراق إلى الجبهة الليبية. ولكن الحكومة البريطانية رفضت ذلك. فتأزمت العلاقات بين الحكومة العراقية الوطنية، وبين الحكومة البريطانية.

فوجيء الزعماء العرب بموقف بريطانيا، وكان العراق يعج في هذا الوقت بالزعماء السوريين والفلسطينيين والمصريين الهاريين من اضطهاد الانكليز والفرنسيين، وكان لوجودهم أثر على إذكاء الشعور الوطني في البلاد، فتأثر نتيجة لذلك معظم العراقيين، بينهم سياسيون ووزراء، ولعبت الدعاية النازية دورا في تحريك مشاعر الشعب ضد الانكليز، وحقيقة الأمر أن قضية فلسطين كانت أهم عامل يثير حفيظة العرب ضد بريطانيا.

ونتيجة لموقف بريطانيا السلبي بشأن قضية فلسطين، حدث انقسام في الوزارة العراقية، واتسعت الهوة بين أنصار بريطانيا بزعامة نوري السعيد، وبين الوطنيين بزعامة رشيد عالي الكيلاني والذي ازداد نفوذه حينذاك. وفي هذه الأثناء جرت اتصالات سرية بين الوطنيين وألمانيا لمعرفة موقف الأخيرة فيما لو قامت ثورة ضد بريطانيا وفرنسا، وطلب الوطنيون أن تصدر ألمانيا بيانا يبين نواياهما نحو البلدان العربية.

وبالفعل أصدرت الحكومة الألمانية بياناً رسمياً، أعلنت فيه عطفها وتأييدها للقضايا العربية في المستقبل، وذكر البيان أن ألمانيا بإعطائها هذا التصريح على اتفاق تام مع حليفتها إيطاليا أيضاً، وكررت محطة برلين إذاعة هذا التصريح عدة مرات. ولكن البيان الألماني كان عاما غامضاً، ولم يتضمن إجابة صريحة ودقيقة على المطالب العربية.

وشعر العرب أن ألمانيا تريد أن يبدأوا الثورة على بريطانيا في فلسطين، وأن تقوم العراق بعمل ما ضدها قبل مد العراق بالمعونة العسكرية، كأن يمنع استخدام القوات البريطانية لأراضيه وهذا يعني نقض المعاهدة العراقية الانكليزية، دون أن يكون العراق مستعدا لمواجهة ما يترتب على توريط العراق في صدام مسلح مع الانكليز.

وقد عرف الانكليز وأنصارهم كل هذه الأمور، فعملوا على إسقاط وزارة الكيلاني وإقامة وزارة موالية لهم، وبالفعل أطيح بوزارة الكيلاني وتشكلت وزارة

أخرى برئاسة طه الهاشمي التي قررت إقصاء الضباط الأحرار والذين سبهم الاستعمار بـ (المربع الذهبي) وهم صلاح الدين الصباغ، ومحمود سليمان، وفهمي سعيد، وكامل شبيب. فرفض الضباط أوامر الوزارة وقرروا العمل، وتحركت قواتهم في ١٣/٣/١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) فأرغمت رئيس الوزراء (الهاشمي) على الاستقالة وإعادة الكيلاني الذي يتمتع بثقة الشعب إلى رئاسة الوزارة، وفر الوصي عبد الإله إلى قاعدة الحبانية ومنها إلى البصرة حيث حاول أن يثير البصرة ضد بغداد ولكنه فشل، ومنها سافر على متن طائرة بريطانية إلى عمان، وانتخب المجلس النيابي (الشریف شرف) وصيا على العرش بدلاً من الأمير عبد الإله.

صعقت بريطانيا لهذا الانقلاب ورأت فيه تهديداً لأمنها ومصالحها، فلم تعترف بالحكومة الجديدة وعدتها مواليةً لألمانيا. وفي ١٧ ربيع الأول ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) أحاط السفير البريطاني الحكومة العراقية علماً بقدوم فرقة بريطانية من الهند إلى البصرة، فوافقت الحكومة العراقية على نزولها على ألا تنزل قوات جديدة قبل مغادرة القوة الأولى. وكان نص المعاهدة يقضى بأن تستخدم بريطانيا أراضي العراق لمرور قواتها أثناء الحرب وأن تقوم الحكومة العراقية بتقديم كافة التسهيلات لذلك. فالمعاهدة تنص على مرور القوات دون إقامتها أما الإقامة فتعني الاحتلال العسكري وهذا مازفضته الحكومة العراقية.

وفي ٢٨ ربيع الأول ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) طلب السفير البريطاني من الحكومة العراقية الموافقة على نزول قوة جديدة تصل في اليوم التالي، فقررت الحكومة العراقية عدم السماح للقوة الجديدة بالنزول قبل رحيل القوة الأولى، ولكن السفارة البريطانية تجاهلت ذلك، ونزلت القوات في البصرة، وحينئذ طلب قائد القوة العراقية الآلية المحيطة بقاعدة الحبانية منع الطائرات البريطانية من التحليق في الجو، فرد القائد البريطاني طالباً سحب القوات العراقية المرابطة قرب الحبانية قبل أن يضطر إلى قصفها من الجو.

وفي ٢ مايو ١٩٤١ م فتح الانكليز النار على العراقيين من قاعدة الحبانية، ونشب القتال بين الطرفين. وأبرقت وزارة الخارجية العراقية إلى سفيرها في تركيا أن يبلغ السفير الألماني في أنقرة قرار العراق بإعادة العلاقات السياسية مع ألمانيا، ورغبته الشديدة في معونتها. وأعلن العراق قطع علاقاته مع بريطانيا واشترك

متطوعون عرب إلى جانب الجيش العراقي في حربه مع بريطانيا، لأن هذه الحرب كانت حرب مصير. وتأمل العراقيون أن تصلهم نجذات وأسلحة وطائرات من ألمانيا، إلا أن مساعدات ألمانيا لم تصل بسرعة بسبب ظروف الحرب ولمنع تركيا مرور الأسلحة من أراضيها إلى العراق. ولكن وصول النجذات الانكليزية قد توالى إلى العراق، عن طريق البصرة وفلسطين والأردن، والمساعدة الألمانية لم تصل بعد، فانتصر الجيش الانكليزي بعد حرب دامت شهراً كاملاً، وساعده في ذلك فرقة من الجيش الأردني بقيادة الجنرال جون كلوب باشا وفصيل يهودي أيضاً. وعاد الوصي السابق عبد الإله من عمان، وهرب الكيلاني وأنصاره إلى ألمانيا. وتشكلت حكومة جديدة بزعامة نوري السعيد. الذي عمل على تصفية العناصر الوطنية، فأعدم الكثيرين من الشباب والضباط دون محاكمة. وخضع العراق لوطأة احتلال شديدة وأصبحت أراضيه كلها مفتوحة للجيش الانكليزي. وكانت سنوات الحرب كلها سنوات إرهاب وظلم على الشعب العراقي فزج بالأحرار إلى السجون، وكان كل من أيد الثورة أو تعاطف معها يلقى في السجن دون محاكمة، وقد بقوا في السجن مدة الحرب. وأصبحت البلاد كلها خاضعة للنفوذ الانكليزي. وقضى على الضباط الأحرار. وبرز أنصار بريطانيا وعملاؤها في العراق وتحكموا في مقدرات البلاد التي أخضعوها للنفوذ الانكليزي.

والحقيقة أن ثورة رشيد عالي الكيلاني كانت حركة وطنية تهدف إلى تخليص العراق من براثن الاستعمار البريطاني وتعمل على استقلاله.

شهد العراق بعد الحرب العالمية الثانية توالي عدد من الوزارات على الحكم، وكانت هذه الوزارات تتألف في الغالب من جماعة من الساسة المحترفين، ومن أصحاب الأراضي الواسعة وكبار التجار. ولم تكن الحكومة في معظم الأحيان خاضعة لسيطرة مجلس النواب، بل كانت الحكومة على العكس من ذلك هي التي «تصنع» مجلس النواب، إذ تعمل الترشيحات لعضوية المجلس بحيث تشمل أسماء رؤساء الوزارات السابقين جميعهم، الوزراء الذين تولوا الوزارة أكثر من مرتين جميعاً، وأصحاب الحرف الحرة ورؤساء القبائل، وتبلغ نسبة هؤلاء في المجالس النيابية ٦٠٪ من أعضائها. أما باقي الأعضاء فيتوقف أمرهم في الغالب على إدارة الوزارة الموجودة في الحكم. ولكن هذا الوضع لم يمنع الراغبين في شق

طريقهم إلى المجلس من ترشيح أنفسهم، كما أنه ليس من عائق في وجه تكوين الأحزاب السياسية واشتراك بعض ممثليها في الانتخابات.

وعلى العموم فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وانتصار الحلفاء، رأت بريطانيا والوصي عبد الإله بأن يخفف من القسوة على الشعب، ويمنحه نوعاً من الحرية بعد مدة قاسية من الكبت، فأعلن الوصي عبد الإله عن عزم الحكومة العراقية على إطلاق الحريات العامة والسماح بتأليف الأحزاب، والجمعيات السياسية، والسير بسياسة البلاد على أسس ديمقراطية صحيحة وعلى الأثر ظهرت بعض الأحزاب الجديدة من أهمها: حزب الاستقلال، وحزب الأحرار، والحزب الوطني الديمقراطي، وحزب الشعب، حزب الاتحاد الوطني، ودعا معظمها إلى الوحدة في شكل اتحاد عربي، واتفقت معظمها في التأكيد على ضرورة الإصلاح الزراعي، والعمالي، والاجتماعي. وكان بعضها ضد الشيوعية (الاستقلال والأحرار). وكانت هناك أحزاب أخرى ممنوعة (حزب التحرير الوطني) وهو حزب شيوعي، وحزب البعث الاشتراكي. ولكن هذه الأحزاب جميعها ذابت أمام طريقة الحكم العراقي الذي يسيطر عليه الوصي عبد الإله، ونورى السعيد في معظم الأحيان.

وشارك العراق في تأسيس الجامعة العربية، وأصبح عضواً فيها، كما عقد معاهدة مع الأردن ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) رغم اعتراض الشعب عليها مثلاً في الأحزاب، وأصبحت هذه المعاهدة نواة الاتحاد الهاشمي الذي أسس فيما بعد، كما عقد معاهدة صداقة مع تركيا في العام نفسه انتقلت بها القوى الوطنية. وأخيراً ونظراً لاستقلال سوريا ولبنان وتحررها من التبعية الأجنبية رغب العراق في تعديل المعاهدة بينه وبين بريطانيا فجرت مفاوضات بينهما منذ عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م)، واستمرت في العام الذي تلا ذلك وانتهت بتوقيع معاهدة بورتسموث ٢ في ذي الحجة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م، والتي تنص على التحالف الدواعي إذا تعرضت إحدهما إلى الخطر، وتلغي المعاهدات السابقة جميعاً، ويوافق العراق فيها على تقديم التسهيلات للجيش البريطاني على أرضه، وعلى إقامة قواعد جوية تساعد على الدفاع وعلى حفظ الأمن الدولي، وتكون نفقة القوات التي تحمي قاعدتي الحباينة والشعبية الجويتين على عاتق الحكومة العراقية. ومدة المعاهدة عشرون سنة. وتسمى أحياناً معاهدة صالح (جبر - بيفن).

وقد هب الشعب العراقي كافةً عندما تلقى الخبر بتوقيع المعاهدة، فقامت المظاهرات، واصطدم الشعب بالشرطة، ووقع الكثير من القتلى والجرحى، مما اضطر الوصي أن يصدر بياناً بإلغاء المعاهدة، وأنه لن يبرم أي اتفاق إلا بعد عرضه على ممثلي الشعب، واضطر رئيس الوزراء صالح جبر الذي وقع على المعاهدة إلى الاستقالة. وشكل محمد الصدر وزارة جديدة ألغت المعاهدة ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م)، وظلت معاهدة ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) سارية المفعول.

وازدادت نقمة الشعب وغلبيانه بشأن حرب فلسطين والتي اشترك فيها الجيش العراقي، وكثرت المعارضة لدور الجيش العراقي ومؤازرته للجيش الأردني فعمدت الحكومة إلى حل الأحزاب وإغلاق مكاتبها، وكانت الطريقة في الحكم قاسية تسحق الحريات والمعارضة، ومع ذلك استمر الشعب في القيام بدوره في معارضة الحكومة، واغتنام كل فرصة سانحة للتعبير عن شعوره، فهب الشعب العراقي في انتفاضته العارمة ١٣٧١ هـ (١٩٥١ م) متأثراً بالأحداث الدولية (حركة مصدق وتأميم النفط في إيران)، وكانت مطالبة الشعب بهدف تعديل قانون الانتخاب، وإصلاح أحوال الشعب، والسير على أسس ديمقراطية صحيحة في الحكم. ولكن الحكومة استخدمت الجيش لأول مرة للقضاء على هذه الانتفاضة وزجت بالأحرار في السجون.

وفي عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣ م) توج فيصل الثاني ملكاً على البلاد، فلم تستفد البلاد شيئاً من التغير السياسي لأن خاله الوصي عبد الإله ونورى السعيد ظلّا يحركان الأحداث ويوجهانها كما كانا من قبل، فلم يكن للملك فيصل أي دور للتأثير أو لاحتداث تغيير سياسي وفق أهداف ومتطلبات الشعب.

ولجأ رئيس الوزراء نوري السعيد في عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣ م) إلى التضييق على الحريات مرة أخرى، فأغلق الأحزاب والجمعيات والنوادي السياسية وكمم الأفواه، وزاد من قبضته على الشعب تمهيداً لعقد حلف بغداد، ونجح بالفعل في توقيع حلف بغداد عام ١٣٧٤ هـ (١٩٥٥ م) والذي وقعته كل من تركيا، والعراق، وإيران، وبريطانيا، وكانت الولايات المتحدة عضواً مراقباً، وهي التي عملت على تكوينه في سلسلة الأحلاف التي يطوق بها الغرب دولة الاتحاد السوفيتي. ورفضت بقية الدول العربية الدخول في الحلف. وكان الحلف يهدف

في الواقع إلى حماية المصالح الغربية في منطقة الخليج العربي. واستغل نوري السعيد هذا الحلف في القضاء على خصومه السياسيين وقمع الحركة الوطنية في العراق تحت ستار مكافحة الشيوعية.

ولإزاء موقف نوري السعيد المتخاذل والمعادي لمصر إبان العدوان الثلاثي في عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م)، اتحدت الأحزاب العراقية جميعها في جبهة وطنية (حزب الاستقلال، الحزب الوطني الديمقراطي، الجبهة الشعبية، الحزب الشيوعي، حزب البعث العربي الاشتراكي) وقررت اتباع نظام العمل السري. كما أخذت النقمة تزداد في الجيش وفي صفوف الضباط الوطنيين، ولاسيما بعد نكبة فلسطين، فبدأت نواة اللجان الثورية تتكون في الجيش منذ عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م). وقد كان لهذه اللجان صلة بالجبهة الوطنية. وكان تطور الأحداث في الشرق العربي يقيم الكثير من التناقض بين سياسة الحكام في العراق وبين حكام باقي المنطقة.

وقد بلغت نقمة الشعب أوجها في عام ١٣٧٨ هـ (١٥٩٨ م) إثر قيام الوحدة بين مصر وسوريا وتكوين دولة الجمهورية العربية المتحدة، فحاولت حكومة نوري السعيد امتصاص نقمة الشعب العراقي وتطوير ذلك الحدث، وتخفيف أثره بإيجاد اتحاد بين العراق والأردن، إلا أن هذه المناورة في امتصاص النقمة المتزايدة أخذت تتزايد يوما بعد يوم حتى انفجرت في ثورة ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧ هـ (١٤ تموز ١٩٥٨ م) عندما تحرك الجيش العراقي لنجدة الأردن بسبب أحداث لبنان في ذلك العام، فاتجهت قوات الجيش إلى بغداد واستولت على دار الإذاعة وهب الشعب كافة للقضاء على أعوان نوري السعيد، فانتهت هذه الثورة الحكم الملكي في العراق، وقتل الملك والوصي ونوري السعيد وعدد آخر من الوزراء وقادة الجيش. وأعلن عن قيام النظام الجمهوري. وأصبح عبد الكريم قاسم رئيسا للحكومة وقائدا عاما للجيش وعين نائبه عبد السلام عارف وزيرا للمداخلية.

وتحرر العراق من آخر روابطه مع انكلترا ومع الغرب والقواعد العسكرية وحلف بغداد. وعمل قادة العهد الجمهوري على الاتصال بالجمهورية العربية المتحدة لإقامة حلف دفاعي معها، والاشتراك في دولة الوحدة. ولكن عبد الكريم قاسم كان يعمل على الانفراد بالسلطة، وقد استطاع إبعاد زميله عبد السلام

عارف عن الحكم، وبقي يحكم البلاد خمس سنوات حكماً فردياً مطلقاً تميزت أيام حكمه بالأعمال العمرانية، وتطبيق الإصلاح الزراعي وضرب كبار الملاك، وبعدم الاعتماد على جماعة معينة فبعد أن اعتمد على الشيوعيين عاد فتنكر لهم ثم نكل بالذين ينادون، وسمح للأحزاب بالنشاط، ثم منعها حسب أهوائه، كما كان متردداً في سياسته مع الأكراد فبعد أن أعطاهم الامتيازات عاد فاصطدم بهم مما أدى إلى قيام الثورة الكردية منذ عام ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م).

وتميزت سياسته الخارجية بعد أزمات مع الدولة العربية خاصة، كان من بينها الأزمة التي أثارها مع الكويت عند استقلاله، فقد اعترف بهذا الاستقلال في ٤ محرم ١٣٨١ هـ، ثم عاد بعد خمسة أيام فطالب بضم الكويت للعراق فوراً، وإحاقه بلواء البصرة وهدد باحتلاله. وقد أثار ذلك أزمة دولية رفعت إلى مجلس الأمن واستدعت نزول القوات البريطانية في الكويت، ولكن مجلس الجامعة العربية قرر بعد أسبوعين (٢٥ محرم ١٣٨١ - يوليو ١٩٦١ م) بالمطالبة بسحب القوات البريطانية وإحلال دعم عسكري عربي محلها ومطالبة العراق باتباع الطرق السلمية في علاقته مع الكويت، وتأييد عضويته للجامعة العربية وللأمم المتحدة. وقد عزلت هذه الأزمة العراق عن باقي الدول العربية، خاصة بعد انسحاب عبد الكريم قاسم من الجامعة العربية.

أدت هذه العزلة الخارجية مع اتباع الدكتاتورية في الداخل إلى قيام انقلاب أطاح بعبد الكريم قاسم في ١٤ رمضان ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م). وتسلم الحكم من بعده زميله عبد السلام عارف بالتعاون مع حزب البعث العربي الاشتراكي، ولكنه مالبت أن تخلص من هذا الحزب بعد ثمانية أشهر من الحكم واستمر في الرئاسة حتى سقطت به الطائرة في البصرة في ذي الحجة من عام ١٣٨٥، فتسلم رئاسة الجمهورية أخوه عبدالرحمن عارف الذي استمر في الحكم حتى قام ضده عبدالرزاق النايف لمدة أحد عشر يوماً فقط، ثم استطاع حزب البعث العربي الاشتراكي أن يقوم بانقلاب عسكري عليه منتصف عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م)، وتسلم الحزب حكم البلاد وصارت رئاسة الجمهورية للفرق أحمد حسن البكر، وفي عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) تنازل عن رئاسة الجمهورية وخلفه الرئيس صدام حسين. ويسير العراق في خطة تنمية متكاملة للسير بالبلاد نحو طريق أفضل حسب رأي الحزب الحاكم.

وأهم المشكلات التي واجهت العراق في هذه الآونة هي المشكلة الكردية. وهذه المشكلة قديمة ثارت أكثر من مرة في العهد الملكي، وأخذت حركاتها. وأصحابها هم أكراد مسلمون سنيون يبلغون ١٦٪ من سكان العراق، وعددهم أكثر من مليونين بقليل، ويسكنون المنطقة الجبلية الشمالية الشرقية، ويرغبون في تحقيق نوع من الاستقلال الذاتي. وكان الانكليز هم الذين استقدموا أعدادا منهم من تركيا بعد ضررهم هناك فزاد عددهم، وبرز بينهم الملا مصطفى البرزاني. وقد ثار الأكراد في عهد عبد الكريم قاسم بقيادة الملا مصطفى البرزاني، واستنزفت الأعمال العسكرية بين الأكراد والجيش العراقي الكثير من الضحايا والنفقات، وقد انتهت الثورة باتفاق في اليوم الثاني من مطلع عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م)، وقد أعطى هذا الاتفاق الأكراد عدداً من المناصب الوزارية ونائبا لرئيس الجمهورية، وإدارة ذاتية في مناطقهم، إلا أن الأكراد عادوا إلى الثورة مع زيادة الدعوة إلى العربية إذ يرون فيها تهديداً لهم وإذابة لشخصيتهم الأمر الذي دعاهم إلى إظهار شخصيتهم ومحاولة التأكيد عليها، وقد استغلت الدول الأجنبية هذا الجانب فكانت تحركهم ضد إيران من العراق ومن العراق ضد إيران وهكذا. وعندما التقى الرئيس صدام حسين مع الشاه رضا بهلوي في الجزائر عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) اتفقا على حل مشكلة شط العرب، وتنازل العراق عن بعض مطالبه مقابل كف إيران عن مساعدتها للأكراد لإضعاف شأن حركتهم. وبالفعل فقد توفقت الثورة نهائيا وخرج الملا مصطفى البرزاني وذهب إلى أمريكا وظل هناك حتى توفي في عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م). وواجه العراق في عهد الرئيس صدام حسين أزمات كثيرة منها حرب إيران التي استمرت ثماني سنوات واحتلال الكويت في عام ١٩٩٠ م/٨/٢ وما نتج عنها من حرب الخليج وفرض عقوبات اقتصادية وسياسية وعسكرية على العراق.

٤ - تركيا

تمتد في شمال بلاد الشام شبه جزيرة الأناضول التي تقع بين البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه والبحر الأسود من جهات الجنوب الغربي والغرب والشمال، وتتصل بالعراق من الجنوب الشرقي، وبإيران وأرمينيا وجورجيا من جهة الشرق.

وهي منطقة تزيد مساحتها على ٧٥٦٩٥٣ كيلو متراً مربعاً، كما يرتبط بها جزء من البر الأوربي يعرف باسم «تراقيا»، تبلغ مساحته ٢٣٦٢٣ كيلو متراً، بهذا تكون مساحة تركيا ٧٨٠٥٧٦ كيلو متراً مربعاً. ويفصل بين الجزأين مضائق تعد ذات أهمية بالغة، وهي البوسفور الذي تقع عليه مدينة «استانبول»، ويبلغ عرضه في أضيق نقطة منه (١٠٠٠ م)، وبحر مرمرة، ومضيق الدردنيل، وهو أكثر امتداداً من البوسفور وأكثر عرضاً.

تتألف شبه جزيرة الأناضول من هضبة يصل معدل ارتفاعها إلى ١٠٠٠ م تحيط بها سلاسل جبلية مرتفعة، ففي الشمال جبال «البونت» التي ترتفع كلما اتجهنا شرقاً، ويصل ارتفاعها إلى ٣٩١٠ م، وتميل بشدة نحو البحر الأسود، وفي الغرب المرتفعات الإيجية التي تصل إلى ارتفاع ٢٣١٢ م، وفي الجنوب جبال طوروس التي ترتفع كجدار عالٍ يمتد وراء ساحل البحر الأبيض المتوسط، ويصل ارتفاعها إلى ٣٩١٦ م، وتأخذ اتجاهاً شمالياً شرقياً، وتشكل في الشرق عقدة جبلية هي هضبة أرمنيا وترتفع جبال أرارات إلى ١٥٦٥ م، وتوجد في الهضبة بحيرات كثيرة تختلف في اتساعها وارتفاعها، بعضها عذب وبعضها الآخر مالح.

تكون المنطقة الجنوبية الغربية من البلاد متوسطة المناخ فصيفها حار جاف، وشتاؤها دافئ مطير، وتقوم فيها زراعة الحبوب والعنب والزيتون والحمضيات والقطن. أما المنطقة الشمالية فهي معتدلة المناخ وتهطل فيها الأمطار شتاءً، ولكن صيفها لا يخلو من مطر بسبب وجود البحر الأسود، وتعد من أشهر مناطق إنتاج التبغ. أما داخل البلاد فقاري جاف قبيل الأمطار، ويشتد البرد في المناطق الشرقية وتكسو الثلوج المرتفعات التي تغذي الأنهار عند ذوبانها في مطلع الصيف. وتنحدر الأنهار من الجبال نحو البحار، ومن المنطقة الشرقية تجرى مياه دجلة والفرات.

ونتيجة لطبيعة البلاد فإن مدنها المهمة هي التي تشرف على البحار، مثل: استانبول أكبر المدن وأشهرها وأعرقها، كانت العاصمة عشرات القرون. وأزمير، وصامسون وغيرها، أما مدن الداخل فهي قلاع حصينة تحف بها المرتفعات، أو تقع على ذراها أرضروم، وديار بكر، وأنقرة، وما كان منها مفتوحاً، ويقع في منطقة منبسطة فهي محصنة بأسوار وقلاع مثل قونية.

لمحة تاريخية :

لقد قامت مدنيات على أرض تركية من القديم، ومنها ماأشاده الحثيون ٢٢٢٢-١٨٢٢ قبل الهجرة، وكانت عاصمتهم مدينة «كركميش» على نهر الفرات قرب الحدود السورية اليوم، قريباً من مدينة «طرابلس» السورية، وانتقلوا إليها من حاضرتهم الأولى بالقرب من موقع «أنقرة» لأن خصومهم كانوا في الجنوب، وهم المصريون الذين وقعوا في صراع معهم على الأرض السورية، ثم ضعف أمرهم، وانقسمت دولتهم، وغزا اليونانيون البلاد، ثم تقدم الإيرانيون عام ١١٦٨ قبل الهجرة، ثم جاء الأغريق بقيادة الاسكندر الكبير المقدوني عام ٩٥٦ قبل الهجرة، وبعد ذلك قامت الدولة الرومانية فجرت الحروب الكثيرة بين الرومان والفرس. وفي عام ٢٩٢ قبل الهجرة اتخذ قسطنطين عاصمة على البوسفور، وحملت هذه المدينة الجديدة اسم «قسطنطينية» وغدت حاضرة الروم البيزنطيين بعد أن انقسمت الدولة الرومانية إلى غربية وشرقية، وتجزأت الديانة النصرانية، وأصبحت القسطنطينية مركز النصارى الأرثوذكس. واستمر الصراع بين البيزنطيين والفرس، وكانت الحروب بين مدّ وجزر تارة ينتصر البيزنطيون ويتقدمون نحو الشرق، ثم لاتبث أن تعود القوة للفرس ويدحرون البيزنطيين نحو الغرب. وكانت النصرانية قد أخذت الطريق نحو الرومان فاعتنقها الامبراطور، وفرضها على الشعب بالقوة فأخذها اسماً، وبقيت كل العادات وثنية، فحملت العقيدة الجديدة اسم النصرانية ولكنها ظلت في الواقع وثنية. وعندما انتشر الإسلام في جزيرة العرب كان الفرس في حالة انتصار، ثم لم يلبث أن عاد النصر إلى جانب البيزنطيين، وهزم الفرس.

وتحركات جيوش الإسلام نحو الشمال، وفتحت بلاد الشام بإمرة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، وكانت من قبل تتبع البيزنطيين، وكان الصراع بين الطرفين في البر والبحر ففي البر استولى المسلمون على القسم الشرقي من الأناضول، وغدت جبال طوروس حداً فاصلاً بين الجانبين، وفي البحر غزا المسلمون القسطنطينية أيام الأمويين عدة مرات، وفتحوا قبرص وكريت ورودوس، وبقي الوضع في هذه الجهة على هذا الشكل مدة طويلة من الزمن.

وفي العصر العباسي وطّن الخلفاء أقساماً من جيش خراسان في المناطق

الأناضولية الخاضعة لهم، وكان الخليفة المهدي يستقدم الأتراك من فرغانة^(٤٧) وبلخ^(٤٨) ويسكنهم في الثغور الواقعة على جبال طوروس أو عند أقدامها مثل: طرسوس، وأضنة، ومرعش، وملاطية، وآمد، وخلاط، وقاليقاد، والمصيصة، وعين زربة، وزاد عدد الترك في هذه المناطق في عهد المأمون والمعتصم، وأصبح الترك في عهد المتوكل يتولون إمرة هذه الثغور وحمايتها.

وفي عهد الدويلات التي انفصلت عن الدولة العباسية غدت هذه الثغور تحت حمايتها مثل الطولونيين والحمدانيين، وكانت الحروب سجلاً بين الطرفين، وإن بدا الضعف يظهر على الحمدانيين أيام سيف الدولة فكان الروم يصلون إلى حلب، ومحاصرون الحمدانيين في قلعتها على غير ماترويه الكتب التاريخية التي تعطي هؤلاء الحمدانيين الشيعة صورة أكبر من واقعهم بكثير. ومع ضعف الدولة العباسية التي عادت حماية الثغور على كاهلها بعد زوال دولة الحمدانيين الشيعة ضعفت جيوش الثغور، واندحر المسلمون قليلاً، إلا أنه في هذا الوقت كانت جموع من الترك «الطوغوز أوغوز» تصل إلى الأناضول بعد أن تعتنق الإسلام وتجاهه البيزنطيين وهم في عنفوان انتصاراتهم فتهزمهم، وقد استطاعت الانتصار عليهم عام ٤٦٣ هـ في معركة «ملازكرت» الشهيرة، ثم دحرتهم من آسيا الصغرى كلها، وأصبحت سادة جنوب غربي آسيا، ثم سيطرت على الدولة العباسية، وقد عرف هؤلاء الترك باسم السلاجقة، وإذا استطاع الروم أن يسترجعوا المناطق الساحلية إلا أن أقدام السلاجقة قد توطدت في الداخل، وكانت مدينة (قونية) حاضرتهم، وعرف هذا القسم من السلاجقة باسم سلاجقة الروم، وكانت تفدهم قبائل تركية بين مدة وأخرى.

كانت أوروبا توجه عنايتها الكبرى لضرب المسلمين في الأندلس، وتعتقد أن البيزنطيين يكفونها الجبهة الشرقية إلا أن أوروبا قد خاب أملها إذ هزم النصارى الأسبان في الأندلس أمام يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين الذي انتقل من البر الإفريقي إلى الأندلس لمساعدة المسلمين هناك، وذلك عام ٤٧٩ هـ وذلك في

(٤٧) فرغانة: من بلاد ماوراء النهر، وهي اليوم في جمهورية قيرغيزيا التي تخضع للسيادة الروسية.

(٤٨) بلخ: مدينة من بلاد خراسان وتقع اليوم في دولة أفغانستان.

معركة (الزلاقة) الشهيرة، وفي الوقت نفسه هزم الروم أمام السلاجقة المسلمين عام ٤٦٣ هـ .

ادعى نصارى أوروبا أن السلاجقة يسيئون معاملة النصارى الذي يفدون إلى المشرق لزيارة بيت المقدس، واتجه الصليبيون إلى المشرق، وفي طريقهم احتلوا أجزاء من سواحل الأناضول، كما قامت دولة في كيليكيا يحكمها النصارى الأرمن، إلا أن غزو الصليبيين لمدينة القسطنطينية جعل النصارى ينقسمون إلى لاتين واغريق، ويقع الخلاف بين الطرفين، وأخيراً طرد الصليبيون من المشرق.

كان عدد الأتراك يزداد باستمرار في الأناضول على حين يتناقص عدد النصارى وخاصة في الريف، وأجلى السلاجقة النصارى من المناطق الداخلية إلى السواحل إذ لاحظوا تعاوناً كبيراً بين الروم النصارى والصليبيين أثناء هجومهم. وانقسم السلاجقة إلى عدة إمارات تحاهد البيزنطيين، كما توجد إمارات غير سلجوقية ولكنها تحت حمايتهم تقوم بالمهمة نفسها.

وفرت قبائل تركية وثنية أمام التقدم المغولي، واستوطنت بلاد الأناضول، واعتنقت الإسلام، وشكل دولة بني عثمان التي تعود إلى أميرها عثمان بن أرطغرل الذي اتخذ مدينة (قرة حصار) قاعدة له، واستقل بعد مداومة المغول للسلاجقة، وأصبح ملاذاً للكثير من المسلمين الذين يفرون من وجه التتار، وخاصة أنه أول من اعتنق الإسلام من أمراء قومه، ولهذا انتسب إليه الخلفاء من بعده دلالة على ارتباطهم بالإسلام وليس بالعصبية، وتوفي عام ٧٢٧ هـ، وكان خلفاؤه من بعده قد أخذوا على عاتقهم جهاد البيزنطيين، وانتقلوا إلى أوروبا عن طريق مضيق الدردنيل وغيروا بذلك طريق الغزوات السابقة التي كانت تتخذ طريق البوسفور والقسطنطينية فتتوقف لحصانة المدينة ومئات أسوارها.

وتقدم العثمانيون في أوروبا وفتحوا مناطق واسعة، ثم هُزموا أمام تيمورلنك، وأسر سلطانهم (بايزيد)، وكادت الريح تعصف بدولتهم إلا أن محمد الأول بن بايزيد قد تمكن من إعادة توحيد البلاد، وأخيراً تمكن حفيده محمد الثاني من فتح مدينة القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م، وغدا اسمها (إسلام بول) ويطلق عليها (استانبول) أي مدينة الإسلام، وكان لهذا الفتح أثر عظيم حتى عد نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، ومن هذه المرحلة تدخل دراستنا لتركيا

بشكل مفصل إلا أن دراسة الدولة العثمانية قد جاءت مفصلة وفيها الكثير من الإطناب لذا نفضل إعطاء لمحة فقط عنها حتى زوال دولة بني عثمان.

وتمكن السلطان سليم حفيد محمد الفاتح من دخول البلاد العربية، والوقوف في وجه البرتغاليين الذي أرادوا حرباً صليبية واضحة، وتقدموا من جهة الجنوب، فدخلوا عدن، واحتلوا مناطق الخليج العربي، كما استطاعوا بمساعدة الأحباش دخول البحر الأحمر، كما استطاع العثمانيون من دحر الفرس الشيعة الذين اتخذهم البرتغاليون مطية لهم، وتعاونوا معهم مستغلين الخلاف بين العثمانيين السنة والفرس الشيعة، ومقام به السلطان سليم الأول أكمله ابنه السلطان سليمان الذي وقف بعنف أمام البرتغاليين، ودعم سلطان المسلمين في الهند الذي غزاهم البرتغاليون أيضاً، وأتم ضم البلاد العربية إلى دولته وذلك بغية توحيد المسلمين في دولة واحدة قوية، تقف في وجه الاستعمار الصليبي الجديد، إلا أن الصليبيين الأسبان والبرتغاليين قد تمكنوا من طرد المسلمين في الأندلس وقاموا يلاحقونهم في مختلف الجهات، وظهر الاستعمار الصليبي، ولم يشتد ساعد بني عثمان بعد، إذ خرج المسلمون من الأندلس قبل تولي السلطان سليم الحكم بعشرين عاماً تقريباً، وإذا كان الهجوم الصليبي قد حمل اسم الاستعمار بسبب المنافسة الاقتصادية إلا أن الوجه الصليبي لم يختف أبداً.

كانت أوروبا النصرانية بدوها المختلفة تقف في وجه الدولة العثمانية المسلمة، وتحرص على إخراجها من أوروبا الشرقية واقتطاع أجزائها، وإذا كانت دول أوروبا تختلف فيما بينها ويتنافس بعضها مع بعض في سبيل امتداد نفوذها، واقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية، وأخذها الخيرات والأسلاب، إلا أنها كانت تتفق في وقوفها في وجه العثمانيين، ولو أنها تبدو في منافساتها أن بعضها يدعم العثمانيين، وتلتقي أيضاً دول أوروبا الغربية بعضها مع بعض ضد مصالح روسيا التي تنافس أوروبا، وتحرص أن تصل إلى المياه الحرة لتنازع الدول الغربية في الحصول على المستعمرات، ومدّ النفوذ واستغلال الأراضي والسكان، ولكن روسيا لا يمكن أن ينتهي صراعها مع العثمانيين أبداً ماداموا يحملون العقيدة الإسلامية، وإن كانت ترى مرحلياً أنها تريد العودة إلى القسطنطينية، وإعادة مقر الكنيسة الأرثوذكسية إليها، والذي انتقل إلى موسكو بعد فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح،

والسيطرة على المضائق للوصول إلى المياه الحرة، ومن ناحية ثالثة ترى تحطيم القوة العثمانية العسكرية التي تدعم الشراكسة في قفقاسيا والتتار في القرم وحوض الفولغا، إذ كان التتار يحكمون روسيا وهم من المسلمين، وهم والعثمانيون أبناء عمومة فكلاهما إخوة سواء من حيث العقيدة أو الجنس، وكان أحدهما يحكم روسيا فالثاني يتحمل الوزر ويجب النيل منه. ولم تتغير سياسة روسيا على مدى التاريخ سواء أكان حكامها من القياصرة أم من الشيوعيين. وإن الخلاف الذي كان بين روسيا ودول أوربا الغربية هو الذي مدّ بعمر الدولة العثمانية بعض الزمن.

ويضطر سلاطين بني عثمان إلى أن يوقعوا بعض المعاهدات مع أعدائهم ويتنازلوا فيها عن بعض أجزاء من بلادهم، ويوافقوا على أن يكون للنصارى وضع خاص يختلف عن المسلمين، وسمح لهم بالتقاضي أمام محاكم خاصة غالباً ماتكون قاعاتها داخل سفارات الدول الأجنبية، ويسمح لهم أيضاً بفتح مدارس خاصة تدرس مناهج خاصة وكثيراً ماتكون موجهة ضد الدولة العثمانية، وإظهار الدول الأجنبية بمظهر القوة والعدالة والحضارة والانسانية، وكانت هذه المدارس تعد مراكز للتخريب ومعاهد لتخريج المتفرنجين وأصحاب الأفكار المعادية.

وفي الوقت نفسه استطاعت الدول الأجنبية الاتصال برجالا من الشعب، وحرضتهم على الثورة ضد العثمانيين والعمل ضد المسلمين، وخاصة الأقليات الدينية مثل النصارى والدروز، وكذلك أصحاب الزعامات وقطاع الطرق وذوو المصالح والأهواء، وأمدتهم بكل عوامل القوة، وحركتهم للقيام بأعمال التخريب والثارات ووصفتهم بأنهم قاموا على الفساد والتأخر والرجعية، ونعتتهم برجال الوطن ومخلصيه لأنهم اتصلوا بالغرب وعملوا على إنهاء بلادهم وتحريرها، ولا يزال هذا النعت قائماً إلى اليوم على الرغم من تغير الظروف وتبدل الأوضاع وانتشار الوعي، ففخر الدين المعني لا تزال الكتب المدرسية تأخذ مما كتب عنه الغرب، وتعطيه صفات الوطنية والرجولة لابصفته الدرزية واتصاله بايطالية وعمالته لها فقط، ولكن لهذه الصفات دون ذكرها لأنه وقف ضد الدولة العثمانية، واستطاع السيطرة على لبنان مدة من الزمن ليست بالقصيرة، وكذلك بشير الشهابي الذي لا يختلف عن الأول من ناحية العقيدة والارتباط والعمل ضد المسلمين،

وظاهر العمر الذي حكم شمال فلسطين بهاله من قوة وأنصار من قطاع الطرق وعمل ضد العثمانيين، وهؤلاء وأمثالهم يفخر بهم دعاة القومية ويعدونهم من رجالات الحركة الوطنية.

وفي أواخر عهد الدولة العثمانية زاد ضعفها، إذ بدأت الدول الأوروبية تدعم الحركات التي تقوم ضد العثمانيين علناً، وبدأت الفكرة القومية تبرز في كل مكان تحت تأثير النصارى الذين لادعوة لهم سواها وسط المجتمع الإسلامي، وليكون لهم دور في البيئة التي يعيشون فيها حسب المخطط الذي رسم لهم، واستفاد النصارى من دعوتهم هذه فضمنوا إليها الأقليات التي كانت تتحرك بإشارات الدول الأجنبية، ولعل ذلك اتضح منذ حرب الأماكن المقدسة عام ١٢٧٤ هـ (١٨٥٦ م) وماتلاها من أحداث عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦٠ م) التي جرت في بقية أجزاء بلاد الشام، واستغلت هذه الأقليات كل الوسائل لكسب الشباب من أبنائها، وحتى من المسلمين فالتحذت الجنس والمال والمركز وسيلة في سبيل تحقيق أهدافها.

وجاء دور اليهود في التهديم، واتفق هذا مع دور النصارى، فاليهود أرادوا أن يجمعوا أشتاتهم من مختلف أماكن الأرض لتكون لهم دولة ذات شأن، ويتخلصوا من احتقار الأمم لهم لما عرف عنهم من مؤامرات واتخاذ كافة السبل في سبيل ابتزاز أموال الناس، وأنه ليس عليهم في الأمين من سبيل، كما كانوا يذبحون غير اليهود ليكون دمهم مادة يعجن بها طعامهم في أعيادهم، وكانت وجهتهم فلسطين ويحلمون بذلك، وكانت فلسطين تتبع الدولة العثمانية، ولم يرضوا بغيرها سواء ليبيا أم أوغندا اللتين عرضتا عليهما، وبذلوا إمكانياتهم الضخمة في سبيل تحقيق مآربهم، إلا أن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني قد رفض مطالبهم وردّ إغراءاتهم، فوجهوا سهامهم عليه فادعوا أنه كان سفاكاً للدماء حتى أطلقوا عليه إسم السلطان الأحمر، كما ادعوا أن الشركسيات النيبايا كانت تملاً قصوره، وأن رجالات مخبراته قد ملأت كل مكان، وأن أبنائه كانوا يتزعمون برنين الذهب الذي يلقونه في مياه البوسفور، فراجت هذه الشائعات، وعملت الدوائر الأجنبية على نشرها، ولا تزال تردد، مع العلم أن الدولة العثمانية هي التي قبلت اليهود في أراضيها عندما طردوا من الأندلس مع المسلمين، وانتقل قسم

منهم إلى البلقان وأظهر عدد منهم الإسلام، وبقوا حقيقة على دينهم، يعملون ضد الدولة في الخفاء، وأطلق على هؤلاء اليهود اسم الدونمة أي المرتدون، وكان لهم دور في الحركات القومية، ومع العسكريين الذين حكموا تركيا بعد السلطان عبد الحميد الثاني.

وتمكن القوي القومية من الانتصار على السلطان نتيجة الدعايات ضده، والعمل اليهودي بما يملك من إمكانيات ضخمة ووسائل غير شريفة، والدعم الصليبي الأوربي، والحركات التي قامت في أرجاء الدولة، وكان مركز هذه القوى مدينة سالونيك في اليونان، وتحركت قوة من الجيش، واستولت على الحكم، واضطر السلطان للرضوخ لمطالبهم، وأظهر الرضا ريثما يجد الوقت المناسب، واستدار العام، وظهر للعسكريين أن السلطان ينتظر الفرصة المناسبة فاستبدلوه، وأصبح الخلفاء من بعده أداة طيعة بأيدي العسكريين ودعاة القومية ويهود الدونمة، ومن هذه المدة نستطيع أن نقول: إن الدولة أصبحت قومية تركية بعد أن كانت عثمانية إسلامية، إذ أصبح الحكم قومياً وإن بقي على رأس السلطة رجل ينتمي إلى بني عثمان يحمل اسم خليفة، ولم يكن في الواقع سوى صورة تُسير الأمور من ورائه ويضطر للتوقيع عليها.

تركيا الحديثة

اندلعت نار الحرب العالمية الأولى، ووقف الأتراك بجانب الألمان، وكان عليهم أن يجنّبوا بلادهم الحرب بسبب الأوضاع التي كانت تعيشها، إلا أن تأثير الضباط الألمان الذين يعملون في الجيش التركي، وكذا المستشارون في الحكم. حال دون ذلك ومع دخول تركيا الحرب تحركت العناصر المتعددة التي منها الأقليات، وقد كانت حركتها باسم القومية ولاشك فإن مقرها بلاد الشام التي تتجمع فيها الأقليات بشكل مكثف، ومنها الفئات المعتدلة التي تريد التغيير، وكان قيامها باسم الإصلاح، وتعاونت هذه العناصر بعضها مع بعض وشكلت جبهة واحدة، وكان اتصالها بالخلفاء وخاصة انكلترا وفرنسا صاحبي النفوذ في بلاد الشام لما لها من عناصر من الأقليات، سواء أكانت النصرانية منها التي ترغب في فرنسا أم الدرزية التي كانت على صلة بانكلترا، وذلك منذ أحداث ١٢٧٨ هـ (١٨٦٠ م) وما سبقها من اتصالات أثناء حرب الأماكن المقدسة وماتلاها فيما بعد. ولما تكن

بلاد الرافدين بعيدة التأثير والتأثير في بلاد الشام.

أما في جزيرة العرب فقد كثفت انكلترا اتصالاتها، واقنعت الشريف حسين حاكم بلاد الحجاز بالحركة ضد الأتراك، وممنه بما كان يطمع من زيادة في النفوذ، وبخاصة أنه كان في صراعات مع ماحوله في المنطقة من زعماء، فأرسل ابنه فيصلاً ليتدخل في أمر الذين انكشف أمرهم في بلاد الشام وقدموا للمحاكمة، وهو يعلم نتيجة أمرهم، كما يعلم ماستؤدى اليه الوساطة، وذلك ليتخذ من هذا الأمر ذريعة لقيام حركته، وحدث ماكان متوقعاً، وانطلقت الشرارة الأولى لحركته في صيف ١٣٣٥ هـ (١٩١٦ م)، وسكت عنه خصومه في الجزيرة وتوقفت العداءات إذ أن أكثرهم واقع في الأمر نفسه، أو أن الجياد المتسابق عليها قد توقفت كلها بأمر صاحبها ليتولى أمر واحد منها مرحلياً.

أما بقية البلدان الإسلامية فكانت تخضع بأغليبتها للنفوذ الانكليزي أو الفرنسي أو الروسي أو الايطالي أو الهولندي، أي أنها كانت تحت سيطرة الحلفاء، وما كان متحرراً نسبياً من ذلك النفوذ فكان ذا دور ضئيل مثل افغانستان أو إيران التي تغلغل فيها آنذاك النفوذ الروسي من الشمال والانكليزي من الجنوب، ومثل اليمن التي احتل الانكليز سواحلها، وعندما وقف نجاشي الحبشة (اياسو) بجانب الأتراك، وأعلن إسلامه، قامت الكنيسة ضده، وأخيراً عزل، وألقي في السجن، ثم لقي مصرعه.

أعلن الشريف الحسين بن علي الجهاد ضد الأتراك الذين كانوا قد أعلنوا الجهاد ضد الحلفاء باسم الخليفة فضاع معنى الجهاد، وانقسم المسلمون بين (أي الجهاديين)، يتبعون، وهذا ماأراده الحلفاء، وتحركت الفصائل العربية نحو الشمال، وتقدمت في بلاد الشام الداخلية على حين تقدم الانكليز على المناطق الساحلية، ونزل الفرنسيون على سواحل لبنان، وتراجع الأتراك وانسحبوا من بلاد الشام، وتوقف تقدم الحلفاء عند ذلك حسب خطة موضوعة وحسب اتفاقية سايكس - بيكو.

كان الحلفاء يخشون نقطتين أولاً بقاء دولة تركية قوية والإبقاء على الخلافة التي هي عنوان تجمع المسلمين، لذا لابد من تحطيم ذلك بالسيطرة على أقسام من البلاد، لهذا تقدم الفرنسيون في منطقة (أضنة)، والطيلىان في منطقة (انطاكيا)

وكلاهما في الجنوب، واحتل اليونان منطقة (أزمير) في الغرب، وأصبحت مدينة (استانبول) وماحولها والمضايق بيد قوة من الحلفاء، وهذا الاحتلال سيبقى حتى يؤمن الحلفاء حكماً عسكرياً يستطيع أن ينفذ رغباتهم ويسير حسب مخططاتهم، وهذا ماتم على يد مصطفى كمال الذي أعلن العلمانية، وألغى الخلافة، وبذل الأبجدية، اذ استعمل اللاتينية عوضاً عن العربية لينقطع حاضراً الأمة عن ماضيها، وجعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد عوضاً عن يوم الجمعة وأمر بلباس القبعة، وحذف المادة التي تنص على أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام، وأخذ بالقانون السويسري بدلاً عن مجلة الأحكام الشرعية، ومنع الأذان باللغة العربية، ونفي آل عثمان من البلاد. وعندما خرج الحلفاء من المناطق التي كانوا يسيطرون عليها، أظهر مصطفى كمال بالمظهر الوطني والمنفذ للبلاد، وعقدت معاهدة جديدة معه هي معاهدة لوزان عام ١٣٤٢ هـ (١٩٢٤م) بدلاً من المعاهدة السابقة التي هي معاهدة سيفر، التي أجبرت تركيا على توقيعها بعد هزيمتها عام ١٣٣٧ هـ (١٩١٨م) ومعاهدة أنقرة ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠م). أما المنطقة الثانية التي كان الحلفاء يخشونها فهي ضعف تركيا الذي يؤدي بروسيا إلى الضغط عليها وانتهاز الفرصة للسيطرة على المضائق والوصول إلى المياه الحرة، ومنافسة الدول الغربية في هذا المجال، ولكن قيام الثورة الشيوعية في روسيا عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٧م)، وتفكك روسيا نتيجة ذلك، وقيام الثورات في وجهها كثير من المناطق واستقلال كثير من الأجزاء، كل هذا جعل الفرصة سانحة أمام الغرب ليدبر وضعه في تركيا بالشكل الذي يراه ولا يخشى القوة الروسية أبداً، وما استعاد الجيش الأحمر قوته، واستعاد الأجزاء المستقلة إلا وكان الغرب قد حلّ مشكلاته في تركيا، ومكن الوضع لمصطفى كمال، وهو الذي سحب جيشه من فلسطين وسمح للانكليز بالتقدم هناك، وسحب قواته إلى شمال حلب حسب مخطط متفق عليه.

على الرغم من هوية هذه الحركة القومية التركية الجديدة التي قادها مصطفى كمال والتي كانت معروفة باتجاهها الغربي وتأثرها بالحضارة المادية الغربية، وسيرها بالخط العلماني الواضح أو المحارب للإسلام أشد الحرب، ودعم الدول الصليبية الغربية ذلك أشد الدعم، إلا أنها في الوقت نفسه كانت تخشى عودته إلى الدول الإسلامية متأثراً بالحركات التي قامت في كثير من أجزاء العالم الإسلامي والتي

تؤيد عودة الخلافة، وتؤهل له لزعامة العالم الإسلامي لما أصبح له من دعاية كبيرة هيئتها له دول غربي أوروبا، ومع هذا كله كانت تخشاه رغم فجره وفسوقه وانحلاله فأبقت نقاط خلاف بينه وبين الدول الإسلامية المجاورة، فبقيت الموصل نقطة خلاف مع العراق ثم حلت لمصلحته العراق عام ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩ م)، وبقيت اسكندرونة نقطة خلاف مع سورية، ثم حلت لمصلحة تركيا عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) على الرغم من أن سكانها أكثريتهم من العرب، ويعدّ السوريون أصلاً منطقة كيليكيا ومزعش، وماردين، ودياربكر مناطق عربية، ويقولون: إن ذرا جبال طوروس هي الحد الفاصل بين العرب والترك، وهي منطقة الثغور القديمة.

الحياة السياسية

صرح الحلفاء ساعة إعلان الهدنة بينهم وبين تركيا أنهم غير مستعدين للتفاوض مع أنور وطلعت اللذين كانت السلطة بأيديهما، نظراً لأنهما مسؤولون عن دخول الحرب، ولكنهم يقبلون المفاوضة مع عزت باشا إذا ما عين رئيساً للوزارة، وقد ألح مصطفى كمال على تعيين عزت باشا بهذا المنصب، وتم الأمر وفافوض الانكليز نيابة عن الحلفاء، ثم عاد الانكليز وطلبوا من السلطان عزل عزت باشا من رئاسة الوزارة إذ انتهى الغرض منه، ومضى دوره، وأتى دور غيره فتم ذلك، وعين توفيق باشا رئيساً للوزارة وهو ذو صلة وثيقة مع الانكليز. وحلّ بعد ذلك المجلس النيابي بصفته عثمانياً وليس تركياً وأنه المسؤول عن الحرب.

ثم عزل توفيق باشا من رئاسة الوزارة، وحلّ محله (الداماد) فريد باشا، وكان الخليفة كل هذه المدة سجيناً في قصره، والانكليز هم أصحاب النفوذ حيث كان المندوب السامي والقائد العام لقوات الحلفاء الجنرال (هارنغتون) هما كل شيء في تركيا. وانتقل مصطفى كمال إلى الأناضول، وكان يتظاهر بولائه للخليفة، وطلب منه الانتقال إلى قلب الأناضول، ونقل القيادة إلى هناك، وتغيير حكومة فريد باشا. ولقد مكنت بريطانيا اليونان في هذه الأونة من احتلال أزمير ومنطقتها.

ووضعت هالة حول مصطفى كمال، إذ نجح في إثارة مظاهرات تأييدية، وحروب وهمية سواء في (سامسون) ضد الانكليز، أم في أزمير ضد اليونان، وأخيراً

سقطت حكومة فريد باشا، وتسلم رئاسة الوزارة الجديدة علي رضا باشا وزير الحرب السابق.

وجرت انتخابات نيابية، ونجح مصطفى كمال عن أنقرة، وعقد اجتماع المجلس النيابي في استانبول، ولكن تخلف عن اللقاء نواب انقرة الذين حضروا وحدهم هناك، وجرت اضطرابات، وأجبر علي رضا على الاستقالة، وجاء لرئاسة الوزارة صالح باشا.

اعتقل الحلفاء بعض أنصار مصطفى كمال في استانبول لمدة يوم واحد، وفرضوا سيطرتهم على الخليفة والمدينة معاً، وأجبر السلطان على إظهار الطاعة، وفي الوقت نفسه انسحب الحلفاء من مناطق الأناضول تحت اسم معارك وهمية دون أن يحدث أدنى اشتباكات، وهكذا خلا قلب الأناضول من أية قوة أجنبية، وكان هناك مصطفى كمال الذي يبدأ للناس عدواً لدوداً للحلفاء عامة وللانكليز خاصة، في حين بدا السلطان مؤيداً لهم، وقد حل المجلس النيابي، واستقال صالح باشا، وألف الداماد (فريد باشا) وزارة جديدة.

أجرى مصطفى كمال انتخابات جديدة في الأناضول، وأضحت أنقرة مقراً للمجلس، ونقل الموظفين والضباط وأجهزة الدولة إليها، وبدأ بإنشاء جيش جديد ودولة تقوم على أسس جمهورية، فسير الخليفة حملة إلى الأناضول وأخرى إلى كردستان، وكاد يسقط مصطفى كمال إلا أن إذاعة شروط الصلح (معاهدة سيفر) واضطرار السلطان على توقيعها ورئيس الوزراء فريد باشا قد قلب رأي الناس، وأصبحوا ضد الخليفة ورئيس الوزراء، إذ كانت تجبر حكومة استانبول على التوقيع وتتحمل وزر كل شيء، وتلصق بها كل مسؤولية، وتقطف الثمرة حكومة أنقرة بادعائها المعارضة والرفض، فهزم جيش الخليفة، وانتصرت أنقرة.

دعت انكلترا لعقد مؤتمر في لندن للنظر في معاهدة سيفر، ومثل تركيا وفدان أحدهما يمثل الخليفة والثاني مصطفى كمال، وعلى الرغم من أن مصطفى كمال يبدو معارضاً لكل شيء، ولم يكن قد هزم في حرب، ولكن أصرت انكلترا على حضوره، وتكلم وفده باسم الوفدين، ولكن قرارات المؤتمر قد رفضها مصطفى كمال، ويدت الدول تريد إرضاءه فعقد مفاوضات مع فرنسا، واتفق معها على تعيين الحدود بين تركيا وسورية، وانسحبت فرنسا نتيجة ذلك من كيليكيا،

وتنازلت إيطاليا عن (أضاليا)، كما تنازل لروسيا عن باطوم. وجرت حرب مع اليونان انتصر فيها اليونان في البداية ثم انسحبوا فجأة فارتفعت اسهم مصطفى كمال في البلاد، وبدأ أنه المنقذ الوحيد، وكان يتلقى الدعم من روسيا عبر خطوط الانكليز.

أما حكومة استانبول فلم تكن لتستطيع فعل شيء فالمدينة بيد الحلفاء، وهم يظهرون حيادهم، وتابع مصطفى كمال تقدمه في تراقيا عبر خطوط الانكليز، ثم انسحب اليونان فجأة، وهكذا ذاع صيت مصطفى كمال، وغدا رجل البلاد الوحيد، وعقد هدنة مع اليونان في صيف ١٣٤٠ هـ. ولم يبق في البلاد سوى الانكليز.

دعيت حكومة استانبول وحكومة أنقرة لعقد مؤتمر في لوزان (سويسرا) في خريف عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م) من أجل عقد معاهدة صلح، ورأي مصطفى كمال الوقت مناسباً فأعلن فصل السلطة عن الخلافة، ولما لم يوافق المجلس، أذاع الموافقة على ذلك بالإجماع من نفسه، وهدد بقتل من يعلن رفضه. وبعد خمسة أيام جرى انقلاب في استانبول بموافقة قائد قوات الحلفاء هناك، وأبعد السلطان وحيد الدين، ونودي بابن عمه عبد المجيد خليفة للمسلمين، وبعد ثلاثة أيام عقد مؤتمر لوزان، وحضره وفد أنقرة فقط، ووضع (كرزون) رئيس الوفد الانكليزي أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا وهي:

١ - إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاء تاماً.

٢ - طرد الخليفة خارج الحدود.

٣ - مصادرة أمواله.

٤ - إعلان علمانية الدولة^(٤٩).

وعُلق نجاح المؤتمر على تحقيق هذه الشروط، ولكن الوفد التركي برئاسة عصمت اينونو قد رفض ذلك وعاد، وأيده المجلس الوطني في تركيا بهذا الرفض، ولكن مصطفى كمال قرر تنفيذ ذلك، فحلّ المجلس، فاستقالت الوزارة وحدثت أزمة وزارية، وفي اليوم التالي أعلن مصطفى كمال الجمهورية التركية، وشكل

(٤٩) الدولة العثمانية: د. علي حسون - المكتب الإسلامي - دمشق - ١٤٠٠ هـ.

بنفسه الوزارة بناءً على تكليف الجمعية له. وإعلان الجمهورية انتخب مصطفى كمال رئيساً لها.

وفي ربيع ١٣٤٢ هـ دعا المجلس الوطني للاجتماع، وعرض عليه مرسوماً بطرد الخليفة، وإلغاء الخلافة، وفصل الدين عن الدولة، فاستمر النقاش عدة أيام، وفي اليوم الثالث أذيع نبأ إلغاء الخلافة والسطنة وفصل الدين عن الدولة، وفي الوقت نفسه صدر أمر إلى السلطان عبد المجيد بمغادرة البلاد، وتلا ذلك إلغاء الوظائف الدينية. وأصبحت الأوقاف ملكاً للدولة، وكان هذا كله مفاجأة للناس والنواب إذ تم برأى مصطفى كمال وحده، وهكذا حقق ماطلبه الانكليز لنجاح مؤتمر لوزان، ولم يمض سوى شهر ونصف على ذلك حتى دعي الى مؤتمر لوزان، وبعد ثلاثة أشهر وقعت المعاهدة، ونسخت معاهدة سيفر، واعترفت الدول باستقلال تركيا، وغادر الانكليز مدينة استانبول.

تفرد مصطفى كمال بحكم البلاد بعد الغاء الخلافة الإسلامية، إذ لم يعد هناك مايقيده من شرع أو مثل، فألغى القانون الإسلامي، والأحرف العربية، وتبنى التقويم النصراني إلى جانب التقويم الهجري الإسلامي، ثم ألغى الأخير منها وأكتفى بالأول، وترجم القرآن للتركية، وعدة قرآناً وليس ترجمة، ومنع الحجاب، وفرض السفور، واللباس الأجنبي، وقضى على كل ماكان قديماً أو تقليدياً أو له صفة دينية، وجعل لباس العلماء خاصاً بالمساجد أما خارجها فلباسهم اللباس الأجنبي، وتبنى يوم الأحد عيداً وعطلة أسبوعية تشبهاً بالنصارى، وفرض على خطباء المساجد كيل المدح له، وتخصص الخطب للثناء على أعماله ومشروعاته، ثم أدخل جامع (أيا صوفيا) ومسجد (الفتاح)، وجعلهما متحفين، وكانت مبادئ حزب (حزب الشعب الجمهوري) ستة هي: (القومية - الجمهورية - الشعبية - العلمانية - الثورية - سلطة الدولة)، وكان كل من يخالفه يختفي بصورة أو بأخرى، وحرص على أن يتخلص من الجماعات ذات الاتجاه الإسلامي، سواء أكان سليماً أم غير ذلك من الصوفيين، فقادت الحركة النقشبندية المعارضة ضد الكماليين، وقامت بثورة عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) في المنطقة الجنوبية الشرقية من البلاد، ثم انطلقت ثورتها الثانية عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م)، كما ظهرت الحركة التيجانية والنورية، ولكنهما لم تحملا السلاح، وإنما تبنت المعارضة بالدعوة،

وتتتمي الحركة النورية إلى بديع الزمان سعيد النورسي الذي أصدر عدداً من الكتب تحت عنوان (رسائل النور)، واستقطب حوله الكثير من الشباب، وألف (الاتحاد المحمدي)، ونصح المسؤولين والحكام ومنهم مصطفى كمال نفسه، وقد حاول مصطفى كمال استمالة النورسي والتأثير عليه فلم يفلح، فأمر بنفيه، ثم اتهمه بمؤامره لقلب نظام الحكم فأودع السجن ثم نفي ثانية، إلا أن كتبه كانت منتشرة في الأماكن جميعها، وتعد بالنسخ باليد، ولما عظم أمره، استدعي للمحاكمة ولكنها برأت ساحته، وفي عام ١٣٦٧ هـ / (١٩٤٨ م) تراخت الدولة قليلاً في هجومها على الحركات الإسلامية، وسمحت بطباعة رسائل النور فانتشرت بسرعة فألقي القبض عليه وأحيل للمحاكمة عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٩ م)، وحكم عليه بالسجن مدة عشرين شهراً، وفرضت عليه الإقامة الجبرية حتى توفي عام ١٣٧٩ هـ / (١٩٥٩ م).

أما من ناحية السياسة الدولية فقد رسمت حدود تركيا مع اليونان على محاذاة نهر (مارتيزا)، وأعيدت بعض جزر بحر إيجه إلى اليونان، وجرى تبادل في السكان، فغادر تركيا ١٣٠٠٠٠٠٠ نصراي اتجهوا إلى اليونان، وعاد بالمقابل ٤٠٠٠٠٠ مسلم.

أما مع العراق فقد ضمت الموصل إلى العراق عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م)، وكانت من قبل موضع خلاف بين الدولتين، إذ انسحب منها الترك بعد وقف إطلاق النار في الحرب العالمية الأولى بين الأتراك والانكليز الذين دخلوا العراق.

ومع سورية ضم لواء اسكندرونة إلى تركيا عام ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) بعد سلخة من سورية، ودخلته القوات التركية في العام التالي ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م)، وذلك حسب اتفاق مع فرنسا التي كانت دولة متتدبة على سورية.

وبحثت الحكومات المتعاقبة عن حلفاء لها مع الدول الصغرى، فوقعت معاهدة البلقان، ثم عقدت ميثاق سعد أباد مع أفغانستان وإيران والعراق.

ومات مصطفى كمال عام ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م)، وانتخب مكانه مساعده

عصمت اينونو^(٥٠) وكانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب.

بدأت الحرب العالمية الثانية، ووقفت تركيا على الحياد رغم وجود عناصر رغبت في الاشتراك فيها إلى جانب الألمان، وخاصة بعد الانتصارات الألمانية التي وقعت في بداية الحرب، وعندما بدت هزيمة دول المحور وقفت تركيا بجانب الحلفاء لتحصل على بعض المنافع، إلا أن مطالب روسيا الشديدة في ضم أجزاء لها من تركيا الشرقية قد دفع تركيا إلى الاتجاه نحو الغرب، فتلقت مساعدات من الولايات المتحدة عام ١٣٦٧، وجهزت أراضيها بالقواعد الأمريكية، ودعم الجيش التركي.

أعطت الحكومة شيئاً من الحرية في أعقاب الحرب العالمية الثانية فتشكل الحزب الديمقراطي عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) نتيجة انشقاق حدث داخل صفوف الحزب الوحيد الحاكم (حزب الشعب الجمهوري)، وحصل الديمقراطيون على بعض النجاح في الانتخابات على الرغم من تدخل الحكومة لمصلحة مرشحها، ونال على إثرها الديمقراطيون اضطهاداً من قبل الحكومة، فتدخل في الأمر رئيس الجمهورية عصمت اينونو، الأمر الذي أدى إلى استقالة وزارة (رجب بكر)، وشكل (حسن سقا) وزارة جديدة، وكان أميل إلى إعطاء الحرية، وكذا الذي خلفه في الوزارة وهو (شمس الدين غونالتايا) حيث أعطى مزيداً من الحرية، فتشكل حزب آخر عام ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م) وهو الحزب القومي المحافظ، ولكن الحركات الشيوعية والاشتراكية قد أخذت.

نجح الحزب الديمقراطي في الانتخابات عام ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م) بسبب السياسة العلمانية والاقتصادية التي انتهجها حزب الشعب الجمهوري، وبعد

(٥٠) عصمت اينونو: ولد في أزمير عام ١٣٠٢ هـ، وعمل ضابطاً في الجيش، وخدم في اليمن، وقاد الجيش الرابع في سورية أثناء الحرب العالمية الأولى، والضم إلى مصطفى كمال بعد الحرب، وانتخب نائباً عام ١٣٣٩ هـ، ثم عين رئيساً لأركان مصطفى كمال، ثم وزيراً للخارجية عام ١٣٤٠، ثم تسلم رئاسة الوزارة، وكان زعيم المعارضة مدة حكم الحزب الديمقراطي ١٣٧٠-١٣٨٠، وشكل حكومات إئتلافية، بعد ذلك ١٣٨١-١٣٨٥، وخلفه بولاند اجاويد فيزعامة الحزب عام ١٣٩٢، وتوفي عصمت اينونو عام ١٣٩٣ هـ.

الانتخابات نجح في تسلم رئاسة الجمهورية السيد (جلال بايار^(٥١))، وتسلم عدنان مندريس رئاسة الوزارة التي غدت في عهد الحزب الديمقراطي ذات صلاحيات واسعة، تبنى الديمقراطيون السياسة الأمريكية، وحصلوا على الدعم من الولايات المتحدة، ولكن التدهور الاقتصادي أصبح واضحاً، فقويت المعارضة، وقامت الحكومة بإلغاء حزب الشعب الجمهوري، واعتقال أعضائه، ومصادرة أملاكه ومؤسساته، وفي الوقت نفسه حرصت على التقرب من المسلمين الناقمين على السياسة الكيالية سياسة حزب الشعب الجمهوري، وانحازت تركيا في هذه الآونة إلى حلف شمالي الأطلسي عام ١٣٧١ هـ (١٩٥١ م)، وعقدت اتفاقيات صداقة من كل من اليونان ويوغوسلافيا عام ١٣٦٣ هـ (١٩٥٣ م) ثم تحولت هذه الاتفاقيات إلى حلف البلقان عام ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤ م)، كما انضمت إلى حلف بغداد عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م).

تأسس حزب الحرية عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م)، والحزب القومي الجمهوري وهو حزب الشعب الجمهوري الملغى، واندمج الحزبان عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) مع حزب الفلاحين الجمهوري. وأدت حوادث القمع إلى خسارة الديمقراطيين في انتخابات ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م)، فادعت الحكومة أن هناك مؤامرة من تسعة ضباط وذلك عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م). وزجت عدداً من الأبرياء في السجون، واضطر الحزب كما اضطر سابقه إلى التراجع عن عداوته للإسلام، إذ سمح بتلاوة القرآن الكريم في الإذاعة، وافتتاح بعض المدارس الشرعية، وأنشأ كلية الدين الإسلامي في أنقرة.

وفي ربيع عام ١٣٧٩ هـ (١٩٦٠ م) منع عصمت اينونو زعيم المعارضة من

(٥١) جلال بايار: ولد عام ١٣٠٤ هـ في ضاحية من ضواحي مدينة (بورصة)، ودرس المالية والاقتصاد في مدرسة يهودية فرنسية، وعمل في مصرف الشرق الألماني، وخدم جمعية الاتحاد والترقي، وأصبح أمين عام فرع أزمير لتلك الجمعية، وبعد الحرب العالمية الأولى انضم إلى حركة مصطفى كمال، وانتخب عضواً في المجلس النيابي التركي عام ١٣٣٩ هـ عن مدينة أزمير، وتسلم وزارة الأعمال ١٣٤٠ هـ ثم استقال من منصبه عام ١٣٤٣ هـ، ثم تسلم وزارة الاقتصاد، ثم رئاسة الوزارة عام ١٣٥٦، وبعد موت مصطفى كمال انشق عن الحزب الجمهوري، وشكل الحزب الديمقراطي عام ١٣٦٦، وفاز برئاسة الجمهورية عام ١٣٧٠ هـ.

دعايته الانتخابية، ولم يمض عدة أسابيع على ذلك إلا وتدخل الجيش في الأمر، ثم قلب الوضع برئاسة الجنرال (جمال غورسيل^(٥٢))، وأعدم عدنان مندريس رئيس الوزراء مع وزيرين آخرين من وزرائه، وخفف حكم الإعدام عن جلال بايار لكبر سنه إلى السجن مدى الحياة، ولقد كان الجيش الأداة المنفذة لضرب النشاط الإسلامي قبل أن ينمو بسبب الخوف من العودة إلى الإسلام.

لقد وضع خمسة أشخاص مسودة دستور لتركيا، وقدمت إلى الجمعية التأسيسية فصدقت عليها في صيف ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م) باستفتاء، ونص الدستور على تشكيل مجلسين أحدهما للشيوخ والثاني للنواب، وإجراء انتخابات بالتمثيل النسبي، ويتخب رئيس الجمهورية من قبل المجلسين. وجرت الانتخابات عام ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م)، وانسحب الجيش من الحلبة السياسية. ونتيجة الانتخابات حصل حزب العدالة الجديد على ٣٥٪ من الأصوات ونال ١٥٨ مقعداً، وكان بزعامة الجنرال المتقاعد (راغب جومو سبالا)، وقد تأسس إثر الانقلاب العسكري عام ١٣٧٩ هـ. كما نال حزب الشعب الجمهوري ١٧٣ مقعداً وافتتح المجلس النيابي، وانتقلت السلطة إلى المدنيين، وانتخب جمال غورسيل رئيساً للجمهورية، وكان المرشح الوحيد، وكلفت عصمت اينونو زعيم حزب الشعب الجمهوري بتشكيل وزارة ائتلافية.

جرت انتخابات تكميلية عام ١٣٧٣ هـ (١٩٦٣ م) فاز فيها حزب العدالة بعدد إضافي من المقاعد فانفض الائتلاف الحكومي، وشكل عصمت اينونو حكومة أقلية من حزبه، ولكنها استقالت عام ١٣٨٤ هـ (١٩٥٦ م)، وألف بعده سعاد خيرى أولغو بللو المستقل حكومة ائتلافية من كافة الأحزاب، ولكنها لم تحكم سوى مدة قصيرة.

جرت الانتخابات العامة عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) ففاز فيها حزب العدالة، وشكل زعيم الحزب الجديد (سليمان ديميريل) حكومة حزبية، ونظراً لسوء حالة رئيس الجمهورية الصحية لذا فقد انتخب (جودت صوناي) رئيساً للجمهورية

(٥٢) جمال غورسيل: من ضباط مصطفى كمال القدماء، وقاتل معه في غاليلوي، ثم تسلم رئاسة الأركان أيام الحزب الديمقراطي، قام بحركته، وتسلم رئاسة الجمهورية عام ١٣٨١، وتوفي عام ١٣٩١ هـ.

عام ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م). وحاولت تركيا في هذه المدة حل مشكلاتها مع روسيا، ووسعت علاقاتها مع بقية الدول الشيوعية، وفي الوقت نفسه وقفت بجانب الدول العربية وبدأت العلاقات بين الجانبين تسير نحو الأحسن إذ أغلق المكتب السياحي الاسرائيلي في تركيا عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م)، كما ألغيت الاتفاقية التجارية التي كانت قد وقعت بين الطرفين عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م).

جرت الانتخابات العامة عام ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) وفاز حزب العدالة فيها مرة أخرى، وعاد سليمان ديميريل إلى الوزارة من جديد إلا أن الجيش تدخل من جديد، وأقال رئيس الوزارة من منصبه مدعياً مخالفة تعليمات العسكريين، ولعل هذا التدخل كان بسبب تصرفات رئيس الوزارة مع اسرائيل والدول الشيوعية والبلدان العربية وما سبق أن ذكرنا، ومحاولته أيضاً الإفادة من القوة الإسلامية التي تعد ضربة كبيرة إلى الكماليين والأجانب الذين لا يرضون عن هذه الإفادة خشية ازدياد النفوذ الإسلامي، وقد هدد الجيش حزب العدالة بحصر حق التصويت بالمتعلمين فقط، وهذا ما يؤدي إلى فشل الحزب الذي يلقي التأييد من المناطق الشرقية ذات النسبة المتعلمة الضئيلة وذات العاطفة الإسلامية، وقد كان هذا التهديد عام ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م).

تشكلت حكومة مستقلة برئاسة (نهاد ايريم) اشترك فيها عدد من الأحزاب منها العدالة، والجمهوري، والديمقراطي الذي أعيد تشكيله بعد انشقاق عدد من أعضاء حزب العدالة عنه إذ نقموا على زعيمه (سليمان ديميريل) بسبب إبعاد عدد من الوزراء من حكومته السابقة، وكان من هؤلاء المنشقين (فروح بوزبايلي) رئيس المجلس النيابي، ونجل عدنان مندريس، وابنة جلال بايار. ولم يلبث أن سحب حزب العدالة وزراءه فسقطت الحكومة.

انتهت مدة جودت صوناي من رئاسة الجمهورية، وحدثت أزمة في انتخاب رئيس جديد إذ رشح الجيش (فخري كورتورك)^(٥٣)، ورشح حزب العدالة (تاكين

(٥٣) فخري كورتورك: رئيس الأركان التركي، زوج شقيقة عقيلة الرئيس السابق جودت صوناي، قدم استقالته من رئاسة الأركان بعد ترشيح الجيش له لرئاسة الجمهورية، وفي الوقت نفسه قدم وزير الدفاع استقالته من منصبه ومن عضويته في مجلس الشيوخ ليفسح المجال أمام الرئيس التركي لتعيين كورتورك في مجلس الشيوخ لإمكانية ترشيحه للرئاسة لأن الدستور التركي ينص على انتخاب الرئيس من مجلس الشيوخ فقط.

أربيون^(٥٤) وجرى الانتخاب، ونجح فخري كورتورك.

جرت الانتخابات العامة عام ١٣٩٢ هـ ، ودخلها حزب جديد هو حزب السلام الوطني، وهو ذومبول إسلامية، وقد حصل على تسعة وأربعين مقعداً، بزعامة (نجم الدين أربكان)^(٥٥) على حين حصل حزب الشعب الجمهوري على ١٨٩ مقعداً وحصل حزب العدالة على ١٤١ مقعداً، ونال حزب الثقة الجمهوري ١٢ مقعداً. ولم يتمكن حزب وحده من تشكيل حكومة فحدثت أزمة وزارية استمرت مائة يوم، ثم تشكلت وزارة ضمت عناصر إسلامية برئاسة بولاند أجاويد زعيم حزب الشعب الجمهوري، واشترك فيها حزب السلام الوطني وكان زعيمه نجم الدين أربكان نائب رئيس الحكومة، ويبدو أن الاتفاق قد تم بينهما بعد لقاءات أعلن الأول فيها تنازله عن الوقوف في وجه الإسلام.

وأنزلت تركيا قواتها عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) في جزيرة قبرص، واحتلت ثلث الجزيرة، نتيجة العداء المستحكم فيها بين المسلمين الأتراك والنصارى اليونان، وحصلت الحكومة نتيجة ذلك الإنزال على تأييد شعبي كبير، ورغب كل من الحزبين الإفادة من هذا التأييد، والإعلان أن الإنزال كان برأيه، وهذا مادعا إلى فرط عقد الائتلاف إذ ظهر أن نجم الدين أربكان كان هو وراء الإنزال وهذا ما دعا إلى إبعاده عن الحكم إذ أناب رئيس الوزراء مكانه أحد وزراء الدولة عندما ذهب إلى مهمة والأصل أن يتولى الأمر من يتولى منصب نائب الرئيس، وهذا ما جعل نجم الدين أربكان يقدم استقالته الأمر الذي دعا إلى استقالة الحكومة كلها.

(٥٤) تاكين أربورن: قائد سلاح الطيران عام ١٣٨٠ هـ، لم يشترك في الانقلاب الذي وقع يومذاك فجرد من منصبه العسكري، وقدم للمحاكمة فسجن ستة أشهر، كما سجن عقليته مدة سنتين ونصف إذ كانت عضواً في المجلس النيابي آنذاك، وكان رئيس مجلس الشيوخ، وسيتولى رئاسة الجمهورية بحكم القانون إذا لم يتوصل المجلس إلى انتخاب رئيس جديد.

(٥٥) نجم الدين أربكان: مهندس ميكانيكي، حصل على الدكتوراه من جامعات ألمانيا وعمل في جامعة استانبول، انتخب رئيساً للغرف التجارية والصناعية في تركيا عام ١٣٨٨، ففقط العلاقات التجارية مع إسرائيل، فأقالته الحكومة من منصبه لذلك التصرف.

شكل (سعدي إيرماك) الوزارة ولكنه لم يلبث غير مدة قصيرة حتى استقالت حكومته، ورفض بولاند أجاويد تشكيل وزارة بغية إيجاد أزمة حكومية يضطر معها رئيس الجمهورية إل حلّ المجلس النيابي، وإجراء انتخابات جديدة يتوقع أجاويد فوز حزبه فيها بعد ما كسب من تأييد إثر الإنزال التركي في قبرص، إلا أن رئيس الجمهورية قد كلف سليمان ديميريل زعيم الحزب الثاني في المجلس بتشكيل حكومة إئتلافية من حزب العدالة^(٥٦) والسلام الوطني^(٥٧)، والعمل الوطني^(٥٨) الذي يرأسه (ألب اسلان توركيش)، والثقة الجمهوري الذي يرأسه (تورهان فايز أوغلو)، وقامت المعارضة من حزب الشعب الجمهوري^(٥٩) برئاسة (بولاند أجاويد)، والحزب الديمقراطي^(٦٠) بزعامة (فروح بوز بايلي؛، وتمكنت هذه الحكومة من إقامة عدد من المصانع أربكت أصحاب رؤوس الأموال، كما يوجد من الأحزاب الأخرى^(٦١).

حصلت الانتخابات العامة عام ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م)، ولم يفز أحد الأحزاب الرئيسية بأكثرية مطلقة، وُضعفت مقاعد حزب السلام الوطني إذ تضاءلت إلى ٢٤ مقعداً، وألف سليمان ديميريل الحكومة، وبدأت أعمال عنف في البلاد بين

(٥٦) حزب العدالة: شعاره: الحصان الأبيض.

(٥٧) حزب السلام الوطني: وشعاره: سبابة متجهة إلى أعلى وترمز إلى (الله واحد).

(٥٨) حزب العمل الوطني: وشعاره: ثلاثة أهلة.

(٥٩) حزب الشعب الجمهوري: وشعاره: سة أسهم وتعني (الوطنية - الجمهورية - العلمانية - الثورية - التقدمية - الشعبية).

(٦٠) الحزب الديمقراطي: شعاره: كف ممدودة وتعني أن كل الكلام للشعب.

(٦١) من الأحزاب الأخرى الموجودة: حزب الوحدة التركي: وشعاره الأسد محاط بنجوم وبرأسه مصطفى تيمسي. والحزب الاشتراكي العمالي: وقد تأسس حديثاً ويرأسه الدكتور (أويا بيدر).

وهناك أحزاب غير مرخص لها بالعمل مثل:

أ- حزب العمل التركي: وهو ذو ميول شيوعية وترأسه السيدة بهيجة بوران، ويرى إعطاء الأكراد والأرمن حقوقهم القومية حسب رأيهم، والانسحاب من الأحلاف العسكرية.

ب- حزب الشباب الإصلاحي.

ج- الحزب الشيوعي: ويرأسه (ي. ديمير) ومركز الحزب شرقي تركيا.

المتطرفين من القوميين والشيوعيين، وكان عدد القتلى يزداد يوماً بعد يوم، ويبدو أن حزب العمل الوطني كان وراء بعض الحوادث والشيوعيون وراء بعضها الآخر، هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن حزب السلام الوطني قد زاد من نشاطه ولقى نجاحاً، الأمر الذي أخاف العسكريين، وأخافهم عودة الإسلام ونجاحه دون علمهم، كما خشوا أن يقوى ساعد الشيوعيين. وبينما كانت الأحداث تقع يقوم العسكريون بانقلابهم بإمرة الجنرال (كنعان أفرين)، ويبدو أنه لقي تأييداً كبيراً من الولايات المتحدة، وقد وضع قادة الأحزاب في السجن ثم أفرج عنهم باستثناء نجم الدين أربكان الذي اعتقل معه عدد من قادة حزبه، كما اضطهد مؤيديه، وتوقف المد الإسلامي ولعل هذه غاية الانقلاب العسكري ومهمته الأولى.

الحياة الاجتماعية

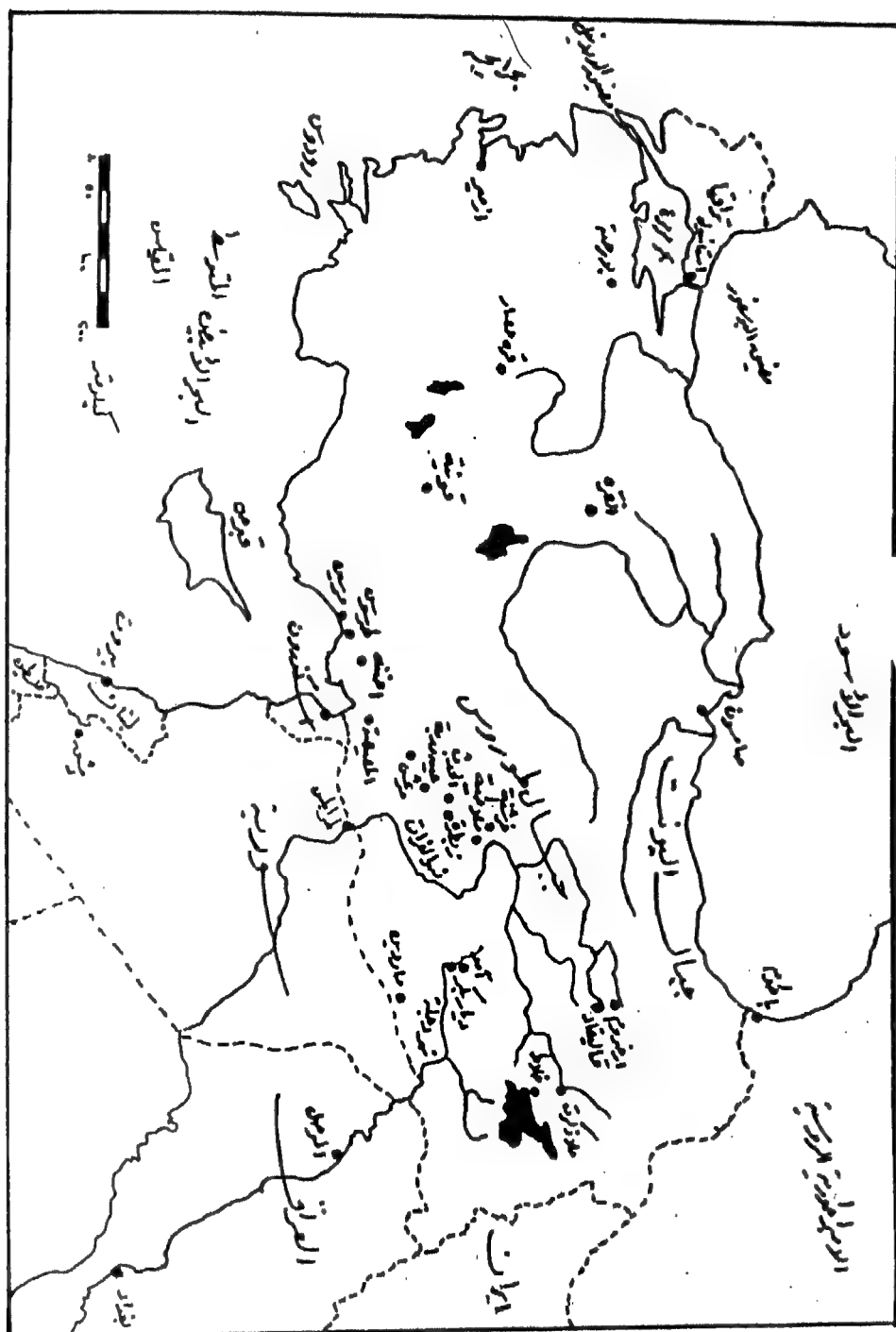
اختلفت الحياة الاجتماعية في تركيا اختلافاً بيناً بين أيام الدولة العثمانية وأيام الدولة التركية الحديثة العلمانية. لقد كانت الحياة إسلامية بخطها العريض، وإن كانت تبتعد عن هذا الخط تدريجياً مع مرور الزمن، كما تختلف من سلطان لآخر فربما جاء متأخراً بأفضل من سلفه، إذ شغل السلاطين الأوائل بالجهاد والفتوحات فبقوا على فطرته السليمة وطبيعتهم الأولى أصحاب عاطفة إسلامية بل زادهم الجهاد قوةً معنويةً فلم تستذلهم الدنيا ونعيمها، ولم يركنوا إلى الأرض وزخرفها، ورغم ضعف الدولة فيما بعد وتوقف الجيوش عن التقدم، ومتابعة القتال، وفقر الهمة، وضعف السلاطين إلا أن العاطفة الإسلامية قد بقيت هي السائدة فلم يكن لينخرط في الجيش غير المسلمين، إذ لم يسمح لغيرهم أبداً ما دام القتال جهاداً، وكان لكل قطعة موجهها وإمامها، ومن أعفى لحيته أعفى من الجندي. ولم تكن هناك مخالفات شرعية فالخمر محرم، والدعارة محرمة وممنوعة، والمجلة الشرعية هي القانون الذي يعمل به، والدعوة قائمة، والأقليات غير المسلمة تحارب فيما إذا رغبت في إظهار عقائدها المنحرفة أو ظهر منها فساد في الأرض، أو اتصال مع الأجانب، وهذا لم يكن ليمنع وجود مخالفات بل إن هذه العاطفة المشوبة بالجهل كثيراً ما كانت حرباً على الإسلام، فقد اعتصمت الأقليات في الجبال الحصينة نتيجة حربها أو اضطهادها وعاشت حياةً بثيسة الأمر الذي جعلها تزدد حقداً وحنقاً على المسلمين وتنتهز الفرصة للإيقاع بهم، وهذا ما كان له الأثر

البالغ فيما بعد، وكان على العثمانيين أن يوزعوا هذه الأقليات في أرجاء العالم الإسلامي الواسع لتذوب فيه وينتهي أمرها إلى الأبد. والحياة البسيطة والفقر حلالاً بعض المسلمين الجهلة ليسلكوا طريق الزهد، وهذا ما ساعد على انتشار الطرق الصوفية حتى إن الدولة قد حمت هذه الطرق، بل إن بعض السلاطين كانوا من أتباعها، وهذا ما كان له أثره السيء في إمارة الجهاد، وإفقار البلاد، والبقاء في حالة من الجهل وإدخال إلى الإسلام مالميس منه. وإن الفقر الذي كان يسود البلاد أدى في الوقت نفسه إلى الاكتفاء بالقليل والقناعة بالموجود فكانت الحياة بسيطة لاتعقيد فيها. وإن ضعف السلطة في نهاية الدولة أدى إلى اختلال نظام الأمن، فساد الخوف، وقلت الزراعة، وزاد الفقر، وسطا اللصوص على الناس، وانتشر قطاع الطرق، وسيطر رجال القبائل، ووجهاء القرى والأحياء، فكان النفوذ للقوة، وبسط الزعماء نفوذهم ووضعوا أيديهم على أراضي جوارهم فانتشرت الملكية الواسعة، واستغل هذا كله الصليبيون ونشروا الدعاية ضد العثمانيين ولا تزال هذه الدعايات قائمة على الرغم مما بذلوه من توحيد البلاد الإسلامية والوقوف في وجه الصليبيين منذ أيام البرتغاليين حتى الحرب العالمية الأولى وقاتلوا أعوانهم من الأقليات، وفتحوا البلاد، وتقدموا في أوروبا، ونشروا الإسلام في قفقاسيا بين الشراكس حتى اعتنقوه بأغليبيتهم، وكذا في أوروبا وإفريقية، ولا تزال القلاع العثمانية ماثلة في تشاد وغيرها وكانت مراكز للدعوة ومنطلقا لها.

أما في عهد تركيا الحديثة فقد زالت معالم الحياة الإسلامية تقريباً إذ أصبحت القبعة هي الشائعة، وسفرت النساء بعد أن أجبرت على رفع الحجاب وترك لباس الحشمة وانتشر الاختلاط، وغدا النداء للصلاة بالتركية، وانتشر الخمر، وكان مصطفى كمال أكبر المدمنين عليه، وعمت الدعارة وكان رئيس الجمهورية أكثر الرجال وقوعاً في حمة الرذيلة وأكثرهم تهتكاً، وفقدت الأسرة الإسلامية كثيراً من مقوماتها، وابتعد عدد من الناس عن الحياة الاجتماعية واعتزلوا في مناطقهم، الأمر الذي زاد البلاد فقراً وخاصة في المناطق الشرقية، وبدأ الفرق كبيراً بين الأغنياء والفقراء بسبب تعقيد الحياة وانتشار الصناعات الحديثة والتي غدت حاجات أساسية عندما تتأمن الأموال اللازمة لثمنها، وبذا أصبح المجتمع طبقات، وانصرف الناس إلى الحياة المادية، وغدت الوسائل كلها مسموح بها في سبيل الحصول على المال، وهكذا تبدلت الحياة الاجتماعية كلياً، وأصبحت أقرب

۵۔ - ایران (فارس)

بـ. وإيران بصفة عامة، عبارة عن هضبة مرتفعة، تتعدد فيها سلاسل الجبال، أهمها سلاسل جبال الزاغروس والبرز، وجبال زاغروس هي التي توازي الحدود العراقية وتمتد إلى ساحل الخليج العربي، وكأنها حائط هائل تتخلله بعض الممرات على مسافات متباعدة، وتميل الهضبة نحو جهة الشرق انحداراً ويبدأ حتى تصبح مجرد صحراء ممتدة إلى أفغانستان وباكستان. كما توجد منطقة سهلية نهريّة خصبة في قمة الخليج العربي، هي خوزستان (عربستان) وهي في الحقيقة امتداد طبيعي للسهل العرّافي سواء من ناحية السطح أم من ناحية التشكيل البشري حيث يعيش العرب - من آل كعب وغيرها من القبائل العربية - منذ أزمنة بعيدة في



هذه المنطقة (خوزستان) التي يجري فيها نهر قارون الذي يصب في شط العرب، وبعد من أهم منافذ فارس إلى البحار.

وتطل إيران على بحرين أحدهما مغلق هو بحر قزوين والثاني مفتوح على المحيط الهندي، وهو بحر العرب، وخليج عمان والخليج العربي الذي كانت حكومة طهران تصر على تسميته خليج فارس لاعتبارات توسعية في المنطقة، بدأت تخف حدتها منذ اعتراف إيران بحق البحرين في الاستقلال خلال عم ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م). هذا مع أن السواحل الشرقية للخليج العربي، وهي سواحل إيرانية، كانت تسكنها ولاتزال عشائر عربية، لها تاريخ طويل يكاد يكون مستقلا عن الحكومة الفارسية المركزية في طهران.

أما بحر قزوين، فهو أكبر البحار المغلقة، وينكمش تدريجيا منذ عدة قرون مضت، وكانت البلاد القوقازية الواقعة بين هذا البحر والبحر الأسود محل صراع بين القوى الأخرى المطلة على المنطقة روسيا وتركيا إضافة إلى إيران.

ويقدر تعداد سكان إيران بما يزيد على الأربعين مليوناً، ثلثاهم على المذهب الشيعي الاثنى عشري، والباقي على مذهب السنة والجماعة. وفي السكان حوالي أربعة ملايين نسمة من القبائل، والباقي مستقرون في المدن والقرى والوديان الزراعية. أما في القرون السابقة فقد كان التشكيل القبلي هو السائد في معظم أنحاء فارس، ولعل ذلك يرجع أساساً إلى النقص الشديد في مساحات الأرض الصالحة للزراعة، ولوجود الصحراوات الواسعة فيها مثل صحراء دشت لوط (الصحراء الخالية) ودشت كوير (الصحراء المالحة).

فقد توالى على إيران في القرون القديمة هجرات عديدة إلا أن أهمها هجرة آرية (أندو-أوروبية) استوطنت إيران وعمرت فيها القرى والمدن ومن بين هذه العشائر الآرية من لعب دوراً كبيراً في التاريخ، بل وأسس إمبراطوريات ذاتة الصيت (مثل الميديين، والفرس، والبارثيين، والعلاميين، وغيرهم).

ولمعت في تاريخ فارس القديم أسماء: كورش مؤسس أكبر إمبراطورية في الشرق في القرن السادس قبل الميلاد، وابنه قمبيز، ثم دارا الذي بعث بجيوشه حتى قبل اليونان، وزرادشت الذي وضع القواعد الفلسفية على أساس أن هناك

صراعاً أزهياً بين الخير والشر، والتي أصبحت عقيدةً يدين بها سكان تلك الجهات قبل ظهور الإسلام.

وتعرضت إيران - مثل بقية أجزاء الشرق الأدنى - لغزو الإسكندر الأكبر، وما تبع ذلك من ظهور دولة يونانية في فارس والعراق وبلاد الشام (الدولة السلوقية) وأخرى في مصر (الدولة البطلمية). وعلى أنقاض الدولة السلوقية ظهرت الدولة البارتية في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. وكان البارتيون يتكلمون لغة فارسية، ويدينون بالزردكية (المجوسية)، ومن بعد هذه الدولة المجوسية جاءت آخر الدول الإيرانية قبل الإسلام، وهي الدولة الساسانية التي تغلب عليها المسلمون، وانتشر الإسلام بسرعة في فارس، وازدهرت فيها الحضارة الإسلامية إلى مراتب عالية من التفوق.

وبضعف الخلفاء العباسيين أصيبت الدولة بعدة انقسامات سياسية وظهرت عدة أسر شبه مستقلة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي: كالأسرة الطاهرية، والصفارية، والسامانية، والبهية، والسلجوقية، وأخيراً دهم فارس غزو خطير شنه المغول. فاستولوا عليها، ثم لم يلبثوا أن استولوا على بغداد نفسها ٦٥٦ هـ لتنتقل الخلافة العباسية بعد ذلك إلى القاهرة^(٦٢).

وإذا كان المغول قد فتحوا فارس بالسيف، فقد أخضعت الحضارة الإسلامية هؤلاء الغزاة لها حتى أسلم الملك المغولي أحمد تكودار بن هولكو الذي قتله ابن أخيه أرغون، وتولى مكانه، واضطهد المسلمين، وتحالف مع الصليبيين والأرمن ضد المسلمين، ثم خلفه كيخاتو، ثم غازان بن أرغون الذي اعتنق الإسلام ولكنه بقي يقاتل المسلمين، وهو الذي دخل دمشق وكان ابن تيمية من الذين وقفوا في وجهه في معركة (شقحب) جنوب دمشق عام ٧٠١ هـ (١٣٠١ م)، ثم قابله وحذّره ووعظه. وقام بعد غازان عام ٧٠٤ هـ أخوه أوجايتو الذي عرف باسم محمد خدابنده، وهو الذي اتخذ المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة وأجبر الناس عليه. وكانت إيران من قبل أهل السنة.

وظهر أيام المغول من العلماء نصير الدين الطوسي الذي أقام له هولكو مرصداً

(٦٢) ستستمر بها حتى عام ٩٢٣ هـ ثم تخفت أصواتها ليدعى من بعد العثمانيون أنهم ورثة الخلافة العباسية الشرعيون.

مشهورا بمراغه، كما كان من بين مشاهير المؤرخين عطا ملك الجويني صاحب تاريخ جلها نكشاي، وهو أهم وأوفى مرجع في تاريخ المغول، وتاريخ سلاطين خوارزم، وتاريخ فرقة الاسماعيليه. ثم رشيد الدين فضل الله صاحب كتاب جامع التواريخ، وشهاب الدين عبدالله بن فضل الله الشيرازي صاحب تاريخ وصاف وغيرهم، وجميع هذه الكتب التاريخية تعد من أهم مصادر التاريخ الإسلامي في تلك الحقبة وقد كتبت بالفارسية. وعلى العموم فقد شهدت إيران نهضة ثقافية كبيرة في عهد الإيلخانيين في مختلف فنون المعرفة حتى سارعت أوروبا في عصر النهضة إلى نقل قدر من هذه المؤلفات إلى اللاتينية لغة العلم والثقافة عندهم إذ ذاك. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى النهضة العمرانية في بلاد فارس، وازدهرت كذلك صناعة النسيج والبسط وفنون الزخارف عندهم حتى تهافت الأوروبيون وغيرهم على اقتنائها.

وبما هو جدير بالملاحظة أن المغول الهمج وغيرهم من بدو آسيا الوسطى ومعهم الترك كذلك، برغم حبهم للقتال والنهب والتخريب، فانهم بعد أن زاد اتصالهم بالمسلمين، واطلعوا على ما عندهم من أسباب الحضارة والمدنية، انقلبوا من بعد ذلك يساهمون في بناء الحضارة والثقافة ويرعون أصحابها رعاية كريمة.، وقوى من ذلك كله بدهاء دخول فريق منهم في دين الله. وهكذا نرى الغالبين - بفضل الإسلام عقيدة ومدنية وحضارة - يدخلون في دين المغوليين، وهي ظاهرة لم يعرف لها التاريخ نظيرا أو مثيلا من قبل.

تعرضت إيران لموجة مغولية جديدة على يد تيمور لنك الذي استولى على فارس في أواخر القرن الثامن الهجري، وأسس دولته بالسيف والنار.

ولم تلبث امبراطورية تيمور لنك أن تفككت بسرعة بعد موته ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ م)، فأفادت قبائل (القرة قوينلو) الخروف الأسود من هذه الفرصة، واستولت على أذربيجان، وانحدروا إلى أصفهان والعراق وظلوا يحكمون فارس والعراق حتى قضت عليهم قوة قبيلة أخرى هي «الآق قوينلو» الخروف الأبيض في ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م، بينما كان القسم الشرقي من إيران تحت حكم شاه رخ بن تيمورلنك، وكانت عاصمته في هراة وأخيرا استطاع إسماعيل الصفوي أن يصفى الموقف كله في فارس لمصلحته مؤسسا الأسرة الصفوية ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م)

التي تعد بدايتها بداية لتاريخ فارس الحديث.

ظهور الأسرة الصفوية :

ففي الوقت الذي أصبحت فيه فارس، خلال حكم أسرة الآق قوينلو، مرتعا للحروب بين المطالبين بالعرش بالولايات، كانت تنمو في الشمال، في منطقة (أردبيل) أسرة تركية تخصصت في الوعظ على أساس الفكر الشيعي، وعرفت باسم الأسرة الصفوية التي يقال أن نسبها يرتفع إلى الإمام الشيعي موسى الكاظم. وتنسب الأسرة الصفوية إلى رجل شيعي وهو صفي الدين المتوفي عام ٧٢٩ هـ (١٣٢٨ م) وكان ابنه - صدر الدين - لا يقل عنه نشاطا من أجل نشر المذهب الشيعي وتعاليمه. ولقد حظى خوجا على (حفيد صفي الدين) بمقابلة تيمور لnk، واستطاع الشيخ أن يحصل منه على عفو عن الأسرى الأتراك الذين كانوا لديه^(٦٣). فلم يلبث هؤلاء الأسرى بعد إطلاق سراحهم أن أعلنوا انتماءهم إلى صدر الدين. ومن نسل هؤلاء الأسرى من لعب أدوارا في تأسيس الدولة الصفوية وتثبيت أركانها.

وتوالي بعد ظهورهما عدد من رجال الدين من الأسرة الصفوية اتصفوا بالقدرة على المشاركة في الأحداث السياسية في المناطق التي يقيمون فيها، وبالقيام أعمال تخلد ذكراهم، ولكن كان نشاط جنيد ه الممهد لتأسيس أسرة صفوية حاكمة.

كان جنيد يسعى إلى تكوين عصبية مذهبية مرتبطة به، فاجتذب عدداً من الأتباع، وأصبح يشكل قوة محلية قادرة على العمل - عندما تسنح لها الفرصة - ضد الحكومة القائمة حينذاك الأمر الذي أقلق أمير القره قوينلو حتى أمر بنفيه خارج البلاد.

وحينذاك كانت هناك منافسة محتدمة بين قوة القره قوينلو - التي كانت تعاني آخر أيامها - والقوة الصاعدة على حسابها (الآق قوينلو). فذهب حيدر بن جنيد إلى أوزون حسن (حسن الطويل) زعيم الآق قوينلو في ديار بكر، فرحب به الرجل على اعتبار أنه معول هدم للقره قوينلو. وأقام لديه حوالي ثلاث سنوات

(٦٣) انتصر تيمور لnk خلال عملياته الاجتياحية على السلطان العثماني بايزيد الأول في موقعة انقرة وحجسه في قفص عام ٨٠٥ هـ.

(٨٦١ هـ - ٨٦٤ هـ) وزوجه من أخته، واتصل جنيد كذلك بالسلطان العثماني، ولكنه لم يلبث أن تـ. في.

وتابع حيدر نشاط أبيه جنيد وتزوج من ابنة حسن الطويل في منفاه، بل شارك في أحداث المنطقة وجمع حوله أعوانا من التركمان، ولم يلبث أن لقي مصرعه في بعض الصدامات التي وقعت في منطقة شيروان عام ٨٩٤ هـ (١٤٨٨ م).

وبدأت سلسلة من الاضطهادات للأسرة خرج منها إسماعيل بن حيدر، وقد صقلته التجارب وجعلته قادرا على الانتقال من مجال الحركات المحلية إلى مجال الحركات العامة. وبذلك اعتلى الشاه إسماعيل عرش البلاد، وكان يدبر أموره على أساس أن القوة السياسية يجب أن تعتمد على قوة عسكرية مغلصة تربطها به وشائج عقيدية متينة تجعلها مستعدة للاستماتة في الدفاع عن قائدها وعن معتقداتها.

وكانت هناك قوى محيطة بفارس عند مطلع حكم الشاه إسماعيل، فمن الغرب كان يوجد العراق الذي لاذ به مراد بن يعقوب آخر أمراء الآق أقوينلو، وإلى الشمال كانت توجد إمارة تابعة أيضا للآق قوينلو يطمع فيها الشاه إسماعيل وهي إمارة البستان وكان عليها علاء الدولة. ومن جهة الشمال والغرب كان الأناضول بلاداً عثمانية سنية مجاهدة في البلقان ضد الدول الأوروبية، وفي مياه الخليج العربي ظهر البرتغاليون، ومن الشمال الشرقي كانت توجد قبائل الأوزبك بزعامة محمد الشيباني الشديد البأس. وكان يسيطر على أجزاء من شمال شرقي فارس. وإلى الشرق توجد القبائل الأفغانية.

تمكن الشاه إسماعيل الصفوي من إخضاع بلاد الفرس كلها لحكمه، ولم يبق أمامه من عدو غير العثمانيين في الغرب والأوزبك في الشرق. وقد أعلن عزمه على إعلاء شأن مذهب الشيعة حتى راح يحمل الناس قسراً على الدخول في هذا المذهب، ولا يتردد في إغناء مدن بأسرها والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحداً حين يرفضون الاستجابة لدعوته مستمسكين بالإسلام.

وأدى بشاه فارس تعصبه الشديد لإرغام الناس على التشيع قسراً - حتى لامة مؤرخو الفرس أنفسهم في ذلك - أن دخل في حروب متواصلة مع العثمانيين -

الحدود الغربية من بلاده، ومع الأوزبك عند الحدود الشمالية الشرقية لإيران. وكان هؤلاء الأوزبك يحكمون في بلاد ماوراء النهر التي تضم فيما تضم التركستان. أما العثمانيون والماليك فقد هالهم ميل الشاه إسماعيل الصفوي إلى ملوك الفرنجة ومراسلاته معهم بهدف اقتسام دولة الماليك فتكون مصر من نصيب الفرنجة والشام من نصيبه هو، في الوقت الذي كان البرتغاليون يهددون دولة الماليك والشرق، ولم تستطع تلك الدولة صد الخطر الأجنبي، فلم يكن أمام المسلمين، إلا الاستنجاد بالأتراك العثمانيين لإنقاذهم من اضطهادات الشاه إسماعيل، ومن سيف البرتغاليين.

لقد أصبحت مهمة العثمانيين عالمية وليست محلية، وكان عليهم أن يقوموا بدورهم في إنقاذ العالم الإسلامي من البرتغاليين وإنقاذ أنفسهم من الضغط الصفوي الشيعي المتواصل في الأناضول قلب الدولة العثمانية، فبدأ السلطان سليم الأول بإبادة الشيعة في الأناضول ثم شن حربا شاملة ضد الشاه في فارس نفسها، وانتصر عليه انتصارا كبيرا في موقعة جالديران في عام ٩٢٠ هـ وأجبره على عقد صلح مع العثمانيين. وأدى هذا الانتصار إلى زعزعة مكانة الحكم الفارسي في العراق. فقد أعلن حاكم بغداد ولاءه للسلطان العثماني سليم الأول، وأصدر السلطان العثماني مرسوما بذلك. ولم يستطع الشاه إسماعيل الصفوي أن يقوم بعمل جدي لإزاء العراق حتى توفي ٩٣١ هـ.

أما حروب الشاه إسماعيل مع الأوزبك (حكام ماوراء النهر) فلم تكن على الأرض فقط وإنما كانت صراعا عقائديا، كل منها يعتقد أنه الذي يسير على الحق. وأخذ محمد شيباني زعيم الأوزبك يدعو الشاه إسماعيل إلى العودة إلى الإسلام مهددا إياه بحرب ضروس في قلب إيران ذاتها. ودارت الحرب بين الطرفين فانتهز الشاه إسماعيل في بادئ الأمر غير أن الأوزبك استطاعوا استعادة نفوذهم ومناطقهم وتعاونوا مع الأتراك ضد الشاه إسماعيل الذي تعاون مع البرتغاليين ضدهم. وظل النزاع بين الفرس والعثمانيين والأوزبك في عهد خلفائه من بعده.

خلف طهماسب أباه إسماعيل، وحفلت مدة حكمه بالحروب المتصلة ضد أعدائه الأوزبك في الشرق والعثمانيين في الغرب. وقد رفض طهماسب الاعتراف

بالسلطان العثماني خليفة على المسلمين متأسيا في ذلك بوالده من قبله. وحدث أن عامل بغداد الفارسي، (من قبل طهماسب) انحاز إلى سليمان فجهز الشاه حملة ضده وأخضعه، فاتخذ سليمان هذه الحملة ذريعة لإعلان الحرب على فارس. فلما كان صيف عام ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م) دخل العراق بجيش قوي، واضطر الشاه إلى التراجع في وجه القوات العثمانية وصار في ميسور سليمان أن يتقدم إلى عاصمة الفرس، تبريز، وأن يستولي على بغداد، من غير ما عناء، وأقر سليمان العثماني الأمن والنظام في هذه الولايات الواقعة على الحدود والتي كان يعتزم الاحتفاظ بها.

ومن أبرز حكام الأسرة الصفوية الذين خلفوا طهماسب الشاه عباس الكبير، الذي عقد صلحاً مع العثمانيين في مطلع حكمه، وتنازل للعثمانيين عن أذربيجان وجورجيا ولورستان، وبعث بآبن عمه حيدر ميرزا رهينة إلى استانبول. وفرغ بعد ذلك لإقرار الأمن في داخل مملكته ووقايتها من عدوان الأوزبك. وعقد معاهدة مع الانكليز وتمكن بموجبه وبمساعدة الأسطول الانكليزي من الاستيلاء على هرمز وبغداد واسترداد تبريز، ومكن للسلطة الفارسية من تعزيز الحدود في الشرق، وأنشأ قاعدة تجارية خلع عليها اسم بندر عباس.

ونقل عاصمته إلى أصفهان، وازدهرت البلاد في حكمه، وجاءت البعثات السياسية إلى مركز حكمه في أصفهان، كما تأسست مراكز تجارية أوروبية على سواحل الخليج العربي. وقد ضل بالعمل في تحويل الحج من مكة إلى مشهد. وقد عنى بالفلسفة والعلوم والفقة، وازدهر في عصره الشعر والموسيقى، كما شهدت بلاد فارس نهضة عظيمة في صناعة السجاد والقيشاني، وضعفت الأثرة الصفوية بعد الشاه عباس لضعف حكامها وأدى ذلك لزوالها.

ومهما يكن من أمر، فإن الحروب التي دارت سجالات بين شاهات الفرس من جانب والأوزبك والعثمانيين من جانب آخر قد أنهكت قوى هذه الدول الإسلامية القوية التي كان يحسب الأوروبيون حسابها. فمهد ذلك لظهور روسيا قوية على مسرح الحوادث، ثم تدخلها هي والدول الأوروبية من بعد ذلك في شؤون أمصار العالم الإسلامي، والاستيلاء على كثير من أراضيه.

وكان من أخطاء الصفويين كذلك استجابتهم للأوروبيين الذين عملوا على دفعهم لحرب العثمانيين الذين كانت في حوزتهم مساحات كبيرة من الأراضي الأوروبية.

نادر شاه الأفشاري :

وحين هان شأن الصفويين رقى العرش عام ١١٤٩ هـ (١٧٣٦ م) قائد من قوادهم يدعى نادر شاه، وكان على مقدرة حربية فائقة. واستطاع فارس الجديد هذا أن ينتصر على العثمانيين في عدة مواقع، كما حمل الروس على الجلاء عن إقليمي جيلان ومازندران، وكانوا قد استولوا عليها أيام الصفويين.

واجتاح نادر شاه من بعد ذلك إقليمي بخارى وخيوة، وغزا أفغانستان وتوغل إلى الهند، وهاجم الدولة المغولية فيها، وخرب عاصمة الدولة (دهلي) واستولى على أموال طائلة بها، كما استحوذ على عرش الطاووس بها وانتزعه من أصحابه سلاطين الدولة المغولية هناك، وكانوا من سلالة تيمورلنك. وكانت الكنوز الهندية التي استولى عليها نادر شاه هناك من الضخامة ما جعله يتغاضى عن جمع الضرائب من سكان بلاده لعدة سنوات. وعمل نادر شاه على الحد من الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة، ودعا في هذا السبيل إلى عقد مؤتمر للتقريب بينهم في بغداد ولكنه لم يوفق في ذلك. إذ كان يرغب في إعادة السنة إلى إيران.

ولم يدم حكمه طويلا إذ قتله بعض أتباعه من القاجاريين في جيشه عام ١١٦٦ هـ (١٧٥٠ م)، فتجزأت الدولة التي أسسها إذ استقلت بلاد الأفغان، بعد أن عادت الفرق الأفغانية التي كانت ضمن قوات فارس إلى بلادها، ونادت بقائدها أميرا على بلاده. وظلت أفغانستان منذ ذلك الوقت قلعة وسط آسيا ترد عنها كل مستعمر، وفيهم البريطانيون والروس، في تصميم وضراوة وعنق. كما أعلنت جورجيا استقلالها أيضا، وأخذت الدولة العثمانية جزءاً من أذربيجان، وسيطرت روسيا على تركستان.

وبعد مقتل نادر شاه جاءت فترة من الاضطرابات والفوضى، وتنازع العرش رجال من القبائل المختلفة ثم استقر الحكم في القبيلة القاجارية.

القاجاريون ١١٩٣ - ١٣٤٤ هـ (١٧٧٨ - ١٩٢٦ م)

كان القاجاريون أعظم القبائل الإيرانية التركية التي ساندت الدولة الصفوية طوال حكمها الذي استمر أكثر من قرنين. وما إن قضوا على نادر شاه غيلة حتى دخل زعيمهم آقا محمد خان العاصمة طهران عام ١١٩٣ هـ، ثم انطلق بقواته

فأخضع القبائل الإيرانية الأخرى لسلطانه، ومنهم الزنديون في الجنوب والأفشاريون في الشمال.

وفي أيام خلفه فتح علي شاه صارت بلاد الفرس مسرحا للصراع بين كل من فرنسا، وروسيا، وبريطانيا. ففرنسا أيام نابليون بونابرت كانت تريد أن تتخذ من إيران جسرا تنفذ منه إلى الهند لتقضي على كل نفوذ البريطانيين هناك، أما بريطانيا فكانت ترى أنها بسيطرتها على شواطئ إيران التي تطل على بحر العرب تصل إلى تأمين طرق مواصلاتها إلى الهند الغنية بثرواتها وخيراتها، فيما إذ تعطل طريق مصر لسبب من الأسباب، في حين كانت روسيا تطمع في شق طريق لها إلى إيران.

وتم للروس بالفعل الاستيلاء على قدر من الأراضي الإيرانية في الشمال. وإزاء ذلك حاول فتح علي شاه أن يخلص البلاد من النفوذ الأجنبي فعقد معاهدة تلت مع نابليون عام ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ م لاستيراد الأسلحة من فرنسا والحصول على التدريب العسكري منها في سبيل استرداد جورجيا. ولكن نابليون خدعة- واتفق مع الروس، ونتيجة لذلك هزم الإيرانيون هزيمة ساحقة أثناء هجومهم على روسيا واضطرت إيران لتوقيع معاهدة عام ١٢٢٨ هـ / ١٨١٤ م تنازلت فيها إيران عن عدة مناطق لروسيا وأقرت لهم بامتيازات سياسية، ومنها حق محاكمة رعايا القيصر أمام محاكم روسيا فقط. وقبل شاه فارس قدوم بعثة بريطانية إلى بلاده لتنظيم جيشه. وظلت بريطانيا تمارس ضغطها على إيران إيمانا منها بأنها الطريق المؤدية إلى استعمار الهند، وبالفعل نجحت هذه الضغوط بتوقيع معاهدة طهران عام ١٢٢٩ هـ / ١٨١٥ م تعهدت انكلترا بموجبها بتقديم الحبوب والمعونات المالية في حالة وقوع اعتداء أو تحرّض بالاعتداء على إيران. ولكن عندما نشبت الحرب الروسية الإيرانية عام ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٥ م لم تفعل بريطانيا شيئا سوى تظاهرها بالسعى بين الطرفين للصالح والسلام. وانتهت الحرب بتوقيع معاهدة تركمان خاي عام ١٢٤٣ هـ / ١٨٢٨ م تنازلت فيها إيران عن منطقة أرمينية ودفعت فيها غرامة حربية وتعويضات، وأعطت روسيا حق الأولوية في المعاملات التجارية معها.

وتم للروس بالفعل الاستيلاء على قدر من الأراضي الإيرانية في الشمال. وإزاء

ذلك حاول فتح على شاه أن يخلص البلاد من النفوذ الأجنبي فعقد معاهدة تلت مع نابليون عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) لاستيراد الأسلحة من فرنسا والحصول على التدريب العسكري منها في سبيل استرداد جورجيا. ولكن نابليون خدعة واتفق مع الروس، ونتيجة لذلك هزم الإيرانيون هزيمة ساحقة أثناء هجومهم على روسيا واضطرت إيران لتوقيع معاهدة عام ١٢٢٨ هـ (١٨١٤ م) تنازلت فيها إيران عن عدة مناطق لروسيا وأقرت لهم بامتيازات سياسية، ومنها حق محاكمة رعايا القيصر أمام محاكم روسيا فقط. وقبل شاه فارس قدوم بعثة بريطانية إلى بلاده لتنظيم جيشه. وظلت بريطانيا تمارس ضغطها على إيران إيماناً منها بأنها الطريق المؤدية إلى استعمار الهند، وبالفعل نجحت هذه الضغوط بتوقيع معاهدة طهران عام ١٢٢٩ هـ (١٨١٥ م) تعهدت أنكلترا بموجبها بتقديم الحبوب والمعونات المالية في حالة وقوع اعتداء أو تخريض بالاعتداء على إيران. ولكن عندما نشبت الحرب الروسية الإيرانية عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) لم تفعل بريطانيا شيئاً سوى تظاهرها بالسعى بين الطرفين للمصلح والسلام. وانتهت الحرب بتوقيع معاهدة (تركمان خاي عام ١٢٤٣ هـ (١٨٢٨ م) تنازلت فيها إيران عن منطقة أرمينية ودفعت فيها غرامة حربية وتعويضات، وأعطت روسيا حق الأولوية في المعاملات التجارية معها.

وفي عهد ناصر الدين شاه (١٢٦٠ - ١٣٠٨ هـ) حصل البريطانيون على مزيد من الامتيازات التجارية ومنها احتكار الدخان. غير أن العلماء عارضوا هذا الاتفاق الأخير، وساندوا الشعب في ثورته عليه حتى عدلت الدولة عنه. هذا كما تخطف الانكليز كذلك بعض الأراضي التي تجاور مستعمراتهم مثل بلوخستان شرقي إيران التي ضموها إلى الهند، في حين سقط الروس على مساحات أخرى جديدة، وكان هؤلاء قد انطلقوا في زحفهم إلى آسيا يتوغلون في تركستان.

وفي عهد هذا الشاه اشتد نشاط حركة البابية. وزعيم هذا المذهب وهو ميرزا علي محمد رضا الشيرازي الذي كان يلقب بالبَاب، إشارة إلى أنه الباب إلى الحياة الروحية الخالصة بزعمه. وهي دعوة لاتعترف بدين من الأديان بل تزعم أنها ترمي إلى توحيد أصحاب العقائد جميعاً تحت رايتها. وقضى على هذه الدعوة وصاحبها عام ١٢٦٧ هـ (١٨٥٠ م) وقتل عدد من أتباعها هناك من بينهم الباب ميرزا علي

محمد رضا الشيرازي وقرّة العين (فاطمة علي القزويني).

وأدعى بعده حسين علي المازندراني أنه الموعود الحقيقي والمسيح المنتظر، وأن الباب لم يكن إلا مبشراً به، فسجن وتدخلت سفارات روسيا وبريطانيا لإخراجه فخرج ونفي إلى بغداد، ثم إلى تركيا ثم إلى عكا، وادّعى أنه بهاء الله وعرفت دعوته بالبهائية، ولها بعض الأتباع في طهران وبعضهم خارج إيران.

وكان ناصر الدين هذا هو أول حاكم فارسي يزور الدول الأوروبية، وقد أغرته مظاهر الحضارة الأوروبية المادية ومال إلى اقتباس بلاده بقدر منها، لكنه تردد في إرسال البعث من طلاب فارس إلى هناك، كما عارض الحركة التحررية التي قام يدعو إليها بيلاده، وببلاد الشرق كله فيما بعد، جمال الدين الأفغاني الذي أرغم على مغادرة فارس، كما حصل نزاع في عهده بين إيران وأفغانستان بشأن منطقة هراة، واضطرت إيران إلى أن تتنازل عن هراة للأفغان بضغط من انكلترا. كما احتلت انكلترا نفسها بعض المناطق على الخليج العربي مثل بوشهر والمحمرة.

الحركة الوطنية في إيران :

ولإزاء تطور الأحداث في إيران، اغتيل ناصر الدين شاه عام ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م). وخلفه الشاه مظفر الدين الذي سار على نهج سلفه في رحلاته إلى أوروبا وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة حتى اضطر إلى عقد قروض خارجية مع روسيا لتغطية نفقاته هذه، مما أشاع الاضطراب في مالية الدولة. وفي عهده اتفقت روسيا وبريطانيا على أن يكون للأولى نفوذها في الشمال، وللثانية استغلالها في الجنوب.

وقويت في عهد مظفر الدين كذلك حركة المطالبين بالحياة الديمقراطية، حتى اضطر على كره منه إلى إعلان الدستور وقيام الحكم النيابي في ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) على أن خلفه محمد علي شاه سرعان ما ألغى هذا الدستور، وحل المجلس النيابي بمساعدة الروس، مما أدى إلى قيام الثورة بالبلاد ومهاجمة الثوار لمقر الشاه نفسه. وقد لجأ محمد علي شاه إلى السفارة الروسية أولاً هرباً من غضبة الشعب، ثم غادر البلاد نهائياً إلى روسيا وحاول استرداد عرشه من بعد ذلك ولكنه فشل.

ولم يكن إقرار الدستور إلا وليد حركة التذمر بين أبناء الشعب ضد الاستبداد

والبذخ والترف، وعدم الرضا على التدخل الأجنبي. ولما كان الدستور مطلباً شعبياً، لذا كان إلغاؤه مرة ثانية، من أسباب ثورة الشعب وإسقاط الشاه، وكره الشعب للتدخل الأجنبي بصفة عامة والروس بخاصة.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى، كانت إيران ميداناً للصدام بين ألمانيا وتركيا من جهة وبين روسيا وإنجلترا من جهة ثانية. وعندما انتهت الحرب كانت البلاد في حالة انهيار عسكري وسياسي. وما إن خرجت بريطانيا منتصرة في الحرب، وكانت روسيا قد قامت فيها الثورة الشيوعية فشغلت بها عما عداها، وتنازلت عن كل امتيازاتها وديونها لدى إيران، بينما ضغطت بريطانيا على إيران فأجبرتها على توقيع معاهدة معها اعترفت بموجبها باستقلال إيران إلا أنها وضعت قيوداً شديدة على إيران فقد خولت المعاهدة لهم السيطرة على الجيش الإيراني، وصارت بها مالية البلاد تخضع لرقابتهم.

فعلت بريطانيا ذلك في الوقت الذي كانت تعمل به على تشديد قبضتها على وادي النيل، والعراق، والهند وتمزيق أراضي الدولة العثمانية مقر الخلافة. فاذا بشعوب هذه البلاد جميعاً تهب في وجهها وتطالب بخروج قوات الاحتلال البريطاني من أراضيها وترفض كل ما كان يعرض عليها من معاهدات ظاهرها الاعتراف بالاستقلال وحقيقتها وواقعها الإقرار بحماية بريطانية مقنعة.

رضا شاه بهلوي :

رضي الشاه أحمد آخر حكام الأسرة القاجارية بالمعاهدة التي فرضتها إنكلترا، وبقيت موافقة المجلس النيابي حتى يتم التصديق عليها، وفي هذه الأثناء رفض الحزب الوطني المعاهدة واتصل بفرقة القازاق الإيرانية وطلب من رضا بهلوي الذي كان ضابطاً فيها حسم الموقف.

تحرك رضا بهلوي عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢٣ م) بفرقة العسكرية واستطاع تحرير بلاده من كل من النفوذ الروسي والبريطاني واعترف الطرفان باستقلال بلاده، ونقل الإنكليز قاعدتهم العسكرية من إيران إلى البحرين. كما تخلّى الروس عن كل الأراضي الإيرانية التي في حوزتهم، كما أشرنا - ورابطوا على الحدود الشمالية. وفي عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) قرر مجلس النيابي إقصاء أحمد شاه آخر حكام،

القاجار عن الحكم وتقرر انتخاب رضا شاه بهلوي وتتويجه على عرش إيران بدلا منه .

سار رضا شاه على نهج مصطفى كمال، وقد أقر في السنوات الأولى من حكمه النظام والأمن وألغى الامتيازات الأجنبية والاتفاق مع شركة النفط الانكليزية، وعقد اتفاقا جديدا معها حصل بموجبه على شروط أفضل من السابق، واستولى على أموال الوقف، وأخضع القبائل، وعمل على توطین البدو، وافتتح المدارس، وأنشئت في عهده جامعة طهران عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م)، وألغى الحجاب، ودعا إلى خروج النساء الى الشوارع سافرات. كل هذه الأعمال فرضها، ودعا إليها بقوة، وانقلب الحكم إلى نظام استبدادي رغم أنه احتفظ بالمجلس النيابي كواجهة، وهو يرسم وينفذ المجلس يوافق ويوقع، كما أنه أصبح يملك مساحات شاسعة من الأرض، وغدا من أكبر أثرياء العالم.

وعمل رضا شاه على توثيق علاقاته مع جيرانه وتخطيط حدوده معهم، ففي عام ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) عقد الشاه في سعد آباد معاهدة مع تركيا، والعراق، وأفغانستان، لمدة خمس سنوات، ضمنت بموجبها كل من الدول الأربع حدود الدول الأخرى، وتعهدت بالامتناع عن كل تدخل في شؤون الدولة المجاورة الداخلية، كما تعهدت هذه الدول جميعا بأن تحل أيما خلاف قد ينشأ فيما بينها بالطرق السلمية، وكذلك عدم عقد مخالفتات عدوانية مع الدول الأخرى. وسميت المعاهدة بميثاق سعد آباد.

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية أعلن رضا شاه أنه يلتزم موقف الحياد الجبهات المشتركة في القتال، وإن حكومته موالية للألمان ويوجد في البلاد من الخبراء الألمان. فطلب الانكليز والروس إقصاء هؤلاء الألمان باعتبارهم خطر كبير للحلفاء، وأيدت الولايات المتحدة الأمريكية هذا الطلب ولكن رفض ذلك، فهاجمته القوات الروسية من الشمال والانكليزية من الجنوب، الولايات المتحدة هذا التدخل، ودافع الإيرانيون عن بلادهم واضطر الشاه من العرش فنفاه الحلفاء إلى جنوبي إفريقيا، وبقي هناك حتى ما. ١٣٠٣ هـ (١٩٤٢ م) وشغله ابنه محمد رضا والذي أعلن قطع علاقات الإيرانية مع دول المحور.

وفي عام ١٣٦١ هـ عقدت روسيا وانكلترا معاهدة مع إيران تعهدتا فيها باحترام وحدة البلاد واستقلالها وحمايتها من كل اعتداء، وفي الوقت نفسه تعهدت إيران بتقديم التسهيلات غير العسكرية للحلفاء، وسجت القوات الروسية والانكليزية من البلاد الإيرانية.

وفي عام ١٣٦٢ هـ (١٩٤١ م) أعلنت إيران الحرب على دول المحور، وتعهدت كل من الولايات المتحدة وروسيا وانكلترا بتقديم المساعدة الاقتصادية، وبالمحافظة على استقلال أراضيها وذلك في تصريح طهران على لسان كل من روزفلت وستالين وتشرشل، والواقع أن إيران لم تكن مستقلة أثناء الحرب العالمية الثانية بل كانت مجزأة إلى منطقتي احتلال انكليزية في الجنوب وروسية في الشمال، ويفصل بينهما خط عرض طهران.

سوءت العلاقات بين إيران وروسيا بعد الحرب لأن الإيرانيين قد رفضوا طلب الروس بالتنقيب عن النفط في شمالي إيران، وهذا ماحدا بالروس إلى دعم حزب تودة الشيوعي ومطالبته بالاستقلال في أذربيجان. كما أنهم منعوا قوات الأمن الإيرانية من دخول أذربيجان الفارسية حيث ترابطت القوات الروسية.

وفي عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٤ م) تحسنت العلاقات بين إيران وروسيا، فأعلن عن توقيع اتفاق نفطي بين الدولتين وانسحبت روسيا من شمالي إيران، ولكنه يظهر أن هذا الاتفاق كان مؤقتا للقضاء على الحركات الانفصالية التي يدعو إليها حزب تودة بدعم من روسيا. وأمام هذه الحركات أقال رئيس الوزراء من وزارته أعضاء حزب تودة، وأرسل قطاعات من الجيش إلى أذربيجان قضت على التمرد.

رفضت الحكومة الاتفاقية النفطية كما رفضها المجلس النيابي عندما عرضت عليه، وهذا ما أثار الروس إذ عدوا هذا الرفض عملا عدائيا.

وفي عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٦ م) جرت مفاوضات بين الحكومة الإيرانية برئاسة رئيس الحكومة الجنرال - رازمارا وشركة الزيت الانكليزية الإيرانية بقصد تعديل شروط الاستثمار، ولكن المعارضة بزعامة محمد مصدق عارضت هذه المفاوضات فاضطر رئيس الحكومة إلى تأجيل المفاوضات. وسرعان ما اغتيل في عام ١٣٧٠ هـ / (١٩٥١ م) من رئيس الحكومة رازمارا، ثم أعقبه اغتيال وزير المعارف مما جعل المجلس النيابي يقرر تأمين صناعة النفط. ويعهد إلى محمد مصدق زعيم

المعارضة برئاسة الوزارة والذي يلقي تأييدا من الوطنيين والمتطرفين والمتدينين. فألغى مصدق الامتيازات النفطية الانكليزية.

سحبت انكلترا موظفيها وخبراءها من إيران وحاصرت الموانئ، ورفعت القضية إلى محكمة العدل الدولية، فكان الحكم لصالح إيران، وحاول تشرشل وترومان التوسط ولكن مصدق لم يستمع إلى أي وسيط، ثم قطع علاقاته مع بريطانيا.

اختلف الشاه محمد رضا مع مصدق، وحل رئيس الحكومة مجلسي النواب والشيوخ وهذا ماسهل له أن يعين رئيس وزراء جديد هو الجنرال زاهدي، فلم يعد بإمكان مصدق سحب الثقة لأن المجلس النيابي غير موجود.

سافر الشاه برحلة إلى أوروبا وترك الصراع بين الطرفين، فاستطاع الجنرال زاهدي أن ينتصر على مصدق بعد معركة جرب بالدبابات، بعد أن رفض أيزنهاور مده بالدعم الاقتصادي لإصلاحي الأوضاع الاقتصادية المتدهورة في البلاد، ونتيجة لذلك فقد قبض على مصدق، وقدم إلى المحاكمة، وعاد الشاه بعد ذلك إلى البلاد.

تسلم الجنرال زاهدي رئاسة الوزراء، وأعاد العلاقات مع بريطانيا، وسوى علاقاته مع الاحتكارات النفطية بحيث يستثمر النفط اتحاد مؤلف من ثنائي شركات عالمية، ووافق المجلس النيابي على هذا المشروع، الذي عرضه الجنرال زاهدي عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣ م). لم يستقر الوضع بانتهاء حكم مصدق، فقد كان حزب تودة يعمل في اليسر، وقبض على خمسين من أعضائه وأودعوا السجن بتهمة محاولة اغتيال الشاه. كما أن الحكومة أرادت التخلص من جماعة «فدائيان إسلام» التي يقودها «نواب صفوي» والتي كانت تدعو إلى الإسلام وعدم وجود التفرقة المذهبية، فاتهم أحد أعضائها بمحاولة اغتيال رئيس الوزراء حسين علاء الذي خلف الجنرال زاهدي فقبض على عدد من أعضائها هوأعدموا، ومن بينهم زعيم الجماعة نواب صفوي. وهكذا نرى أن الحقد ينصب على المسلمين بشكل أقوى بكثير مما ينصب على الفئات الأخرى مهما كان الاختلاف قويا بينهما.

وفي عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) انضمت إيران إلى حلف بغداد الذي يضم تركيا، والعراق، وإيران، وباكستان ليكون هذا الحلف قوة في وجه روسيا

والشيوعية وعندما انسحبت منه العراق ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) عرف بعدها باسم الحلف المركزي أو (الحلف الستو) .

ولهذا كله كانت العلاقات بين إيران والاتحاد السوفيتي سيئة، ولم تخف حدثها إلا بعد زيارة الشاه للاتحاد السوفيتي عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) .

أعلن الشاه عن ثورة بيضاء ضمنت إنهاء عهد الإقطاع وبيع أسهم الحكومة في المصانع والاستفادة من ثمنها في الإصلاح الزراعي، ومشاركة العمال بالأرباح وإصلاح قانون الانتخابات، وتعميم الثقافة، وتأميم الغابات في البلاد جميعها، وأجرى استفتاء عاما جاء لمصلحة المشروع إذ أن أصحاب المال والأموال الكبيرة قد وقفوا في وجهه مما اضطره إلى القيام بهذا الاستفتاء .

ومع ذلك فإن المعارضة لحكم الشاه لازالت تشتد يوما بعد يوم، وكان آخر هذه الاضطرابات ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م) والتي نتج عنها تزعم الخميني للثورة الإسلامية التي أطاحت بحكم الشاه في ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، وخرج الشاه إلى الخارج، وقامت باعتقال وإعدام أعضاء النظام السابق وأعلنت عن قيام جمهورية إسلامية في إيران .

أما علاقتها بالدول الإسلامية عامة والعربية خاصة فقد كانت حسنة في بداية الأمر وتدعو إلى التفاؤل، وقد كان للحكومة الإيرانية الجديدة مواقف خاصة من قضية فلسطين بعكس النظام السابق، وبدأت الحكومة الجديدة تعيد النظر في أطماع إيران السابقة في الخليج ونأمل أن تتوطد علاقاتها مع الجميع على نحو يكفل للعالم الإسلامي التقدم والازدهار .

لم يلبث الخلاف أن وقع بين الفرق المشتركة في الحكم، وقرّر رئيس الجمهورية أبو الحسن بني صدر متخفياً في فرنسا، ووقعت صدامات كثيرة تؤذن بضعف الحكم وخاصة بعد توقع موت الخميني الذي جاوز الثمانين .

وتغيرت العلاقات بعد مدة مع البلدان العربية، وقامت الحرب العراقية - الإيرانية ووقفت بعض الدول العربية بجانب إيران والأكثرية الباقية بجانب العراق، ولم تجد المحاولات لوقف الحرب الدائرة بين الطرفين رغم تدخل مؤتمر اعالم الإسلامي . وظهرت دعايات باستيراد إيران الأسلحة من إسرائيل، والله

يعمل ماثوول إليه الأوضاع في إيران.

٦ — أفغانستان

١ — تقع أفغانستان في وسط آسيا، وتقدر مساحتها بـ ٦٥٠,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها حوالي ١٨ مليوناً، منهم ٩٩٪ مسلمون، وعاصمتها كابول، وتحيط بها باكستان شرقاً وجنوباً وإيران غرباً وتركستان التي يسيطر عليها الروس شمالاً.

ولم تعرف هذه البلاد بهذا الاسم الذي تشتهر به اليوم إلا منذ القرن الثاني عشر الهجري، وإن ذكرت القبائل الأفغانية في التاريخ من قديم، واشتهرت مواطنها التي تتألف منها هذه الدولة اليوم، واشتهرت كابول وغزنة بدورهما في التاريخ الإسلامي، كما اشتهرت هراة بمكانتها المرموقة في ميادين الثقافة الرفيعة فضلاً عما لأراضيها وأراضي بادخشان، وسجستان من خصب عميم، وعرفت قندهار بشرتها التجارية وموقعها ذي الأهمية الخاصة.

وتتمثل في الشعب الأفغاني الشعوب الإسلامية كلها خير تمثيل ففهم من ينتسب إلى العرب، والترك، والفرس، والمغول. كما تتمثل لغاتهم في بلاد الأفغان فهناك لغة البشتو الأفغانية، والفارسية، وتوجد فيها ألفاظ ومصطلحات عربية، وفارسية، وتركية. وهكذا يتمثل المسلمون شعباً وألسنة في هذه المنطقة. وقد ساهمت أفغانستان قبل الإسلام في حضارة العالم القديم، فقد عرفت قدراً كبيراً من حضارتى الهند وإيران بحكم الجوار، وعرفوا حضارة اليونان حين كانت بلادهم جزءاً من دولة الاسكندر المقدوني التي أقامها هناك.

بدأ المسلمون بدخول بلاد الأفغان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم جددوا دخول هذا الجزء في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وعلى الرغم من محاولات أهل البلاد في نقض العهود للمسلمين إلا أن الآخرين استطاعوا تثبيت أقدامهم في ١٠٠٠ هـ. وأصبحت المنطقة إسلامية منذ

القرن الأول الهجري حينما زادت غزوات المسلمين أيام الأمويين حتى بلغت آسيا الوسطى والهند.

وقد أحدث دخول الاسلام إلى أفغانستان انقلابا كبيرا في حياة الشعب الأفغاني إذ أنه دخلها كعقيدة دينية تتمثل فيها جوانب الحياة جميعها، وذلك حين حلت الثقافة الإسلامية محل الثقافة الأفغانية القديمة بعاداتها وتقاليدها ونظمها، وقد تمسك الشعب منذ أن دخل الإسلام إلى أرضه بالعقيدة والنظم الإسلامية، وليجعل من بلاده معقلا حصينا للإسلام والمسلمين.

وقد ظهر في مختلف مراحل التاريخ الإسلامي عدد من المفكرين والعلماء في الفقه والشريعة والآداب والفلسفة واللغة العربية أسهموا بقسط وافر في الحضارة الإسلامية.

وهنا نشير إلى حقيقتين هامتين: الأولى، هي أن العقائد التي كانت تسود هذه المناطق من هندوسية وبوذية وزرداشيته وغيرها، كانت تقوم على نظام الطبقات حتى كاد الأمر يصل ببعضها إلى أن تحرم على أتباعها مجالسة غيرهم أو مطاعمتهم، فضلا عن استبداد كهنة هذه العقائد الشديد بأتباعهم فحين أقبل الإسلام وجد فيه الأهلون المساواة التامة، لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى، أقبل على الدخول فيه دون إكراه. والحقيقة الثانية، هي أنه مامن بلد دخله الإسلام إلا وتحول أهله في الغالب من لغاتهم وعقائدهم فأسلموا وتعلموا اللغة العربية لغة كتاب الله، وحديث رسول الله ﷺ.

وعلى العموم، فإن الحكم الاسلام الجامع لم يطل إذ بزغ عصر الدويلات الإسلامية المستقلة في القسم الشرقي من الدولة (العصر العباسي). وتستند هذه الدويلات إلى العصبية، فأسس طاهر بن حنين الدولة الطاهرية في مرو ونيسابور مستفيدا من العصبية الفارسية واستمر حكم هذه الدولة حتى عام ٢٥٩ هـ ثم تلتها الدولة الصفارية، التي بسطت سلطانها على كابول، وهراة، وطبرستان، واستمرت حتى عام ٢٩٦ هـ، وخلف السامانيون الصفاريين وضموا إلى ملكهم أراضي كثيرة في بلاد ماوراء النهر. وكان من بين عمال الدولة السامانية العلوم الإسلامية والمعارف، واستمر حكمها حتى عام ٣٨٤ هـ وعلى يد سبكتكين هذا قامت أول دولة إسلامية على أرض أفغانية هي الدولة الغزنوية والتي استمرت

حتى عام ٤٢٧ هـ . وقد اضطلعت هذه الدولة بدور في التاريخ الإسلامي .

فقد استطاعت هذه الدولة أن تمد نفوذ المسلمين على رقعة واسعة من الأرض شملت أفغانستان وفارس وقسمًا كبيرًا من الهند . وظهرت آيات لنضة المسلمين وتقدمهم الفكري والحضاري، ومنها التأليف والترجمة، حتى غدت حاضرتها غزنة مركزًا من مراكز الثقافة الإسلامية . وقد أخرج الكاتب الكبير الفردوسي في هذه الأسيرة ملمحمته المعروفة بالشاهنامة تخليدا لأعمال السلطان الأمير محمود الغزنوي . وكذلك العالم الكبير البيروني الذي وضع من التصانيف الكثيرة أيام السلطان مسعود الغزنوي .

وتعرضت الدولة الغزنوية لهزات عنيفة في عهد خلفاء محمود بسبب حروبهم مع السلاجقة والغز، حتى ورثهم الغوريون الأفغان في القرن السادس الهجري . وانتشر الاسلام في الهند على نطاق واسع، ثم جاء السلاجقة فالخوارزميون، وفي أوائل القرن العاشر الهجري حين انتقلت مقاليد الأمور إلى أيدي الدولة المغولية التي أقامها هناك الأمير التيموري ظهير الدين محمد بابر .

تعرضت بلاد الأفغان بدورها لمحنة الغزو المغولي التي نزلت بالعالم الإسلامي على أيدي جنكيز خان وأولاده، وأصلب الخراب أغلب مدنة، وظلت بلاد الأفغان تخضع لأحفاد جنكيز خان الذين كانوا يحكمون في فارس باسم الایلخانيين وتنتعش من جديد . ومن الحقائق المقررة أن جموع الترك والمغول المخربة، بعد أن دخلوا في الاسلام، انقلبوا بفضل الحضارة الإسلامية إلى بناء للمدنية، حتى ازدهرت على أيديهم الثقافة والمدنية الإسلامية ازدهارا ملحوظا .

واستطاع تيمورلنك أن يقيم له دولة امتدت من قلب روسيا حتى ضفاف نهر الغانج في الهند، ويشهدها القسم الشرقي من الدولة الإسلامية من قبل .

وفي عهد الأمراء التيموريين عمّرت هرة الأممية بالمنشآت الفخمة من مساجد ومدارس ودور الشفاء وغيرها . وصارت هذه المدينة من أهم مراكز الثقافة الإسلامية، فقصدها مشاهير الفقهاء، والحكماء، والشعراء، والكاتب، والمؤرخون وغيرهم، أولئك الذين أفادت الانسانية جمعاء مما خلفوه من تراث فوائد جليلة . وكانت هذه المدينة هي كذلك أعظم مراكز التجارة والسياسة بآسيا الوسطى في

هاتيك الأوقات حتى قال الأمير التيمورى ظهير الدين بابر عنها في سيرته القيمة المعروفة ببابرنامه، بأنها كانت أعظم مدن العالم المسكون إذ ذاك.

وفيا كان حسين بيقرا آخر الأمراء التيموريين بخراسان يحكم في هراة التي بلغ نشاطها الحضارى والثقافى ذروته في عهده، كان ابن عمه ظهير الدين بابر يحكم في كابول وغزنة. وظل بابر في بلاد الأفغان ماينوف على العشرين عاما، حتى تم له في ختام الربع الأول من القرن العاشر الهجرى الاستيلاء على شمال شبه القارة الهندية ثم شملها كلها، حيث أقام دولته المعروفة بالدولة المغولية، والتي ظلت تحكم الهند أكثر من ثلاثة قرون حتى دخلها المستعمرون البريطانيون. وفي عهد الدولة التيمورية هذه شهدت الهند أعظم أدوار الحضارة بها.

ولم ينس بابر، حين تم له الجلوس على عرش الهند، أن يبعث بقطعة النقود الفضية تذكارا منه إلى كل قاطن بكابول، ولا يفتأ، وهو بالهند يتغنى بمحاسن كابول، فلا يقيم جملة من الرياض على نمط مغانيها باسم السباتين الكابولية فحسب، بل نراه كذلك يوصى بأن يدفن بهذه المدينة، فكان له ماأراد.

ظلت بلاد الأفغان تعد في أغليبتها جزءاً من الدولة التيمورية أي المغولية بالهند يرى فيها أصحابها موطن أبيهم الأكبر وحصنهم الذي يلوذون به حين تتهددهم الأخطار. حتى إذا ما أخذ الضعف يتسرب إلى الدولة المغولية بالهند، انطلق حكام الفرس يهاجمون بعض الأراضي الأفغانية، ويستولون عليها في حين أخذت بعض القبائل الأفغانية بدورها تتطلع إلى الاستقلال ببلادها وتطمح اليه.

واستولى على مقاليد الحكم بفارس، في النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجرى نادر شاه الأفشارى مكان الصوفين ليحتاج من بعد ذلك بلاد الأفغان وينحدر إلى الهند فيدخل دلهى وينزل بها من الدمار والخراب أكثر مما أنزل بها تيمور لنك من قبل، ويستولى على مافيها من ثروات وأموال طمع من ورائها إلى إعداد جيش قوزى يكف به خطر العثمانيين عن بلاده.

وكان نادر شاه قد عمد بعد دخوله بلاد الأفغان إلى ضم فريق منهم إلى جنده، وكان من بينهم فتى في الرابعة عشرة من عمره يدعى أحمد، قُتل أبوه وجده في حروبه معهم، وكان من زعماء الأبداليين الأقوياء، وسرعان ما وصل

هذا الفتى بطموحه وجدّه، إلى قيادة فرقة الأبداليين الأفغان بالجيش الفارسي، وكانت تضم بضعة آلاف من المحاربين الأشداء.

وحين قتل نادر شاه بتدبير من القاجاريين في جيشه إذ أراد أن يعيد مذهب أهل السنة إلى فارس، ويقضي على مذهب الشيعة الذي زرعة آخر حكام المغول محمد خدابنده (٧٠٤-٧١٣)، سارعت الفرقة الأفغانية تشق طريقها عائدة إلى بلادها. هنالك نودي بقائدها أحمد خان في قندهار أميراً على بلاده باسم أحمد شاه الأبدالي الدوراني في عام ١١٥٣ هـ (١٧٤٠ م)، وكان إذ ذاك في الثالثة والعشرين من عمره، فكانت دولته هذه هي أول دولة في التاريخ تعرف باسم الدولة الأفغانية. وجعل أحمد شاه قندهار عاصمةً لمملكته وسماها أحمد شاهي، وهو الاسم الذي ضربه هو وخلفاؤه على نقودهم، واتخذ لنفسه لقب «لرّان» وأصبحت قبيلته الأبدالية تعرف باسم دراني. واستطاع بفضل كياسته وحنكته وغلوهمته أن يوطد سلطانه، فقد عامل القبائل برفق، واعتمد في موارده على الحروب الخارجية أكثر من اعتياده على الضرائب. وكان الدرانية يفخرون به ويتبعونه عن رضا، ولكنهم لم يكونوا بالقوم الذين يسهل قيادهم، ولذلك فإن ابنه تيمور شاه نقل عاصمته إلى كابول التي كان معظم سكانها من الطاجيك. ولم ينافس أحمد شاه في فتوحاته الهندية نادر شاه فحسب بل برّز فيها أيضاً، ومد أملاكه إلى ما وراء نهر السند بكثير، وضم إليها ولايات كشمير، ولاهور، وملتان، أي أنه ضم الجزء الأكبر من البنجاب، وخاض غمار حروب كثيرة متكررة عند دلهي وما وراءها هدف ومن ورائها إلى دفع خطر الجماعات التي كانت تكيد للدولة الإسلامية هناك من المهاراتا والسيخ وغيرهم. كانت هزيمته لجموع المهاراتا في معركة (باني بت) نقطة تحول في تاريخ الهند، إذ أن جموع الهنادكة كانوا قد زحفوا من وسط الهند وجنوبها بغية القضاء على الدولة الإسلامية هناك. وكانت حروبه مع السيخ متصلة لاتنقطع ولولا أن تعرض له أحمد شاه من متاعب، بسبب تفشى المرض في جنده وضعف موارده المالية حتى اضطر إلى الرجوع إلى بلاده، لاستطاع في أغلب الظن أن يعيد للحكومة الإسلامية هناك سابق هيبتها، ويعوق بلاشك استعمار الانكليز لشمال الهند بعد أن كانوا قد تغلغوا في الشرق والجنوب، وتوفي أحمد عام ١١٨٧ هـ (١٧٧٧ م) تاركا لخلفه تيمور شاه دولةً مترامية الأطراف غير مأمونة.

وكان تيمور شاه قد تولى في حياة أبيه مناصب كبيرة هامة مثل «حاكم لاهور وملتان» وهو منصب تدل عليه شواهد من مجموعة متميزة من الصلات. ولما توفي أحمد شاه كان تيمور شاه في هراة، ولم يستطع أن يستولى على قندهار إلا بعد أن قبض على أخيه سليمان الذي كان قد أقيم لمنافسته وقتله. ولم يلبث أن نقل عاصمته إلى كابول، وحكم عشرين عاما خالية من الأحداث اضمحلت فيها قوة المملكة. وتزعزع استقرارها، وإن كانت أطرافها لم تنتقص. وكان سلطان الحكومة المركزية على الولايات القائمة في الأطراف واهياً. وازدادت قوة السيخ واستولوا على ملتان سنة ١١٩٦ هـ (١٧٨١ م) ولكن تيمور استردها في السنة نفسها. وفي السند شن الأمراء التالبريون الحرب على جيوش تيمور شاه من سنة ١١٩٧ هـ (١٧٨٢ م) إلى سنة ١٢٠١ هـ (١٧٨٦ م) وظلوا مستقلين على الرغم من خضوعهم له بالاسم، وهاجم تيمور أيضاً أمير بخاري معصوم المنغيتي الذي كان يعتدى على ولاية التركستان وخاصة مرو، فخضع لتيمور بالاسم هو الآخر. وكانت قد شبت أيضاً فتنة في كشمير ثم أهدت. وفي الداخل كان سلطان عشيرة بار كزائي من الدرانية يتعاضم شيئا فشيئا، وتوفي تيمور شاه سنة ١٢٠٧ هـ (١٧٩٢ م) وخلفه ابنه زمان شاه الذي ظل في الملك حتى خلفه أخوه محمود شاه عام ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م).

وعلى الرغم من قصر عهد زمان شاه فانه استطاع أن يجمع فيه من الجرائم والحقاقت ما هو كفيل باغراق المملكة الدرانية، وكانت المنافسة بينه وبين أخويه محمود وشجاع الملك تضعف مركزه في الداخل، وكان القاجار حكام الفرس يهددون ملكه في خراسان، ويتهدهدده الشاه مراد المنغيتي في الشمال، ويتحداه في الجنوب خان كلات وأمراء السند، ومع ذلك يحجم عن استنفاد جهده في محاولات حمقاء لمنافسة جدة أحمد شاه في فتوحاته بالهند والظهور بمظهر المدافع عن الإسلام ضد السيخ والمهاراتاء، وأدى فعله هذا إلى الاصطدام بالانكليز الذين كان سلطانهم ينمو بسرعة حتى أصبحوا القوة الغالبة في شمالي الهند. ولجأ الانكليز إلى الحيلة والخديعة فأوعزوا للفرس بالهجوم على بلاد الأفغان، فاضطروه أن يوقت حملاته ضد السيخ، وضد المتمردين والثائرين عليه وخاصة أخاه محمودا، وأدى ذلك كله إلى سقوط حكم زمان شاه عام ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) واعتقله أخوه محمود وسمل عينيه. وهكذا فقدت الدولة في عهد زمان شاه الولايات الخارجية

في الهند.

وبينما كان محمود يرقى عرش كابول كان شجاع الملك ينادى بنفسه ملكا في بشاور. وفي عام ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) استولى شجاع الملك على كابول وسجن محمودا، وأطلق سراح أخيه الشقيق زمان شاه الضرير. وظلت قندهار مدة من الزمن في يد ابن محمود: قمران يؤيده فتح خان، ولكن فتح خان اصطلاح مع شجاع على شروط مراعيها مصلحته هو وخضع له، غير أنه لم يرض بنصيبه، ولم يلبث أن أقام ملكا منافسا لشجاع في شخص قيصر شاه بن زمان شاه. وانقضت السنوات القليلة التالية في مؤامرات لاتنقطع، تقلب فيها فتح خان بسرعة في نصرته للطامعين في الملك، فتارة يؤيد محمودا وقمران وتارة يؤيد قيصر، على حين استنفذ شجاع الملك قوته في إيفاد الحملة تلو الحملة على السند وكشمير. وأخيرا هزم فتح خان - الذي كان يؤيد آنثد محمودا - شجاع الملك عام ١٢٢٤ هـ (١٨٠٩ م)، وفقد محمود كابول ولم يستردها خاصة وأن محمودا قد قتل أخاه فتح خان، والذي أخذ بشأه شقيقه دوست محمد، ونظرا لاختلاف أفراد الأسرة وتعارض أطماعهم، تعرضت أفغانستان إلى صراع دموي حتى ثبت دوست محمد حكمه. واتخذ لنفسه لقب «أمير كابول» ولكن لم يلقب بالشاه أو الملك لاهو ولا أحد من خلفائه حتى جاء حبيب الله. وكانت بداية حكم فرع أسرة المحمد زائي من عشيرة الباركزائي.

وفي السنوات الأولى من حكمه فقدت الدولة سريعا الولايات في الأطراف فاستولى الشيخ على الإمارات الهندية وبقي دوست محمد حاكما لمملكة أفغانية، وساعده على دعم سلطانه فقدان الولايات الخارجية التي كانت دائما مصدر ضعف للملوك. وكان دوست محمد لاتأخذه في الحق لومة لائم، ومع شدته وقسوته فقد كان محبوبا بين الأفغان لعدله، وقد عاقت نجاحه المنافسات المحمومة بينه وبين إخوته. وجعل دوست كابول عاصمة لمملكته، في حين احتفظ كوهندل خان بقندهار، وأهبط محاولة بلدها شجاع الملك الدوراني لاستعادتها سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م). واستولى الفرس على هراة بعد قتل قمران بيد وزيره يار محمد خان سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) ولم يستردها دوست محمد إلا سنة ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ م) وقيل وفاته.

التنافس الأجنبي :

عزم الانكليز على غزو بلاد الأفغان التي تعد أقوى قلاع المسلمين بآسيا الوسطى إذ ذاك. وكان قد تم لهم تثبيت أقدامهم بالهند وتنظيم نهب خيراتها وثرواتها. فاغتنموا فرصة الخلاف والصراع الدائر بين الأخوة والأشقاء الحكام في بلاد الأفغان من جانب، وبين أفراد الأسرة الحاكمة السابقة من جانب آخر، وعلى رأسها شجاع الملك. وما إن طلب شجاع الملك النجدة من الانكليز لمساعدته على الاستيلاء على الحكم في أفغانستان حتى لبثت بريطانيا المطلب تحقيقاً لمطامعها الاستعمارية بعد أن رأت أن النفوذ الروسي أخذ في الازدياد هناك من جهة الشمال، وكذلك هجمات الفرس والاضطرابات الداخلية مستمرة.

بعثت بريطانيا بجيش بريطاني هندي دخل أفغانستان واحتلها، وهرب دوست محمد إلى بخارى، وأقيم شجاع الملك على عرش كابول في عام ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م) وقام دوست محمد ببعض العمليات الحربية الفاشلة في الشمال، ثم سلم نفسه للبريطانيين في السنة التالية وحمل إلى كلكتا.

وكان عهد شجاع الملك عهد اضطراب وقلق. وانسحب الجيش البريطاني الهندي من كابول سنة ١٢٥٧ هـ (١٨٤١ م)، وكاد يباد عن آخره في انسحابه على يد الأمير أكبر خان ابن دوست محمد، ومنيت بريطانيا بخسارة كبيرة، ووجدت مقاومة عنيفة في حربها مع الأفغان، كما قتل حليفها شجاع الملك. وعاد دوست محمد إلى حكم البلاد لأنه كان الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يقيم فيها حكومة وطيدة الأركان، فكما نجح في طرد الانكليز، رفع عن بلاده خطر الفرس كذلك، وأعيد أبنائه وإخوانه إلى إمارتهم. ولكن الشقاق والخلافات ظلت تمزق صفوفهم حتى أن ابنه الأمير أكبر خان كان على علاقات سيئة مع أبيه.

اضطر الانكليز إلى الاعتراف بسلطته (دوست محمد) ف عقدوا معه معاهدة صداقة، وحافظ دوست محمد على علاقاته الطيبة مع البريطانيين إلا في أوقات شابها التوتر، كما صالح دوست محمد روسيا كذلك بعد أن تساقطت ولايات آسيا الوسطى الإسلامية بأيديهم الواحدة بعد الأخرى فضلاً عن ازدياد نفوذهم ببلاد فارس.

ولم يعترف البريطانيون بموقف الحياد الذي التزمه أمير الأفغان إزاء المنافسة الشديدة التي قامت بين روسيا وبريطانيا في هذه المنطقة، حتى زعموا أن المندوب الروسي (فينكوفيتش) لم يكن ليمارس نشاطه بالعاصمة الأفغانية لولا تأييد دوست محمد له، كما أن دوست محمد لم يؤيد البريطانيين أثناء عصيان الجيش الهندي والثورة العامة في الهند سنة ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧ م) ومع ذلك فقد تذرعوا بهذه الحجج الواهية، فزحفوا على بلاد الأفغان ولكن الأفغان وقفوا وقفة رجل واحد وصمدوا أمامهم وأوقعوا في صفوفهم خسائر كبيرة، وفشلت كل محاولات الانكليز في السيطرة على بلاد الأفغان. ولم تجد بريطانيا مفرًا من الاعتراف بالحكم الأفغاني.

وفي عام ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ م) توفي الأمير دوست محمد وتولى الحكم من بعده ابنه شير علي، وحاول البريطانيون التدخل في شؤون هذه البلاد بحجة حماية حدود الهند من هجمات قبائل الأفغان عليها. ثم يهاجمون روسيا في آسيا الوسطى خاصة بعد أن امتد نفوذها وتوسعت سيطرتها فاحتلت الولايات الإسلامية في تركستان، واستولت على جزء من خراسان ١٢٩٠ هـ (١٨٧٤ م). ومهدت لذلك بعقد اتفاقية بين انكلترا وروسيا لجعل نهر جيحون حداً للتوسع الروسي، وهذا ما جعل النفوذ الانكليزي يتوسع، ويزداد التدخل في الشؤون الأفغانية مما حدا بالسيد شير علي إلى طلب المساعدة الروسية وترحيبه في الوقت نفسه بقبول البعثة السياسية الروسية ورفضه الوفد البريطاني، الأمر الذي أدى إلى الحرب الأفغانية الثانية ١٢٩٥ هـ (١٨٧٧ م) التي دحرت شير علي، وجعلت البلاد تحت الاحتلال البريطاني على الرغم من الخسارة الكبيرة التي منيت بها بريطانيا. ولم يلبث شير علي أن توفي بعد عام من الاحتلال.

ولم يقبل الشعب الأفغاني أن يولى عليه يعقوب خان بن شير علي، الموالى للانكليز، فقاوم المجتئين في كل مكان، وأنزل بقوات الاحتلال خسائر كبيرة، واضطرت القوات الانكليزية إلى الانسحاب من البلاد، وتسلم الحكم الأمير عبدالرحمن حفيد دوست محمد، وبموجب معاهدة ١٢٩٦ هـ (١٨٧٨ م) تركت البلاد حرة داخليا ولكنها قيدت باتباع المشورة البريطانية في العلاقات الخارجية.

وفي عام ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) اقتحم الروس بلاد الأفغان، واتجهوا نحو هراة

وأسرع الانكليز لحماية هراة فعقدت بريطانية معاهدة مع روسيا ١٣٠٥ هـ (١٨٨٩ م)، في سان بطرسبورغ وأوقف الروس كل تقدم في الجنوب ومرة أخرى قامت عمليات عسكرية روسية قرب الحدود وأصبحت بادخشان في الشمال الشرقي مثار النزاع، ولكن بقيت جزءاً من الأفغان بعد عقد المعاهدة بين انكلترا وروسيا سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م)، ورسم الحد الشمالي للبلاد بدقة، وانتهى الأمر بين كل من روسيا وانكلترا بعقد اتفاق في بطرسبورغ عام ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م) يعترف الطرفان بموجبه باستقلال أفغانستان واحترام سيادتها وسلامتها.

الاستقلال والعهد الجديد :

كان الأمير عبد الرحمن قد وطد حكمه وأشاع الأمن في البلاد وأصلح نظم الحكومة، ونظم الجيش ووفر له الأسلحة والمعدات، ولم يلبث أن قضى نجه عام ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) وخلفه ابنه الأكبر حبيب الله خان فصار سيرته، وأثر أن يهادن الجوار فأقام علاقات ودية للغاية مع حكومة بريطانيا في الهند. وقد ازداد النفوذ البريطاني في أفغانستان وقوى الى درجة أن سياسة هذه البلاد الخارجية كانت تسير في إطار السياسة الإنكليزية ورفض أن يستجيب لنداء العثمانيين والألمان مع ما بذل من جهد لحمل الأفغان على حرب البريطانيين بدعوى الجهاد. ولم تقدر له بريطانيا صنعة هذا فأصرت على الاحتفاظ ببعض مناطق الحدود الأفغانية بدعوى تأمين الهند. ولم تُعجب أبناء الأفغان تصرفات أميرهم فاغتالوه في عام ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م).

وتولى من بعده ابنه الثالث أمان الله خان الذي اتخذ لنفسه لقب ملك ونظم الحكومة والجيش ونشر التعليم، واهتم بتعمير بلاده ووضع دستوراً لها، كما عزم على القضاء على النفوذ البريطاني من بلاده، فبعث برسالة إلى نائب ملك بريطانيا في الهند يعلمه فيها بتوليته الحكم وانتهاجه سياسة استقلالية في بلاده. غير أن الحكومة البريطانية تجاهلت هذه الرسالة في بادئ الأمر فساءت العلاقات بين البلدين لإصرار بريطانيا على مواصلة سيطرتها على السياسة الخارجية للبلاد، فاشتعلت الحرب الأفغانية الثالثة ضد الانكليز في صيف عام ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م)، وتمكنت القوات الأفغانية بقيادة محمد نادر شاه من هزيمة القوات

البريطانية هزائم متلاحقة، واستردت المناطق التي احتلها الإنكليز، واعترفت بريطانيا له بالاستقلال التام، وضمنت له مرور ما يحتاج إليه من سلاح وعناد عن طريق الهند، ووافقت على إنشاء منطقة حرام عازلة بين حدوده وحدود الهند. وكان اعتراف بريطانيا باستقلال أفغانستان هو أول اعتراف رسمي باستقلالها التام.

وتبادلت أفغانستان السفراء مع الدول الأخرى التي اعترفت بها، ووثقت علاقاتها بصفة خاصة مع روسيا، وتركيا، وإيران.

أصاب الغرور الملك أمان الله الذي أعجب بشخصية مصطفى كمال، وحاول تقليدها، فأنحرف في أسلوب حكمه واختلت موازينه اختلالا كاملا، فأخذ يقصي العناصر الوطنية الى الخارج ومنهم القائد محمد نادر شاه، كما لجأ إلى اتباع سياسة العنف وابتزاز الأموال بدعوى الإصلاح مما أدى إلى إفلاس الخزنة، وفي الوقت نفسه عاش حياة الاستهتار والفضوى فشهدت أفغانستان عهدا من الظلم وفساد الأخلاق وزيادة الضرائب لم تشهد له مثيلا، وهزأ الملك بالعلماء والفقهاء وسخر منهم علنا وأمام الناس. وبالإضافة الى ماسبق قام الملك برحلة البذخ والإسراف عام ١٣٤٧ هـ (١٩٢٨ م) والتي زار فيها عددا من بلدان العالم، كلفت ميزانية الدولة أموالا باهظة.

وبمجرد عودته إلى البلاد، اندلعت في البلاد ثورة عامة ضده شملت معظم أنحاء أفغانستان، وفر الملك أمان الله الى قندهار، وتنازل عن العرش لأخيه عناية الله عام ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩ م) غير أنه لم يصمد وترك الحكم. فاستغل الأمر أحد قطاع الطرق وهو باحي السقا (ابن السقا) واستولى على العاصمة كابول أثر فرار الملك منها واستطاع القضاء على عناية الله فأعلن ابن السقا نفسه ملكا على أفغانستان باسم «حبيب الله غازي» وتسلمت عصابته على البلاد وعاث أفرادها في الأرض فسادا. وبذلك شهدت أفغانستان مهزلة بل مأساة لا تتكرر في تاريخ الشعوب كثيرا

عاد القائد محمد نادر شاه ابن عم الملك المخلوع إلى البلاد، واستطاع القضاء على حكم ابن السقا الذي لم يستمر سوى تسعة أشهر فقط وأعدم ابن السقا، وتسلم الحكم، ونودي به ملكا على أفغانستان، ونهض بالبلاد وقدم خدمات

واسعة وسار سيرة حميدة وقضى على الرشوة والفساد. وفي عهده تأسس الحزب الديمقراطي عام ١٣٥١ هـ (١٩٢٢ م)، وكان لمعظم أعضائه من الشيوعيين كخطوة أولى نحو مد النفوذ الروسي إلى البلاد. ومع أن حكمه كان مستقرا إلا أنه اغتيل عام ١٣٥٢ هـ ويعد محمد نادر شاه بطل استقلال الأفغان فهو الذي قاد جيوش الأفغان في حربها مع البريطانيين عامي ١٣٣٨ - ١٣٣٩ هـ وألحق بها هزائم فادحة اضطرت على أثرها بريطانيا للاعتراف باستقلال أفغانستان التام - كما مر معنا.

وخلفه في الحكم ابنه محمد ظاهر شاه فسار سيرته في تدعيم الحياة الدستورية والنهوض بالجيش، ونشر التعليم، وتقوية اقتصاديات البلاد وتعميرها، واستثمار ما بأرضها من ثروات، فضلا عن توثيق علاقاتها بجيرانها بعامة وبالبلاد الإسلامية بخاصة، وتمثل ذلك في عقد ميثاق سعد آباد ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) بين العراق، وإيران، وأفغانستان، وتركيا.

وفي مجال السياسة الخارجية اتبعت سياسة الحياد وعدم الانحياز، فلم تتعرض بلاده لأخطار التنافس الاستعماري إبان الحرب العالمية الثانية وخاصة بين روسيا وانكلترا. ولم تلق الدعاية الروسية في بادئ الأمر مجالا خصبا في أفغانستان بسبب ماجرى للمسلمين في المقاطعات التي احتلها الروس. غير أن التعاون بين روسيا وأفغانستان قد ظهر حديثا في الربع الأخير من القرن الرابع عشر الهجري، فأمدت روسيا والصين أفغانستان بالمساعدات، فكانت مساعدات روسيا تشكل ٦٥٪ من المساعدات بينما شكلت المعونة الأمريكية ٢٣٪ فقط من تلك المساعدات، واستمرت المساعدات الروسية تتدفق على أفغانستان، إذ سلح الروس القوات الأفغانية، وقدموا المساعدات الفنية والمادية لمشروعات الري. وبدأت بلاد الأفغان تتألق في نظر الروس، وبدأ النفوذ الروسي يتوسع فعلا في أفغانستان ونتيجة لذلك، نشط الشيوعيون في أفغانستان واصطدم المسلمون مع الشيوعيين في عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) ونجح المسلمون في القضاء عليهم وعلى كل أعداء الإسلام. وكان الحكم بصفة عامة يؤيد الشيوعيين خاصة وأن رئيس الوزراء محمد داود كان من مؤيدي التعاون الواسع مع روسيا. ومع ذلك فقد أراد الشيوعيون قلب نظام الحكم لأن قوة الجماعة الإسلامية كانت حائلا أمام

وصولهم إلى السلطة. فقام السردار محمد دودا ابن عم الملك بالقيام بانقلاب في جمادي الأولى ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) أعلن على أثره إلغاء النظام الملكي وسمح للشيوعيين بمزاولة نشاطهم في حرية تامة، فهو من المتعاطفين مع روسيا ومن المناوئين للجماعة الإسلامية.

استمر محمد دودا في حكمه حتى يوم ٢٠ جمادي الأولى ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م) ولم ترض روسيا عنه رغم خطه المسابر لها؛ لأنه لم يكن شيوعياً يقبل الانضواء تحت السيطرة الروسية لذا هبأت ضده انقلاباً عسكرياً بقيادة المقدم عبد الفتاح، واستولى الشيوعيون على ناصية الحكم في البلاد، وحدثت مجازر بشرية رهيبة من جراء الانقلاب، أودت بحياة عشرة آلاف كان من بينهم الرئيس السابق محمد داود الذي أجبر على مشاهدة عملية القتل لأقاربه وأولاده البالغ عددهم تسعة وعشرين. وتكون مجلس الوزراء بكامله من وزراء شيوعيين برئاسة نور الدين تراقي رئيس الحزب الشيوعي، ولقى الحزب الشيوعي الحاكم دعماً فوراً من الاتحاد السوفيتي.

وقد بدأت هذه الجماعات الإسلامية في مقاومة النظام الحاكم منذ قيامه، وهذا ما جعل التفاهم بين موسكو وواشنطن يتم لضرب هذه الجماعات التي بدأت قوتها تتزايد، فقام الانقلاب الأول والثاني على يد موسكو التي تورطت في الأمر، ثم قام الانقلاب الثالث بزعامة بابر كاركمل، ولا يختلف عن الأولين، ولما وجد نفسه ضعيفاً طلب الدعم الروسي، فدخل الجيش السوفيتي أرض أفغانستان ولقي مقاومة عنيفة أقضت مضاجع موسكو حتى أن الجنود المسلمين في ذلك الجيش كثيراً ما كانوا يتركون سلاحهم لمجاهدين أو ينضمون إليهم الأمر الذي جعل الروس يستبدلونهم بجند كلهم من الروس والأوكران، ومع هذا فلم يتمكنوا من السيطرة الكاملة على أفغانستان، بل إن المجاهدين يسيطرون على أجزاء واسعة بقوتهم المحلية، وقد قوي أمرهم بعد التفاهم بين الجماعات الإسلامية الست التي كانت تقاتل منفردة. واستعمل الروس الأسلحة الفتاكة كلها، ولكن لم يجدهم ذلك نفعاً إذ استمرت المقاومة على ضراوتها... وزاد عدد المشردين من الأفغان على المليون لاجئ، معظمهم يقيم في مخيمات في باكستان.

٧ - باكستان

تقع باكستان في شبه القارة الهندية، وتشكل قسماً صغيراً بالنسبة إلى مساحة ذلك الجزء الواسع، ومع ذلك يعد تاريخها تاريخ الهند كله. وتضم شبه القارة الهندية حوالي ٢٢٥ مليون مسلم منهم ٧٥ مليوناً في الهند و ٧٥ مليوناً في باكستان و ٧٥ مليوناً في بنغلاديش، كما تبلغ مساحة باكستان ٨٠٠,٠٠٠ كم^٢.

وصل الإسلام إلى هذه البلاد قبل الفتوح الإسلامية عن طريق الرحالة والتجار العرب الذين كانوا يفدون على سواحل الهند الغربية منذ أقدم العصور، ثم وصل الإسلام إليها - عن طريق الفتح وعن طريق الدعاة المسلمين، وأخيراً عن طريق الممرات الجبلية التي سلكها المسلمون في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وتتابع زحف المسلمين إلى حوض نهر السند شيئاً فشيئاً، وبدأت فتوحاتهم تتسع تدريجياً حتى ضم إقليم السند تقريباً إلى أملاكهم في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور في عام ١٤٣ هـ، ثم كانت الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند في عهد الغزنويين في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وقد وصفت سنوات حكمهم السلطان محمود الغزنوي أنها من أزهى عصور الإسلام في الهند، إذ يعود إليه الفضل في نشر الإسلام والقضاء على الشرك. واستمرت هذه الدولة حتى عام ٥٥٥ هـ وخلفتها الدولة الغورية فسارت على خطتها ونهجها. وتتابع على الهند عدة حكام يمثلون دولا مختلفة تعاقبت على حكام البلاد كالأُسرة الخلاجية والأُسرة التغلجية، واستمرت فيها حتى جاء الحكم المغولي (الدولة المغولية) في عام ١٨٠١ هـ (١٣٩٨ م) بقيادة تيمورلنك. وقد حكم من حكامهم أناس أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات. وفي المقابل تولى منهم حكام عدلوا وأنصفوا وأصلحوا ما فسد أولئك وكان عهدهم أزهى عصور الحكم الإسلامي في الهند وقد بلغ الحكم الإسلامي أوجه في عهد أورنكزيب ١٠٦٨ هـ (١٦٧٩ م) وركز حكام المغول على سياسة التسامح الديني، وتجنب التعصب والطائفية ونشر اللغة الأورودية»، وقامت في البلاد حضارة كبيرة شملت مختلف الجوانب. ومع ذلك فقد ظلت الهند تعاني من صراع بين الحضارتين الهندية والإسلامية، فكان هذا

الصراع إلى جانب تفكك الدولة المغولية بعد أورنكزيب من العوامل الجوهرية التي مهدت لتفوق قوى خارجية أجنبية جديدة على الهند بعضها استقر على السواحل مدة مثل (البرتغاليون) (والفرنسيون)، وبعضهم انطلق من السواحل إلى الداخل حتى جعل الهند كلها من ممتلكاته ألا وهم الانكليز.

الاستعمار الانكليزي :

في أوائل القرن العاشر الهجري بدأ ماعرف باسم الكشوف الجغرافية على أيدي الإسبان والبرتغاليين الذين كانت أوروبا من ورائهم لإخراج المسلمين من الأندلس ثم ملاحظتهم ومن هذه الملاحظة عرفت أوروبا مناطق جديدة على أيدي الإسبان والبرتغاليين، فقد وصل المكتشف البرتغالي فاسكو دي غاما إلى الهند عام ٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م) في ثلاث سفن و ١٦٠ رجلا، وكان الهدف المعلن عن رحلته هو الحصول على البهارات والعطور من الهند، ولكن الهدف الحقيقي هو تطويق العالم الإسلامي وضربه اقتصاديا وسياسيا، وكذلك نشر النصرانية في البلاد التي يدخلونها والاتصال بالنصارى لإثارتهم ضد المسلمين. ويؤكد ذلك ما فعله فاسكو دي غاما في الرحلة الثانية عندما ضرب كلكتا بالقنابل نظرا لعدم ترحيب حكام الهند به واستقباله استقبالا حسنا. وقد استولى البرتغاليون عام ٩٣٧ هـ على مدينة (غوا) وجعلوها مركزا لامبراطوريتهم في الشرق. وارتكبوا في سبيل ذلك الكثير من الأعمال الوحشية ضد السكان بصفة عامة والمسلمين بصفة خاصة فاستنجد المسلمون بسلاطين المسلمين وخاصة (قنصوة الغوري) سلطان مصر المملوكي الذي لبي الدعوة وبعث بأسطول كبير نازل الأسطول البرتغالي في موقعة (ديو) الشهيرة عام ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) على شواطئ الهند الغربية قرب كوجرات، ولم يحرز المهالك نصرا على البرتغاليين. ثم استنجد المسلمون بالعثمانيين.

انفرد البرتغاليون بخطوط الملاحة العالمية المؤدية إلى الهند حوالي قرن، وبدأت امبراطوريتهم البحرية تنهار تحت ضربات القوى البحرية الأوروبية الناشئة وعلى وجه الخصوص هولندا، وفرنسا، وبريطانيا، إذ عملت هذه القوى على كسر احتكار البرتغاليين لخطوط الملاحة البحرية إلى الهند، ونجحوا في ذلك عن طريق

الشركات التجارية الانكليزية ١٠٠٩ هـ (١٦٠٠ م) والهولندية ١٠١١ هـ (١٦٠٢ م) والفرنسية ١٠١٤ هـ (١٦٠٥ م) التي كانت لها أساطيلها الحربية والتجارية القادرة على التصدي للقوى البرتغالية، ون أشهر هذه الشركات شركة الهند الشرقية البريطانية التي ظهرت في مطلع القرن الحادي عشر. وقد نجحت بريطانيا دون غيرها في استعمار الهند، وورد الاستعمار الانكليزي في شكلين هما: شركة الهند الشرقية البريطانية والاستعمار البريطاني، وهذا التنافس الاقتصادي هو الذي غطي على الروح الصليبية التي كانت السمة الرئيسية لدول أوروبا كافة، وهذا التنافس إنما حدث بسبب الاحتكار البرتغالي والأسباني، وعدم نوال دول أوروبا منه شيئاً على حين كانت الدعامة الرئيسية لأسبانيا والبرتغال في حروبهما ضد المسلمين وفي انطلاقتها للملاحقتهم.

وقد بدأت صلات انكلترا بالهند منذ عام ٩٨٧ هـ (١٥٧٨ م) حيث قدم إلى الهند القسيس توماس ستيفنز وتبعه ثلاثة آخرون بهدف الحصول على تجارة البهارات، وتلا ذلك تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية عام ١٠٠٩ هـ (١٦٠٠ م) التي أسستها الدولة بمرسوم رسمي. وواضح أن تأسيس الشركة المذكورة لم يكن لهدف تجارى فقط بل دليل أن الدولة ساعدت على إنشائها بهدف كسر شوكة إسبانيا والبرتغال.

كانت هذه الشركة تنشئ وكالات لها في أول الأمر على السواحل الهندية وكان يحصل عليها الانكليز في مقابل أموال يدفعونها إلى السلطات الحاكمة المحلية التي لم تعرها وزناً كبيراً. ومن أهم المراكز الانكليزية بومباي، وسورات، ومدراس، وكلكتا.

كانت شركة الهند البريطانية في أول الأمر تنقل الإنتاج من الهند إلى أوروبا. أما بعد الانقلاب الصناعي فأصبحت - إلى جانب ذلك - تنقل إنتاجها الصناعي المتكدس إلى الهند وهذا هو الذي يفسر لنا انتقال مهمة الوكالات البريطانية من مجرد التبادل التجاري إلى الاستعمار المباشر. ولذا كان على شركة الهند البريطانية أن تبني التبادل التجاري إلى الاستعمار المباشر. ولذا كان على شركة الهند البريطانية أن تبني كميات متزايدة من إنتاج بريطانيا، ومن ثم كانت في حاجة إلى أسواق في داخل الهند، وجاء هذا في وقت كانت فيه دولة المغول قد تفككت

وحلت محلها إمارات متعددة إسلامية وراثية ضعيفة متناحرة وإمبراطورية المهراتا الهندوسية، ومركزها بونا في الأقاليم الشرقية. هذا التفكك وهذا التصارع جعل الأمراء في حاجة إلى أموال الهنود الذين ارتبطوا بالشركة الانكليزية وكونوا رأسالية هندية تؤثر على توجيه الأمور السياسية.

كان الانكليز قد بدأوا يتدخلون عن طريق الرأسماليين الهنود الذين يكرهون المسلمين ويعملون على تقويض نفوذ الحكومة المركزية المغولية في البنغال، فتضايق الأمير سراج الدولة نائب الامبراطور الذي أراد أن يسيطر على مراكز الانكليز على الساحل وخاصة حصن فورت ولیم. وهاجم سراج الدولة القوات الانكليزية الهندية المشتركة واستولى على الحصن في شوال عام ١١٦٩ هـ (١٧٨٣ م).

كان هذا التفوق مخيفاً لبريطانيا، فأعادت النظر في سياستها، وأسندت القيادة البريطانية إلى رجل كفء وهو كلايف ((Clive)) وتولى مهمة القضاء على سراج الدولة، الذي اعتمد على ضباط فرنسيين لتدريب جيشه. لجأ الانكليز إلى سياسة الخديعة والخيانة لسراج الدولة الذي لم يستطيعوا قهره، واستطاع كلايف وأعدائه أن يشتروا مير جعفر نائب سراج الدولة واتفقوا معه على أن يخون سراج الدولة خلال الحرب. وعندما دارت المعركة في (بلاسي) في شوال أيضاً من عام ١١٧٠ هـ (١٧٨٤ م)، وبينما كانت المعركة تتذبذب بين هذا الطرف وذاك، ضرب مير ضربته في الوقت المناسب، وانقضت القوات الانكليزية على جيش سراج الدولة فأبادته، ولم يلبث أن وقع سراج الدولة نفسه في يد الانكليزية على جيش سراج الدولة نفسه في يد الانكليز فاعدموه، بينما تولى مير (جعفر) حكم البنغال واستطاع الانكليز السيطرة على بعض المناطق في شمالي وجنوبي الهند، وأدركت القوى الإسلامية الحاكمة أن الخطر الانكليزي أصبح أعظم من أن تترك له أبواب الهند مفتوحة، ولكن هذا الإدراك جاء بعد فوات الأوان بزمان طويل. فأرسل الامبراطور المغولي جيشاً ضد الانكليز وحلفائهم. فدارت معركة بوكسار Buxar في ١١٧٨ هـ (١٧٩٢ م) وفيها كانت الهزيمة الحاسمة للإمبراطورية المغولية، وفقدت إلى الأبد البنغال، إذ أرغم الانكليز الامبراطور المغولي على أن يمنح الشركة حق التصرف الإداري في الإيرادات في مناطق البنغال العريضة الثراء. ذلك كان مصير البنغال على يد شركة الهند الشرقية البريطانية، ولقد أعان

ذلك الانكليز على أن يكرروا خططهم نفسها مع بقية القوى المتعددة المتناحرة في داخل الهند، فأرغموا نظام حيدر آباد على أن يسرح القوات التي كانت قد دربها الفرنسيون من قبل، ثم هاجموا أكبر قوة حينذاك هي المهراتا، وهزموها شر هزيمة في موقعة (آساي) بالدكن ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) ثم قرب (بونا) في ١٢٣١ هـ (١٨١٦ م). ولم يبق أمامهم من قوة كبيرة قادرة على التصدي للانكليز سوى إمارة ميسور التي تولاهها حيدر على ثم خلفه عليها ابنه فتح علي الملقب بـ (تيبو) أشد أعداء الانكليز.

هاجم الانجليز وحلفاؤهم (المهراتا ونظام حيدر آباد) إمارة ميسور في عام ١١٧٩ هـ / ١٨٦٥ م وصمد حيدر علي أمامهم مؤقتا، واستعان بالفرنسيين في بناء جيشه في بادئ الأمر ثم تخلت عنه فرنسا وتركته يواجه مصيره مع انجلترا، ولذلك تفوقوا عليه واضطروه إلى التراجع إلى الداخل، ولم يلبث أن مات في عام ١١٩٧ هـ (١٧٨٢ م) ليخلفه ابنه فتح علي المشهور باسم «تيبو»، ليتابع من بعده القتال ضد الانكليز وحلفائهم فهزموه وأرغموه على عقد اتفاقية (سرنكاباتام) التي فقد فيها الكثير من أملاكه ودفع غرامة باهظة ١٢٠٧ هـ (١٧٩٢ م).

ولكن تيبو أعاد تنظيم قواته، وتطلع إلى فرنسا، فأرسل الفرنسيون إليه رسالة فوجعت في يد الانكليز، وأدركوا أنهم في موقف يتطلب القضاء عليه، خاصة بعد أن علموا بتزول الجيش الفرنسي إلى أرض مصر ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) فشدد الانكليز حملاتهم عليه وحاصروه في عاصمته (سرنكاباتام) وفعلوا معه مثل ما فعلوا مع سراج الدولة، فقد أغروا أحد قواده (مير صادق) بالخيانة، فخان في أدق موقف. وفتح للانكليز باب القلعة فاستولوا عليها وظل (تيبو) يقاتل المهاجمين حتى سقط والسيف في يده. فتخلص الانكليز بذلك من أخطر قوة وطنية تصدت لسياستهم الاستعمارية. وكان آخر حاكم إسلامي كبير يقف في وجه الانكليز وقفة صلبة. ولم يلبث أن توسع الانكليز بسرعة في الهند، ليضعوها بأسرها تحت سيطرتهم المباشرة بعد أن قضوا على مقاومة المسلمين والإمارات الهندوكية. ولكن ظلت هناك آمال لدى هذه القوى لحركة كبرى ضد المستعمر، وتحركت قوى الهند في ثورتها الكبرى المشهورة في شوال ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧ م).

لاشك أن الحكم الانكليزي قد أسفر عن وجهه الاستعماري البشع بعد

سيطرته على الهند، فاستأثرت شركة الهند البريطانية بكل خيرات البلاد، وسلبوا الأمراء والسلاطان حق الحكم، وفقد المسلمون مركزهم السياسي في الهند وخاصة بعد استئثار بريطانيا بالحكم. كما أخذ الانكليز جانب الهندوس وأطلقوهم ضد المسلمين يهزأون بدينهم، ويسومونهم سوء العذاب، وتوالى ذلك في أكثر من مكان. وكان السيخ والمهراتا بالذات شديدي الوطاة على المسلمين. ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط بل كان هناك الكثير من المذابح التي راح ضحيتها الألوف من المسلمين بسيوف المهراتا والسيخ، دون أن يجد المسلمون من الانكليز محاولات واضحة لوضع حد لهذا التقتيل الذي لا مبرر له. وأدرك كثير من علماء المسلمين أن هناك اتفاقا غير مكتوب بين الانكليز والسيخ لإفناء المسلمين بالمذابح. وعمل الانكليز دون جدوى على تحويل المسلمين عن دينهم. ولم يعنوا بتعليم أبناء المسلمين أو حتى الإبقاء على أساليب التعليم التقليدية سائرة في طريقها، بل عملوا على تعطيل التعليم الإسلامي في الكتاتيب والمساجد والمدارس. كما استولوا على الأوقاف الخيرية الإسلامية الممولة لتلك المدارس والكتاتيب. وفي الوقت نفسه فتحوا أبواب التعليم أمام الهندوس بصفة خاصة على أسس انكليزية، ونتج عن ذلك ظهور عدد من الهندوس القادرين على المشاركة في الدواوين الحكومية جنبا الى جنب مع الانكليز، بينما لم يفز من المسلمين بتعليم راق سوى عدد ضئيل جداً بالنسبة للهندوس. لقد أيقن الانكليز أنه لا يمكن تحويل مسلم عن دينه فركزوا على تعليم أبناء الهندوس تعليماً نصرانياً، فأثار هذا أشجان المسلمين ودعاهم الى التحرك دفاعاً عن أنفسهم وخاصة بعد أن قرر الانكليز أن (بها دور شاه) هو آخر شخص مسلم يحمل لقب سلطان، وأن من سيأتي بعده سيكون موظفاً لدى بريطانيا له مرتبه ومخصصاته.

أدت هذه المشاعر الدينية المتأججة إلى ظهور عدد من العلماء إلى تقوية الدين الإسلامي في قلوب الناس، وحثهم على التمسك بأهدافه وقوانينه، وحثهم على التكاتف ضد قوى الإبادة المسلطة عليهم. فخرجت من هذه الدعوات نداءات إلى امتشاق الحسام دفاعاً عن المسلمين من سيوف السيخ والمهراتا، وإنقاذ الهند من التسلط البريطاني الذي كان في نظر المسلمين السبب الحقيقي لما يصيب المسلمين من نكبات وآلام. وكان من الدعاة (سيد أحمد) المشهور بالشهيد الذي نادى بالعودة الى نقاوة الدين الإسلامي، وتوحيد قوى المسلمين ضد العدوان

الانكليزي وعدوان السيخ. وخاض سلسلة من المعارك ضد السيخ حتى خفف كثيرا من ضغطهم على المسلمين. ولكن الجبهة الإسلامية كانت ضعيفة ومفككة، ولذلك كانت حركته محدودة لكنها أيقظت الوعي في نفوس المسلمين خاصة بعد استشهاد عرفان الشهيد سيد أحمد في ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م).

كان هذا السخط السياسي والديني يؤججه واقع اقتصادي مؤلم، فقد دمرت انكلترا أسس النظام الاقتصادي، فحطم الانكليز ودمروا الأنوال والمغازل الهندية، ومنعوا المنسوجات القطنية الهندية من أسواق أوروبا، ثم شرعت تصدر الخيوط القطنية والمنسوجات القطنية إلى الهند. كما أن العلم الحديث واستخدام الآلة البخارية قد دمر الرابطة بين الزراعة والصناعة الحرفية.

وعلى العموم، فقد كان هناك سخط عام في الهند على الوجود الاستعماري، ولكن البلاد كانت مفككة، ولم يكن هناك زعيم يستطيع أن يوحد بها بشعبها الإسلامي والهندوسي في حركة عامة ضد الانكليز. ولكن الفكرة كانت موجودة في مناطق المسلمين الشمالية. ولهذا كانت تلك المناطق تنتظر ظرفا ملائما لكي تثور، وهناك حركات سرية تبث منشورات تدعو للثورة. وكانت تحت الطوائف كافة على التحرك ضد العدو المشترك الانكليز، وبدأت الثورة من مكان لم يكن يتوقعه العدو.

بدأ الجنود المسلمون في الجيش البريطاني المعسكرون في ثكناتهم في (ميرت)، الثورة في شوال ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧ م)، وأن السبب المباشر لثورتهم إرغامهم أن يقطعوا بأسنانهم قطعاً من دهن مركب من دهون الخنازير والبقر لتشحيم بنادقهم. والمعروف أن المسلم محرم عليه تذوق دهن الخنزير وأن الهندوسي محرم عليه تذوق دهن البقر. ومع هذا تمادى الضباط الانكليز في عقاب الجند الذين تدمروا، ولم يلبث الجند أن انقضوا على ضباطهم وقتلوه، وانطلقوا إلى دهلي معلنين الثورة وسرعان ما انتشرت الثورة بسرعة كبيرة للغاية سواء في دهلي أم في خارجها في المناطق الشمالية بصفة خاصة. وعلى ذلك، فقد قامت الثورة دون تخطيط مسبق دقيق، ودون قيادة منظمة، فاتجه الثوار إلى جعل قيادة تتحكم في توجيه الثورة، وتهدف إلى إحياء الدولة المغولية وإعادة السلطات كاملة للسلطان المغولي «بهادر شاه». ولكن الاختيار كان خاطئاً، لأنه وأعوانه لم يعرفوا أساليب الحرب والقتال

الحديثة حينذاك. فانقض الانكليز على معاقل الثوار غير الموحدة وأجهزوا عليها، وألقوا القبض على السلطان وأخذوه أسيرا ثم نفوه إلى (رانغون)، فكان آخر أباطرة المغول. وتلا ذلك انقضا للقوات البريطانية وأنصارها من رجال السيخ على المسلمين بشكل وحشي، فقتلوا مئات الألوف وأحرقوا المدن والأسرى، فكانت أبشع مذبحة يدبرها الانكليز. ويعزي فشل الثورة إلى عدم تنظيمها وتوحيد قواها، واقتصارها على المناطق الشمالية، ووقوع خلاف بين زعماء الثورة، وانضمام السيخ إلى الانكليز. وإثر انتهاء الثورة حلت انكلترا شركة الهند الشرقية، وجعلوا الهند مستعمرة بريطانية تابعة للتاج البريطاني مباشرة، وكان الانكليز يحشون من المسلمين كثيرا ويحقدون عليهم صليبياء، إذ أنهم يعلمون أن المسلمين إذا دعوا إلى الجهاد الإسلامي يستطيعون إخراجهم، لذا عملوا على إيجاد فئة موالية لهم تكون مهمتها إلغاء الجهاد فكانت دعوة القاديانية التي قام بها ميرزا غلام أحمد القادياني، مدعيا النبوة والتي دعا فيها إلى طاعة الحكومة البريطانية. واستفادت بريطانيا من ذلك بايقاع الفرقة والخلاف بين المسلمين واستعان الانكليز بالقاديانيين كجواسيس لهم ضد المسلمين وقربوهم منهم، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل أمام جهود الحركة الوطنية ضد الاستعمار التي أجبرته على الخروج من الهند عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م).

الحركة الوطنية :

بعث اضطهاد البريطانيين للمسلمين في الهند شعورا قويا فيهم بضرورة العمل على توحيد صفوفهم من جديد، ورفع معنوياتهم وإصلاح حالهم، فظهر أحمد خان الذي نادى بعدم العزلة والتخلف عن المشاركة في الحياة الهندية، كما نادى بوجوب الاطلاع على الحضارة الغربية والمدنية الحديثة وعلومها أو اقتباس الصالح منها واتجه إلى الانكليز، فأكد عدم عدااء المسلمين لهم. وقد عاب عليه الكثيرون مما لأته للانكليز وعدم تأييده للثورة السابقة إلا أنه لم يأبه لاتهاماتهم، وانطلق يعمل ودعا قومه إلى الاعتراف من علوم الغرب. فأسس مجلة «تهذيب الأخلاق» والتي كتب فيها المقالات العلمية والسياسية والاجتماعية. وأنشأ جامعة «عليكرة» بشمال الهند والتي قامت فيها الدراسات والعلوم التجريبية والشرعية، وبعد أحمد خان ظهر من بين الذين ينتمون إلى الإسلام طائفة من المفكرين والأدباء

والفلاسفة الذين حملوا الرسالة من بعده، ومنهم محمد إقبال ومحمد علي جناح. وقوي التيار الإسلامي وبدأ المسلمون يتعاطفون ويتعلمون ويطالبون بالتححر، وبدأت حركة التحرر التي تنادي بالتحرر السياسي أولاً وهو المطالبة بالحكم الذاتي. وقد أنشأ الانكليز حزب المؤتمر الوطني ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) على أن يتبادل رئاسته مسلم وهندوسي، وكان حزب المؤتمر في البداية يحترم شعور المسلمين حتى دخلت فيه أعداد منهم بل وجماعات، ثم أظهر فيما بعد عكس ذلك فنادى بتخليص الهند من الغرباء كالانكليز. وكانت بريطانيا تهدف من وراء إنشاء حزب المؤتمر إلى دمج العناصر في شعب واحد للقضاء على المسلمين والعمل على النهوض بالهنداكة دون المسلمين، وأخيراً تعزيز الروابط بين انكلترا والهند.

لقد كانت كل الزعامات المثقفة ترى أن الوقت قد حان لتخليص البلاد من الاستعمار البريطاني، وكانت هناك حركات تحررية بين المسلمين والهندوكيين ولكنها لم تستطع أن تتحول إلى حركات عامة إلا ابتداء من القرن الرابع عشر. وكان المؤتمر الهندي يقود هذه الحركة ويطالب بتحرير الهند تدريجياً من الاستعمار البريطاني. وكانت الزعامات الإسلامية في داخل المؤتمر الهندي تبذل جهداً كبيراً في تأييد الزعامات الهندية ضد الوجود الاستعماري البريطاني. ومع ذلك فإن الخلاف بين المسلمين والهندوس قد دب إثار تقسيم البنغال بين المسلمين والهندوس، والذي قام به لورد كيرزون curzon، فعارض الهندوس ذلك رافضين إعطاء المسلمين حقوقاً يجب ألا تعطى لهم. ومن هنا أدرك المسلمون أن المؤتمر الهندي هو مظهر من مظاهر التسلط الهندوسي على المسلمين، وأن على المسلمين أن يؤسسوا لأنفسهم هيئة تدافع عن مصالحهم ضد المؤتمر الهندي وضد الحكم البريطاني، فدعا المسلمون إلى عقد اجتماع في مدينة (دكا) برئاسة النائب فخار الملك، ونتيجة هذا الاجتماع نشأ حزب «الرابطة الإسلامية» ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) وزاد من تماسك المسلمين وتعلقهم بالرابطة إنشائهم جامعة إسلامية في دكا مما أثار الهنود. وظلت الرابطة الإسلامية محدودة النشاط حتى مال محمد علي جناح عضو المؤتمر الهندي إلى الرابطة ابتداء ١٣٣٢ هـ (١٩٤١ م)، وكان يعمل من قبل للتوفيق بين الطرفين.

وخلال الحرب العالمية الأولى قويت الدعوات إلى استقلال الشعوب سواء قبل

صدور مبادئ ولسن الأربعة عشر أوبعدها. ولكن هذه المبادئ ألهمت حماسة الشعوب المهيضة الجناح. واتجهت الحركة الهندية بزعامة غاندي إلى الضغط على بريطانيا من أجل استقلال الهند، وفي الجانب الإسلامي الهندي كان المسلمون الهنود يسعون كذلك إلى تحرير الهند من الانكليز، وإلى إنقاذ الخلافة العثمانية (الإسلامية) ولعلمهم رأوا في سقوط الخلافة سقوطاً لهم في أعين كل من الانكليز والهندوس.

وهاجم محمد علي جناح الانكليز عندما انقضوا على الثوار الهنود في ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م) لقتل الروح التحررية، ولكنه في الوقت نفسه انتقد غاندي عندما ابتدع سياسة المقاطعة والعصيان المدني. وكانت وجهة نظر محمد علي جناح وزملائه هي أن المقاطعة السلبية تضر بالشعب الفقير أكثر مما تضر بالانكليز، وأن الالتجاء إلى المغزل ليس سوى رجعة إلى الماضي، وخير منها إنشاء المصانع كي تستطيع الهند أن تقف بقوة أمام مصنوعات بريطانيا. وانتقد غاندي عندما لقب بالمهاتما على اعتبار أن غاندي يسير في طريق هندوكي واضح لا يمكن أن يحفظ للمسلمين حياتهم وأرواحهم وعقيدتهم من تعديت المتعصبين من الهندوس. إذ كان الهندوس يعدون حركتهم تقوم على أربعة مبادئ هي: الوحدة، ووحدة العقيدة الهندوسية وإجبار كل السكان عليها، وإرجاع المسلمين إلى الهندوسية. واحتلال أفغانستان ومناطق الحدود ورد أهلها عن الإسلام.

واشتدت معارضة محمد علي جناح لغاندي ولحزب المؤتمر، وزاد من ارتباطه بالرابطة الإسلامية تعاون الحكم البريطاني مع حزب المؤتمر على إصدار دستور للبلاد يعطيها طابعاً هندوكياً ويؤدي إلى القضاء على المسلمين في المستقبل البعيد. وحاول محمد علي جناح أن يثنى غاندي وزعماء المؤتمر الهندي عن هذا الاتجاه دون جدوى، ولهذا وضع مبادئه الأربعة عشر أمام المسؤولين فيما أن يقبلوها فيقبل هو والرابطة الإسلامية الاشتراك في الحركة الوطنية الواحدة ضد الانكليز وإلا فسيطالب بانفصال المسلمين عن الهندوكيين في المجالات كافة.

وكانت مبادئ وشروط محمد علي جناح الأربعة عشر على النحو التالي :

١ — سن دستور أساسي للهند يخول لكل مقاطعة الصلاحية التامة في الحكم المباشر.

- ٢ - مساواة المقاطعات جميعها في الحقوق والامتيازات.
 - ٣ - مراعاة حقوق الأقليات في سائر المقاطعات، ومنحهم حق التمثيل النيابي في المجالس النيابية، وحماية حقوقهم ضد الأكثرية.
 - ٤ - يمنح المسلمون ربع مقاعد المجلس النيابي بمقتضى الدستور.
 - ٥ - ينتخب الأعضاء الممثلون للفرق والطوائف انتخاباً مستقلاً.
 - ٦ - لا يؤثر تغيير النظم في حقوق ومزايا المسلمين في البنجاب والبنغال والمناطق الشمالية.
 - ٧ - يضمن الدستور الهندي الحرية التامة لجميع الملل والمذاهب من إقامة الشعائر والتعليم وغير ذلك.
 - ٨ - لا يتخذ أي قانون في المجلس النيابي في أية مقاطعة، ويكون القانون فيه مساس بقوم أو طائفة مالم يوافق على ذلك ثلاثة أرباع الأعضاء من ممثلي تلك الطائفة.
 - ٩ - فصل مقاطعة السند عن بومباي فصلاً تاماً بغير قيد أو شرط.
 - ١٠ - تنظيم مقاطعتي الحدود وبلوخستان تنظيمًا يتفق والحالة التي عليها سائر المقاطعات.
 - ١١ - مراعاة حقوق المسلمين في سائر الإمارات المستقلة بما يتفق والحرية الدينية التامة والعدالة الكاملة في سائر الحقوق والوظائف.
 - ١٢ - يضمن الدستور الهندي الجديد الحرية التامة للمسلمين في إقامة شعائرهم الدينية وصيانة حقوقهم ومقدساتهم وأماكن معتقداتهم، والمحافظة على ثقافتهم الدينية في التعليم والتبليغ واللغة في سائر المقاطعات والولايات المستقلة، وأن تخصص كل مقاطعة منحة مالية تصرف سنوياً على الشؤون الإسلامية.
 - ١٣ - لا تؤلف وزارة أو حكومة في المقاطعات الهندية مالم يمثل فيها المسلمون بنسبة الثلث.
 - ١٤ - ألا يقبل أي تعديل أو تغيير في الدستور الهندي الأساسي بعد تشريعه إلا بعد أخذ رأي وموافقة سائر المقاطعات.
- لكن أصر زعماء حزب المؤتمر على أن يسيروا في الحركة الوطنية دون محمد علي جناح ودون الرابطة الإسلامية، وشجعهم على ذلك عدد ليس قليلاً من زعماء

المسلمين كان متعاوناً إلى أقصى حدود التعاون مع المؤتمر، وهم أعضاء لجمعية الخلافة الإسلامية - مؤتمر الشيعة - وفشلت محاولات محمد علي جناح الذي عقد مؤتمراً مشتركاً بين الرابطة والمؤتمر الهندي في مدينة لكنو سنة ١٣٣٥ هـ (١٩١٦ م) وأقر فيه غاندي مطالب الرابطة الإسلامية. والتي سرعان ما تنكر لها غاندي عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م). ونادى غاندي باستقلال الهند. فرد المسلمون بعقد اجتماع آخر في عام ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩ م) طالبوا فيه بتأييد النظام الاتحادي الذي يمنح الولايات الحكم الذاتي التام والسلطات الباقية، وتأييد حق المسلمين في انتخاب ممثليهم. ورفض المؤتمر الهندي هذه القرارات.

وفي عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م)، دعت بريطانيا إلى عقد مؤتمر الدائرة المستديرة بلندن، وطالب المسلمون بوجوب تضمين الدستور النص على كفالة حقوقهم. وفي الوقت نفسه عقدت الرابطة الإسلامية دورتها السنوية بزعامة محمد إقبال، وطالب لأول مرة بتكوين دولة إسلامية موحدة. وطلب من محمد علي جناح العودة من لندن ليتسلم زمام الأمور وقيادة المسلمين، ومن ثم عاد إلى الهند وألف العصبة المسلمة داخل الجمعية التشريعية.

اتجه الانكليز بعد ذلك إلى مفاوضه حزب الرابطة بعد قيام غاندي بالعصيان المدني. وفتحوا الباب أمام الاتصالات المباشرة بينهم وبين الرابطة ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م)، ولاشك أن الانكليز كانوا هم الرابحين من وراء التفاوض مع هذا الطرف تارة، ومع ذلك الطرف تارة أخرى.

ومهما كانت خطورة تلك الصراعات الطائفية إلا أنها كانت دائماً موجهة ضد الوجود الانكليزي، وكانت تكاليف السيطرة على الأمن وعلى البلاد قد أصبحت باهظة، الأمر الذي جعل الانكليز يتجهون فعلاً إلى إعطاء الهند استقلالها. وكان إصدار دستور ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) مقدمة لهذه الخطوة. وبرزت عن هذا الدستور مشكلة خطيرة هل ستكون الانتخابات النيابية المقبلة عامة أم تكون على أسس طائفية.

كان الهندوكيون والمؤتمر الهندي ينادون ويصرون على أن تكون هذا المجلس المقبل سيكون مجلساً هندوكياً لا يمثل فيه المسلمون إلا بأقلية مهضمة الجناح. وأعلن غاندي ونهرو إصرارهم على الانتخابات العامة لأنهم كانوا يرون في انفصال

المسلمين عنهم إضعافاً للهند، كما أن ظهور دولة إسلامية في شمال الهند سيؤدي إلى إعطاء الشعوب الإسلامية دفعة قوية من الحيوية، وربما تقوم هناك وحدة بين هذه الدولة الإسلامية الجديدة وأفغانستان، وفارس، والبلاد العربية.

وفي عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) استقالت وزارة حزب المؤتمر لأن حكومة الهند دخلت الحرب دون أخذ رأيها، وزاد الوضع حرجاً دخول اليابان الحرب واحتلال أندونيسيا والهند الصينية وبورما واقتربها من حدود الهند، فأعلنت بريطانيا أنها ستعطي الهند الاستقلال بعد الحروب ورحب حزب المؤتمر بهذا، وطالب بتسليم الحكم مباشرة وتطبيق سياسته.

وفي عبارة موجزة دقيقة صور محمد علي جناح أسس الخلاف بين المسلمين والهندوكيين عندما قال:- «نحن من الجنس الآري وهم درافيدا . . . ونحن من أهل الكتاب وهم وثنيون يعبدون البقر ويقدمسون الحيوانات وسنظل إلى آخر الدهر نذبح هذا المعبود ونأكله، وسيظلون هم إلى آخر الدهر يقدمونه ويعبدونه، هم يتكلمون الهندوستانية ولا يريدون عنها بديلاً. أبطال تاريخنا أعداؤهم لأنهم دحروهم وهزموهم، وأبطال تاريخهم أعداؤنا لأنهم دحرونا وهزمونا، ويوم يحتفل أحد الفريقين بذكرى أبطاله يبكي الآخر حزناً وحسرة، ولا يمكن أن تزول الخلافات بيننا وبينهم، ولم نثق في وعودهم فقد حاولنا دأبنا وميننا أكثر من مرة. وحكومة المؤتمر دليل على صدق قولي وفظائعها معنا شاهد على ذلك فلن نقبل بعد الآن أن يحكمنا الهندوس ونحن قلة، فبمثل ذلك فناؤنا النهائي وفرصتنا الوحيدة باكستان، وسنريق دماءنا إلى آخر نقطة في سبيل تحقيقها. فالمناطق الإسلامية يجب أن يحكمها المسلمون، والمناطق الهندوسية يحكمها هندوس. وستبقى أقليتنا عندهم وأقلياتهم عندنا فيحتفظ التوازن ويطمئن الطرفان إلى العدالة والمساواة.

وعلى ذلك، تأكد لمحمد علي جناح دون أدنى شك عدم جدوى الاتصالات مع المؤتمر الهندي، بعدما تأكد له أن حكومة المؤتمر ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) قد ازدادت إمعاناً في اضطهاد المسلمين وتعذيبهم وأهملت شؤونهم، وامتهنت حرياتهم، فأعلن أنه لا بد من انفصال المسلمين، وحيث قررت الرابطة الإسلامية في عام ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠ م)، إعلان تمسك المسلمين بدولة خاصة بهم أطلقوا

عليها (باكستان)^(٦٤) وتحقق بذلك أمل الفيلسوف الشاعر محمد إقبال الذي توفي عام ١٣٥٧ هـ (١٩٣٠ م) بانفصال المسلمين. وكانت فترة الحرب العالمية الثانية وأعقابها أخرج فترات الصراع بين الفكرتين: (١) الهند الموحدة. (٢) الهند المقسمة.

واستخدم خصوم محمد علي جناح الوسائل كافة من إرهاب دموي إلى سياسة المفاوضات معه أو مع الانكليز، وعملوا على إضعاف قوته عن طريق تحريض بعض الطوائف الشيعية والاسماعيلية ضده، ومع هذا استطاع أن يكسب الغالبية العظمى من مسلمي الهند إلى جانب فكرة «باكستان» مع أنه ينتمي إلى الطائفة الاسماعيلية.

وفي عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) بذلت آخر محاولة لفرض كلمة المؤتمر الهندي على الرابطة الإسلامية، وحاولت الجموع الهندوكية أن تفرض بالقوة وبالمذابح على المسلمين (الوحدة)، وكانت المذابح مروعة، وكانت سببا في أن تقطع كافة الطرق التي كان يمكن أن تؤدي إلى ظهور حكومة اتحادية من مسلمين وهندوس. وأصبح التقسيم هو الهدف الوحيد الذي يسعى إليه المسلمون بعد تلك المذابح دون محاولة لايجاد تسوية ما. وقرر حزب الرابطة الإسلامية في مؤتمره العام عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) إنشاء دولة باكستان ومطالبة بريطانيا بالموافقة على ذلك. وقد دعم موقف حزب الرابطة نجاح أعضائها في انتخابات عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) وفوزهم بالمقاعد جميعا المخصصة للمسلمين، وعددها ٤٢٧ مقعدا، واستمر المسلمون في مطالبتهم إلى أن وافقت بريطانيا وحزب المؤتمر أخيراً على قيام دولة باكستان، وأصدر البرلمان البريطاني قانون استقلال الهند في منتصف رمضان ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) وظهرت باكستان بعد شهر أي في منتصف شوال من عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م).

(٦٤) باكستان: يتكون اسم من مقطعين هما (باك) ومعناه طاهر أو تقى و (ستان) ومعناه أرض فيكون معنى باكستان أرض الأطهار أو الأرض الطاهرة. كما يقال: إنها مؤلفة من الأحرف الأولى من المقاطعات ذات الاكثية المسلمية. بنجاب وبنغال، وبلوخ، وكشمير، والسند.

استقلال باكستان :

برزت باكستان إلى حيز الوجود دولة مستقلة ذات سيادة في الرابع عشر من شهر شوال ١٣٦٦ هـ ، وذلك عند تقسيم شبه جزيرة الهند بناء على إصرار المسلمين على المطالبة بوطن منفصل مستقل لهم. وضمت باكستان من الأقسام التي كانت تعرف قبل التقسيم باسم: إقليم الحدود الشمالية الغربية وبلوخستان والسند والقسم الغربي من إقليم البنجاب والقسم الشرقي من إقليم البنغال، وهذه الأقسام توجد في منطقتين بعيدتين بعضهما عن بعض، الأولى في الغرب، وتعرف باسم باكستان الغربية والثانية في الشرق وتعرف باسم باكستان الشرقية، وتضم البنغال الشرقية فقط بينما تضم باكستان الغربية الأقسام الباقية. ويفصل القسمين مسافة من أراضي الهند يزيد مداها على ١٥٠٠ كم وتبلغ مساحة باكستان الغربية ٨٠٠٠٠٠ كم^٢ وعدد سكانها يومذاك ٥٠ مليوناً بينما مساحة باكستان الشرقية $\frac{1}{6}$ مساحة الغربية (١٤٣٠٠٠ كم^٢ وعدد سكانها ٧٠ مليوناً أي أكثر من سكان الغربية، ويشكل المسلمون ٨٨٪ من السكان.

وفي الحقيقة لقد كان هذا التقسيم جائراً روعيت فيه مصالح الهنود، ولم يلتفت لما ستواجهه باكستان من مشكلات من جراء هذا التقسيم، بل لقد كان هدف الانكليز والهنود من هذا التقسيم أن يعارض المسلمون لما فيه من إحجاف بحقوقهم، ولكن المسلمين صمدوا وتحذوا ورضوا بهذه القسمة في سبيل إقامة دولة إسلامية موحدة، رغم ما ينتظرهم من مشكلات اقتصادية وسياسية وغيرها. وقد حملت هذه الدولة بين طياتها عوامل فنائها منذ قيامها كما خطط لها الاستعمار وكان له ما أراد.

خرجت باكستان إلى حيز الوجود في منتصف شوال ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) وانضمت إلى هيئة الأمم المتحدة في أول أيام ذي الحجة ١٣٦٦ هـ واختير محمد علي جناح رئيساً للدولة وتولى رئاسة الحكومة ليافت على خان، ووقعت عقب التقسيم أحداث مؤلمة، وكان على الحكومة مواجهة مشكلة إسكان تسعة ملايين من المسلمين اللاجئين الفارين إلى باكستان، هذا بجانب الذين قتلوا وهم حوالي مليون مسلم أثناء فرارهم، ورفضت الهند دفع نصيب باكستان من احتياطي الدولة ومقداره حوالي ٥٥٠ مليون روبية، وقامت الفتنة والمذابح في كل أرجاء

القسم الهندي وخاصة في (دهلي) التي قتل فيها يومذاك مائتا ألف مسلم خلال يومين، كما كانت المذابح عظيمة في البنجاب الشرقية التي أكثر سكانها من الهنود والسيخ، فقد تعاونوا على ذبح المسلمين وسبي النساء في المدن والقرى، وكما أن الانكليز عملوا على تسليم أنصارهم حكم باكستان وهم الاسماعيلية والقاديانية، ومع ذلك استطاعت باكستان حل مشكلاتها، وبدأت تشق طريقها نحو التقدم الاجتماعي والانتعاش الاقتصادي.

وبعد وفاة محمد علي جناح في عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) خلفه في رئاسة الدولة الخوجا نظام الدين بينما بقى لياقت على خان رئيس الوزارة. وفي عهد الرئيس الخوجا نظام الدين أعلى تطبيق الشريعة الإسلامية تحت ضغط الشعب، والتي نادت به الجماعة الإسلامية التي يرأسها أبو الأعلى المودودي منذ مطلع عام ١٣٦٧ هـ. وفي عام ١٣٧١ هـ اغتيل لياقت على خان وأصبح الخوجا نظام الدين رئاسة الوزارة وتسلمها محمد علي بوغرا. وبقيت باكستان دون دستور هذه المدة كلها. وفي عام ١٣٧٥ هـ تكونت جمعية تأسيسية مهمتها وضع الدستور، وكان من أهم منجزاتها توحيد باكستان الغربية بعد أن كانت عددا من المقاطعات. وانتهى النظام القديم، وهو تبعية باكستان لبريطانيا كدولة من دول الدمنيون تعين حاكمها انكلترا.

وفي عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) وضع أول دستور للدولة وأعلنت باكستان جمهورية دستورية ونص الدستور على أن الدولة ترمي إلى توطيد المبادئ الإسلامية، وخاصة العدالة الاجتماعية والمساواة بين الجميع ويجب مراعاة تعاليم الإسلام. كما اتخذت كراتشي عاصمة للدولة.

وأصبح اسكندر ميرزا رئيسا للجمهورية وشو دري محمد على رئيسا للوزارة، وقامت أحزاب جديدة معارضة لحزب الرابطة الإسلامية. ولكن الأمور اضطربت واختلت الحالة الاقتصادية واضطر رئيس الجمهورية اسكندر ميرزا عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) إلى تعطيل الدستور وحل البرلمان وفرض الأحكام العرفية مستندا إلى قوة الجيش بسبب سوء الأوضاع في البلاد، وبعده عشرة أيام من العام نفسه تنازل اسكندرا ميرزا عن رئاسة الجمهورية لمحمد أيوب خان الحاكم العسكري وغادر البلاد.

أدخل محمد أيوب خان عددا من الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية وأجريت الانتخابات العامة للمجالس الاتحادية القروية والمجالس الاتحادية في المدن، واختاره ممثلو الشعب رئيساً لدولة باكستان عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩) لمدة خمس سنوات، ونقل أيوب العاصمة الاتحادية من كراتشي إلى روالبندي وشكلت لجنة دستورية، وفي عيد الفطر من عام ١٣٧١ هـ (١٩٦١ م) أعلن الدستور الجديد، وكان ينص على أن باكستان تتكون من إقليمين، هما باكستان الشرقية وباكستان الغربية. ولهما لغتان رسميتان هما الأوردية والبنغالية، وعاصمتها الوطنية إسلام آباد، وعاصمتها التشريعية دكا.

ووقعت الحرب بين باكستان والهند عام ١٨٣٦ هـ (١٩٦٥ م) بشأن كشمير بعد هجوم مفاجيء هندي في كشمير على أراضي كشمير الحرة واحتلوا أربعة مراكز، وقامت مباشرة باكستان برد فعل بجنوب الجزء الكشميري الذي تحتله الهند، وانهارت المقاومة الهندية فهاجمت الهند باكستان ثم امتدت الحرب على طول الحدود الهندية الباكستانية، ثم توقفت الحرب بعد التقاء الطرفين في طاشقند في عام ١٣٨٥ (١٩٦٥ م)، وعلى الرغم من التقدم الذي أحرزته البلاد خلال حكم محمد أيوب خان فان المعارضة وعدم الارتياح ازدادت في السنوات الأخيرة لحكمه. وفي أواخر شوال عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) قامت اضطرابات عدة في البلاد، وكانت المعارضة قد رفضت الاشتراك معه في محادثات لإجراء بعض الاصلاحات وطالبته بالتخلي عن سلطاته.

وفي ٥ محرم عام ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) تنحى محمد أيوب خان عن رئاسة الجمهورية لقائد الجيش الجنرال يحيى خان الذي شكل حكومة عسكرية برئاسته، وتولى سلطات رئيس الجمهورية إلى أن يتم وضع دستور جديد للبلاد.

وكانت باكستان قد انضمت إلى منظمة حلف جنوب شرقي آسيا عام ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤ م)، كما أنها كانت عضوا في الحلف المركزي (حلف بغداد سابقا) منذ عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) ولكن شعب باكستان استاء من اشتراك بلاده في هذه الأحلاف التي تحركها أيد غربية، لأنه لا يرى فيها منفعة، وبدأت باكستان تميل إلى سياسة الحياد وعملت على تدعيم علاقاتها بالدول العربية والإسلامية.

وفي شوال من عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) أجريت الانتخابات العامة وأسفرت نتائجها عن فوز حزب عوامي^(٦٥) في باكستان الشرقية برئاسة مجيب الرحمن بـ ١٦٧ مقعداً من ٣١٣ مقعداً، وحصل على أغلبية في المجلس النيابي. وكان الحزب المنافس له حزب الشعب الذي يتزعمه ذو الفقار علي بوتو في باكستان الغربية، وكان على الجنرال يحيى خان أن يدعو المجلس النيابي للانعقاد ويسلم السلطة لمجيب الرحمن. لكنه أجل انعقاد المجلس النيابي مما أثار هياجاً شعبياً كبيراً وقامت الاضطرابات وحركات العصيان في باكستان الشرقية. وحاول يحيى خان القضاء عليها بالقوة المسلحة فأعلنت باكستان الشرقية في مطلع شهر صفر عام ١٣٩١ هـ استقلالها (١٩٧١ م)، ولعل هناك اختلافاً بين قسيمي باكستان، فالغربية أكبر مساحة بكثير وأقل سكاناً وكثافة، وتوجد مصانع، والتجارة نشطة، وينخرط الطلاب بصفوف الجيش فتسعون بالمائة من ضباط الجيش الباكستاني كانوا من الغربية، أما الشرقية فقليلة المساحة كثيرة السكان، كثيرة المياه، والأرض السهلية تغمر بالماء أياماً كثيرة، وتصيبها الفيضانات وتجتاحتها الأعاصير، إذ يصعب إقامة المعامل، والتجارة ضعيفة والحالة المادية سيئة، الأمر الذي يجعل السكان يسيرون وراء كل منادٍ بالاصلاح أو بتحسين الأوضاع، وهذا ما أفاد منه حزب عوامي، كما يشعر السكان أنهم تبع للغربية - رغم أنهم أكثر عدداً، كذلك هناك فرق في اللغة إذ تعد البنغالية هي الرسمية في الشرقية ولغة الأوردو هي الرسمية في الغربية. وقامت حرب أهلية ورفض يحيى خان تسوية هذا النزاع السياسي القائم على المائدة المفاوضات بدلا من استخدام العنف. وقد استغلت هذه الفرصة واقتحمت قواتها العسكرية حدود باكستان الشرقية لمساعدتها ضد الجيش الباكستاني، وفي شوال من عام ١٣٩١ هـ استلمت القوات الباكستانية ولم يكن الرأي العام الباكستاني متقبلاً لهذا الاستسلام الذي ساعدت الدولتان العظميان والهند وإسرائيل على تحقيقه لأصناف المسلمين وتفكيك وحدتهم وأسفر

(٦٥) حزب عوامي: تأسس عام ١٣٧٦ هـ، ويضم الشيوعيين وأنصارهم، والفئات ذات الاتجاه المتقارب، وقوي أمره، وصدر له صحيفتان ثم انقسم إلى قسمين: جناح تدعّمه الصي: ويتزعمه عبد الحميد باشاني، وجناح ينزعمه مجيب الرحمن وتدعّمه روسيا. وضعت معارضة جناح باشاني مدة التقارب بين الصين وباكستان فقوي جناح مجيب الرحمن، ثم عاد فالتأم الجناحان أيام الانتخابات الأخيرة.

ذلك عن تنحي يحيى خان وتعيين ذو الفقار علي بوتو رئيس حزب الشعب رئيساً لباكستان دون باكستان الشرقية التي انفصلت واتخذت اسم بانغلاديش.

وكان ذو الفقار علي بوتو أول رئيس غير عسكري منذ عام ١٣٧٨ هـ وبعد تولى مهام منصبه عقد مؤتمر (سمل) لتسوية الخلافات بين الهند والباكستان عام ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م)، إلا أن مشكلة كشمير ظلت كما هي عليه. وقامت الدول الإسلامية الصديقة بالوساطة بين باكستان وبانغلاديش للتوفيق بينهما وتم اعتراف باكستان بالدولة الجديدة بانغلاديش. ولكن حكم ذو الفقار علي بوتو لم يستمر طويلاً ففي عام ١٣٩٧ هـ قام الجيش بحركة انقلاب ضده بقيادة الجنرال ضياء الحق إثر مظاهرات واضطرابات في البلاد استمرت ما يزيد على خمسة أشهر، والتي كانت أحزاب المعارضة من ورائها، وحوكم علي بوتو في مطلع عام ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م أمام المحكمة التي حكمت عليه بالإعدام نتيجة الجرائم التي ارتكبها باسم النظام، ويعمل نظام الحكم القائم على تطبيق الشريعة الإسلامية تدريجياً، كما يعمل على تحسين علاقاته مع الدول الإسلامية وبخاصة المملكة العربية السعودية.

أما فيما يتعلق بالمشكلات القائمة بين باكستان والهند، فيمكن القول: إنه في الأعوام الثلاثة التي أعقبت تقسيم الهند شهدت شبه القارة الهندية نزاعاً مستمراً بين الباكستانيين والهنود، تخلله الكثير من الشك والريبة وهجرة مستمرة بين السكان في الدولتين. ويرجع ذلك كله إلى بعض المشكلات الرئيسية التي أمكن التغلب على معظمها فيما بعد، منها مشكلة التصرف في الممتلكات التي خلفها السكان الهنود كيون والمسلون والسيخ، ومشكلة تخفيض قيمة الروبية الهندية بالنسبة للدولار الأمريكي على عكس باكستان التي احتفظت بقيمة الروبية الباكستانية، مما أدى إلى توقف التبادل التجاري بين القطرين ومشكلة توزيع المياه في إقليم البنجاب، ثم مشكلة كشمير التي لاتزال قائمة.

وتتلخص مشكلة تقسيم مياه الهند في أن تقسيم شبه القارة الهندية شطر إقليم البنجاب إلى قسمين هما: البنجاب الشرقية ويتبع الهند والبنجاب الغربية ويتبع باكستان. وقد ترتب على هذا التقسيم أن منابع بعض الفروع تقع في الهند بينما تجري في أرض باكستان. وقد أرادت الهند أن تتوسع في استصلاح أرض البنجاب

الشرقية بدعوى أن عددا كبيرا من اللاجئين إليها من البنجاب الغربية لامورد لهم فيها ومن حقها أن تؤمن معيشتهم، في حين أن الباكستان نصيبها لمقرر من هذه المياه التي يفيد منها أهل البنجاب الغربية. وقد تطور هذا النزاع حتى أن الهند قطعت الماء فجأة عن لاهور عدة أسابيع في ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) وانتهى هذا النزاع الذي استمر نحو ثلاثة عشر عاما حينما وقعت الدولتان على اتفاقية مياه حوض السند، وبمقتضى هذا الاتفاق تحصل الهند على مياه الأنهار الشرقية الثلاثة، بينما تحتفظ باكستان بمياه نهر السند وفرعين آخرين. ويتصل بهذا الاتفاق اتفاق مالي آخر يتضمن قروضا من البنك الدولي، الأمر الذي فتح الطريق للاستخدام السلمي وتنمية موارد المياه، وبناء على هذا الاتفاق تقيم باكستان في مدة عشر سنوات خزانات وقنوات ومشروعات أخرى قد تستفيد من مياه الأنهار التي تنبع في الهند وتبلغ جميع تكاليفها نحو مليار دولار. وستناول بشيء من التفصيل مشكلة كشمير.

مشكلة كشمير :

تقع كشمير في أقصى شمال القارة الهندية، وتضعا لمرات والثغرات في المرتفعات الشاهقة وأنها تتحكم في الطرق ومحاور الاتجاهات بين أرض الهند وآسيا. ولذا دهي تحتل موقعا ممتازا، إذ أنها تقع في منطقة تتاخم دولتين كبيرتين هما الاتحاد السوفيتي والصين، إذ تتاخم الصين ولايفصلها عن أراضي الاتحاد السوفيتي إلا شريط ضيق من أرض أفغانستان، كما أنها تقع بين دولتين من أكر دول آسيا هما الهند وباكستان. ومساحتها ٢٢٠.٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها قرابة سبعة ملايين منهم نحو ٨٢٪ مسلمون.

أما أهمية موقع كشمير بالنسبة لباكستان فترجع لأنها (أي كشمير) تسيطر على معظم المنابع والمجاري العليا لأنهم الأنهار التي تعتمد عليها زراعة غربي باكستان في توفير مياه الري لأكثر من ١٩ مليون فدان، وكذلك توفير الطاقة الكهربائية. كما أن موقع كشمير الجغرافي له أهمية حربية بالنسبة لباكستان إذ أن وجود كشمير تحت سيطرة قوة معادية لباكستان يهدد استقلالها وكيانها، إذ أن العدو المسيطر على كشمير بإمكانه أن يقضى على باكستان في أية لحظة شاء. ومن الناحية الجغرافية تعد كشمير جزءا من باكستان التي تشترك معها في حدود طولها عدة

مئات من الكيلومترات ولا يربطها بالهند سوى شريط ضيق من الأرض. وتؤكد الروابط الجغرافية والاقتصادية والثقافية بين كشمير وباكستان ضرورة ضمها إلى باكستان، وذلك تأسيساً على رغبة الغالبية العظمى من الشعب المسلم. وترى الهند أن إقليم كشمير له أهمية استراتيجية واضحة بالنسبة لها خاصة بعد أن تمكنت الصين الشعبية من السيطرة التامة على التبت، وتطور النزاع الهندي الصيني على طول الحدود في جبال هملايا.

والجدير بالذكر أن الإسلام قد دخل هذه الولاية منذ أكثر من سبعمائة عام، وحكمها الملوك من أبنائها في المدة ما بين ٧١٠-٩٦١ هـ، ثم جاء عهد الملوك المغول وحكموها حتى عام ١١٣٢ هـ (١٧٢٠ م) ثم حكمها الولاة الذين يعينون من قبل حكومة أفغانستان. ثم غزا الشيخ كشمير واحتلها وفرضوا سلطانهم عليها ١٢٣٥-١٢٦٣ هـ (١٧٢٣-١٧٥٠ م) وارتكبوا فيها من الظلم والوحشية والهمجية مالا يتصوره عقل. وطرد الانكليز الشيخ بعد أن أحكموا قبضتهم على كشمير، وباعوا الإمارة لأحد الحكام الإقطاعيين من عائلة (الدوجرا) وهي فرع من قبيلة الراجبوت. ومنذ ذلك الوقت يتعرض السكان لأسوأ حالات الاضطهاد والتعذيب والاستبداد من قبل حكامهم الهندوكيين، فقاموا بثورات عديدة ضد حكامهم إلا أنهم كانوا يلاقون العذاب والإرهاب والقتل الجماعي والبؤس والفقر.

وعندما أعلن عن تقسيم الهند كان المهرابا (هارى سنغ) يريد الانضمام إلى الهند، بينما الشعب يريد الانضمام إلى باكستان، ولم تستطع الهند ضمها بالقوات، كما فعلت مع الإمارات الأخرى في (حيدرآباد) و (جوناكدا). فقامت الاضطرابات بعد أن أعلن المهرابا في عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) الالتحاق بالهند وأعلنت الهند عن إرسال قوة لحماية كشمير. واستولى المسلمون بقيادة محمد إبراهيم على أجزاء من كشمير، وتألقت حكومة كشمير الحرة (أزاد كشمير) وتآلف الجيش الكشميري، وساندتهم باكستان، وبقي قسم من البلاد تحت سيطرة الجيش الهندي. ورفعت القضية إلى هيئة الأمم عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) والتي أصدرت نداء إلى كل من الهند وباكستان بتصفية الجو بينهما. ولكن الهند لم تستجب للنداء المذكور بل أرسلت قوات كبيرة إلى كشمير، وفعلت مثلها الباكستان واستمر القتال بين الجانبين فعقد مجلس الأمن اجتماعاً، وأوصى بوقف القتال وجريد الامارة من

السلاح وإجراء استفتاء حر محايد تحت إشراف الأمم المتحدة. وعلى ذلك، توقف القتال في أواخر عام ١٣٦٨ هـ (١٩٤٧ م) وتعين كذلك خط وقف إطلاق النار. ورفضت الهند محاولات التوفيق جميعها، والتي أوصت بها هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، ولم توافق على إجراء استفتاء لتأكيدا من أن ذلك سيكون إلى جانب باكستان، لأن الشعب المسلم في كشمير يريد ذلك، وفي ذلك مصلحة اقتصادية إضافية إلى الجانب الأساسي وهو العقيدة، إذ أن صادرات كشمير إنما تصدر عن طريق باكستان، وهي الطريق الوحيدة كذلك. وظلت تماطل وتسوف حتى الآن. كما بقيت منطقة كشمير إحدى مناطق التوتر بين الدولتين فقد انفجر النزاع العسكري بينهما فجأة في عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) إلى أن تدخلت هيئة الأمم وأوقفت النزاع. ولا زالت هذه المشكلة حتى الآن دون حل.

٨ — بانجلاديش :

يحدّها من الشرق بورما والهند، ومن الغرب والشمال الهند أيضا، ومن الجنوب خليج البنغال، ويبلغ عدد سكانها ٨٥ مليون نسمة منهم ٨٥٪ مسلمون، وهناك أقل من ١٥٪ من الهندوكيين، ومليون بوذي، وقلة قليلة من النصارى. واللغة الرسمية هي البنغالية، وتنتشر أيضا كل من اللغتين الأوردية والانكليزية.

وكان هذا الاقليم في العصور القديمة بمثابة ملجأ ومأوى للفارين، وخاصة البوذيين الذين كانوا يفرون من اضطهاد الهنادكة. عم ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧ م)، وقاد كفاح المسلمين من أجل التحرير حزب مسلمي جميع الهند «الرابطة الإسلامية» الذي عقد أول اجتماع له في دكا سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م)، ونادى هذا الحزب في عام ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠ م) بتكوين حكومات إسلامية في المناطق التي يعد فيها المسلمون أغلبية، لكن قادة المسلمين غيروا هذا الرأي واتفقوا على إقامة دولة موحدة تضم الشطرين. وفي عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) أنشئت دولة باكستان بشطريها الغربي والشرقي ثم انفصل الشطر الشرقي وعرف باسم بانجلاديش عام ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م).

وترى بانغلاديش أنه كان على باكستان أن تقوم بتحويل الاقتصاد الاستعماري إلى اقتصاد وطني، وكانت باكستان الغربية تنتج القطن، ولكن مصانع النسيج كانت قرب بومباي في الهند، وكانت باكستان الشرقية تنتج الجوت بينما مصانع الجوت قرب كلكتا وتتبع الهند. وكانت جميع الصناعات الثقيلة في الهند. وتحت ضغط هذه الصعوبات بدأت باكستان جهودها من أجل بناء اقتصادها.

على أن باكستان الشرقية لم تمنح نصيبها من الإدارة والتقدم الاقتصادي لباكستان وكانت هناك نداءات حالية لتصحيح هذا الوضع، وقامت اضطرابات عديدة في باكستان الشرقية أسفرت عن استقالة محمد أيوب خان وتسليم السلطة إلى الجنرال يحيى خان في عام ١٨٣٩ هـ (١٩٦٩ م)، الذي أتبع أسلوباً خاطئاً في معالجة الأزمة، ومواجهة العاصفة في باكستان الشرقية، وترتب على جهوده وموقفه الخاطئ أن انفصلت باكستان الشرقية باسم بانغلاديش.

وفي عام ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) صدر دستور جديد للبلاد وبموجبه أجريت الانتخابات وفاز حزب عوامي بعدد ٢٩٢ من ٣٠٠ مقعد وصار بذلك مجيب الرحمن رئيساً للوزراء وقبلت بانغلاديش بهيئة الأمم عام ١٣٩٤ هـ. إلا أن حكم مجيب الرحمن لم يطل إذ قام ضده انقلاب بقيادة مشتاق أحمد في ١٣٥٩ هـ (١٩٧٥ م) وأطاح بحكمه.

٩ - المالديف

جمهورية المالديف مجموعة من الجزر تقع في المحيط الهندي إلى الجنوب الغربي من الهند وسيلان وعلى مسافة ٤٨٩٠ كم عن الطرف الجنوبي لشبه القارة الهندية، وعلى مسافة ٦٧٢ كم من جزيرة سيلان.

وتمتد على شكل مجموعة من الجزر من الشمال إلى الجنوب مكونا تسع عشرة مجموعة جزرية يزيد عدد جزرها على ٢٠٠٠ جزيرة، إلا أن بعضها يغمره الماء أثناء المد ويبقى ١٠٨٧ جزيرة ظاهرة بشكل دائم، ولا يوجد غير ٢٢٠ جزيرة فقط أهلة بالسكان. وتبلغ مساحتها مجموعة ٢٩٨ كيلومتراً مربعاً، ولا يزيد عدد سكانها

على ١٥٠ ألفاً، ويتكلم سكانها اللغة المالديفية.

وصل التجار المسلمون إلى جزر المالديف عام ٨٥٥ هـ، وبدأ بعض الناس يدينون بالإسلام، ولكن ظهر أثر المسلمين بشكل واضح عام ٥٤٥ هـ. ووصل أحد الدعاة إلى جزر المالديف أحد الدعاة وهو أبو البركات البربري فاستطاع - بإذن الله - أن يكون له أثر كبير، وأسلم الناس جميعاً حتى لم يبق في الجزر غير مسلم، وأسلم الملك وتسمى باسم محمد بن عبدالله.

زار ابن بطوطة الجزر عام ٧٤٤ هـ (١٣٤٣ م)، ولم يكن فيها غير مسلمين وفي عام ٩١٣ هـ (١٥٠٧ م) وصل البرتغاليون إلى جزر المالديف، واستطاعوا دخولها، وفرضوا سيطرتهم على الأهالي، وحاولوا التأثير على عقيدة السكان ففشلوا فشلاً ذريعاً.

وأعقب الهولنديون البرتغاليين في حكم الجزر، وحرصوا على تغيير عقيدة السكان، ولم يحصلوا على أية نتيجة بل وجدوا مقاومة صلبة من السكان، وفيها تحيد واضح. وأصبحت المالديف تدار من قبل حكومة سيلان.

وجاء الانكليز إلى الجزر عام ١٢١١ هـ (١٧٩٦ م)، وحلوا محل الهولنديين، ثم عدوا المالديف في عام ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م) محمية بريطانية.

وفي عام ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) منح سلطان المالديف شعبه دستوراً. وبعد مدة وفي عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) استقلت سيلان فوضعت المالديف تحت حماية التاج البريطاني مباشرة.

وفي عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣ م) أعلنت الجمهورية، وعين محمد أمين ديدي رئيساً للجمهورية، غير أنه لم يلبث أن رجع الحكم إلى السلطنة وعين السلطان محمد فريد ديدي سلطاناً على البلاد، وهو عم رئيس الجمهورية محمد أمين ديدي. كما اختير إبراهيم ناصر رئيساً للوزراء.

وتعهدت بريطانيا عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م) بدعم جزر المالديف مادياً، وبعد خمسة أعوام جرت اتفاقية بين بريطانيا والمالديف تأكيداً لاتفاقية عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) واحتفظت بريطانيا بموجبها بقاعدة جوية في جزيرة (جان) بمقاطعة (أصول). وقد جرى جدل عنيد حول هذه الاتفاقية ثم وقعت في كولومبو عاصمة

(سيري لانكا)، وحصلت الجزر على الاستقلال بعد هذه الاتفاقية، كما قبلت عضوا في الأمم المتحدة.

وفي عام ١٣٨٨ هـ (١٦٨ م) انتخب السيد إبراهيم ناصر رئيساً للجمهورية. ثم كان انتخاب مأمون عبدالقيوم رئيساً للجمهورية وجدد انتخابه ثلاث مرات وبعد المرة الثالثة جرى انقلاب عليه وذلك عام ١٤٠٩ هـ.

١٠ - اتحاد ماليزيا :

وتشمل شبه جزيرة الملايو، وشمال جزيرة بورنيو، وتبلغ مساحتها ٣٣٢٦٣٣ كيلو متراً مربعاً، وتتألف من ثلاث عشرة ولاية. إحدى عشرة منها في شبه جزيرة الملايو وهي: ١- كيلانتان. ٢- جوهور. ٣- باهانغ. ٤- سيلانغور. ٥- بيري. ٦- قدح. ٧- مالاكا. ٨- بينانغ. ٩- نيجري سيمبلان. ١٠- ترينغانو. ١١- بيرليز.

واثنتان في شمال بورنيو وهي: ١ - سراواك. ٢ - صباح. واتحاد ماليزيا مملكة، ينتخب الملك لمدة خمس سنوات عن طريق مؤتمر الحكام الذي يتألف من رؤساء الولايات. ولهذا المؤتمر سلطة استشارية.

انتشر الإسلام في ماليزيا عن طريق التجارة، وفي عام ٦٧٥ هـ أسلم ملك مالاكا وتسمى باسم سلطان محمد شاه وتبعه رعاياه. وخلفه بالحكم ابنه مظفر شاه. ومن مالاكا انتشر الاسلام إلى باقي الجهات.

وصل البرتغاليون إلى مالاكا عام ٩١٧ هـ (١٥١١ م)، وحاصروها، وعندما سقطت بأيدهم دقت أجراس الكنائس في روما ابتهاجاً، وعمل البرتغاليون على محاربة المسلمين والكيد لهم بكل وسيلة ملكوها. فقتلوا وفتكوا بأعداد كبيرة.

وفي ١٠٥١ هـ (١٦٤١ م) حل الهولنديون محل البرتغاليين، وتابعوا سياستهم في قتل المسلمين، وملاحقتهم.

ونتيجة التنافس الاستعماري، والاتفاقات التي تحدث بينهم لتوزيع مناطق

النفوذ فقد أصبحت المنطقة ضمن نفوذ بريطانيا منذ عام ١٢٠١ هـ (١٧٨٦ م)، واستأجرت شركة الهند الشرقية البريطانية جزيرة (بينانغ) من سلطان (قدح)، ومع دخول الاستعمار الانكليزي اتجهت أعداد من الصينيين والهنود نحو ماليزيا للعمل، وفتحت بريطانيا لهم الطريق، وسهلت لهم القدوم للعمل على تقليل نسبة المسلمين.

وفي عام ١٢٣٥ هـ (١٨٢٠ م) اتجهت بريطانيا نحو سنغافورة، وسيطرت شركة الهند الشرقية البريطانية على سنغافورة عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ م)، وحكمت بريطانيا ماليزيا من الهند، ثم من عدن، ولم تتدخل في بداية الأمر في شؤون السلطنات الداخلية.

وفي عام ١٩٢١ هـ (١٨٧٣ م) غيرت بريطانيا سياستها فدخلت في مفاوضات مع سلطان (بيرق) هدفها أن يتلقى السلطان نصائح المقيم البريطاني في كل الشؤون باستثناء تلك التي تتصل بالدين الإسلامي وبالعادات الملايوية، وقبل بعد ذلك سلطان (سيلانغور) أن يستقبل مقيماً عاماً بريطانياً عنده، وكذلك قبل كل من سلطان (باهانغ) و (ونغري سيمبلان).

وفي عام ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) دخلت هذه الولايات الأربع في اتحاد يديره كله مقيم بريطاني، ثم قبل سلطان (جورهور) معاهدة حماية بريطانية في السنة نفسها.

وفي عام ١٣٦٦ هـ (١٩٠٨ م) وافقت تايلاند بموجب اتفاق مع بريطانيا على أن تتنازل لها عن (كيلانتان) و (ترينغانو) و (بيرلين) و (قدح) والتي قبلت كل منها مقيماً بريطانياً عاماً ولكنها رفضت الانضمام إلى الاتحاد. كما رفضت جميع هذه الولايات الانضمام إلى الممتلكات البريطانية، وظلت السيادة في يد سلاطينها، وتحكم من قبل الاداريين في مستعمرة (اتفاقيات المضائق)، وكان المندوب السامي البريطاني في الملايو حاكماً لمستعمرة اتفاقيات المضائق.

أما بالنسبة إلى شمالي جزيرة بورنيو، فقد كان يتبع سلطان بروني، وفي عام ١٣٠٠ هـ تأسست الشركة البريطانية لشمالي بورنيو، ولم يأت عام ١٣٠٦ هـ إلا وكان الوجود البريطاني قد امتد على ساراواك، وبيروني، وصباح وغدت محميات بريطانية.

وتطورت البلاد بعد افتتاح قناة السويس، وإدخال زراعة المطاط، ومد السكك الحديدية، ووجود مناجم القصدير، ولكن هذا قد رافقه المهاجرين الصينيين والهنود.

وفي عام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) اجتاحت اليابان الملايو، وشمال بورنيو، وسنغافورة، واضطر اليابانيون أن يخلوا المنطقة قبل أن تضع الحرب العالمية أوزارها، ولما عاد البريطانيون إلى الملايو اقترحوا أن يقوم اتحاد بين المحميات البريطانية التسع في الملايو. ونشأت منظمة الملايو الوطنية المتحدة للإعداد لهذا المشروع.

وفي عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) تأسس اتحاد الملايو، وتمتعت كل ولاية بحكمها الذاتي، ولكن تحت إشراف حكومة مركزية، وظل الحكام يتمتعون بسيادتهم في الإمارات المختلفة عدا (مالاكا) و(بيانغ) اللتين بقيتا مستعمرتين بريطانيتين. وفي هذه الأثناء منحت أعداد من الصينيين جنسية البلاد.

ودخلت (سراواك) ضمن مستعمرات التاج البريطاني عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) وقد رأى (الراجا) الذي عاد إلى المنطقة ذلك لمصلحته بسبب غنى المنطقة، وكذلك كانت شمالي بورنيو مستعمرة بريطانية.

وفي عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) صدر دستور للبلاد، وأجريت الانتخابات، وتألقت جبهة ائتلافية برئاسة تنكو عبدالرحمن وتضم منظمة الملايو الوطنية المتحدة، والجماعة الملايو الصينية، ومؤتمر الملايويين الهنود، وحصلت في الانتخابات على ٥١ مقعداً من أصل ٥٢ مقعداً.

وفي مؤتمر لندن عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) تقرر استقلال اتحاد الملايو الذاتي في الشؤون الداخلية، وبعد عام تم الاستقلال الذاتي ضمن رابطة الشعوب البريطانية، وفي الوقت نفسه فقد حصلت سنغافورة على الاستقلال الذاتي.

وحصل قتال في سنغافورة عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م) فأعلنت حالة الطوارئ وفي عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) جرت مفاوضات ليقوم اتحاد بين الملايو، وسنغافورة، وشمال بورنيو، وقد تم فعلاً عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) إلا أن (بروني) رغبت في البقاء وحدها. غير أن هذا الاتحاد الذي أطلق عليه اتحاد

ماليزيا قد لقي معارضة شديدة وخاصة من أندونيسيا التي ترى أن شمالي بورنيو ليس إلا جزءاً من جزيرة بورنيو الكبيرة والتي هي قطعة من أندونيسيا. ومن الفلبين التي ترى من جهتها أن شمالي بورنيو كان دولة واحدة من جزر صولو التي هي جزء منها. ولكن اعترفت الدولتان بالأمر الواقع من مرور الزمن. وفي عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) خرجت سنغافورة من دولة الاتحاد.

١١ — أندونيسيا :

أندونيسيا من أكبر الدول الإسلامية في آسيا، إذ يبلغ عدد سكانها أكثر من ١٥٠ مليون نسمة، أكثر من ٩٢٪ منهم يعتنقون الإسلام، وعدة ملايين يعتنقون النصرانية وباقي السكان يدينون بديانات مختلفة كالبودية والكنفوشية والهندوسية. وهي تمثل بذلك أكبر تجمع للمسلمين في العالم الإسلامي، ورغم بعد هذه البلاد عن العالم العربي إلا أنها تحاول على الدوام أن تكون قريبة الصلة به. وقد أسهم الإسلام بدور كبير في تكوين هذه الدولة وتوحيدها والإبقاء على كيائها. وكان الإسلام قد انتشر فيها عن طريق التجار العرب والأندونيسيين على السواء، لاسيما في عهد هارون الرشيد حيث كان التجار من الجانبين يلتقون في موانئ الخليج العربي لتبادل التجارة. وحلّ الإسلام محل الوثينة البوذية وباقي الوثينات.

ويطلق اسم أندونيسيا على مجموعة الجزر الواقعة في جنوب شرقى آسيا والتي تضم سومطرة، وجاوة، وبورنيو، وسيليس، وتيمور، وجزائر المولوك، وغينيا الجديدة، وشبه جزيرة الملايو، وبعض الجزر الأخرى المبعثرة. وقد أطلق على مجموعة الجزر هذه أسماء متعددة فسميت باسم جزر الملايو، وباسم جزر الهند الشرقية وغيرها، وأطلق عليها العرب اسم جاوه، ومازالوا حتى اليوم يحتفظون بتلك التسمية.

ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري أخذ اسم أندونيسيا يغلب على ماعده من الأسماء، ومعناه جزر الهند لأن كلمة أندونيسيا تتكون من جزءين هما: أندو ومعناها الهند ونيسيا ومعناها الجزر. ويطلق هذا الاسم حالياً من

مجموعة الجزر التي كانت خاضعة لحكم هولندا، ولكن اسم أندونيسيا من الناحية الجغرافية يشمل أيضا جزر الفلبين التي كانت تابعة للولايات المتحدة الأمريكية.

ويمكننا إدراك أهمية تلك الجزر في جنوب شرقى آسيا إذا ما عرفنا أن مساحتها تبلغ ١٩٤١٩ر٣٧١ كم^٢ أى مايعادل ٦٨ مرة مساحة هولندا التي كانت تستعمرها. ولكن هذه المساحة من الأرض ليست متصلة، بل هي عبارة عن جزر يفصل بعضها عن بعض بحار داخلية، تتناثر طولا في منطقة شاسعة تبلغ ٤٦٠٠ كم^٢ أى مايساوى المسافة بين شواطئ الخليج العربي شرقا، وسواحل البرتغال غربا، وعرضا في مسافة ٢٠٠٠ كم^٢.

وتنقسم تلك الجزر إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: وتتكون من جزيرة سومطرة، وجاوة، وبورنيو، وسيليس، وتسمى «صوندا الكبرى».

المجموعة الثانية: وهي مجموعة الجزر الصغرى التي تقع بين جزيرة غينيا الجديدة شرقا وجزيرة جاوة غربا وتسمى «صوندا الصغرى».

المجموعة الثالثة: تقع بين سيليس غربا وغينيا الجديدة شرقا، وتسمى جزر الملوك أو البهارات التي ورد ذكرها كثيرا في كتب التاريخ.

فهذه الجزر إذن تتمتع بموقع ممتاز وذو أهمية خاصة، ويموارد أولية ضخمة، وبعدد كبير من السكان يمكن استخدامه في استغلال موارد الأرض لصالح الصناعات الأوربية. كما أن هذا العدد من السكان يستهلك كميات ضخمة من المصنوعات الأوربية، أي أن أندونيسيا ستكون سوقا رائجة لتلك المصنوعات. فلا عجب إذا ما بدأ التنافس الاستعماري البرتغالى، والهولندى، والانكليزي، والإسباني، والأمريكي.

التنافس الاستعماري والاستعمار الهولندى :

عرفت أندونيسيا الوحدة السياسية منذ القرن الثاني قبل الهجرة حتى القرن السابع تحت حكم امبراطورية (سري ويجايا). وبعد سقوط تلك الامبراطورية في أواخر القرن السابع قامت على أنقاضها امبراطورية أخرى هي امبراطورية

(ماجافاهيت ٧٩٦-٨٨٣ هـ) واستطاعت تلك الامبراطورية أن توحد جزيرة جاوة، وجزر صوندا الصغرى، وجزيرة سيليس، وجزر البهارات، وبورنيو، وشبه جزيرة الملايو، وجزيرة سنغافورة، وسومطرة تحت حكمها، وأن تسيطر على تجارة تلك المنطقة سواء بينها وبين الصين، أو بينها وبين التجار الهنود الذين يقومون بتسليمها للتجار العرب في الخليج العربي حيث تتركز في مدينة بغداد، ومنها تسير في طريقين: أحدهما يمر بتركيا إلى أوروبا، وقد توقفت التجارة عن هذه الطريق بعد فتح القسطنطينية علي أيدي العثمانيين عام ٨٥٧ للصراع الذي قام بين العثمانيين وأوروبا، والطريق الأخرى تمر بمصر ومنها إلى أوروبا.

وعلى العموم، فقد كان لانتشار الإسلام أثره العميق في قيام ممالك أندونيسية متعددة في تلك الجزر، مثل مملكة (بتام) التي أسسها الملك حسن الدين في جاوة الغربية، ومملكة (متارام) التي أقامها رجل عسكري يدعى «سنافاني» في شرق جاوة. وبذلك أصبحت جزيرة جاوة مركز إشعاع للدين الإسلامي، وانتقل منها إلى غيرها من الجزر. ومملكته (آتشيه) في شمال سومطرة، ومملكة (ديباك) في وسط جاوة والتي أقامها رمضان فاطمي عام ٨٣٢. ومملكة (بالمبانغ) في جنوب سومطرة وبانتشار الممالك الإسلامية قضي على امبراطورية (ماجافاهيت) وانتهى حكم الهنود في تاريخ أندونيسيا.

وفي الوقت الذي بدأ المسلمون يشتون أقدامهم في أندونيسيا كانت مخالب الأوربيين من جهة ثانية تنشب فيها لتجد لها مركزا ثابتا مستقرا، وذلك لحقدهم الصليبي الذي حمل المظهر الاقتصادي بحاجتهم إلى البهارات المرتفعة الثمن في أوروبا. وقد شجعهم على ذلك ماركو بولو (٦٥٢-٧٢٤ هـ) الرحالة الإيطالي الذي غادر البندقية في عام ٦٩٣ هـ متجها إلى الصين، ونزل بسومطرة بعض الوقت، وعندما علمت دول أوروبا بأنباء رحلته هذه وما شاهده من كنوز الشرق ومنتجاته أخذت تتطلع إلى اليوم الذي تحتكر فيه تجارة الشرق بعد انتزاعها من أيدي العرب، وتضرب الإسلام هناك كمرحلة من مراحل عملها الصليبي.

وكانت البرتغال أولى الدول الأوروبية التي شقت طريقها في ميدان الاستعمار، وذلك إثر خروج المسلمين من الأندلس، فانجذبت البرتغال إلى الشرق عن طريق رحلاتها الصليبية والتي سميت بالاستكشافية للوصول إلى الهند بدءا برحلة (هنري

الملاح) ومرورا برحلة (بارثلميوديان) الذي استطاع الوصول إلى رأس الرجاء الصالح (جنوبي إفريقية) ووصولاً (بفاسكو دي غاما) الذي وصل إلى الهند عام ٩٠٤ هـ واتخذ البرتغاليون (غوا) على الساحل الغربي للهند عاصمة لهم. وتمكنوا من توطيد نفوذهم في الهند وخصوصاً في أيام الحاكم البرتغالي (الفونسو البوكيرك ٨٥٧-٩٢١ هـ)، وأن يسيطروا على التجارة في غربي المحيط الهندي، وتطلعوا إلى الجزء الشرقي حيث توجد جزر الهند الشرقية.

وقد نشبت معارك شديدة بين الأندونيسيين المسلمين من ناحية وبين البرتغاليين من ناحية أخرى. وقد اتخذت تلك الحرب شكل الحروب الصليبية، وذلك نظراً لقرب عهد البرتغاليين بمحاربة المسلمين والقضاء عليهم في الأندلس، بل لقد كان من أهم الدوافع التي حدثت بالبرتغاليين إلى القيام بالحركة الكشفية - على رأيهم - هو ضرب اقتصاديات المسلمين والسيطرة على تجارتهم ومحاولة نشر الدين النصراني بالتعاون مع الأحباش، ولذا فإن المقاومة ضدهم كانت عنيفة من قبل المسلمين، وبالعكس فإن البرتغاليين الحاقدين على الإسلام والمسلمين استخدموا كافة وسائل الإرهاب والقمع الوحشي ضد المسلمين، ومنها إعدام دفعات متتالية من الأهالي وبناء حصن بحجارة انتزعوها من قبور المسلمين.

توالت حملات البرتغاليين على الصين وسيام وجزر الملوك أو البهارات بهدف الاستيلاء على البهارات (التوابل) واحتكارها لصالحهم وحدهم. كما أرسلوا البعث التنصيرية إلى تلك الجزر للعمل على نشر النصرانية فيها. واستطاعوا بالفعل أن يدخلوا عدداً قليلاً من سكان أندونيسيا في ديانتهم، واتخذوهم أتباعاً لهم ومؤيدين لسياستهم الاستعمارية في تلك البلاد.

ومنذ ذلك الوقت كثر سفر التجار الأوربيين إلى أندونيسيا والتعامل مع تجارها مباشرة دون وساطة التجار العرب، ليحققوا بذلك أكبر قدر من الربح من جهة، ولإضعاف العرب من جهة أخرى.

وعلى الرغم من تعدد الممالك الإسلامية في أندونيسيا وعدم توحيد قواها أمام الغزو البرتغالي، إلا أن المسلمين قد قاموا بثورات ضد البرتغاليين وقاموا بحركات ضد النصرانية، وخاصة بعد أن قتل أحد ملوك أندونيسيا غدرا عام ٩٧٨ هـ (١٥٧٠ م) وهو هارون سلطان «ترنات» الذي كانت سلطته تمتد حتى الفلبين.

وظل البرتغاليون يحتكرون نقل تجارة التوابل إلى أوروبا حتى عام ٩٨٨ هـ (١٥٨٠ م) حيث استولت إسبانيا على البرتغال، فألت إليها البرتغال بكل ما لها من ممتلكات. وبذلك أصبحت إسبانيا الدولة المسؤولة عن البرتغال وعن ممتلكاتها إزاء أى عدوان يقع عليها من دولة أخرى. كما أن إسبانيا لم تستطع أن تحل محلها حيث أن الأسطول الإسباني قد تحطم عام ٩٩٧ هـ (١٥٨٨ م) في معركة الأرمادا البحرية مع انكلترا، وهذا ما هيأ الجو لدول أخرى أن تتقدم، فأُسِّرت هولندا التي كانت في حرب مع الإسبان - سادتها وحكامها السابقون - وتحررت من حكمهم وحصلت على استقلالها، فلم تعد تخشى أسطولهم، فأصبحت سفنها تنتقل في تلك البحار دون خوف من منازع قوى.

جاء الهولنديون إلى أندونيسيا كمستعمرين، ولكن استعمارهم كان ذا صفة تجارية صرفة فوصلوا إلى سومطرة وجاوة في عام ١٠٠٥ هـ (١٥٩٦ م) واصطدم الأهالي معهم، غير أن الأهالي خدعوا بهم واعتبروهم منقذين لهم من البرتغاليين، وحاول الهولنديون بطرق مخادعة كسب ود الشعب وعطفة فأقاموا معه العلاقات الودية، وأزالوا من مخيلته الصورة البشعة للبرتغاليين، مما دفع الأندونيسيين إلى الاعتقاد بأن القادمين الجدد حلفاء لهم أمام البرتغال فرحبوا بهم. ولذا فإنهم (الأندونيسيين) قد عقدوا معاهدة تحالف مع الهولنديين في عام ١٠٠٩ هـ (١٦٠٠ م) في جزيرة (أمبونيا)، وتنص على منح الهولنديين حق إقامة الحصون للدفاع عن الجزيرة، مقابل احتكارهم لتجارة البهارات، وقد سارت هولندا على سياسة عقد المعاهدات بين الملوك والسلاطين من حين لآخر لتوطيد نفوذها وسيطرتها على هذه الجزر.

وترتب على عقد تلك المعاهدات قيام عددٍ من الشركات الهولندية لاستغلال موارد الثروة في البلاد، فساد التنافس بين ممثليها بشكل حاد أدى إلى الأضرار بمصلحة الهولنديين، فقامت الحكومة الهولندية بتوحيد هذه الشركات في شركة واحدة هي شركة الهند الشرقية الهولندية ١٠١١ هـ (١٦٠٢). وعينت هولندا (كون) رئيساً وحاكماً عاماً لجميع وكلاء الشركة في أندونيسيا. وبدأت هولندا تقيم الحصون والقلاع. واتخذت الشركة من مدينة بتافيا «جاكرتا» حالياً مقراً لها.

بدأت المنافسة بين انكلترا وهولندا في أندونيسيا منذ عام ١٠٢٨ هـ

(١٦١٩ م)، وانتصر الانجليز على (كون) رئيس الشركة بمساعدة الأهالي، وفر المذكور إلى جزر (المولوك). ولكن حصون (بتافيا) صمدت ولم يستطيعوا الاستيلاء عليها. كما دخل الهولنديون في حروب مع حكام الجزر الأندونيسية الواحد تلو الآخر إلى أن تمكنوا من توطيد سلطتهم في أندونيسيا. ومع ذلك فإن المنافسة بين انكلترا وهولندا قد بقيت في حين أن الحرب قد انتهت بين الطرفين على أساس إرغام هولندا على إلغاء احتكارها التجاري في أندونيسيا والهند، فتضاعفت بذلك خسائر شركة الهند الشرقية الهولندية وبلغت عام ١٢٠٦ هـ (١٧٩١ م) مبلغ ٩٦ مليون روبية. وفقدت الشركة سلطانها التجاري، وتحولت إلى السياسة والحكم، وزادت خسارة الشركة، وزادت ديونها إلى أن انتهت بصفة نهائية في عام ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م) وحلت الحكومة الهولندية محلها في تسير أمور البلاد.

ومنذ ذلك الوقت أخذت الحكومة الهولندية تستعمر أندونيسيا، وتسير على السياسة التعسفية نفسها والتي سارت عليها الشركة في حكمها لتلك البلاد. واتبع الهولنديون نظام الحكم غير المباشر ليسهل لهم السيطرة على هذه المساحات الواسعة فكانوا ينصبون الأمراء والزعماء المحليين بحكم الأهالي، ويعرضونهم لسخط المواطنين وتدميرهم، وأدخلت هولندا بعض المحاصيل الجديدة إلى أندونيسيا وأجبرت الأهالي على زراعتها، وتسليم محصولها إلى السلطات الحاكمة بالثمن الذي تحدده، كما استنزفوا ثروات البلاد وخيراتهم.

وفي خلال الحروب النابليونية التي اجتاحت أوروبا في مطلع القرن الثالث عشر الهجري استولت قوات النابليون على هولندا، وحاولت أن تمد نشاطها خارج حدود أوروبا، للاستيلاء على ممتلكات هولندا في أندونيسيا في عام ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م)، ولكن بريطانيا سبقتها إليها في تلك السنة. فدخلت في حوزتها جزيرة (جاوة)، وجزيرة (تيمور)، ومدينة (ماكاسار) في سيليبس، وجنوبي (سومطرة)، وتم هذا الاحتلال بواسطة شركة الهند الشرقية الانكليزية. وفي ظل الحكم الانكليزي المؤقت تمتعت أندونيسيا بشيء من الحرية في إدارة شؤونها وفي استغلال مواردها.

وبانهزام نابليون وبعودة استقلال هولندا مرة ثانية، تعود ممتلكاتها في أندونيسيا إليها، بموجب اتفاق بينها وبين بريطانيا عقد عام ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م)، تخلت

بموجبه هولندا عن (سيلان) و (الكاب) في جنوب إفريقيا، وبعض جزر الهند الشرقية، وجزر الهند الغربية وذلك مقابل محافظة الانكليز على ممتلكاتها في أندونيسيا خلال حروب نابليون. ورفع الهولنديون رايته من جديد فوق (بتافيا). كما استولت بريطانيا على جزيرة (سغافورة) وذلك لمركزها الاستراتيجي الممتاز في منطقة الشرق الأقصى وجنوب شرقي آسيا. وبذلك سيطرت بريطانيا على سغافورة والملايو واحتجت هولندا على ذلك إلا أنها عادت فوافقت بعد أن تنازل الانكليز عن قطعة من الأرض غربي سومطرة لهولندا بموجب اتفاق جديد عقد بينهما عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ م)، وتعهد الطرفان فيه باحترام حدود مستعمراتها. وبهذا ينتهي التنافس التجاري والسياسي بين الدولتين في الشرق الأقصى.

ونتيجة للحروب المتعددة التي خاضتها هولندا في القارة الأوربية وفي أندونيسيا، تراكمت الديون على الحكومة الهولندية، فزادت الضرائب على الأندونيسيين، وأجبرت الأهالي على زراعة محاصيل معينة تحتاجها السوق العالمية تنفيذا لسياسة التوجيه الاقتصادي التي اتبعتها هولندا فثار الشعب الأندونيسي وقاوم المستعمر. كما أخذت هولندا منذ عام ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) تحكم أندونيسيا عن طريق وزير المستعمرات، وترى أن مهمة أندونيسيا هي العمل على رفاهية الشعب الهولندي. وقد مر تطور النفوذ الهولندي في أندونيسيا بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى ١٢٣٢-١٢٦٧ هـ (١٨١٧-١٨٥٠ م) وهي مرحلة البناء والتشييد، ففي خلالها خاضت هولندا حروبا ضد بريطانيا وبلجيكا، وضد الأندونيسيين (الأمير ديبونيجيرو) فارتبكت مآلتها، واشتدت حاجتها إلى المال، وبالتالي إلى فرض ضرائب باهظة على السكان الأندونيسيين. ولهذا فقد اقتصرَت مهمة السلطات الهولندية الحاكمة في تلك المدة على توطيد نفوذها السياسي والاقتصادي في جزيرة جاوة، ولم تهتم كثيرا بالجزر الأخرى إلا إذا سنحت الظروف بذلك.

المرحلة الثانية ١٢٦٧-١٣٢٢ هـ (١٨٥٠-١٩٠٤ م) وفي خلال تلك المدة بدأت الأوضاع تستقر بالنسبة للهولنديين في جزيرة جاوة، فبدأوا يتطلعون إلى توسيع ملكهم، فحدثت بينهم وبين مملكة (آتشيه) في شمالي سومطرة حرب مقدسة كبدهم خسائر كبيرة في الأموال والأنفس.

المرحلة الثالثة ١٣٢٢-١٣٣٣ هـ (١٨٠٤-١٩١٤ م) وفي هذه المدة بلغ النفوذ الهولندي أوج قوته، فاستطاعت هولندا أن تخضع معظم ملوك أندونيسيا لسلطانها، إما بطريق الحرب أو بطريق الخدعة. ولكنها لم تحاول أن تظهر للشعب الأندونيسي بوجهها الاستعماري البغيض، فحكمت البلاد عن طريق حكامها وسلطينها القدامى، مع الاحتفاظ لهم بما كانوا يتمتعون به من أبهة وجاه.

أندونيسيا خلال الحرب العالمية الأولى:

كانت الأوضاع الاقتصادية في أندونيسيا تتجه نحو حرية التجارة التي أخذت بها هولندا منذ عام ١٢٨٧ هـ (١٨٦٩ م)، ولكنها في الوقت نفسه احتفظت لنفسها بإدارة المزارع الكبيرة والإشراف على استغلال المناجم وشؤون المواصلات. ولكن الانقلاب الصناعي قد أحدث تغييرا كبيرا في اقتصاد أندونيسيا لأن الدول الصناعية بدأت تتكالب على ضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة، فكانت أندونيسيا ميدانا خصبا لتنافس الدول الصناعية.

وقد شجعت هولندا الشركات ورؤوس الأموال الأجنبية على استثمار أموالها في أندونيسيا، باذلة لها كل عون ومساعدة بهدف ضمان مساندة الدول الأوربية والأمريكية لها في استعمار أندونيسيا. وبفضل تلك السياسة الاقتصادية الجديدة، ازدادت هجرة الأوروبيين والآسيويين إلى أندونيسيا، وتضاعف نشاطهم الاقتصادي لاستغلال موارد البلاد. وفي خضم هذا النشاط الأجنبي في أندونيسيا، أخذ الأندونيسيون يشقون طريقهم بخطوات ثابتة نحو حياة اجتماعية ودينية وسياسية، ونتيجة لذلك ساءت أحوال الشعب الأندونيسي بسبب امتلاك الأجانب للشركات والأراضي والمراكز الرئيسية في الدولة، ولم يبق للأندونيسيين إلا الاشتغال كأجراء بأجر زهيد.

وخلال الحرب العالمية الأولى أصبحت أندونيسيا مركزاً لتموين الأطراف المتحاربة (دول الوفاق والوسط) وذلك نظرا لوقوف هولندا على الحياد بين الكتلتين المتنازعتين فقد استفادت هولندا من هذا الوضع على حساب الشعب الأندونيسي الذي كان في حاجة ماسة إلى المواد الغذائية الضرورية والتي كانت تباع للمتحاربين. ونتيجة لذلك تعرض الأهالي للمجاعات المتكررة لعدة سنوات، لأن

الإنتاج الأندونيسي كان مخصصا للتصدير، ولجأ الناس إلى أوراق الأشجار وجذورها يستعيضون بها عن الطعام.

وقد صبر الأندونيسيون على هذا الضيم، على أمل تنفيذ ماوعدت به هولندا من منح أندونيسيا استقلالاً داخلياً في إدارة شؤونها. ولم يعلم الأندونيسيون أن هذه الوعود ماهي إلا بمثابة تخدير للشعوب الضعيفة لكي تهدأ وتستكين، ريثما ينجلي الموقف. وبانتهاء الحرب العالمية الأولى ١٣٣٧ هـ (١٩١٨ م) خيبت هولندا آمال الأندونيسيين ولم تعر مطالبهم أذناً صاغية، كما أن مؤتمر الصلح لم يقرر شيئاً بشأنهم. وازدادت أوضاع الأندونيسيين سوءاً واستمر هذا الوضع طوال مدة الحكم الهولندي ولم يكن أمامهم مفر من المقاومة.

المقاومة الأندونيسية منذ الاحتلال وحتى الاستقلال :

شعر الشعب الأندونيسي باستغلال المستعمر لموارده وثرواته منذ أن وطأ أرض بلاده وأدرك أبعاد السيطرة الاستعمارية وأهدافها ضد دينه. ولم تهدأ مقاومة الشعب الأندونيسي للمستعمر منذ قدومه وحتى رحيله، فكانت المقاومة تسكن تارة وتشتد أخرى، ويقابل البطش والجبروت بروح مؤمنة بالحق والإسلام فيزداد الشعب عناداً وإصراراً على التحرر والاستقلال.

وفي القرن الحادي عشر قاد الأمير عبدالفتاح سلطان (بتنام) حركة تحررية ضد المستعمر، وجمع حوله الآلاف من الرجال الأشداء، وكون جيشاً من الفدائيين أقصّ مضجع الاستعمار، وبنى أسطولا قويا كما تحالف مع كل من الدولة العثمانية وانكلترا للوقوف في وجه الهولنديين. غير أن الهولنديين لجأوا إلى الخيانة ليقوضوا حركته وتمكنوا في النهاية من القضاء على ثورته وأسرته.

وبعد ذلك قاد (سرياتي) حركة مقاومة في جاوة واستمرت هذه الحركة عدة سنوات وانتهت بمقتله، ونفى زعماء وقادة تلك الحركة.

وفي القرن الثالث عشر قاد الأمير (ديبونيجيرو) أحد كبار علماء جاوة المسلمين حركة المقاومة ضد الهولنديين لتعسفهم وظلمهم للسكان، فتطورت المقاومة إلى حرب طويلة الأمد، بدأت في منتصف عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م)، واستمرت حوالي خمس سنوات، تكبدت هولندا خلالها خسائر فادحة من الأموال والأنفس.

ويقدر عدد القتلى من الهولنديين بخمسة عشر ألفاً.

ولما يثست هولندا من التغلب على الأمير لجأت إلى سلاح الخديعة، فطالبت بالدخول في مفاوضات معه لوضع حد لهذا النزاع بالطرق الودية، وذلك في سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣١ م) ولكنها غررت به، وقبضت عليه أثناء المفاوضات، ونقلته إلى جزيرة سيليبس، حيث بقي مسجوناً بها إلى وفاته في ١٢٧٢ هـ (١٨٥٤ م).

ويعد الأمير (ديبونيجيرو) من المجاهدين المسلمين الذين ضربوا أروع الأمثال في محاربة الاستعمار الهولندي، ومن الذين دوخوا قواته، وكبدها خسائر فادحة. وعندما فشلت قوات الاستعمار في أن تهزمه في ميدان الشرف والجهاد، لجأت إلى أسلحة خسيسة لا يعرفها المسلمون أو بمعنى أصح لا يعرفها خلق المسلم. ولكن حركته كانت الشعلة ومنارة للأجيال من بعده، وتحولت حركته إلى نضال عام قادة الأهالي لسنوات، وأصبح (ديبونيجيرو) بعد ذلك من أعلام الكفاح في أندونيسيا وقد أطلق اسمه على أهم شوارع العاصمة جاكارتا.

وتلا ذلك حروب جماعة (بدري) الإسلامية التي قادها مؤيدوها وأنصارها، وأعلنوا الجهاد واستطاعوا الانتصار، وأقاموا حكماً يرأسه ثمانية علماء، ومن أشهر الأبطال فيها الشيخ مصطفى سحاب، ثم أشعلت هولندا الحرب الأهلية، بينما أعلنت الحرب هي على جماعة (بدري)، قد استمرت هذه الحرب مدة خمسة عشر عاماً ١٢٣٧-١٢٥٣ هـ (١٨٢٥-١٨٤٠ م). وكان الهولنديون كعادتهم ينتصرون على الملوك المحليين لا بالقوة العسكرية وإنما بالخديعة والمكر والخيانة، وإن كان النصر يتم أحياناً على بعض الملوك بالعنف والقوة وأفضلية السلاح.

ولعل أشهر هذه الحروب التي سجت في غير جاوة لإحكام سيطرة هولندا على الجزر، هي الحرب مع مملكة (آتشية) التي استمرت إحدى وثلاثين سنة ١٢٩٠-١٣٢٢ هـ (١٨٧٢-١٩٠٣ م) كبدت هولندا خسائر فادحة في الأموال والأنفس، لأن سكان هذه المملكة قد اعتقدوا أن بلادهم أرض حرام، فعليهم ألا يمكنوا الهولنديين من أن يطأوها بأقدامهم، وشنوا حرباً مقدسة على الهولنديين، ونموذجاً حياً لقوة الشعب الأندونيسي وصبره وشجاعته. وفي الوقت نفسه تزعمت الحركة الوطنية في أندونيسيا الزعيمة الأندونيسية (رادن أجنيح كارتيني) ١٢٦٧-١٣٢٢ هـ (١٨٧٩-١٩٠٣ م) وهي إحدى الشخصيات النسائية

الكبيرة، وأخذت على عاتقها قيادة الحركة الوطنية لتخليص البلاد من رقة الاستعمار، مستغلة سوء الأحوال الداخلية، وما يلاقيه الشعب من عنت، وما يكابده من فقر وحاجة، ليس لقلة موارد البلاد بل للسياسة الاستعمارية القائمة، وأعقب ذلك انتفاضات واضطرابات متفرقة حتى عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م).

وكانت أندونيسيا خلال الحرب العالمية الأولى أهم مصدر لتموين تلك الحرب بأطرافها المختلفة نظراً لأن هولندا كانت تقف على الحياد، فاستفادت الشركات الهولندية والأجنبية وجنت أرباحاً ضخمة على حساب الشعب الأندونيسي، الذي صبر وتحمل المجاعة والفقر والحاجة من أجل حصوله على الاستقلال تنفيذاً لوعود هولندا الخادعة.

وبانتهاء الحرب العالمية الأولى في عام ١٣٣٧ هـ (١٩١٨ م)، تطلع الأندونيسيون إلى هولندا لتنفيذ ما وعدت به، ولكنها لم تعر مطالب الأندونيسيين أدناً صاغية، شأنها في ذلك شأن الدول المجتمعة في مؤتمر الصلح في باريس.

كان على أندونيسيا بعد أن وجدت أبواب مؤتمر الصلح موصدة أمامها أن تسلك طريق الجهاد، لتحصل على الحرية والاستقلال، فظهرت الأحزاب السياسية والجمعيات التي تبنت قضية الاستقلال، ولعب العلماء المسلمون دوراً كبيراً فيها. ومن هذه الأحزاب: حزب (بودي أوتومو)، وحزب (شركت إسلام)، والجمعية المحمدية التي تعد من أكبر الجمعيات الإسلامية في العالم. وكذلك الجمعية العائشية الخاصة بالسيدات، وجمعية باسواندان، وحزب جافة الفتاة، وحزب الأمراء، وجمعية نهضة العلماء، والجمعية الوصلية، وجمعية اتحاد علماء المسلمين، وغيرها من الجمعيات والأحزاب التي بلغ عددها ٥٧ جمعية.

وإذ ألقينا نظرة فاحصة على تلك الأحزاب والجمعيات نجد أن الأحزاب الإسلامية تمثل نسبة لها خطرها وقوتها. ومن ثم فطابع الجهاد الإسلامي كان يصبغ كفاح الأندونيسيين من أجل التخلص من الحكم الهولندي ونيل الاستقلال.

وقد تبلورت تلك الأحزاب، وخصوصاً الأحزاب السياسية، في حزين رئيسيين هما: حزب القمصان الخضراء، وحزب القمصان الحمراء. وقد اختلفت وسائل

الحزبين في تحقيق الاستقلال.

فالحزب الأول، وهو حزب القمصان الخضراء، كانت سياسته تهدف إلى التعاون مع السلطات الهولندية الحاكمة للوصول إلى الإستقلال التدريجي. وبناء عليه فقد طالب هذا الحزب الحكومة الهولندية بضرورة الوفاء بتعهداتها بشأن تكوين مجلس نيابي من الأندونيسيين للاشتراك معها في إدارة البلاد.

ولما كان من صالح الهولنديين تقوية هذا الحزب المعتدل ضد الحزب الآخر المتطرف من وجهة نظرهم، فقد وجدوا ضرورة الاستجابة إلى مطالبه بشكل صوري يرضى الأندونيسيين من ناحية الشكل، والهولنديين من ناحية الجوهر والموضوع. ولذلك قامت هولندا بإنشاء «مجلس الرعية» الذي يتكون من ستين نائبا، نصفهم من الأندونيسيين، والنصف الآخر يشترك فيه الهولنديون بخمسة وعشرين عضواً، والأعضاء الخمسة الباقون يمثلون مصالح الأجانب المقيمين بأندونيسيا، وللحكومة الهولندية الحق في تعيين رئيس المجلس، أما باقي الأعضاء فينتخبهم الشعب بطريقة غير مباشرة. وهذا يعني أن أغلبية المجلس موالية لهولندا، هذا فضلا عن أن المجلس ليس له صفة الشرعية إذ لم تكن الحكومة الأندونيسية مسؤولة أمامه، ولذا فإن الشعب الأندونيسي قد أنكر فكرة التعاون مع الهولنديين إنكاراً تاماً.

أما الحزب الآخر وهو حزب القمصان الحمراء فكان لا يؤمن بسياسة التعاون مع الحكومة، ويرى أن هذا الطريق لا يوصل إلى استقلال البلاد، فالاستقلال الحقيقي لن يتحقق بالتعاون الذي تريده هولندا ولا بالمفاوضات.

وبقيام الثورة الروسية في عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م) أخذت مبادئها تتسرب إلى أندونيسيا، وتجد صداها لدى أعضاء هذا الحزب (حزب القمصان الحمراء)، وترتب على ذلك أن كوّن هذا الحزب حزباً جديداً أطلق عليه اسم (شركت رعيت) أي حزب الجماهير الذي سمي فيما بعد باسم «الحزب الشيوعي الأندونيسي» والذي أصبح من أقوى الأحزاب السياسية في أندونيسيا.

كان حزب (شركت إسلام) يشترك مع حزب القمصان الخضراء في سياسة التعاون مع الحكومة الهولندية، ظنا منه أن تلك السياسة ستحقق ماتصبو إليه

البلاد من استقلال دون إراقة دماء. ولكنه عندما وجد أن تلك التجربة فاشلة، وأن (مجلس الرعية) لم يكن سوى أداة تتحكم بواسطتها هولندا في البلاد، سحب أعضائه من المجلس المذكور وقرر الانضواء تحت قيادة (حزب الجماهير) لتوحيد جهودها في مقاومة الاستعمار الهولندي، وكي لا ينفرد ذلك الحزب في قيادة الشعب.

وياندماج الحزبين قويت حركة المقاومة للنفوذ الهولندي واشتعلت نار الثورة في غربي جزيرة جاوة وفي سومطرة الغربية في عامي ١٣٤٥ هـ - ١٣٤٦ هـ. وكادت تلك الثورة تعصف بها هولندا من نفوذ في أندونيسيا لولا تكاتف الشركات الأجنبية، ومعاونتها للحكومة في إخماد الثورة خشية ضياع مصالحها في أندونيسيا. وبذلك تمكنت هولندا من القضاء على الثورة، ونفت زعماء الحركة البالغ عددهم أربعة آلاف تاجر من صفوف المثقفين الأندونيسيين إلى غينيا الجديدة (الأرض الحمراء) والتي تكثر بها المستنقعات والأوبئة الفتاكة. وحكمت هولندا بعد ذلك البلاد حكما مطلقا وقيدت الحريات واضطهدت المسلمين، واستمر ذلك الوضع حتى قيام الحرب العالمية الثانية.

وقد نتساءل عن الأسباب التي دفعت حزبا إسلاميا مثل حزب (شركت إسلام) إلى الانضمام إلى الحزب الشيوعي الأندونيسي، نقول بأن الحكومة الروسية الجديدة قد أعلنت عطفها على الدول الخاضعة للاستعمار الأجنبي وبأنها ضد الاستعمار. وفي الوقت نفسه الذي لم تكن قد انكشفت بعد المبادئ والنوايا الحقيقية للشيوعيين والذين حاولوا إخفاء آرائهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فخطر الاحتلال الهولندي قائم يومذاك - لاسيما أن الدولة الشيوعية الجديدة في ذلك الوقت لم تكن قوة لها خطرها. فاتفق الحزبين إذن كان اتفاقا حول هدف واحد محدد، ألا وهو الاستقلال، بغض النظر عن نقاط الاختلاف الأخرى بين الحزبين.

ومنذ انتهاء الحرب العالمية الأولى بدأت حالة هولندا الاقتصادية تسوء نظرا لانشغالها في إخضاع ثورة الأندونيسيين، وفي تعقب نشاط الشيوعيين، فأهملت التجارة، وتركتها في يد الشركات الأجنبية والهولندية، وتفرغت للحكم والسيطرة وترسيخ قواعد الاحتلال الهولندي في أندونيسيا.

وخلال فترة ما بين الحربين تعرضت أندونيسيا لأزمة اقتصادية رهيبة نتيجة

منافسة الشركات الأجنبية (الأوروبية واليابانية والأمريكية) والأزمة العالمية، فتعرض الاقتصاد الأندونيسي لضربات شديدة، وقل الاقبال على شراء المنتجات الزراعية الأندونيسية، وتوقفت حركة التبادل التجارى، وانحط مستوى المعيشة في أندونيسيا تبعاً لهذا الكساد التجارى، فزادت البطالة، وتحكمت الشركات الأجنبية في تقدير الأجور .

ولإزاء تدهور الحالة الاقتصادية في أندونيسيا، وانحطاط مستوى المعيشة بين السواد الأعظم من الشعب الأندونيسي أخذ أعضاء مجلس الرعية يضغطون على الحكومة الهولندية للتدخل السريع، لمعالجة الأزمة قبل أن يستفحل ضررها ويصبح من الصعب إصلاحها. واستجابت الحكومة الهولندية خشية على زعزعة النفوذ الهولندي وانهيائه، فأخذت بسياسة التوجيه الاقتصادي وإفساح المجال أمام النشاط الأهلي ليأخذ نصيبه في تطوير الاقتصاد الأندونيسي. وكذلك حاولت التدخل لتوزيع دخل البلاد توزيعاً عادلاً إلى حد ما. كما عملت على إدخال بعض الصناعات وحمايتها في إندونيسيا.

وعلى العموم، فقد واجهت الصناعات الوطنية عقبات متعددة من أصحاب رؤوس الأموال الأجنبية. فتوقفت بعض الصناعات الناشئة وصمد بعضها الآخر في وجه المنافسة والمؤامرات بفضل يقظة الشعب الأندونيسي وتصميمه على كسر الاحتكار الأجنبي في شؤونهم الاقتصادية، وتخليص البلاد من السيطرة الأجنبية على اقتصادياتها، فالشعب الأندونيسي وكذلك الأحزاب الأندونيسية قد وجد في تشجيع الصناعات الوطنية ومقاطعة البضائع الأجنبية نوعاً من مقاومة التدخل الأجنبي. وهذا يؤكد أن الحركة الوطنية تعمل في جميع المجالات سياسية واقتصادية واجتماعية.

ولهذا السبب نشأت الأحزاب السياسية ذات البرامج الاقتصادية، مثل الحزب الأندونيسي الذي أنشأه الدكتور محمد حتا وكيل رئيس الجمهورية الأسبق أحمد سوكارنو. والحزب الوطني الذي أنشأه أحمد سوكارنو رئيس الجمهورية الأسبق وحزب اتحاد الشعب الأندونيسي الذي أنشأه (سوتومو). وقد عرف هذا الحزب فيما بعد باسم «حزب أندونيسيا العظمى» وكان له أيضاً برنامج اقتصادى شامل، فنادى بتكوين بنك وطنى أندونيسي لتحويل المشروعات الاقتصادية الوطنية،

وإيجاد اتحادات ونقابات لمختلف الطوائف للنهوض بمستوى الصناعة والصناع.

ولكن الحكومة الهولندية والشركات الأجنبية وقفت أمام هذه الحركة الوطنية الاقتصادية وأمام التيار الوطني المتدفق بصفة عامة صلبة عنيدة، فعملت على انهيار المشروعات الاقتصادية الوطنية، وقيدت حرية الصحافة والنشر، وفرضت رقابة شديدة على الأحزاب السياسية والجمعيات الدينية وحرمت على الأهالي الاشتغال بالسياسة وعدت ذلك جريمة كافية للزج بمرتكبيها في أعماق السجون أو النفي خارج البلاد، وطبقت ذلك فعلا مع أحمد سوكارنو ومحمد حتا زملائهم من السياسيين، ففتتهم الى جزر الملوك وغينيا الجديدة، وظلوا في المنفى إلى قيام الحرب العالمية الثانية، كما استخدمت الحكومة الأندونيسية الموالية لهولندا كل الطرق التعسفية للقضاء على الحركة الوطنية.

ويرجع اهتمام هولندا والشركات الأوربية بأندونيسيا لأهميتها في الاقتصاديين الهولندي والأوربي، إذ أن الأموال المستثمرة في أندونيسيا بلغت عام ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) مبلغ ٣٧٠ مليون جنيه منها ٢٥٠ مليون هولندا و ٥٠ مليون لبريطانيا و ٢٤ مليون لأمريكا، وقد زادت رؤوس الأموال هذه زيادة كبيرة وحقت أرباحا كبيرة على حساب الشعب الأندونيسي الذي لم يحصل على شيء من هذه الأرباح. وأن نظرة فاحصة للدخل الأندونيسي تكفي لمعرفة الغبن الواقع على الأندونيسيين. فالأندونيسيون البالغة نسبتهم ٩٧.٥٪ من عدد السكان لا يتجاوز ما يحصلون عليه من دخل البلاد ١٢.٥٪. بينما نجد أن الهولنديين الذين لا يتجاوز نسبتهم ٠.٥٪ من عدد السكان يتجاوز دخلهم ٦٥٪ من هذا الداخل. ويحصل الأجانب وسبتهم ٣٪ على دخل نسبته ٢٢.٥٪.

وعندما بدأت نذر الحرب العالمية الثانية تظهر في الأفق، أخذ الهولنديون يخففون من غلوائهم، وينادون بمبدأ التعاون بينهم وبين الأندونيسيين، لما فيه مصلحة الطرفين. وقد اشتدت المطالبة بهذا التعاون بعد أن وقعت هولندا في قبضة الاحتلال الألماني في عام ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠ م). واستغل الأندونيسيون حاجة هولندا إلى معاونتهم في المطالبة بمنحهم دستورا حقيقيا يحقق رغبة الشعب في اشتراكه الفعلي بالحكم، ولكن هولندا رفضت هذه المطالب. وبينما كانت المفاوضات الأندونيسية الهولندية تتعثر إزاء تمسك الطرفين كل بوجهة نظره، داهم

أندونيسيا الخطر الياباني - وكانت اليابان إحدى دول المحور الذي يتكون منها ومن ألمانيا وإيطاليا - واستولت على أندونيسيا عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م)، فوُقت بذلك تحت الاحتلال الياباني.

أندونيسيا في ظل الاحتلال الياباني :

لم يكن احتلال اليابان لأندونيسيا من قبيل المصادفة، بل كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ اليابان الحديث، وتتطورها الاقتصادى السريع في القرن الثالث عشر الهجري، فالإبان كدولة بدأت تسير في ركب الحضارة الأوربية، وتأخذ بأسباب تلك الحضارة في نظمها الاقتصادية والسياسية، وتمارس سياسة التصنيع على نطاق واسع، وجدت أن من الضروري إيجاد مجال حيوى لها في الدول المجاورة، وخصوصاً بعد أن ازداد عدد سكانها زيادة كبيرة لاتتحمله تلك الجزر المتناثرة وزاد إنتاجها الصناعي زيادة كبيرة.

ولهذه الأسباب أخذت اليابان تتطلع إلى الشرق الأقصى كمجال حيوى لنشاطها التجارى. وتعمل جاهدة على إغلاق الأسواق في آسيا أمام المنتجات الأوربية متخذة شعار آسيا للأسويين «ومنطقة الرخاء الآسيوية المشتركة». وكانت اليابان تنظر إلى الصين كسوق عظمى للمنتجات اليابانية، ولذا فإنها غير مرتاحة لتدخل النفوذ الأوربى في منطقة الشرق الأقصى وخاصة الصين. ونتيجة لذلك اندلعت الحرب الصينية اليابانية بشأن كوريا في عام ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م)، ونجحت اليابان في ضمها إلى ممتلكاتها. ثم أعقبتها الحرب الروسية اليابانية ١٣٢٢-١٣٢٣ هـ (١٩٠٤ - ١٩٠٥ م) بخصوص الاستيلاء على إقليم منشوريا، وإبعاد النفوذ الروسي عن سواحل المحيط الهادى المواجه لليابان. كما انتهزت فرصة قيام الحرب العالمية الأولى، واستولت على جزر (كارولين) في شمال المحيط الهادى. وكانت تابعة لألمانيا. وكانت تلك الخطوات تمهيداً لتوطيد نفوذها في المنطقة إلى جانب النفوذ الأمريكى والأوروبى. وفي عام ١٣٥٥ هـ (١٩٣٧ م) دخلت اليابان في حرب مع الصين، عدّها المؤرخون بداية للحرب العالمية الثانية. ثم أخذت تتطلع إلى أندونيسيا بعد أن ارتبطت معها بروابط تجارية واسعة. وحاولت اليابان إدخال أندونيسيا لغناها بالمواد الأولية في مضمار الاتحاد الاقتصادى والذي أطلقت عليه اسم (منطقة الرخاء الآسيوية المشتركة) أي أن اليابان باتباعها

تلك السياسة كانت تهدف إلى إبعاد النفوذ الأجنبي عن تلك المنطقة الآسيوية للعالم، والمناداة بمبدأ آسيا للأسيويين. ورفضت بريطانيا وهولندا إدخال مستعمراتها في الاتحاد الاقتصادي، ولكن اليابان كانت مصرة على ذلك ولو بالقوة..

وقبل أن تلجأ اليابان إلى القوة حاولت الدخول في مفاوضات مع السلطات الهولندية الحاكمة في أندونيسيا، لعقد اتفاق تجارى معها في منتصف عام ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠ م)، ونجحت اليابان نتيجة لضغطها المتواصل على هولندا في إبرام اتفاقية تجارية تحول لليابان الحق في الحصول على كميات ضخمة من النفط الأندونيسي استعدادا لخوض المعركة ضد دول الغرب. وترددت هولندا في تنفيذ الاتفاقية وأخيرا امتنعت عن تنفيذها، كما أن الأندونيسيين عارضوا التدخل الياباني، ووجدت اليابان أن من مصلحتها الانضمام إلى دول المحور (ألمانيا وإيطاليا) وهاجمت المستعمرات التابعة لدول أوروبا من أعداء المحور بمنطقة الشرق الأقصى، واستولت عليها عنوة، ونفذت سياستها الاقتصادية كما تشتهي. فهاجمت أسطول الحلفاء في ميناء (بيرل هاربور Pearl Harbour) وقضت عليه ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م)، واستمرت في الزحف حتى احتلت أندونيسيا في ١٣٦١ هـ، وقضت على مقاومة هولندا.

وبهذا الغزو الياباني تنطوى صفحة بغیضة من صفحات الاستعمار الهولندي لأندونيسيا، وتبدأ صفحة أخرى جديدة لا تقل بغضا عن سابقتها استمرت حوالى ثلاث سنوات ونصف السنة، حاولت اليابان خلالها أن توهم الشعب الأندونيسي بنواياها الطيبة نحوه بصفة خاصة والأسيويين بصفة عامة. واستغلت الشعارات التي تنادى بآسيا للأسيويين، وبتحقيق منطقة الرخاء الآسيوى المشتركة. وفي خلال فترة حكمها وجهت اليابان نشاط البلاد الاقتصادى نحو الشرق، وعملت على استنزاف موارد البلاد بشكل ملحوظ في أقصر مدة ممكنة، كما اتبع اليابانيون سياسة الاكتفاء الاقتصادى في كل جزء من أجزاء البلاد، فصار كل إقليم يزرع ما يحتاجه من مواد غذائية، وبذلك استطاعت اليابان أن تنقل كميات ضخمة من تلك المنتجات إلى بلادها، كما استخدمت الايدي العاملة الزائدة في الأعمال الحربية اليابانية.

وكان اليابانيون قد أظهروا في بادئ الأمر حماسة لفكرة استقلال أندونيسيا لكي يكسبوا ود الشعب الى جانبهم، وتمكنوا من بث دعاية قوية في هذا المعنى جعلت الأندونيسيين يصدقون أن يوم استقلالهم أصبح قريبا. وبدأ عهد جديد من التعاون بينهم وبين اليابانيين، فاستقرت الأمور في هذه المنطقة في وقت حاسم وحساس. وشجع اليابانيون الأندونيسيين على تكوين جمعيات ووحدات عسكرية أندونيسية تحت رعايتهم لتخليص المنطقة من الاستعمار الغربي ودحر قوته.

وكانت الخطة التي اعتمدت عليها الزعامة الأندونيسية في تلك المرحلة هي مظاهرات اليابان في الوقت الذي تستمر فيه الدعوة إلى الاستقلال، كما سعت إلى التخلص من أي محاولة يابانية للسيطرة على أندونيسيا والحيلولة دون عودة الهولنديين إليها في أي صورة من الصور، ومع ذلك فإن الغزو الياباني أدى في النهاية إلى تخليص أندونيسيا من سيطرة هولندا.

ولما وجد الشعب الأندونيسي أن اليابان غير جادة في منحهم الاستقلال، وأن احتلالها وتصرفاتها لا يختلف عن الاحتلال الهولندي، إذ أن نشاطها التجاري دلّ على استغلالها للشعب، ولذا فإنهم هبوا للدفاع عن استقلالهم ومقاومة الاستعمار الياباني، وليكن جهادهم متصلا أيا كان المستعمر شرقيا أم غربيا.

وقاد زعماء البلاد حركة مقاومة سرية كما قاموا بتكوين التشكيلات السرية ضد الحكم الياباني، كما عمل زعماء البلاد وعلى رأسهم أحمد سوكانو ومحمد حتا على إلهاب الشعور الوطني حتى لا تخدره الوعود اليابانية، وذلك خشية أن تقع بلادهم تحت النفوذ الياباني، كما أسس المسلمون (حزب الله) بقيادة زين العارفين من جمعية نهضة العلماء واشترك جميع الأندونيسيين في مقاومة اليابانيين. فلجأت سلطات الاحتلال اليابانية إلى القبض على هؤلاء الزعماء ومحاكمتهم، وإعدام بعضهم، ونفي بعضهم الآخر خارج البلاد. ثم شددت قبضتها على الشعب الأندونيسي، وفرضت الأحكام العسكرية عليه.

وظل هذا الوضع قائما إلى هزيمة اليابان واستسلامها دون قيد أو شرط عام ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥ م)، بعد ضرب مدينتي هيروشيما وناغازاكي بالقنابل الذرية.

استقلال أندونيسيا والنزاع مع هولندا :

بانتهاء الحرب العالمية الثانية تقدم اليابانيون بمشروع لاستقلال أندونيسيا، ولكن زعماء البلاد ورجاها رفضوا أن يكون استقلال بلادهم هدية أو منحة، وكان هذا الإصرار سببا في رضوخ اليابانيين لرغبة الزعامة الوطنية التي صدر عنها الإعلان التاريخي باستقلال أندونيسيا، وذلك عام ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥ م) وبعد يومين اثنين من استسلام اليابان مستندين في إعلان استقلالهم إلى وعود الحلفاء ومملكة هولندا خلال الحرب.

ثم تشكلت الجبهة الوطنية لإصدار دستور الجمهورية الأندونيسية الجديدة. وفي الوقت نفسه قامت ثورة عامة ضد قوات الاحتلال اليابانية. وفي خلال ستة أسابيع من قيام الجمهورية تمكنت الحكومة الجديدة من بسط سيطرتها على معظم أجزاء جاوة، ومادورا، وسومطرة ومناطق أخرى.

وبينما كان زعماء أندونيسيا يعملون على توطيد سيطرتهم على معظم أجزاء أندونيسيا، إذا بالقوات الانكليزية والهولندية تصل إلى الشواطئ الأندونيسية لنزع القوات اليابانية المهزومة. ولكن حكومة أندونيسيا الوطنية رفضت السماح لقوات هولندا أن تطأ أقدامها أرض البلاد، وأبدت استعدادها بأن تقوم بتسليم قوات الاحتلال اليابانية إلى الحلفاء. وحاول قائد قوات الحلفاء أن يقرب بين وجهتي نظر الأندونيسيين والهولنديين. ولكن الهولنديين رفضوا الدخول في مفاوضات مع حكومة أندونيسيا بحجة أنها غير شرعية، ونشأت نتيجة الاحتلال الياباني، واجتمع ممثلو الفريقين الأندونيسي والهولندي وأجروا مفاوضات استمرت خمسة أيام، وفشلت لتمسك كلا الفريقين بأنه له وحده السيادة والسلطة في البلاد.

وفي الوقت نفسه نزلت القوات الهولندية إلى الشواطئ الأندونيسية لإرغام الحكومة الأندونيسية على التسليم والخضوع من جديد للاحتلال الهولندي. وتواطأ الانكليز مع الهولنديين، ودارت بين القوات الانكليزية والهولندية من جهة والقوات الأندونيسية من جهة أخرى معارك في عدة مناطق استطاعت على أثرها قوات الدولتين المهاجتين احتلال بعض المدن المهمة في جزيرتي جاوة وسومطرة.

بدأت المشكلة الأندونيسية تلفت أنظار العالم وتأخذ مكانها بين المشكلات

المهمة التي يجب أن يوضع حل لها عن طريق هيئة الأمم المتحدة الناشئة. وفي عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) طلبت جمهورية أوكرانيا السوفيتية عرض القضية على مجلس الأمن. وفي خلال عرض القضية أمام مجلس الأمن، كانت هناك مفاوضات تجري بين الطرفين الهولندي والأندونيسي للوصول إلى حل للمشكلة بالطرق السوية. وبعد مفاوضات شاقة توصل الجانبان إلى توقيع اتفاقية عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م)، وتنص على اعتراف هولندا بالجمهورية الأندونيسية على أنها حقيقة واقعة، ولها السيطرة الفعلية على جزر جاوة، وسومطرة، وأن تجلو القوات الانكليزية والهولندية عن تلك الجزر بالتدريج. ونصت الاتفاقية أيضا على إيجاد تعاون بين هولندا والجمهورية الجديدة في إدارة شؤون البلاد، وذلك بإنشاء حكومة إتحادية عام ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م) تشمل أندونيسيا كلها، يطلق عليها اسم الولايات المتحدة الأندونيسية على أن يتكون من الولايات المتحدة الأندونيسية وهولندا إتحاد يسمى الاتحاد الهولندي الأندونيسي، يشترك فيه الطرفان على قدم المساواة تحت التاج الهولندي. ومهمة الاتحاد هي العمل على تنمية المصالح المشتركة، والإشراف على العلاقات الخارجية والدفاع والشؤون الاقتصادية والثقافية.

وقد صدق على هذه الاتفاقية بصفة نهائية عام ١٣٦٦ هـ، وأخطرت هيئة الأمم المتحدة بذلك. وبدأ الطرفان الهولندي والأندونيسي وضع بنودها موضع التنفيذ، وعقدوا لذلك عدة اجتماعات. واختلف الطرفان في تفسير عدة مسائل، وفشلت الجهود جميعها لتنفيذ وتطبيق الاتفاق، وذلك لعدم توافر الثقة بينهما. وترتب على ذلك قيام القوات الهولندية بمهاجمة القوات الأندونيسية للقضاء على الاتفاقية المذكورة، وبررت عملها بحجة عجز حكومة أندونيسيا عن حفظ الأمن الداخلي في البلاد، وذلك من أجل استرداد نفوذها في أندونيسيا. وتدخل مجلس الأمن وفرض وقف إطلاق النار وأوصى بالدخول في مفاوضات في حل النزاع بالطرق السلمية. وفي الوقت نفسه عين مجلس الأمن لجنة وساطة لمساعدة الطرفين على الوصول إلى اتفاق. واستطاعت اللجنة بعد جهود مكثفة أن تصل إلى اتفاقية جديدة عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م)، تنص على وقف إطلاق النار، وتحديد مناطق

وتشكلت على الفور أربع لجان تحت إشراف لجنة الوساطة لبحث الأمور المتعلقة بالنواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية والإدارية، ولكن هولندا كانت تضع العراقيل أمام اللجان المذكورة حتى تبقى على وجودها العسكري في البلاد، في حين كانت الحكومة الأندونيسية مصرة على إنشاء اتحاد هولندي أندونيسي تتمتع في ظله حكومة الولايات الأندونيسية باستقلالها كاملاً مع إيجاد نوع من الارتباط الواهي مع هولندا. وبذلك تعثرت المفاوضات بسبب تعنت هولندا وإصرارها على البقاء في البلاد، فأحالت لجنة الوساطة الأمر إلى مجلس الأمن. ولكن هولندا سارعت بإعلان الحرب مرة أخرى عام ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م) خارقة بذلك اتفاقية الهدنة واحتلت عاصمة الجمهورية، وألقت القبض على الرئيس أحمد سوكارنو ووكيله محمد حتا وزج بهما في السجن.

ولإزاء تدهور الموقف في البلاد اجتمع مجلس الأمن ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م)، وأعلن ممثل هولندا تمسك حكومته ببنود الاتفاقيتين المعقودتين بين الطرفين، وزعم أن حكومته اضطرت للقيام بمثل هذه التدابير لوضع حد للاضطرابات التي سادت أجزاء مختلفة من الجمهورية الأندونيسية. وطالب مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، وبعودة قوات الطرفين إلى خطوط الهدنة التي حددتها الاتفاقية. ولكن هولندا لم تصدع للأمر، واستمرت في أعمالها العدوانية رغم هذا القرار. ولذا وجد المجلس أن الوضع يحتاج إلى حل حاسم. وبالفعل فقد وافق المجلس عام ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م)، على مشروع لحل الأزمة.

وينص المشروع على أن توقف هولندا جميع الأعمال العدوانية وتعطى الضمانات اللازمة بذلك، وكذلك أندونيسيا، وأن تطلق هولندا سراح المتعلقين السياسيين من رجال حكومة الجمهورية الأندونيسية، والسماح لهم بالعودة إلى ممارسة أعمالهم، وأخيراً أوصى المجلس باستئناف المحادثات بينهما بمعاونة هيئة الوساطة بحيث يتم نقل السيادة إلى جمهورية أندونيسيا في أسرع وقت ممكن بحيث لا يتجاوز ١٢ ربيع الأول عام ١٣٦٩ هـ (١١ كانون الثاني ١٩٤٩ م).

وأمام هذا الضغط العالمي، استجابت هولندا لتلبية لرغبة مجلس الأمن ودول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية التي هددتها بقطع المساعدات، وأعلنت بأنها قد وافقت على انتقال السيادة إلى حكومة الولايات المتحدة الأندونيسية في أسرع

وقت مستطاع. وتعتزم عقد مؤتمر للمائدة المستديرة في مدينة لاهاى في القريب العاجل لوضع اللمسات الأخيرة حول تفاصيل انتقال السيادة إلى الاتحاد الهولندى الأندونيسي. ووافق مجلس الأمن على عقد مؤتمر المائدة المستديرة في مدينة لاهاى بهولندا. وقد تم بالفعل عقد المؤتمر المذكور في أول ربيع الأول ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م)، في جو من التفاؤل والأمل المشوب بالتيقظ والحذر، ومثلت فيه لجنة الوساطة التابعة للأمم المتحدة.

وبعد مفاوضات قصيرة وقع المتفاوضون على ميثاق المؤتمر في ٨ محرم ١٣٦٩ هـ (٣٠ تشرين أول ١٩٤٩ م)، وقد تضمن النقاط التالية:

أولاً: مشروع لائحة لنقل السيادة من هولندا إلى جمهورية الولايات المتحدة الأندونيسية.

ثانياً: مشروع دستور للاتحاد الهولندى الأندونيسي، يتضمن ملاحق واتفاقيات خاصة حول أسس الموضوعات التي ستكون مجالاً للتعاون في المستقبل.

ثالثاً: مشروع اتفاقية حول التدابير الانتقالية.

وخلاصة القول: إن اتفاقية المائدة المستديرة قد نقلت السيادة إلى أندونيسيا دون قيد أو شرط. وأصبحت جمهورية الولايات المتحدة الأندونيسية في ١٢ ربيع الأول ١٣٦٩ هـ (١ كانون الثاني ١٩٥٠ م) تتكون من ست عشرة ولاية بما في ذلك الجمهورية الأندونيسية السابقة. وأصبح الاتحاد الهولندى الأندونيسي تحت تاج هولندا يمثل المصالح المشتركة للطرفين، وخصوصاً في ميدان السياسة الخارجية والدفاع.

وقد عرضت قرارات مؤتمر المائدة المستديرة على مجلس الأمن، فأظهر ارتياحه لذلك ووافق عليها عدا الاتحاد السوفيتى وبعض دول الكتلة الشرقية التي عارضتها ووصفتها بأنها شكل جديد من الاستعمار الهولندى، الذي تؤيده الولايات المتحدة الأمريكية وإنكلترا، واتهمت زعماء الجمهورية الأندونيسية بالخيانة، بعد أن كانت تدعم الحكومة التي يرأسها شيوعي قبل أعوام كما سنرى.

ويعزى موقف الاتحاد السوفيتى هذا إلى نجاح الحزب الشيوعي في أندونيسيا الذي دعمته هولندا للوقوف أمام المسلمين، كما أن الرئيس أحمد سوكانو كان يؤيد الحزب الشيوعي بأفكاره وذلك لأن الأحزاب الوطنية جميعها كانت جبهة

واحدة، وجميع الأحزاب والمنظمات الإسلامية كونت حزبا واحدا عرف باسم مجلس الشورى الإسلامي أو ما يسمى (ماشومي) وذلك إثر الاحتلال الياباني. وقد أو كل الرئيس سوكانو رئاسة مجلس الوزراء منذ منتصف شعبان عام ١٣٦٦ هـ إلى الشيوعي عامر شرف الدين الذي احتفظ لنفسه أيضا بمنصب وزير الدفاع، ليتمكن من الإشراف على القوات المسلحة، وبدأ الاتحاد السوفيتي يعضد هذه الحكومة ويبرز دور الحزب الشيوعي في الحصول على الاستقلال، وهذا ما قوى شوكة الحزب، ولكن الشعب المسلم عارض تعيين عامر شرف الدين رئيسا للحكومة، ولقى هذا العمل معارضة عنيفة من الشعب والمجلس النيابي والصحافة، وأمام هذا الضغط الشعبي اضطر نائب رئيس الجمهورية الدكتور محمد حتا إلى استخدام سلطته، وأقال رئيس الوزراء الشيوعي وتولى بنفسه مهمة تشكيل الوزارة فنارت ثائرة الشيوعيين وابتدأ هجومهم العنيف. وكانت بداية الثورة الشيوعية الأولى في منتصف شوال من عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م).

ألف الحزب الشيوعي مجلسا وقيادة عليا للثورة، وقدم أحدهم وهو عديد مذكرة إلى الحكومة يطالب فيها بالتبادل السياسي مع الدول الشيوعية. وبالتأميم، ومصادرة الأملاك، وإقالة الحكوم القائمة التي يرأسها الدكتور حتا. وفي أيام عيد الفطر من عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) دعت صحيفة العمال الشيوعية الحكومة إلى الانضمام إلى المعسكر الشيوعي.

وبعد خمسة عشر يوماً من العام نفسه، بدأت الثورة باختطاف ضباط من الجيش، وقامت حوادث الارهاب في كل مكان، وتدخلت الحكومة - حكومة محمد حتا - فأنزلت قوات الجيش وأندرت المختطفين بالإفراج عن من اختطفوهم، فلم يستجب أحد للأمر بل زادت تلك الحوادث فاختطف القادة المسلمون، وكان منهم (ماوردي) وثلاثة من زملائه، وقد قتلوا مباشرة ومثل بهم، وهوجت مراكز البوليس.

وفي اليوم التالي أعلنت إذاعة (ماديون) عن قيام جمهورية أندونيسيا السوفيتية، وتولى رئاسة الحكومة فيها عامر شرف الدين وألقى بيانا من الإذاعة، وغدا لأندونيسيا حكومتان، سوفيتية ومركزها (ماديون) ووطنية ومركزها (جاكرتا).

أعلن المسلمون الجهاد ودوت كلمة «الله أكبر» في كل مكان وتحرك الجيش

الأندونيسي بقيادة (عبدالحارث ناسوتيان) فاستطاع القضاء على الشيوعيين، واعتقل الجيش زعماء الشيوعيين وزج بهم في السجون والمعتقلات، وحكم على عدد منهم بالإعدام وفي مقدمتهم عامر شرف الدين إضافة إلى تسعة آخرين من رفاقة، وكان هذا بأوامر الدكتور محمد حتا، بينما بقي الدكتور أحمد سوكارنو صامتا في هذه المدة ومتعاطفا معهم.

وبسجد القضاء على الثورة الشيوعية الأولى شعرت هولندا أن الوقت قد آن لها لتتحرك من جديد فاستأنفت أعمالها الحربية، كما أشرنا واحتلت جاكرتا، واعتقلت الزعماء سوكارنو ومحمد حتا، وسوتان شاهيرير، والحاج عجوز سالم وغيرهم. ولكن الثورة استمرت على أيدي المسلمين، وقامت حرب العصابات في كل مكان حتى عقد اتفاق مؤتمر المائدة المستديرة عام ١٣٦٨ هـ (١٩٢٩ م) والذي أشرنا إليه. وانتقلت العاصمة إلى جاكرتا بعد عام، ولم يبق من المشكلات إلا مشكلة غينيا الجديدة أو إيريان الغربية.

لقد دام الشكل الاتحادي للدولة حتى شوال عام ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م)، وقامت وحدة بين الدويلات، وأصبح اسم الدولة جمهورية أندونيسيا، وشكل الحكومة السيد محمد ناصر زعيم حزب ماشومي أيضا، ثم استقالت وشكل الحكومة الجديدة الدكتور (سويكيان) وهو من زعماء حزب ماشومي أيضا، واستمرت في عملها عاما حيث استقالت، ثم تقرر إجراء انتخابات لمجلس نيابي في ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م)، وألف الحزب الوطني حكومة ائتلافية اشتركت فيها الأحزاب المختلفة وعلى رأسها حزب ماشومي. وما يجدر ذكره أن مؤتمر باندونغ قد عقد في العام نفسه في مدينة باندونغ عام ١٣٧٥ هـ وضم ستائة مندوب يمثلون تسعا وعشرين دولة آسيوية وإفريقية.

وفي عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) أعلن الرئيس أحمد سوكارنو عن سياسته الجديدة وهي: الديمقراطية الموجهة «إثر زيارته للاتحاد السوفيتي والصين، وتعنى هذه السياسة أن نصف أعضاء المجلس النيابي يجب أن يعينهم الرئيس، فعارض معظم السياسة والشعب هذه السياسة واستقال الدكتور محمد حتا نائب رئيس الجمهورية وبدأ في انتقاد الرئيس، ورفضت الأحزاب السياسية هذه الديكتاتورية الجديدة. وحدث انقلاب في سومطرة عام ١٣٨٧ هـ ولكنه فشل. وطالب الشعب

دون جدوى باستقالة الحكومة وعودة الدكتور محمد حتا، وماكان من حزب ماشومي ونهضة العلماء إلا أن سحباً وزراءهم منها فاضطرت إلى الاستقالة، وأعلن سوكارنو حالة الطوارئ وتطبيق الأحكام العرفية في البلاد، ولم يستطع الرئيس سوكارنو تشكيل حكومة ائتلافية فشكل الوزراء بنفسه، نصفها من المجلس النيابي دون استشارة الأحزاب، وفي مطلع عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م) حل المجلس النيابي واستدعى المجلس الذي كان قائماً عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) بالتعيين وحل حزب ماشومي واعتقل زعماءه، وفي عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م) حل المجلس النيابي، وتأسس مجلس جديد على أساس الديمقراطية الموجهة. وانتخب الرئيس سوكارنو في عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) رئيساً مدى الحياة. وكان سوكارنو خلال هذه المدة قد تعرض عدة مرات للاغتيال إلا أنه نجا من تلك المحاولات.

وخلال المدة السابقة كانت المفاوضات بين أندونيسيا وهولندا حول جزيرة إيريان الغربية مستمرة، ولكن هولندا كانت تضع العراقيل أمام نجاح المفاوضات وتماطل وتسوف، ولم تكن الحكومة الهولندية جادة في مفاوضاتها مع أندونيسيا وذلك لأهميتها الاستراتيجية، وخصوصاً بعد أن ظهر النفط في الجزيرة، وبعد أن أخذ النفوذ الغربي يتداعى في جنوب شرقى آسيا، علاوة على اهتمام الغرب بمشروعات الدفاع عن المنطقة وانتهاج أندونيسيا سياسة الحياد الإيجابي، وعدم الانحياز ورفضها لمشروعات الغرب الدفاعية. ولذلك طالبت هولندا بتعديل الدستور الهولندي عام ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) بحيث ينص على جعل إيريان الغربية جزءاً من مملكة هولندا.

وقد ساندت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وأستراليا هولندا في موقفها من ضم جزيرة إيريان الغربية، وذلك إثر موقف الرئيس سوكارنو الموالى للكتلة الشرقية وخاصة الاتحاد السوفيتي. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوز الدول الغربية إلى هيئة الأمم المتحدة نفسها بإغلاق باب المفاوضات الجارية بين الطرفين منذ عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) لإجبار أندونيسيا على قبول الأمر الواقع. ونتيجة لذلك عقد مؤتمر شعبي في جاكرتا في عام ١٣٧٧ هـ حضره مايزيد على المليون، وطالب الحكومة باتخاذ إجراء حازم أمام تعنت هولندا، ويتلخص في تأميم الشركات الهولندية، وترحيل الرعايا الهولنديين خارج البلاد، وتحريم دخول

أندونيسيا على الهولنديين، وإنشاء فرقة مسلحة هدفها تخليص إيريان الغربية، وإنشاء صندوق تمويل حركة التحرير في الجزيرة. وقد لبت الحكومة الأندونيسية هذه الدعوة بعد فشل القضية، فأتمت الشركات الهولندية وأمرت بترحيل الهولنديين إلى بلادهم، واستولت على المصانع ومزارع المطاط، ومختلف المنشآت الهولندية. وبهذا الإجراء فقدت هولندا كل ماملكه من رؤوس الأموال وتبلغ ١٢٠٠ مليون دولار.

وتدخلت الأمم المتحدة وقررت في عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) وضع إيريان الغربية تحت إشراف أندونيسيا، على أن يجرى استفتاء بعد ذلك حول تقرير مصيرها، ولكن انسحاب أندونيسيا من الأمم المتحدة بسبب الاعتراف بقيام جمهورية ماليزيا - ألغى هذا الالتزام بإجراء الاستفتاء، ولكن سرعان ما عادت أندونيسيا إلى هيئة الأمم المتحدة عام ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م).

وبعد أن طبق الرئيس سوكارنو سياسة الديمقراطية الموجهة، واعتقل الزعماء المسلمين وحل حزب ماشومي، نشط الحزب الشيوعي وخلا له الميدان فاعلن أنه سيكون الحزب الوحيد في البلاد، وأنه سيحول السياسة وفق أهدافه ومبادئه. فهاجم الحزب المذكور المدارس الإسلامية في عام ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) وتكررت هذه الأحداث في عدة مدن. وفي عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) أعلن الشيوعيون ثورتهم متعللين بمرض سوكارنو وعدم اهتمام الجيش بالأمر والأخطار التي تهدد البلاد بمساعدة الرجعية والإمبريالية. وكان قائد الحرس الجمهوري قد اختطف بعض الجنرالات المسلمين، وتم قتلهم والتمثيل بجثثهم، ونجا منها عبدالحارث ناسوتيان وزير الدفاع. وفي الساعة السادسة من صباح ٢٥ رجب ١٣٨٥ هـ (١٨ تشرين الثاني ١٩٦٥ م) أذاعت محطات الإذاعة بعد الاستيلاء عليها أول بيانات للشيوعيين. ولكن وزير الدفاع عبدالحارث ناسوتيان أمر الجنرال (سوهارتو) نائب قائد القوات البرية إذ كان قائد القوات البرية (أحمد باني) من بين الجنرالات الذين اختطفوا وقتلوا بتنفيذ الأوامر اللازمة للقضاء على الشيوعيين، ونجح (سوهارتو) بعد ساعات في القضاء على ثورة الشيوعيين إذ هبَّ الشعب يلاحقهم وسيطرت القوات المسلحة على الوضع وبدأ الصراع بين سوكارنو من جهة وقادة الجيش من جهة ثانية. فأعاد سوكارنو عام ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) الشيوعيين إلى

الوزارة إلا أن الشعب ثار بشدة وعارض هذا الإجراء، وطالب بعزل سوكارنو الذي كان من وراء الثورة الشيوعية السابقة، فتنازل سوكارنو عن كل صلاحياته إلى وزير الدفاع الجديد الجنرال سوهارتو، وقد صادق المجلس الاستشاري الأعلى على ذلك، ولكن الأحزاب والقضاة والمحامين وبقية فئات الشعب طالبت المجلس الاستشاري الأعلى بالغاء رئاسة سوكارنو، وصدق عليها المجلس المذكور، وفي شوال عام ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) تنازل سوكارنو عن السلطة وأعطى جميع الصلاحيات للجنرال سوهارتو. وقرر المجلس الاستشاري برئاسة عبدالحارث ناسوتيان تعيين الجنرال سوهارتو رئيسا للجمهورية بالوكالة، وجدد الشعب في انتخاباته عام ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م) رئاسة الجنرال سوهارتو. واعترفت الحكومة بالحزب الإسلامي الأندونيسي وأصبح مجموع الأحزاب في أندونيسيا عشرة وهي: حزب نهضة العلماء، وحزب شركت إسلام، والحزب الوطني الأندونيسي، والحزب الكاثوليكي، والحزب البروتستانتي، وحزب موريا، وحزب (برتي الإسلامي)، وحزب ايبكي، والفئة العاملة.

من العرض الموجز لكفاح أندونيسيا من أجل الاستقلال ومقاومة الشيوعية نستطيع أن نتبين مدى تشبث الدول الاستعمارية باستغلال واستعباد الشعوب الإسلامية أطول مدة ممكنة، وأن تضامن الشعب الأندونيسي في جهاده للحصول على حريته واستقلاله كان السلاح الفعال للقضاء على قوة هولندا. واكتسب العالم الإسلامي باستقلال أندونيسيا الإسلامية التي يربو عدد المسلمين فيها على ١٥٠ مليون مسلم سندا جديدا وقوة جديدة.

وتعاني أندونيسيا اليوم من زخم التحرك التنصيري والتفاهم بين الإرساليات التنصيرية هذه وبين الشيوعيين الذين فشلوا في محاولاتهم للسيطرة على الحكم. وتتساهل الدولة مع هؤلاء على حين تقف في وجه الحركة الإسلامية، وتحول دون وصولها إلى الأرياف حيث لاتزال الوثنية هناك، وتفتح هذا الباب أمام الإرساليات النصرانية.

١٢ - بروني

دولة صغيرة في شمالي بورنيو تبلغ مساحتها ٥٨٠٠ كيلومتر مربع. وكانت دولة ذات شأن في الماضي يمتد سلطانها على مناطق واسعة في بورنية والجزر المحيطة بها. وفي عام ٨٢٨ زار سلطانها مالاقا فاعتنق الإسلام على يد (محمد شاه) سلطان مالاقا، وبعدئذ بدأ الإسلام ينتشر بسرعة بين شعبه. وفي القرن العاشر الهجري اتسع نفوذ دولة بروني إلى أوجه فشمّل جزر صولو والفليين.

وبعد أن مكنت انكلترا نفوذها في المنطقة اتجهت نحو (بروني) واستطاعت أن تقطع أوصالها، فتقلص نفوذ بروني.

وفي عام ١٢٦٤ هـ (١٨٤٨ م) دخل سلطان بروني في اتفاقية مع بريطانيا لمقاومة القرصنة وتطوير العلاقات التجارية.

وفي عام ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) وضعت تحت الحماية البريطانية، واستمرت حتى اجتاحت اليابان المنطقة كلها في أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم انسجت منها قبل مرور أربع سنوات.

وفي عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) جرى التفاوض من أجل اتحاد ماليزيا فرفضت بروني دخول هذا الاتحاد الذي قام عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م)، وهي المقاطعة الوحيدة التي رفضت ذلك.

وتعتمد في اقتصادها على النفط الذي يشكل ٩٩٪ من دخل البلاد، كما تنتج المطاط، والأرز الذي هو الغذاء الرئيسي للسكان.

القسم الثاني

الأقليات المسلمة في آسيا

الأقليات المسلمة في آسيا

مقدمة القسم الثاني :

يقيم مايزيد على ١٧٦ مليون مسلم في آسيا يعيشون كأقليات في دول غير مسلمة، وهذا العدد يشكل ٨٣.٤٪ من مجموع الأقليات المسلمة في العالم والبالغ عددها ٢١١ مليون نسمة. وعلى الرغم من هذا العدد الكبير (١٧٦ مليوناً) إلا أنه لا توجد نسبة عالية من المسلمين في البلدان التي يعيشون فيها كأقليات وذلك لأن تلك الدول ذات أعداد كبيرة من السكان الأمر الذي يجعل عدد المسلمين كبيراً مهما قلت نسبتهم، وخاصة إذا علمنا أن ٩٠٪ من هذه الأقليات يتجمع في دولتين كبيرتين هما الصين والهند، إذ يقدر عدد المسلمين في الأولى (٨٠ مليوناً)، وفي الثانية (٧٦ مليوناً) وتكون نسبتهم في الأولى ١٠٪، وتبلغ نسبتهم في الثانية ١٤٪.

ولاشك فإن هذا الرقم الكبير في كلتا الدولتين يكون له دوره وأثره ولذا لا يمكن إغفاله وإهماله ولا بد من دراسته. وكذلك عندما تزيد النسبة في دولة على ١٠٪ فإن هذه الأقلية تكون ذات شأن ويجب التعرف عليها، كما هي الحال في تايلاند والفلبين وغيرهما.

أما عندما يكون العدد ضئيلاً أو تكون النسبة قليلة فيمكن التلميح إلى المسلمين في هذه الدول لأن لهم مشكلاتهم الخاصة بهم، وكثيراً ماثير هذه النسبة أزمات كما هي الحال في بورما، وكامبوديا وغيرهما، وماذلك إلا لأن الحرب موجهة ضد المسلمين فكرياً واجتماعياً ويصل الأمر في كثير الأحيان إلى الإبادة والتصفية الجسدية، كما هي الحال في فلسطين وكشمير، والفلبين، وكامبوديا، وبورما وغيرها، فالحرب الصليبية لا تزال قائمة بل والحرب الدينية هي التي تلعب دورها في هذه الدول رغم ادعاءاتها بغير ذلك فالنصرانية في الفلبين، والبوذية في تايلاند، والهندوكية في الهند كل تعادي المسلمين وتشن حرباً دينية، من جهة ومن جهة ثانية فإن النظم تعادي المسلمين أيضاً وتشن عليهم -

أيضاً، فالشيوعية في الصين وروسيا تعمل على إبادة المسلمين وتتهمهم بمهالة الرأسمالية والامبريالية والغرب، والرأسمالية في الفليبين وتاييلاند تتهمهم بالشيوعية... والواقع لاهذا ولاذاك وإنما الحرب عليهم لأنهم مسلمون. بل لو أن حكومة كانت تتبع نظاماً معيناً لاتهمتهم بها يعادني نظامها ولو قامت حكومة مكانها تسير على نظام آخر لادعت أنهم يناصرون النظام الأول... وهكذا فالحرب على الإسلام أولاً وآخرأ.

١ - المسلمون في الهند

لمحة جغرافية :

الهند شبه جزيرة واسعة تمتد في جنوبي قارة آسيا، تزيد مساحتها على ٣٦٠٠٠ كم^٢، وتمتد سواحلها على طول ٤٥٠٠ كم، وتعد هذه السواحل قصيرة إذا قيست بالمساحة الشاسعة حيث تكاد تستقيم السواحل.

تنفصل الهند عن بقية بلاد آسيا بحاجز من الجبال الشاهقة منها: جبال «هيمالايا» التي تفصلها عن الصين، وتعدّ أعلى جبال العالم إذ تصل أكثر قممها ارتفاعاً إلى ٨٨٨٨ م، وجبل «كراكورم» في كشمير، ومنها جبال «سليمان» التي تفصلها عن بلاد الأفغان، وفي هذه الأخيرة ممرات تصل بين الهند وأفغانستان، وأشهر الممرات ممر خير وممر «بولان»، ومن هذه الممرات دخل الفاتحون، وعبر المستوطنون، وسلك طرقها النازحون والمهاجرون.

وفي جنوب هذه الجبال تنفرج سهول واسعة تمتد من الغرب إلى الشرق بطول ٣٥٠٠ كم، من البحر العربي إلى خليج البنغال، ويتراوح عرضها بين ٣٥٠ - ٥٠٠ كم، وتنقسم هذه السهول بعتبة قليلة الارتفاع تقع إلى الغرب من مدينة دهلي (دهلي) أو أن هذه المدينة تقع على سفوح العتبة الشرقية، وتنقسم السهول إلى قسمين، يسير في الجزء الغربي نهر السند، ويجري في القسم الشرقي نهر الغانج وفيه تكثر الأمطار الموسمية فتزداد الفيضانات، وتحدث النكبات بالأرض والسكان.

وفي جنوب هذه السهول تمتد شبه جزيرة ذات صحور قديمة على شكل مثلث قاعدته في الشمال ورأسه في الجنوب، ويعد رأس «كوموران» نهاية شبه الجزيرة التي تكون هضبة تعرف باسم هضبة «الدكن» ويبلغ معدل ارتفاعها ١٠٠٠م، وترتفع عن السهول الساحلية على شكل درجات تعرف باسم جبال «الغات» أي (السلام)، ويعرف الریط الساحلي الضيق في الغرب باسم «مليار»، وفي الشرق باسم «كرومندل»، وتنحدر الأنهار من الهضبة نحو الغرب ونحو الشرق، وتكون قصيرة نسبياً، وغير منتظمة الجريان.

تعد هذه المنطقة من البلاد الحارة إذ تمتد بين خطي عرض ٨-٣٧ شمالاً، وتغزر الأمطار الصيفية فيها بسبب الرياح الموسمية حتى لتعدّ من أغزر بلدان العالم وبخاصة على سفوح جبال هيمالايا، أما فصل الشتاء فيكون جافاً وقليل البرد، وتعد صحراء ثار الواقعة في الغرب عند مدار السرطان أكثر المناطق جفافاً في شبه القارة الهندية، وفي نهاية الشهر الجاف ترتفع الحرارة وتزداد حتى تبدأ الأمطار في الانهار في فصل الصيف. وتحميها الجبال الشمالية من الرياح الآسيوية الباردة.

والهند ذات ثروات كبيرة سواء أكانت زراعية مثل: الأرز، والقمح، وقصب السكر، والذرة، والشعير، والقطن، الجوت، والشاي، والبن، والمطاط، والفول السوداني، والفواكه، والتوابل، والسمم. وتغطي الغابة ٣١٪ من مساحة البلاد، ولاتزال تعيش في الغابة بعض الجماعات البدائية، وتنعزل في مجاهلها بعض الشعوب، وكذلك تكثر فيها الحيوانات وبخاصة الأبقار، وكذلك تزرع بالثروات المعدنية مثل: الحديد، والمنغنيز، وأوكسيد الألمنيوم، والميكا، والكروم، والنحاس، والذهب، والفحم، كما تتقدم بإنتاج النفط والغاز الطبيعي. وتدخل الصناعة طوراً جديداً، وتسير بشكل حسن مع الأيام.

لمحة تاريخية :

كانت الهند مقر الديانة البراهمية التي تنسب إلى «براهما»، كما تسمى «الهندوكية» نسبة إلى الهند، وتقسّم الشعب إلى طبقات متباينة على شكل هرم فتصنّف الكهنة في أعلاه، يليهم المحاربون، فالزراّع فالخدم، وهناك المنبوذون

الذين ترفضهم كل طبقة، وتحتقرهم كل جماعة، فلا يلتقون بهم، كما أن الطبقات الأخرى ينفصل بعضها عن بعض بفاصل كبير.

وكذلك وجدت الديانة البوذية في شمال شرقي الهند في سفوح جبال هيمالايا، ولكنها لم تنتشر في الهند، وإنما انتشرت خارجها في الصين والهند الصينية.

وصل الاسكندر الأكبر المقدوني إلى الهند عام ٩٤٨ قبل الهجرة، وبقي فيها عاماً كاملاً، وتعاقبت بعده على الحكم أسر حاول بعضها نشر البوذية، ودعا بعضها للبراهمية، وكانت قبائل «الهون» و«جموع السيت» تدخل البلاد بين الحين والآخر فتعم الفوضى وينتشر الفساد، والأمراء يتخاصمون من كشمير حتى البنغال، بينما يحكم إقليم السند قبائل «السكا» المتنافرة المتقابلة فيما بينها، ثم خضع هذا الإقليم في وقت متأخر لحكم ملك براهمي هو الملك «داهر» الذي طرق المسلمون أيامه أبواب البلاد.

وكان الفقر يسود بين الشعب، وزالأغنياء يتحكمون في الناس، والمجاعات تحدث بين مدة وأخرى، والظلم قائم، ونظام الطبقات هو السائد، وأمام هذا لا بد من أن يدخل المسلمون المنطقة ليزيلوا الظلم ويرفعوا الطغيان حسب المهم المللقة على عاتقهم في إزالة الظلم أينما وجد.

أبدأت الغزوات البحرية تصل إلى الشواطئ الشمالية الغربية للهند وتغزو «الديبل» (كراتشي اليوم) و «بومباي» وذلك منذ أيام الراشدين، وخاصة أيام سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

وسار المهلب بن أبي صفرة على رأس جيش عام ٤٤ هـ أيام سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنها فغزا منطقة السند ونال شيئاً من النجاح.

وفي أيام عبد الملك بن مروان أرسل سعيد بن أسلم بن زرعة عاملاً له على ثغر السند، ولكنه قتل، وفر قاتله إلى السند حيث آواهما الملك «داهر» الأمر الذي جعل بين المسلمين والملك داهر احتكاكاً مباشراً. وعندما تولى الحجاج بن يوسف الثقفي أمر المشرق أرسل إلى السند «مجاة بن سعر التميمي» عاملاً على ثغر السند فاستطاع فتح بعض المناطق، ووفاه الأجل قبل مرور عام، وفي هذه الأثناء اختطف القراصنة الهنود بعض النساء المسلمات، فطلب الحجاج من ملك السند

«داهر» تسليم هذه النساء، فأجاب: بأن يده لاتصل إلى القراصنة، فأرسل اليه الحجاج بعض المقاتلين، وكان على رأسهم عبيد الله بن نبهان، فقتل، فأرسل آخر وهو «بدل» ولكن الأجل وافاه، فأرسل بعدها «محمد بن القاسم الثقفي» على رأس ستة آلاف مجاهد، ففتح «الديبل» مكان كراتشي اليوم عام ٨٩ هـ، بعد أن حاصرها براً، ووصل الأسطول الإسلامي فحاصرها بحراً، فحطم الأصنام التي فيها، كما دخل مدينة «بيرون»، وهي حيدر آباد السند، وهي التي ينسب إليها العالم البيروني، ثم اتجه إلى عاصمة الاقليم وهي «الملتان» ففتحها عام ٩٦ هـ، وقتل الملك «داهر».

تولى أمر السند بعد محمد بن القاسم يزيد بن أبي كبشة حتى كانت أيام عمر بن عبدالعزيز الذي أرسل عمر بن مسلم الباهلي والياً على السند فانتشر الإسلام، وآمن أولاد الملك داهر. وزالت دولة بني أمية.

وفي أيام الدولة العباسية انتشرت الشيعة في إقليم السند وخاصة أيام المنصور حيث كان واليها عمرو بن حفص، ثم حدث خلاف بين القبائل العربية فاغتنم الهنود الفرصة، واحتلوا بعض أجزاء الثغر، وفي النهاية قامت دولة إسماعيلية دامت عدة سنين، وقد حكمها أبو الفتح داود القرمطي، وقد قضى عليها محمد الغزنوي. إذن لم يصل الإسلام في عهد الفتوحات الأولى إلا إلى منطقة السند في الشمال الغربي من البلاد.

وتوقفت الفتوحات وانصرف الناس إلى التجارة في كل جهة، في البر والبحر، وكانوا يعرفون الارتحال من قبل في مياه المحيط الهندي، وتحركت سفنهم في ذلك الاتجاه، وتوقفوا على السواحل الغربية للهند فانتشر فيها الإسلام إذ كانوا في هذه المرة تجاراً ودعاة بل ربما كانت التجارة وسيلة للدعوة والاتصال بالناس، أما السواحل الشرقية فكان انتشار الإسلام فيها أقل مما هي الحال في المناطق الغربية لأنها لم تكن طريقاً للسفن، إذ كثيراً ما كانت تتحرك جنوب الهند لتتجه مباشرة إلى ماليزيا عبر جنوب خليج البنغال، ولهذا كان انتشار الإسلام في جزيرة سيلان والسواحل الشرقية أضعف مما كان على السواحل الغربية.

وقامت الدولة الغزنوية في أرض أفغانستان اليوم، وحكم محمود الغزنوي الدولة

عام ٣٨٨ هـ ، فتقدم في الهند عن طريق ممر خير، وتمكن من فتح «قنوج»^(١) في وسط البلاد، و «كوجرات»^(٢) على السواحل الغربية، وهدم معبد «سومناث» الذي يعده الهنود مكان تناسخ الأرواح، وأن مد البحر وجزره إنما هما إلا صلاة له^(٣)، وعندما توفي محمود الغزنوي، خلفه ابنه مسعود الذي فتح مدينة «بنارس»، ثم ساد الاختلاف بلاد الهند.

حكم الغزنويون حتى عام ٥٥٥ هـ ، وخلفهم الغوريون الذين وصلوا إلى البنغال، وحكم منهم محمد الغوري فقط، وخلفه مملوكه «قطب الدين أيبك»، واستقل الخلعجون في البنغال، ولأهمية البراهمية أراد أحد حكامهم وهو علاء الدين إيجاد دين جديد يجمع بين الأديان، وعمل قائمة من بعده على إحياء البراهمية للغرض نفسه، فوقف الشعب في وجهه، وحكم آل تغلق البلاد فعملوا على نشر الإسلام، ومن حكامهم غياث الدين الذي زار في عهده الهند الرحالة «ابن بطوطة»، أما «دهلي» فقد حكمها بعد «قطب الدين أيبك» صهره ومملوكه «التمش»، واعترف عليه الخليفة العباسي، وأسماه ناصر أمير المؤمنين. وهكذا انتشر الإسلام في شمالي الهند في السهول الممتدة بين الغرب والشرق وبخاصة في البنغال بجهود آل تغلق.

ووصل المغول إلى الهند بقيادة تيمور لنك عام ٨٠١ هـ ، فانتشرت الفوضى، ثم حكم «اللوهيون» الهند ومنهم «اسكندر شاه» الذي عمل على نشر الإسلام، ثم عاد المغول من جديد، وقتلوا آخر ملوك «اللوهين» عام ٩٣٢ هـ ، واستقر لهم الأمر، وكانوا حديثي العهد بالإسلام فكان منهم المصلحون، ومنهم المفسدون، ومنهم الملك أكبر الذي نقل العاصمة إلى «أغرا»، وأراد أن يضع ديناً جديداً تقريباً من البراهمية يجمع بينها وبين الإسلام، فوقف العلماء في وجهه ووجه ابنه الذي خلفه عام ١٠١٤ وهو «جيهان كير»، وجاء حفيده «أورنكزيب» عام ١٠٦٨ فالغى جميع منكرات أبيه وجده، وحكم المغول الهند جميعها الأمر الذي جعل الإسلام ينتشر في كل رقعة منها ولكن بنسبة صغيرة، وإن كانت هذه النسبة

(١) قنوج: مدينة على نهر الغانج بين «غرا» و «بنارس».

(٢) كوجرات: شبه جزيرة تقع شمال مدينة بومباي على الساحل الغربي.

(٣) أعيد بناء معبد «سومناث» بعد تسعة قرون في عهد الحكومة الهندية الجديدة.

تختلف بين منطقة وأخرى حسب ظروف كل منطقة ودعاتها، وبسبب السياسة العامة، وجعل أكثر لحكام بالإسلام، والفوضى التي كانت تعم البلاد. واستمر حكم المغول في الهند، وإن كانت التجزئة قد حصلت، وقام عدد من الحكام في آن واحد.

وفي الوقت الذي كان المغول يجتاحون الهند من الشمال الغربي كان القراصنة الأوروبيون ينزلون على السواحل الهندية، ويقومون بهجمة صليبية على المسلمين.

المسلمون في العصر الحديث :

طرد النصارى من إسبانيا وبرتغاليين من الأندلس المسلمين، وكانت أوروبا كلها من وراء النصارى وتدعمهم وتشد أزهم حتى تمكنوا من ذلك، ووضعوا مخططاً لمتابعة المسلمين ومطاردتهم والالتفاف عليهم من الجنوب والشرق لإمكانية تطويقهم، وحسب هذا المخطط كان على البرتغاليين أن يتجهوا إلى جنوب بلاد المسلمين فانطلقوا في المحيط الأطلسي فعرفوا رأس الرجاء الصالح، والتفوا حول إفريقية عام ٩٠٣ هـ وبعد عام وصلوا إلى الهند، ونزلوا على ساحلها الغربي، واستولوا على «غوا» التي غدت منذ عام ٩٣٧ هـ (١٥٣١ م) عاصمة الهند البرتغالية، وظهرت محاكم التفتيش في هذه المدينة على النحو الذي حدث في الأندلس، ولم تكن طلائع الصليبيين لتدخل إلى الداخل وإنما تكتفي بالمراكز الساحلية، إذ كانت على خوف من المسلمين، وفي الوقت نفسه لتتمكن من السيطرة على التجارة وعمليات النقل للأسباب وأعمال النهب التي تتم، كما تستطيع الفرار بسرعة إن دعت الحاجة. وبعد أن كانت أوروبا تدعم الإسبان والبرتغال في قتال المسلمين وملاحقتهم لأسباب عداوية أو صليبية محضة بدأت دولها المتعددة تنافسهم وتحسد لهم لما حصلوا عليه من غني وثروات فقد استطاع الهولنديون القضاء على نفوذ البرتغاليين في ساحل «مليبار»، واتبعوا سياسة احتكارية ارتكبوا في سبيلها أبشع الجرائم وأخس الأساليب.

وظهرت انكلترا على المسرح السياسي في هذه المنطقة عام ١٠٣٢ هـ (١٦٢١ م) فاستولت على مضيق هرمز في الخليج العربي أهم مراكز البرتغاليين، وفي عام ١٠٤٩ هـ (١٦٩٣ م) استولت على مدارس في جنوب شرقي الهند، واحتلت



البنغال عام ١١٧١ هـ (١٧٥٨ م)، وبدأت المنافسة الانكليزية - الفرنسية. وعندما احتل نابليون بونابرت أراضي هولندا في أوروبا وضعت انكلترا يدها على أملاك الهولنديين في الشرق، ثم تنازلت لها عن «جاوه» فيما بعد، وعن «سومطرة»، وتنازلت هولندا مقابل ذلك عن «مالاكا» و «الهند».

واستطاعت انكلترا عام ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) أن تقضي على سلطان «تيبو» الذي استشهد عام ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م) وأن تسيطر على سواحل «مليبار»، وهكذا تمكنت انكلترا أن تمد نفوذها إلى معظم أجزاء الهند، ولو أن الحكم الاسمي بيد المسلمين، ولم يبق للدول الأخرى الأوربية سوى أجزاء بسيطة من

شبه القارة الهندية ومنها: البرتغال وفرنسا. وكانت شركة الهند الشرقية الانكليزية هي صاحبة الكلمة الأولى في كل بلاد الهند.

انتقل حكم الهند عام ١٢٧٠ هـ من شركة الهند الشرقية الانكليزية إلى التاج فقامت الثورة في البلاد ضد الانكليز، وخاصة في «دهلي» و «لكنو» إلا أن الثورة قد فشلت، ونفى السلطان سراج الدين بهادور شاه ظفر إلى «رانغون» عاصمة بورما حيث توفي هناك، كما قُتل أبناؤه، ولما كانت الثورة في صفوف الجيش وبتزعمها الضباط المسلمون لذا فقد اضطهد المسلمون عقب فشل الثورة، وصودرت أملاكهم، وهدمت مساجدهم أو أصبحت ثكنات للجيش، وشرد المواطنون، ورحب الهندوس بالاستعمار، فتسلموا الوظائف، وقتلوا المسلمين، وادعوا أنه قد آن لهم الأوان للأخذ بالثأر والانتقام، وحصلوا على الثروة، واشتروا الأرض حتى لم يبق للمسلمين سوى ٥٪ من الأراضي التي كانوا يملكونها من قبل، وظهرت خطة التفرقة بين المسلمين والهندوس، وقد صرح اللورد «النبرو» بذلك حيث قال «ليس في وسعي أن أغمض عيني بأن هذا العنصر الإسلامي عدو أصيل للعداوة لنا، وأن سياستنا الحقة أن نتجه إلى تقريب الهنود».

وبعد دخول المستعمرين امتنع المسلمون عن التعليم لأن المدارس أصبحت في أيدي المنصرين حسب أوامر المستعمرين وتوجيه الحكام، وأقبل الهندوس على التعليم وأيدوا المستعمرين الأمر الذي أصيب معه المسلمون بالجهل فتأخرت أحوالهم، وفقدوا مراكزهم في حين تلقى الهندوس العلم فتسلموا المناصب، وتحسنت أوضاعهم وقوي مركزهم.

وقام بعض المسلمين يريدون سد الثغرة التي حصلت وأدت إلى تأخر المسلمين، فدعا «أحمد خان» (١٢٣٣-١٣١٦ هـ) إلى التعليم وتقليد الانكليز، وتقبل حضارة الغرب كما هي، وفسر القرآن الكريم تفسيراً خاصاً يتفق ورأيه الخاص، وأنكر على الإسلام الرق وتعدد الزوجات، وتقرّب من الانكليز لينال عندهم الحظوة، فساعدوه بتأسيس جريدة أسماها «تهذيب الأخلاق» وبإنشاء كلية في مدينة «عليكرة» عرفت باسم «الكلية الانكليزية الشرقية المحمدية»، وتعني بالإسلام والنصرانية والنظم الغربية، وعرفت بعد الاستقلال باسم «الجامعة الإسلامية».

وسار بعض المسلمين شوطاً أكبر في سبيل الحصول على المنفعة، وسار معهم الانكليز بصورة واضحة أيضاً في سبيل دعم حكمهم وتشويه الإسلام، وهما الغايتان الرئيسيتان لكل استعمار، فقد قام «ميرزا غلام أحمد القادياني» (١٢٥٥-١٣٢٦) فكتب «البراهين الأحمدية»، ثم ادعى عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) أنه المسيح المنتظر، وأفتى بقبول الحكم الانكليزي، وفسر الجهاد بالشكل الذي يريده الأجانب، وعد طاعة الانكليز واجبة حيث أنهم أولى الأمر، وحاول التقرب من الهندوس أكثرية السكان فقال: إنه يتلبس بروح السيد المسيح وبروح الإله «كرشنا» وهو رب الخير عند الهندوس، وقد انقسم أتباعه بعد وفاته إلى قسمين:

- ١ — الأحمدية: ويسمون بجماعة لاهور، ويعدون ميرزا غلام أحمد إماماً ومصلحاً فقط، ومن زعمائهم «خواجاه كمال الدين» و «مولاي محمد علي».
- ٢ — القاديانية: ويؤمن أتباعها بنبوّة غلام أحمد، ويعدون جميع المسلمين الذين لم يشتركوا في مبايعة السيد المسيح الموعود كافرين خارجين عن دائرة الاسلام، ولا يجوز الصلاة خلف أحد منهم، كما لا يجوز الصلاة على من مات منهم ولو كان طفلاً صغيراً.

وهكذا نجد أن المسلمين قد ابتلوا بالحكام الذين يسعون وراء المنصب الزائل، ويتقربون من الهندوس طمعاً في البقاء بالسلطة، ثم ابتلوا بالاستعمار، ثم ابتلوا بالانقسام، فقد سار بعضهم وراء المستعمر وحصل على الدعم والتأييد، وحارب المسلمين، واتهمهم بالكفر، ولو أن هذا القسم كان قليل العدد إلا أنه ذو إمكانات لما يحصل عليه من الانكليز، أما الغالبية العظمى من المسلمين فمغلوبون على أمرهم وأكثرهم في جهل وفقر، إلا أن هؤلاء قد بدأوا ينهضون فتأسست بجهودهم كليات إسلامية كان من أهمها كلية «ديوبند» التي تأسست عام ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦ م) وبدأت بطالب واحد، ومدرس واحد ثم توسعت، ولاتزال إلى الآن قائمة تؤدي دورها، وكذلك فقد تأسست ندوة العلماء ودار العلوم التابعة لها، وذلك عام ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) في مدينة «لكنو» وتدرس باللغة العربية.

وعندما قوي التيار الإسلامي خافته انكلترا فأرادت أن تعطف المسلمين عن

خط سيرهم فدعت إلى القومية الهندية حيث يلتقي تحت رايتها المسلمون والهندوس، وتبتعد الأفكار الدينية عن المسرح السياسي، وفي ظل هذه الدعوة تباح المحرمات من زنا ومسكرات، ويحميها القانون، وينحرف أبناء المسلمين عن عقيدتهم، وعلى هذا الأساس نشأ حزب المؤتمر الهندي عام ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م)، ودخل فيه المسلمون والهندوس على حدٍ سواء بل إن بعض المنظمات الإسلامية قد اندمجت فيه مثل: «جمعية العلماء» و «مؤتمر المؤمنين الهنود»، و «مؤتمر الشيعة»، وأثناء انعقاد المؤتمر كان رئيسه يعبد نعم البريطانيين ويشي عليهم، وأنه بالفعل لم يكن هذا الحزب ليقوم لولا دعم الانكليز. وأبدى هذا الحزب في البداية احتراماً لشعور المسلمين، ولكنه بعد مدة أظهر عكس ذلك فنادى بتخليص الهند من الغرباء، وإبطال القوانين التي تحترم شعائر المسلمين، وعدهم غرباء كالانكليز. ونادى الغلاة منهم بقتل كل من يظهر ميلاً نحو المسلمين أو يحاول مسايرتهم، ومن الذين لقوا حتفهم على أيديهم «غاندي» (١٢٨٦-١٣٦٨ هـ) وهو زعيم المؤتمر ورئيس الهندوس، وذلك لأنهم ظنوا أنه يساير المسلمين قليلاً. ويقول السيد «شودري فضل الحق» وهو أحد زعماء الأحرار، ومن المسلمين، ومن مؤيدي حزب المؤتمر: «إن المجتمع الهندي عدو المسلمين كلهم من الأنجاس الذي لايمسون، وقد تكون وطنياً قحاً، وقد تكون من أصحاب غاندي المرموقين ولكنك تعامل معاملة الانجاس الذين لايمسون، طالما تعلن لأحد من الهندوكيين بأنك من المسلمين».

وقد جاءت خطوط سياسة النوطنية الهندوكية موضحةً في مقال نشره أحد الثوريين المدعو «هارديال» عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) في جريدة «بارتاب» التي كانت تصدر في «لاهور» أيام حكم البريطانيين قال فيه: «إن مستقبل الجنس الهندي وهندستان وبنجاب يقوم على أربع دعائم هي:

- ١ - «سانكاثان» أي الوحدة.
- ٢ - «الراجا» أي الإله الهندي «رام راجا» ومعناه وحدة العقيدة وإجبار كل السكان عليها.
- ٣ - «شودري» أي إرجاع المسلمين إلى الهندوكية.
- ٤ - فتح أفغانستان ومناطق الحدود ورد أهلها عن الإسلام.

وما لم يقيم الهنادكة بتحقيق هذه الاعتبارات الأربعة فسيجابه أولادنا وأفادنا خطراً دائماً، ولن تكون سلامة الجنس الهندي مضمونة».

تداعى المسلمون إلى عقد اجتماع لهم عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) في مدينة «دكا» في البنغال الشرقية، وكان برئاسة «النواب فخار الملك» ونتيجة الاجتماع تأسس حزب «الرابطة الإسلامية»، وظهر الاختلاف واضحاً بينها وبين حزب المؤتمر الهندي، ولكن - كما ذكرنا - كان غاندي يحاول أن يظهر بالموقف المعتدل إذ يؤيد أحياناً بعض آراء المسلمين وذلك من أجل كسب بعض عناصرهم، وليكون مركزه على شيء من القوة، وخوفاً من نشوب حرب أهلية بين الطرفين، لذلك أمكن التفاهم في بعض الأحيان، وفي الوقت نفسه كان «محمد علي جناح»^(١) يحاول التوفيق بين الرابطة وحزب المؤتمر، فقد دعا عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٦ م) إلى عقد مؤتمر الرابطة السنوي في مدينة «لكنو» حيث عقد المؤتمر الهندي في تلك السنة وحتى أطلق عليه اسم «سفير الوحدة الهندية».

وإذا كان الهندوس أكثر عدداً إلا أنهم كانوا يخافون من المسلمين خوفاً شديداً لقوتهم التي تنبع من إيمانهم، وللتعاطف الذي كان بين المسلمين آنذاك، ولامكانية مساعدتهم من قبل العالم الإسلامي الشديد الصلة بشبه القارة الهندية، وكانت أصوات المسلمين يسمع صداها في كل مكان يرددوا لإخوانهم، وهذا ما كانت تخشاه انكلترا قبل أن يخشاه الهندوس.

وكان كل ما يحدث في العالم الإسلامي يجد صدى واسعاً له، فقد انتشرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في البنغال صدى لما حدث في شبه جزيرة العرب، وقام «أحمد باريللي» يدعو الناس إلى حمل السلاح لقتال جماعة السيج، واستمر في قتالهم حتى استشهد عام ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م). وانتشرت المهديّة في الهند صدى لما حدث في السودان، وهرع مسلمو الهند إلى جزيرة سيلان «سرنديب» يسألون أحمد عرابي الذي نفى إلى هناك عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م)

(١) محمد علي جنا : (١٢٩٣-١٣٦٨هـ) نشأ على مذهب الاسماعيلية المعتدلين، وكانت أسرته براهيمية اعتفت هذا المذهب من قرن من الزمن من محمد علي، انتسب إلى الرابطة الإسلامية بعد تأسيسها بسبع سنوات، وكان رئيس البعثة الهندية التي قصدت لندن لشرح القضية الهندية عام ١٣٣٣.

عن المهدي وأوضاع مصر والسودان. وأثرت دعوة الشيخ جمال الدين الأفغاني للجامعة الإسلامية في الهند تأثيراً واضحاً. وقام الهنود بمظاهرات عنيفة عام ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) صدى لما حدث في ليبيا إثر الاحتلال الإيطالي لها، وجمعت التبرعات، وأرسلت البعثات الطبية، وبدأت المطالبة بالتطوع للذهاب إلى ليبيا للجهاد. واتخذ حزب الرابطة الإسلامية قراراً يوضح استياء مسلمي الهند من موقف بريطانيا ضد تركيا في البلقان. وقامت مظاهرات عنيفة تندد بنقض بريطانيا لعهودها التي قطعت بها للعرب، وكان «محمد اقبال» و «محمد علي» و «أبو كلام آزاد» من الذين قادوا تلك المظاهرات. وكان مسلمو الهند يتابعون القضية المصرية حتى إن ثورة ١٣٣٧ هـ (١٩١٩ م) في مصر من أهم الأسباب التي شجعت المسلمين في الهند على الثورة، وكانت نتيجتها مذابح «أمرتسار» عام ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م). وأعلن «محمد علي جناح» باسم الرابطة الإسلامية للحاكم العام الانكليزي في الهند بأن معونة المسلمين متوقفة على ضمان الوطن الإسلامي في فلسطين، كما احتج باسم الرابطة أيضاً على معاملة هولندا الوحشية لسكان أندونيسيا المسلمين، ومع هذا الاتفاق في القضايا الإسلامية العامة نجد اختلافاً في وجهات النظر حول القضايا الهندية في الوقت الذي كان فيه الهندوس على اتفاق تام بالنسبة إلى نظرهم إلى الإسلام والمسلمين، وكان خلاف المسلمين ينحصر في:

١ - يرى بعض المسلمين ضرورة الدعوة الى الوحدة الوطنية والوقوف في وجه المستعمرين، وتأسيس دولة واحد تضم المسلمين والهندوس، وقد رأى هؤلاء ضرورة الانضمام إلى حزب المؤتمر الهندي حيث يكونون فيه قوة يحسب حسابها، كما يرون أن المتطرفين من الهندوس قلة لا يعاب بها، ومن أشهر الداعين لهذا من المؤسسات والرجال «جمعية العلماء»، و «مؤتمر الشيعة» و «مؤتمر المؤمنين الهنود»، و «حسين ذاكر» الذي أصبح رئيساً لجمهورية الهند بعد عام ١٣٩٠ هـ، و «أبو الكلام آزاد» الذي أصبح وزيراً للمعارف بعد استقلال عام ١٣٦٧ هـ.

٢ - يرى بعض المسلمين ضرورة انفصالهم عن الهندوس، وتأسيس دولة واحدة من المقاطعات التي يشكل فيها المسلمون أكثرية، وعرفت هذه الدولة باسم

«باكستان^(١)»، وأول من دعا إلى ذلك الشاعر محمد إقبال، ونادى بذلك المسلمون الهنود الذين يدرسون في انكلترا، وانقسم أصحاب هذا الرأي إلى اتجاهين اثنين:

(أ) الاستقلال ضمن باكستان والارتباط مع العالم الإسلامي، على أساس أن باكستان جزء من العالم الإسلامي، والأمة الإسلامية، وذلك في ظل الخلافة الإسلامية، ويمثل هذا الجناح الشاعر محمد إقبال.

(ب) الاستقلال ضمن باكستان والدعوة إلى القومية الإسلامية الباكستانية، وقد قوي هذا الاتجاه بعد إلغاء الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال، ومع قوة هذا الاتجاه ضغط الانكليز على المسلمين الذين يخشون فكرة الوحدة الإسلامية والخلافة، إذ أن القومية لا يخشى جانبها مادامت فكرة دخيلة تقوم على العاطفة والقوانين الوضعية المستمدة من الأجانب، وكان «محمد علي جناح» أبرز ممثلي هذا الجناح، وقد اختلف مع عدد من أعضاء حزب الرابطة الإسلامية.

٣ - يرى بعض المسلمين ضرورة إبقاء المسلمين والهندوس ضمن دولة واحدة مع ضرورة تشكيل جمعية إسلامية قوية تعمل على نشر الإسلام بين صفوف الهندوس خاصة، الأمر الذي يبقى الحيوية في هذه الجمعية ويزيد عدد المسلمين بالهند، ويرى أصحاب هذا الرأي أن انفصال المسلمين في دولة واحدة سيبقى أقلية مسلمة في دولة الهندوس وسيعانون الاضطهاد، ويتعرضون لحرب إبادة، كما يخشى أصحاب هذا الرأي عدم تطبيق الإسلام في دولة باكستان بعد قيامها، إذ أن العاطفة هي التي تحرك الدعاة لها حالياً، وكان من أبرز من تمثل هذا الرأي أبو الأعلى المودودي الذي حارب حزب المؤتمر فقويت الرابطة، ثم أعاد فأبان خطأ الرابطة في الدعوة إلى القومية الإسلامية، وذلك حوالي عام ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م)، ثم قام بتأسيس الجماعة الإسلامية عام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) بعد اجتماع عقد في لاهور، وانتخب أميراً لها.

ونتيجة المطالبة بالاستقلال فقد صدر قانون يقضي بتشكيل حكومات محلية في

(١) يقال: إن باكستان تعني بلاد الأطهار، فكلمه «باك» تعني الأطهار، وكلمة «ستان» تعني بلاد. كما يقال: إن كلمة باكستان مأخوذة من الأحرف الأولى للمقاطعات التي تضم أكثرية مسلمة وهي: بنجاب، وبنغال، وشكير وكوجرات السند، ومقاطعات الحدود.

المقاطعات، وحكومة مركزية ليس من صلاحياتها مهام الدفاع والشؤون الخارجية، وللحاكم العام الحق في رفض أي قرار يتخذ، وكان ذلك عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م)، رفض حزب المؤتمر هذا القانون، ثم عاد فقبله، ودخل الانتخاب على أساسه، وفاز في ست مقاطعات من إحدى عشرة، ولكنه لم يقبل الاشتراك في الحكم، ولكنه عاد فقبل ذلك، وشكل وزارات في المقاطعات التي فاز فيها، واشترك في وزارة ائتلافية في المقاطعات الأخرى وذلك عام ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م).

بدأ الخلاف واضحاً بين حزب المؤتمر وحزب الرابطة الإسلامية، فرفض غاندي مطالب المسلمين، وصدر قرار عن المؤتمر يجعل اللغة الهندوسية لغة البلاد التي لا يعرفها إلا القليل، وترك لغة «الأوردو» التي يعرفها الناس جميعاً، وهي لغة المسلمين، وتكتب بالحرف العربي، ومنها الكثير من الكلمات العربية. وبعد الخلاف الذي حدث بين الفريقين عاد المسلمون إلى فكرة التقسيم وعارض الهندوس ذلك أشد المعارضة.

وفي عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) دخلت حكومة الهند الحرب دون أخذ رأي الحكومة المركزية الأمر الذي أدى إلى استقالة حكومة حزب المؤتمر، وزاد الوضع حرجاً احتلال اليابان لأندونيسيا والهند الصينية والفلبين وبورما اقترابها من حدود الهند، وهذا ما جعل الانكليز يعلنون عن عزمهم في إعطاء الهند الاستقلال بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية فرحب حزب المؤتمر بهذا الإعلان وطالب بتسليم الحكم. وطالب حزب الرابطة باستقلال المسلمين في دولة باكستان، ونجح في الانتخابات التي جرت عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) بعد الحرب بالفوز بجميع المقاعد المخصصة للمسلمين حسب هذه المطالبة باستقلال باكستان.

وأبرم المجلس النيابي البريطاني قانون استقلال الهند في صيف عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) وذلك بإنشاء دولتين مستقلتين في شبه القارة الهندية من نوع الدومينيونات^(١) تعرف إحداهما بـ (الهند)، وثانيتهما بـ (باكستان)، وسيكون في كل

(١) الدومينيون: هو المستعمرة ذات الحكم الذاتي، وبموجبه يكون للمستعمرة استقلالها الداخلي، وحكومتها الخاصة بها، ومجلسها النيابي مع ارتباطها بالتاج البريطاني، ونضوعها للحاكم العام الذي تعينه بريطانيا، وهذا النظام أو جدته بريطانية، وهو خاص بمستعمراتها.

دولة حاكم عام يدير الدومنيون يتم تعيينه من قبل صاحب الجلالة.

أما المقاطعات الأخرى فقد رأت الهند أن ينظر إلى رأي السكان في بعض المقاطعات، وينظر إلى رأي الحكام المحليين في مقاطعات أخرى، وذلك حسب مصلحتها. أما اللورد «مونتبان» فقد كان يرى أن تلتحق هذه المقاطعات بإحدى الدولتين «الهند» أو «باكستان» أو تبقى مستقلة، وقد نشأ خلاف حول بعض المقاطعات وأهمها:

١ — جوناكاد: وهي مقاطعة ساحلية في شبه جزيرة كوجرات، يحكمها أحد المسلمين، وقد رأى أن ينضم إلى باكستان، ولكن الهند عارضت ذلك، كما عارضت الاستفتاء، ثم اكتسحت المقاطعة بالقوة، وطردت الحاكم المسلم.

٢ — حيدرآباد: وتقع في هضبة الدكن وسط البلاد، تبلغ مساحتها ٣٥٠,٠٠٠ كيلومتر مربع أي مايعادل مساحة بلاد الشام، ويزيد عدد سكانها آنذاك على ١٣ مليوناً، ويحكمها أحد المسلمين، وقد رأى أن ينضم إلى باكستان، ثم قُدِّر بعد بلاده عن باكستان، فوجد من الأفضل للبلاد أن يستقل، وفي بلاده الامكانات الكافية، وليس من المصلحة الانضمام إلى أي من الدولتين الناشئتين، إلا أن الهند قد رفضت ذلك، فاقترح الاستفتاء، فرفضت الهند أيضاً، كما رفضت استفتاء الأمم المتحدة، وقامت بالهجوم على حيدر آباد يوم ١٢ شوال ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م)، واحتلتها بعد مقاومة ضئيلة.

٣ — كشمير: وسنفرد لها بحثاً خاصاً إن شاء الله.

٤ — وإن بعض المقاطعات لم تدخل ضمن نطاق التقسيم، وشكلت دولاً مستقلة، وهي سيلان، ونيبال، وبوتان.

٥ — احتفظ الفرنسيون ببعض الموانئ «بونديشيري».

٦ — احتفظ البرتغاليون ببعض الموانئ مثل «غوا».

ويمكن أن نوضح ذلك بالجدول التالي :

مساحة الهند قبل التقسيم	٣٦٠,٠٠٠ كيلومتر مربع.
ويبلغ عدد السكان	٤٤٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة

وقسمت فكان مايلي:

جمهورية هندستان	٣٢٦٢٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ٣٥٦٠٠٠٠٠ نسمة.
جمهورية باكستان	٠٩٤٣٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ٠٨٠٣٠٠٠٠٠ نسمة.
مقاطعة كشمير	٠١٥٥٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ٠٠٣٧٠٠٠٠٠ نسمة.

ولم يتم التقسيم بالأمر السهل فقد حدثت المذابح وكانت أشد بكثير من المذابح التي قامت من قبل التقسيم، إذ بدأ انتقال السكان الأقليات إلى حيث تزداد نسبة إخوانهم فحدث للمسلمين الذبح والقتل، فقد أحرق الهندوس والسيخ القطارات التي كانت تنقل المسلمين إلى باكستان، وخاصة من بنجاب الشرقية التي بقيت مع الهند إلى بنجاب الغربية التي كانت ضمن ولايات باكستان. وقامت الفتنة في البنجاب الشرقية، واستمرت الفتن حتى خرج كل المسلمين من هذه المقاطعات، وقد تعرضوا للقتل والحرق وسبي النساء في المدن والقرى ومحطات السكك الحديدية، ولا يمكن تفصيل هذه الأحداث لما فيها من مأس ولكثرتها، وقد عمت أكثر المناطق وخاصة دهلي، وقتل مائتا ألف مسلم في يومين فقط في مدينة «أمرتسار»، وذلك يومي ٢٤ و ٢٥ شوال ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م)، كما لم تخل منطقة من ذلك سواء أكان ذلك في «بيهار» أم في البنغال العربية أم في الجنوب أم في الشمال والوسط.

الهند: وقد ضمت جمهورية هندستان بعد التقسيم والاستقلال مجموعات متباينة من السكان سواء أكان ذلك من حيث عقائدهم أم من حيث لغاتهم، ويمكن أن نلاحظ هؤلاء السكان وتوزعهم حسب الجدول التالي، وذلك بالاعتداد على إحصاء قديم عن ذلك اليوم:

الهندوس	٤٠٠ ر ٤٢٤ ر ٢٣٩ نسمة
المسلمون	٩٩٦ ر ٧٣١ ر ٠٤٢ نسمة
النصارى	٤١٩ ر ٥٩٢ ر ٠٠٥ نسمة
السيخ	٧٤١ ر ١١٤ ر ٠٠٤ نسمة

٠٠٠ ر ١١٠ ر ٠٠٠ نسمة

البارسي

أما حسب إحصاء ١٣٨٢ هـ فكانوا كما يلي: مع ملاحظة أن الإحصاءات الهندية تحاول التقليل من نسبة المسلمين لأغراض سياسية).

الهندوس	٣٢٠٠٠٠٠٠٠ نسمة ويشكلون نسبة ٨٤٪ من السكان.
المسلمون	٤٢٠٠٠٠٠٠٠ نسمة ويشكلون نسبة ١١٪ من السكان.
النصارى	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ نسمة ويشكلون نسبة ٥٢٪ من السكان.
السيخ	٠٨٠٠٠٠٠٠٠٠ نسمة ويشكلون نسبة ٢٪ من السكان.
الجين	٠٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ نسمة ويشكلون نسبة ٥٪ من السكان.
البوذيون	٠٠٢٠٠٠٠٠٠٠٠ نسمة
البارسي	٠٠١٢٠٠٠٠٠٠٠٠ نسمة
اليهود	٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٣٠ نسمة

أما اللغة فقد كان أكثر أهل الهند يعرفون لغة (الأوردو) كلغة رئيسية إضافة إلى لغاتهم المحلية، ولغة الأوردو هي لغة المعسكر الذي تضم الكثير من العربية والفارسية والتركية مع لغات ثانية، وتكتب بالحرف العربي، وتعد لغة المسلمين، فلما بدأ الانفصال الشعورى بدأ الهنود بمحاربة لغة (الأوردو) والعمل على إحياء لغة الهندوس التي لا يعرفها إلا القليل، وعندما حدث التقسيم لم تكن لغة الهندوس إلا لغة ثانوية، وبدأت بعد تقوى تدريجياً في عام ١٣٧٥ هـ وعملت حكومة الهند برنامجاً خاصاً لتعليم هذه اللغة، وهي أقرب اللغات إلى «السنسكريتية» التي تدرس بالجامعات، والتي تعد كاللغة «اللاتينية» بالنسبة إلى اللغات الأوروبية، ويوجد إضافة لها أكثر من مائتى لغة أخرى، وقد أثبتت الإحصاءات التي قام بها «جون كريسون» عام ١٣٥٠ هـ أن عدد لغات الهند ٢٢٥ لغة وأهمها:

الهندوسية :	وتنشر الآن في مناطق كثيرة في الهندو ويتكلم بها ٥٠٪ من السكان.
البنغال :	وتنشر في مقاطعة البنغال الغربية ويتكلم بها ٠٨٪ من السكان.
تلوغو :	وتنتشر في شرقي هضبة الدكن ويتكلم بها ١٠٪ من السكان.
تاميل :	وتنتشر في مدراس وجنوبها ويتكلم بها ٠٨٪ من السكان.

ماري : وتنتشر في وسط الدكن ويتكلم بها ٠٨٪ من السكان.
 غوغاراتي : وتنتشر في شمال شرقي بومباي ويتكلم بها ٠٥٪ من السكان.
 مالايام : وتنتشر في جنوب غربي الدكن ويتكلم بها ٠٤٪ من السكان.

هذا بالإضافة إلى أن أهل كشمير يتكلمون لغة خاصة بهم، وتعد اللغة الانكليزية الرسمية الثانية، ويتعلمها الطلاب في المدارس، وأكثر المثقفين يعرفونها.

تبلغ نسبة المسلمين في الهند حوالي ١٤٪، ولما كان عدد سكان الهند ٥٨٥ مليوناً لذا فإن عدد المسلمين اليوم يقدر بـ ٧٦ مليوناً، وإن كانت حكومة الهند تعطيهم عدداً أقل من هذا وتدّعي أن نسبتهم لا تزيد على ١٠٪. وتختلف نسبة المسلمين بين منطقة وأخرى في الهند حسب انتشار الإسلام وتجمع المسلمين، فقد رأينا أن الإسلام قد انتشر في الشمال نتيجة الفتح الذي كان طريقه من بحر العرب إلى خليج البنغال، وأنه قد انتشر في السواحل نتيجة الدعوة والتجارة، وتعمق في الداخل أثناء حكم المسلمين للهند وانتقال الدعاة في مناطقها المختلفة، ولولا المستعمرون الذين دخلوا البلاد، ووقفوا في وجه الإسلام وحاربوه بكل وسيلة امتلكوها لعم المناطق كلها، ولذا فإن المناطق الشمالية التي بين السند والبنغال أعلى نسبة بالمسلمين من المناطق الداخلية، والسواحل الغربية التي كانت على طرق السفن أعلى نسبة من السواحل الشرقية، لكن توزع المسلمين في أرجاء الهند كلها عندما آل حكمها إليهم جعل النسب المتباينة تتقارب ويقل الفرق بينها، وعندما جاء الاستعمار وخضع المسلمون للاضطهاد والفرقة اضطروا إلى التجمع في مناطق محدودة بحيث يكون بعضهم قريباً من بعض من أجل التعليم وإمكانية الحياة الاجتماعية، وكذا بعد الاستقلال إذ أصابهم الضغط الشديد بسبب عقيدتهم، والمذابح التي لحقتهم، وهذا ما جعل المسلمين يعيش بعضهم بجانب بعض، ولهذا كله تجمع المسلمون مرة ثانية في مناطق محدودة، واختلفت نسبتهم في البقاع التي يحتمل أن تكون فيها كبيرة، ومع هذا نلاحظ الاختلاف في نسبة المسلمين حسب المقاطعات التي يعيشون فيها تبعاً لموقعها.

ففي مناطق الشمال بين السند والبنغال ترتفع النسبة فهي:

في البنغال الغربية ٣١٪

وفي أسام	٣٤ ٪
وفي بيهار	١٤ ٪
وفي اتربرادش	١٦ ٪
وفي دهلي	٧ ٪

وإن انخفاض النسبة في البنجاب الشرقية إنما يعود الى هجرة المسلمين منها وانتقالهم إلى الجزء الغربي منها، حيث يقع ضمن دولة باكستان التي تجمع فيها المسلمون، أما انخفاض النسبة في بيهار فإنما يعود أيضاً لهجرة أعداد منهم إلى البنغال، وكذا في دهلي التي حدثت فيها فتن كثيرة أبيد فيها أعداد من المسلمين.

وترتفع النسبة على السواحل الغربية وبخاصة الشواطئ التي كانت محطات للسفن وتبلغ هذه النسبة:

في كوجرات	٩ ٪
وفي مهاراشترا	٨ ٪
وفي ميسور	١١ ٪
وفي كيرالا	٢٠ ٪

وتصل النسبة في جزر «لاكاديف» إلى ٩٤ ٪ بسبب أنها كانت محطات للسفن جميعها سواء التي كانت تريد أن تقف على سواحل الهند الغربية ولاتتعداه أم التي تريد أن تتابع طريقها دون التوقف في بلاد الهند، ونلاحظ أن النسبة ترتفع على السواحل الغربية كلما اتجهنا نحو الجنوب حيث تضطر السفن للتوقف بعد أن تكون قد قطعت مسافات طويلة على حين لاتضطر للتوقف دائماً في المناطق الشمالية، لأنها لاتكود قد سارت إلا مسافة قصيرة بعد انطلاقها من كراتشي.

أما على السواحل الشرقية فتكون النسبة في الجنوب أكبر منها في الشمال أيضاً، وذلك بسبب تقعر الخليج البنغالي، والسفن يمكنها الانتقال مباشرة نحو الملايو بعد اجتيازها مضيق سيلان، لهذا نلاحظ أن نسبة المسلمين تكون:

في بونديشيري	٧١٨ ٪
وفي مدارس	٥٤١ ٪
وفي اندهرابرادش	٨ ٪
وفي أوريسا	١٥ ٪

أما سبب ارتفاع نسبة المسلمين في البنغال فإنها إلى الفتح لا إلى التجارة. ويبدو كذلك أن السفن لم تكن لتتوقف في محطات قبل «مالاكا» في شبه جزيرة الملايو لذا فإن نسبة المسلمين في جزر «اندمان» و «نيكوبار» لم ترتفع كثيراً، وهي الآن ١١٪ لأنها لم تكن محطات دائمة.

أما المناطق الداخلية فتعد قليلة النسبة إذا قارناها بما حولها وحتى مع النسبة فهي :

في مانيبور ٦٦٪ على حين أن ماحولها لاتقل نسبته عن ٣٠٪.
وفي تريپورا ٧٠٪ على حين ماحولها لاتقل نسبته عن ٣٠٪، وهي قرية من «مانيبور»

وفي مدهيا برادش ٤٤٪.
وفي هيماشل برادش ١٥٪ حيث تقع في الشمال في المنطقة الجبلية بعيدة عن طريق الفتح.

وفي هريانا ٤١٪.

وعلى هذا تكون المراكز الإسلامية الثقافية والعلمية موزعة حسب تكاثر المسلمين فنجد.

١ - في شمال الهند :

أ - دار العلوم في «ديوبند» وتصدر مجلتي إحداهما باللغة العربية وتسمى «دعوة الحق» والثانية تصدر بلغة «الأوردو»، وتسمى دار العلوم، ولهذه الدار مكتبة ودار للإقامة.

ب - دار العلوم في «لكنو» وتتبع ندوة العلماء، وتصدر ثلاث مجلات: (١) الرائد: باللغة العربية. (٢) البعث الإسلامي: باللغة العربية. (٣) تعمير حياة: بلغة الأوردو.

ج - مدرسة الإصلاح، وتتبع ندوة العلماء.

د - الجامعة الرحمانية: في «بيهار».

هـ - مدرسة مظاهر العلوم في لواء «سهارنپور».

و - المدرسة العالية النظامية في «لكنو».

ز - المدرسة العالمية في «رامپو».

- ٢ - في غربي الهند:
- أ - دار العلوم الأشرفية قرب بومباي.
- ب - الجامعة الحسينية.
- ج - الجامعة العربية الإسلامية.
- ٣ - في جنوب شرقي الهند:
- أ - جامعة دار السلام في مدينة عمر آباد في مقاطعة مدارس، وتأسست ١٣٤٣ هـ.
- ب - مدرسة الباقيات الصالحات، وتأسست ١٣٠١ هـ.
- ج - المدرسة الجمالية، وتأسست ١٣١٨ هـ.
- ٤ - في جنوب غربي الهند:
- أ - روضة العلوم.
- ب - مدينة العلوم.
- ج - سلم السلام.
- ٥ - في وسط الهند (حيدر آباد):
- أ - الجامعة النظامية.
- ب - الجامعة العثمانية، وتأسست ١٣٠٦، وتضم اليوم ٦١ كلية.
- ٦ - مدارس الشيعة: وأهمها:
- أ - الجامعة النظامية: في لکنو.
- ب - كلية الشيعة: في لکنو.
- ٧ - مدارس البوهر: والبوهر طائفة من الاسماعيلية وتعني التاجر، ويبلغ عددهم عشرة ملايين نسمة، ويقوم معظمهم في بومباي، ويعدون أغنى جماعات الهند، وتعد أهم مدارسهم المؤسسة السيفية في مدينة «سورت». وهذه المدارس كلها تدرس بالعربية.
- ٨ - الجامعات العصرية: وهي لا تقتيد بتدريس العربية وأهمها:
- أ - الجامعة الإسلامية في عليكرة.
- ب - الجامعة المليية الإسلامية في دهلي.
- ويوجد في مدينة «عليكرة» مركز ثقافي إسلامي وله أهمية كبرى ومن التنظيمات

الإسلامية:

١ - جماعة التبليغ: التي أسسها الشيخ محمد إلياس الكاند هلوي عام ١٣٦٣ هـ (١٩٤٤ م)، وينتقل أتباع هذه الجماعة في القرى والمدن، ويمرون على المساجد ويدعون الناس فيها، وأثرهم قليل إذ أن دعوتهم إنما تقوم بين أفراد المسلمين، وعلى طريق الوعظ، وعندما توفي الشيخ محمد إلياس مؤسس الجماعة خلفه ابنه محمد يوسف الكاند هلوي.

٢ - الجماعة الإسلامية: وتتبع الجماعة الإسلامية في باكستان والتي أسسها أبو الأعلى المودودي عام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م)، وتولى أمرها من بعده «طفيل محمد»، أما في الهند فإن أميرها هو الشيخ محمد يوسف. وتدعو الجماعة إلى تطبيق المنهج الإسلامي، ولكن تتعرض بين المدن والأخرى إلى الحل وسجن أعضائها وملاحقة أفرادها بسبب السياسة التي تنتهجها الهند في عدائها للمسلمين.

وعلى الرغم من تسلم بعض المسلمين المناصب العليا إلا أن هذا لم يكن ليؤثر على الخط العام للحكومة الهندية في حرمها للإسلام فقد تسلم «أبو الكلام آزاد» وزارة المعارف الهندية إثر التقسيم، ومع هذا فقد حدثت مذابح للمسلمين، وتسلم «حسين ذاكر» رئاسة الجمهورية عام ١٣٩٠ هـ، إلا أن رئاسة الجمهورية منصب فخري والسلطة التنفيذية إنما هي بيد رئيس الوزراء، ومن المعلوم أن الكثير من أصحاب المنافع، ومحبي المناصب يندفعون وراء الحكام في سبيل تحقيق أغراضهم دون النظر إلى ما يلحق إخوانهم من أذى وما ينالهم من ظلم. وقد لجأت حكومة «أنديرا غاندي» إلى تنفيذ سياسة «عقم المسلمين» عن طريق الحقن والأدوية في سبيل الإقلال من النسل، والتخفيف من زيادة المسلمين وأثرهم.

وكلما حدث خلاف أو حرب بين الهند وباكستان تعدّ الهند المسلمين الذين يعيشون على أرضها لإخوانهم في باكستان فينالون الاضطهاد، وتراقب حركاتهم وتسجن الأعداد الكثيرة منهم، وهذا ما حدث في عامي ١٣٨٥ هـ، ١٣٩١ هـ، وما أكثر الخلافات بين الهند وباكستان بسبب قضية كشمير، والخلافات التاريخية. كما أن الأحداث بين المسلمين والهندوس لا تنفك تقع بين مدة وأخرى، ومن المحتمل أن تقع في كل وقت بسبب الخلافات العقائدية فالهندوس يقدسون الأبقار، ويخلون لها الطرقات، ويفسحون لها المجال لتتصرف كما تحلو لها

بهيمنتها، والمسلمون يذبحون الأبقار، ويأكلون لحمها، ويكيلون لها الضرب إذا مانال أحد من المسلمين أذاها، ويكفى هذا لقيام المذابح بين الطرفين، ثم تكون العاقبة الوخيمة على المسلمين بسبب تصرفاتهم ويبدأ عمل الحكومة.

هذا بالإضافة إلى الخلافات السياسية وماينتج في الحياة الاجتماعية، وإثر كل حادث تنال المصائب المسلمين وتحل بهم النكبات. ويعطي الهنود دائماً نسبة المسلمين أقل من الواقع بكثير للتخفيف من شأنهم.

٢ - سيلان

جزيرة تقع جنوب الهند وتعرف دولتها باسم «سيريلانكا»، وتبلغ مساحتها ٦٥٣٦١ كيلو متراً مربعاً، وعاصمتها مدينة «كولبو»، استقلت يوم استقلال أجزاء شبه القارة الهندية الأخرى عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م).

وصل المسلمون إلى سيلان عن طريق التجارة من جنوبي بلاد العرب، ومن الهند، ومن الملايو، لذا فقد تكاثروا على السواحل سواء أكانت الشالية الغربية مثل مقاطعة «منار» حيث جاء إليها التجار العرب والهنود؛ وتبلغ نسبة المسلمين فيها اليوم ٤٠٪ من مجموع السكان، أم على السواحل الشرقية مثل مقاطعة «ترينكو» التي تبلغ فيها نسبة المسلمين ٣٥٪، ومقاطعة «امباري» والتي تصل نسبة المسلمين فيها إلى ٤٥٪، على حين أن نسبة المسلمين في الجزيرة عامة لاتزيد على ٨٪.

يزيد عدد المسلمين في سيلان على المليون قليلاً من أصل السكان البالغ عددهم ثلاثة عشر مليوناً، أما بقية السكان فهم من البوذيين وتبلغ نسبتهم ٨٤٪، ولاتزيد نسبة النصارى على ٥٪ وما بقي وهو ٣٪ فهم من الهندوس، أي أن سيلان تختلف عن الهند بأن أكثرية السكان يدينون بالبوذية على حين يدين معظم سكان الهند بالهندوسية، وهذا الأمر الذي جعل أهل سيلان يفضلون الانفصال عن الهند.

البوذيون ١٠٠٠ر٩٢٠ر ٨٤٪

المسلمون	٠١٠٤٠٠٠٠	٨ %
النصارى	٠٠٠٦٥٠٠٠٠	٥ %
الهندوس	٠٠٠٢٩٠٠٠٠	٣ %
	١٣٠٠٠٠٠٠٠	١٠٠ %

ومعظم المسلمين في الجزيرة يطلق عليهم اسم «الموروز» وهو الاسم الذي أطلقه الإسبان والبرتغاليون على المسلمين أينما وجدوهم، فهم «الموروز» في مدغشقر والفلبين، و «الموروز» في سيلان، وأغلب المسلمين يعمل في فلاحه الأرض وزراعتها، وإذا كان الدور الأول في انتشار الاسلام يعود للتجارة إلا أنه يجب ألا ننسى دور الدعاة، وهم قد جاءوا في أول الأمر مع التجارة وعن طريقها.

وعندما حكم المسلمون الهند فقد حكموها جميعها بما فيها سيلان، وجاء الاستعمار البرتغالي عام ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) يحمل معه الحقد فتكل بالمسلمين، وأباد قرى كاملة، ويجب ألا ننسى أن إخراج المسلمين من أندلس على أيديهم وأيدي الأسبان لم يمض عليه أكثر من خمس عشرة سنة، لذا فإن محاكم التفتيش قد لعبت دورها.

وجاء المسلمون إلى الجزيرة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، ومعظمهم من الملايو وأندونيسيا جاءوا كجنود أثناء الصراع الاستعماري، كما نزح إليها بعض الملايويين أثناء حكم الهولنديين لها، ويقيم في البلاد جماعة من مسلمي الهند، وهم من رجال الأعمال والتجارة الواسعة.

وجاء الهولنديون عام ١٠٦٩ هـ (١٦٥٨ م) فتابعوا سياسة البرتغاليين تجاه المسلمين، وأسسوا مدارس تنصيرية للوقوف في وجه المد الإسلامي الأمر الذي جعل بعض المسلمين يتجهون نحو الداخل ويلتجئون إلى بعض المحليين عليهم يجدون عندهم المأوى والرحمة، وهذا ما جعل الإسلام ينتشر في الداخل، وإن كانت النسبة قليلة لاتزيد على ٨٪ في أكثر المناطق اتساعاً بانتشار الإسلام في الداخل وهي مقاطعة «كاندي».

وجاء الانكليز عام ١٢١١ هـ (١٧٩٦ م) وساروا على السياسة نفسها التي سار عليها من سبقهم من النصارى سواء أكانوا من الهولنديين أم من البرتغاليين، وأسسوا المدارس النصرانية، وقصروا التعليم عليها وعلى المدارس الحكومية العلمانية ووجهوها توجيهاً خاصاً ضد العقيدة الإسلامية، وأغروا المسلمين بدخولها، إلا أن المسلمين قد عرفوا من المستعمرين النصارى الذي سبقوا الانكليز مانالهم وماخططوا له لضرب العقيدة لذا فقد أحجموا عن انتسابهم إلى هذه المدارس الأمر الذي أبقاهم على حالة من التخلف والجهل على حين سبقهم غيرهم لما نالوا من علم عى أيدي المستعمرين.

استقلت سيلان عام ١٣٦٦ هـ ويلاقي المسلمون في ظل عهد الاستقلال اضطهاد الحكومة البوذية، وللمسلمين عدة مؤسسات أهمها:

- ١ - الجماعة الإسلامية: وتأسست عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م)، وتتبع الجماعة الإسلامية في باكستان.
- ٢ - جماعة أنصار السنة: وتأسست عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م).
- ٣ - جماعة التبليغ: وتأسست عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣ م).
- ٤ - جمعية الشبان المسلمين.
- ٥ - رابطة المسلمين.

وتوجد في البلاد منظمة، ودائرة للأوقاف الإسلامية.

وأقام المسلمون عدداً من المؤسسات التعليمية أشهرها:

- ١ - كلية الزاهرة في العاصمة «كولومبو» وذلك عام ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م)، وكان لها خمس مدارس فرعية إلا أن الحكومة البوذية قد وضعت يدها على هذه الفروع.
- ٢ - كلية السيدات المسلمات في مدينة «كيليا» الواقعة إلى الجنوب من كولومبو، وتشتمل على قسم خاص باليتيمات.
- ٣ - مدرسة دار الأيتام لأبناء المسلمين.
- ٤ - دار الثقافة الإسلامية.

وتوجد مدارس عربية دينية يزيد عددها على خمس وعشرين مدرسة، وهناك مدارس لتحفيظ القرآن، ومكتبة عامة للمسلمين تأسست عام ١٣٥٢ هـ.

(١٩٣٣ م). كما يصدر المسلمون ثلاث صحف شهرية.

٣ - نيبال

وهي منطقة جبلية تقع شمال الهند، تبلغ مساحتها ١٤٢,٠٠٠ كم^٢، وبطبيعتها الجبلية، وانعزالها، وطبيعة الفاتحين المسلمين فإنهم لم يفتحوها، وإنما انتشر فيها الإسلام ببطء حيث لا تزيد نسبة المسلمين فيها على ٣,٨٪ من عدد السكان البالغ عددهم عشرة ملايين نسمة، وبهذا يقدر عددهم بـ ٣٨٠,٠٠٠ نسمة، وقد استقلت مع استقلال الهند.

٤ - بوتان

منطقة جبلية صغيرة تبلغ مساحتها ٤١,٢٨٠ كم^٢، وتشبه نيبال من حيث الطبيعة والسكان. والعقيدة، وتصل نسبة المسلمين فيها إلى ٥٪ من عدد السكان البالغ مليون نسمة، وبذا يكون عددهم خمسين ألفاً.

٥ - المسلمون في بورما

تبلغ مساحة بورما ٦٨٠,٠٠٠ كيلو متر مربع، ويسكنها ما يقرب من ثلاثين مليوناً، وبذا يشكلون نسبة من السكان تزيد على ٧٪ من السكان، ويقطن أكثرهم في العاصمة «رانغون»، وفي مدينة «ماندلي» التي تقع شمال العاصمة، وتبعد عنها ٥٩٠ كم^٢.

يتكلم السكان عدداً من اللغات يزيد على العشر، وأهمها «البرمية»، وهي السائدة، ويتكلمها أكثر السكان، أما المسلمون فيحرصون على معرفة العربية إلى

جانب «البرمية»، وكذلك فإن اللغة الانكليزية لها دورها الكبير وبخاصة في الأوساط المتعلمة.

وصل الإسلام إلى بورما عن طريق التجارة، إذ كان بعض العرب المسلمون يحطون رحالهم على الشواطئ، ولكن يبدو أن انتشار الإسلام عن هذه الطريق كان قليلاً لأن شواطئ بورما لم تكن محطات للسفن بسبب تعقرها؛ لأن السفن كثيراً ما كانت تختصر الطريق بالاتجاه نحو مالاقا وجنوب شرقي آسيا، لذا فإن انتشار الإسلام عن طريق التجارة كان واسعاً جنوب بورما في بلاد فطاني والملايو. والأرز هو غذاء السكان الرئيسي، ويزيد انتاجه على حاجة البلاد لذا فهو يدخل في قائمة الصادرات.

وغزا المسلمون التتار بورما عن طريق الصين عام ٦٨٦ هـ، فانتشر الإسلام، وقد خلع المسلمون الملك الطاغية، ونصبوا مكانه آخر أقل منه ظملاً.

وكذلك وصل الإسلام عن طريق الهند، ففي القرن الحادي عشر الهجري حكم الهند «أورنكزيب» واختلف مع أخيه «سوجا» فانتقل الأخير إلى بورما مع عدد من أتباعه المسلمين، وتوغلوا في الداخل، وتعايشوا مع السكان ونشروا دينهم هناك.

وقد وصل إلى بورما عدد من مسلمي الصين والهند، وعاشوا فيها.

وينتقل كثير من المسلمين بين الصين (يونان) وبين (ماندي) في بورما بشكل عادي على شكل أفراد، وعند المحن والنكبات بشكل جماعي.

لقي المسلمون اضطهاداً يوم الاستعمار الانكليزي فكان حاثلاً بينهم وبين المناصب والوظائف بل والأعمال، وقد زاد هذا الاضطهاد بعد الاستقلال، وقد تعرضوا في الآونة الأخيرة لحرب إبادة ذهب ضحيتها الكثير، وأجبر الكثير على مغادرة البلاد فانتقلت أعداد كبيرة منهم إلى البلدان المجاورة وخاصة بنغلاديش.

٦ - المسلمون في الهند الصينية

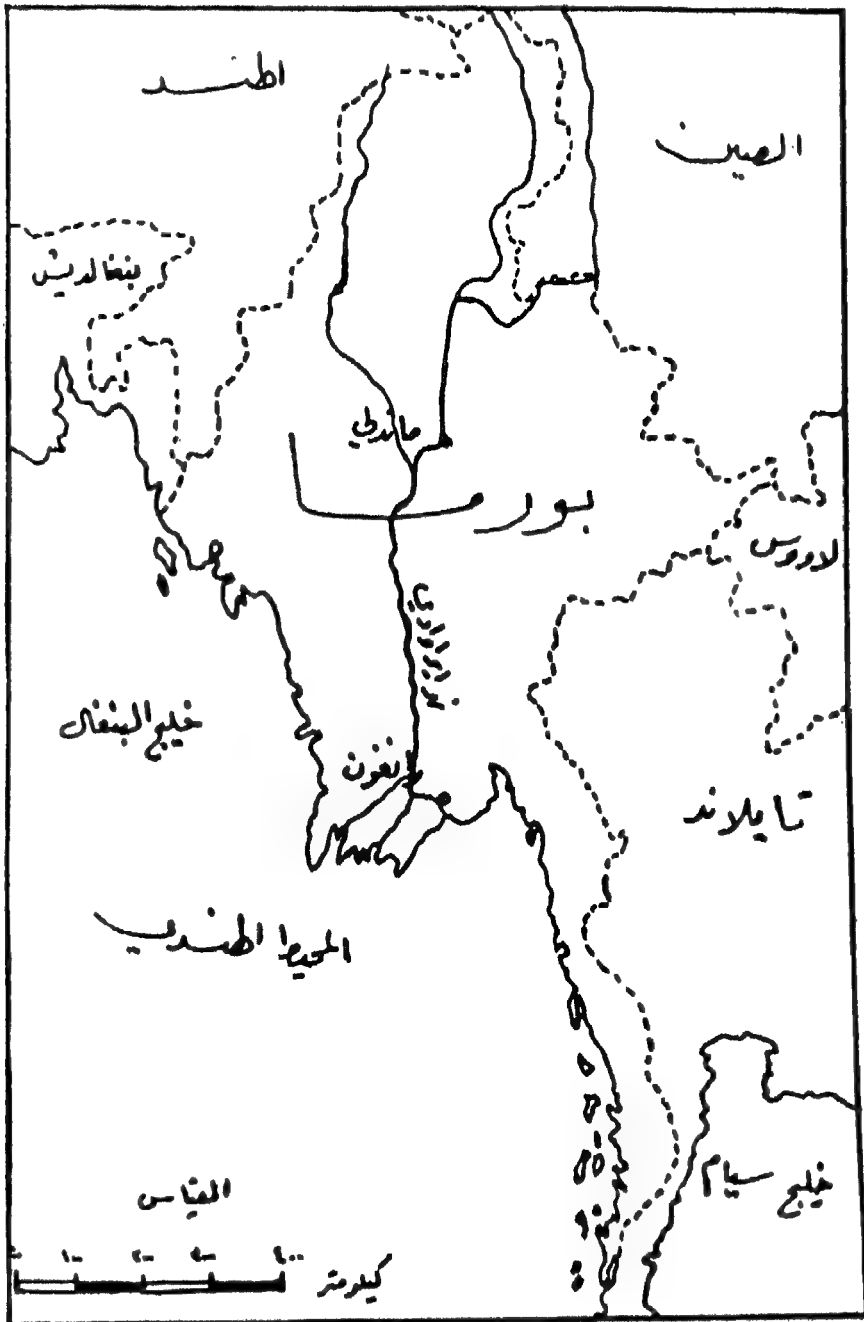
تشمل الهند الصينية دول فيتنام، وكامبوديا، ولاوس، وتقع هذه الدول في جنوب شرقي آسيا، وتبلغ مساحتها مجتمعة ٧٤٨,٠٩٣ كم^٢، ويقدر عدد سكانها بستين مليوناً، خمسون منهم في فيتنام، وسبعة ملايين في كامبوديا، والباقي في لاوس.

تدين شعوب المنطقة منذ عصور قديمة بالنظريات والمعتقدات المختلفة، ومنها البراهمية التي وصلت إليها من الهند، وعمت المنطقة عدا منطقة أنام (شمال فيتنام) والتي أثرت فيها نظرية «كونفوشيوس» التي وفدت من الصين، ثم وصلت إليها البوذية وعمت شعوب المنطقة، وظهر الإسلام في منطقة «تشامبا» في القرن الخامس الهجري، وجاءت النصرانية أخيراً مع الاستعمار الفرنسي.

لمحة جغرافية:

تتألف الهند الصينية من سلسلة جبال «أنام» التي تنفصل عن كتلة الصين، وتمتد على شكل قوس يأخذ اتجاه السواحل، وتحصر هذه الجبال بينها وبين الساحل سهولاً ساحلية يختلف اتساعها بين منطقة وأخرى، وتمتد في الشمال سهول فيضية يشكّلها النهر الأحمر بما يحمل من مجرّفات أثناء انحداره من الجبال، ويردم بها خليج «طونكين»، كما تمتد في الجنوب سهول فيضية أخرى يشكّلها نهر «الميكونغ» بعد أن ردم منطقة واسعة من خليج «سيام»، ووصل بين البر وجزيرة كانت قائمة في جنوب غربي مصبه، وتكون هذه السهول معظم أراضي «كامبوديا» عدا إقليم «كوشانشين» الذي ضمته فيتنام إليها، أما جبال أنام فتشكل بلاد «فيتنام» و «لاوس» وتكون ذراها الحدود الفاصلة بين الدولتين، أما السهول الفيضية الشمالية فتتبع «فيتنام» ولا يزيد ارتفاع هذه الجبال على ٢٥١٠ م، وإن كانت تصل في الشمال إلى ارتفاع ثلاثة آلاف متر.

تمتد شبه جزيرة الهند الصينية بين خطي عرض ٨٣٠-٢٣ شمالاً، ولما كانت في جنوب شرقي القارة كانت ضمن نطاق المناخ المسمّى ذى الأمطار الصيفية



الغزيرة التي تسبب فيضان الأنهار في ذلك الفصل، وقد يحدث الدمار في كثير من الأحيان. وتسود زراعة الأرز الذي يعد غذاء السكان الرئيسي، وتتألف منه أكثر أطعمتهم، كما يزرع المطاط والنباتات المدارية كلها.

لمحة تاريخية:

وصل الإسلام إلى الهند الصينية في القرن الرابع الهجري أو قبل ذلك بقليل عن طريق التجار الذين عملوا في الدعوة إلى الإسلام، وكان هؤلاء التجار ينزلون على السواحل البارزة في البحر أو التي تكون محطات إجبارية للسفن، لذلك فقد كان ساحل مملكة أنام مجالاً لتوافد التجار المسلمين، الأمر الذي أدى إلى انتشار الإسلام هناك وبين شعب «تشام»، وكان يطلق عليهم اسم «هوي هوي» وهو الاسم الذي يطلق الصينيون على المسلمين حتى الآن.

وقد ازدهر الإسلام في تشامبا في القرن الثامن الهجري عندما توطدت العلاقة بين مملكة تشامبا وسلطان المسلمين في الجزر الأندونيسية. وتعود مملكة تشامبا في تاريخها إلى عام ٤٢٠ قبل الهجرة، وقد دخلت في صراع مع جيرانها الصينيين والكامبوديين، ولعل هذه الدول هي أقدم دولة أسستها الأقوام الملايوية، وكانت تعتمد في حياتها على التجارة. ولم ينتشر الإسلام في الهند الصينية في غير هذه المنطقة وذلك لتراجع السواحل التي تؤلف خلجاناً واسعة مثل خليج «سيام» في الجنوب، وخليج «طونكين» في الشمال.

ومنذ القرن الثامن الهجري أصبحت «تشامبا» إمارة إسلامية، وبلغ أقصى امتداد لها عام ٨٧٥ هـ (١٤٧٠ م) إذ وصلت حدودها الشمالية إلى بداية خليج طونكين عند مدينة «دونغ هوي» الحالية أي تضم الجزء الجنوبي مما عرف اليوم باسم «فيتنام الشمالية»، أما حدودها الجنوبية فقد وصلت إلى إقليم «كوشانشين» وذلك على بعد ٧٥ كيلو متراً تقريباً شمال مدينة «سايغون» الحالية، وبذا شملت دولة تشامبا الإسلامية أكثر أجزاء فيتنام الجنوبية، وجنوبي فيتنام الشمالية، وكانت تضم خمس ولايات.

كانت صلة تشامبا قوية مع المسلمين في كل بلادهم، فلما ضعف شأن المسلمين، وضعفت قوتهم، ضعفت معهم تشامبا الأمر الذي أطمع فيها جيرانها،

وبدؤوا يغزونها، فتقدمت فيتنام التي كانت تضم أرضها منطقة «طونكين» على ضفاف النهر الأحمر من الشمال وذلك عام ٨٧٥ هـ .

استمر الغزو الفيتنامي مايقرب من أربع قرون ٨٧٥-١٣٣٨ هـ (١٤٧٠-١٨٢٣ م) وكان يتقدم تدريجياً من الشمال حتى قضى على الدولة نهائياً، وكان الفيتناميون يشنون حرب إبادة تامة ضد المسلمين. التشاميين، أو ينقلون أعداداً كبيرة منهم إلى فيتنام، أو يضطرونهم إلى الفرار خارج البلاد، فعندما سقطت «فيجايا» عاصمة تشامبا بأيدي الفيتناميين قتل الغزاة ستين ألفاً من السكان، وأسروا ثلاثين ألفاً ساقوهم إلى «هانوي» عاصمة فيتنام، ومن بينهم خمسون من أفراد الأسرة الحاكمة، ثم لجأوا بعد ذلك إلى أخذ الأراضي من يد مالكيها وإعطائها إلى الغزاة الذين بدؤوا بالاستيطان في تشامبا بل انتقلت إليها أعداد كبيرة من فيتنام، حيث قدمت لهم الأرض، وهكذا أصبح شعب تشامبا غريباً في بلاده، ولا يملك شيئاً من أراضيه، ولما رأى الملك ذلك وهو لا يملك من الأمر شيئاً قرر مغادرة البلاد واللجوء إلى كامبوديا، فرحب به ملك كامبوديا وبمن تبعه من التشاميين الذين فضلوا أن يكونوا غرباء في كامبوديا من أن يكونوا غرباء في وطنهم، ومن هنا بدأ الوجود الإسلامي في كامبوديا وذلك عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٣ م)، ولا يزال هؤلاء التشاميون يقيمون في كامبوديا حتى الآن، ويطلق عليهم «خمير إسلام» ((Khamir Islam)) أي الكامبوديون المسلمون.

تابع الغزاة الفيتناميون سياستهم التعسفية ضد المسلمين الأمر الذي أجبر الكثير إلى الهرب من البلاد، فانطلق بعضهم إلى ماليزيا، واتجه بعضهم نحو أندونيسيا هذا بالإضافة إلى من سار منهم إلى كامبوديا.

أ- المسلمون في فيتنام :

يقدر عدد المسلمين اليوم في فيتنام بحوالي مليون وربع، وبذا يشكلون ٢٥٪ من السكان، ومن الصعب أن نعرف شيئاً عنهم بسبب الأوضاع السياسية القائمة، وهذا العدد هو من بقي في هذا الجزء من الهند الصينية، ويعيش أربعون ألفاً منهم في اقليم «كوشانشين» وهو الجزء الجنوبي من فيتنام، ويعد منطقة سهلية، ويتوزعون في منطقة «تشادوق» (Chanduq) الواقعة على حدود كامبوديا على

يمين نهر «الميكونغ»، وفي مدينة «سايفون»، ومنطقة (تاي نينه × Taynie) الواقعة على حدود كامبوديا أيضاً. كما يعيش خمسون ألفاً في إقليم (بيتھيوان)، إلا أنهم في هذا الإقليم قد أصابهم جهل كبير بسبب انقطاع الصلة بينهم وبين إخوانهم في إقليم «كوشانشين»، وغدت مساجدهم لا تفتح إلا يوم الجمعة، ويصلي فيها الأئمة نيابة عن العبد كما يصومون عنهم شهر رمضان، وعندهم بعض السور من القرآن الكريم مكتوبة باليد. هذا بالنسبة إلى الكبار، أما الجبل الجديد فقد نشأ على صورة أكثر جهلاً، فلا يعرفون عن الإسلام إلا ما يقول عنه أعداؤهم، وقد ارتد بعضهم فاعتنق النصرانية، ومنهم من سار في طريق البهائية حيث وصل المروجون لها اليهم عن طريق معونة الاستعمار.

وفي عام ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م) قام بعض الأفراد من المسلمين التشامبيين في «كوشانشين» وشاركهم بعض التجار الهنود بالدعوة إلى الإسلام، فوجدوا نجاحاً في مهمتهم، وتنبه آلاف المسلمين فأقبلوا على تعلم العبادات وبعض الأحكام، وبتوا المساجد في مناطقهم، كذلك تأسست جمعية «هي الجمعية التهامبية الإسلامية الفيتنامية» في العام نفسه، وللغرض نفسه.

وفي العهد الجمهوري السابق كان يكلف أحد التهامبيين بوزارة «التنمية للشعوب الأقلية»، كما يشغل أحدهم عضوية مجلس النواب، وآخر عضوية مجلس الشيوخ. ولكن لا يسمح للمسلمين بالالتحاق بالكلية الحربية، وإذا صادف وتجاوز الفيتناميون عن هذا التجاوز لا يصل إلى الكلية الجوية، ثم إن نظام التجنيد لا يشمل المسلمين أبداً.

وعندما استولى الشيوعيون على فيتنام الجنوبية عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) فر الكثير من المسلمين خارج حدود البلاد إذ علموا بمصيرهم، وطريقة الشيوعيين في القتل، فمنها أنهم أمضوا عشرين يوماً في دفن الناس أحياء بعد أن دخلوا مدينة (هوي) القريبة من الحدود بين دولتي فيتنام آنذاك. ومع ذلك فقد تمكن الشيوعيون من نقل بعض زعماء المسلمين إلى هانوي في الشمال، وقد انقطعت أخبار هؤلاء المنقولين، كما رُجِّح آلاف المسلمين في السجون، كما أخذوا أئمة المساجد إلى أمكنة مجهولة بحجة أنهم رفضوا رفع صورة الزعيم الشيوعي (هوتش مينه) في مساجدهم، واستولوا على المساجد والمدارس التي تعلم القرآن الكريم

وجعلوها وحدات صحية، أو مقرات للاجتماعات، وأبقوا المسجد الجامع في مدينة «سايجون» والذي يقع قرب مبني مجلس الأمة، وبالمناسبة فقد أعادوا للمسلمين في «هانوي» مسجدهم بعد أن حولوه إلى مصنع مدة من الزمن.

ولايسمح للمسلمين بأداء الصلاة اليومية، أما صلاة الجمعة فلا تقام إلا بعد الحصول على تصريح من الشرطة على أن تدون أسماء المصلين وعنوان كل واحد منهم، وهذا التصريح أسبوعياً.

ويعيش المسلمون الآن على حالة من الفقر لاتكاد تصدق، فلا يجد المرء ثمن الكفن لميته، كما لاتستطيع المرأة أن تستر عورتها في الصلاة لأنها لاتملك ثم تلك الثياب الطويلة.

وتقدر مساحة فيتنام اليوم بـ ٣٣٦.٠٠٠ كم^٢، وبذا تكون كثافة السكان فيها كبيرة وتزيد على ١٥٠ شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد.

ب - المسلمون في كامبوديا :

تبلغ مساحة كامبوديا ١٨٢.٠٠٠ كم^٢ ويقدر عدد سكانها بسبعة ملايين، وبذا لاتصل الكثافة إلى أكثر من ٣٠ شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد، وهي كثافة ضئيلة.

بدأ وجود المسلمين في كامبوديا عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٣ م) بعد وصول الشامبيين الهاريين من بلادهم إليها، ولم يكن فيها من قبل مسلمون. ويصل عدد المسلمين اليوم في كامبوديا إلى مليون نسمة وبذا يشكلون ١٤.٨٪ من مجموع سكان البلاد، وإن كانت الحكومة لاتعترف بهذا أبداً، وتعطي إحصاءات متناقضة عنهم فتارة لا يصلون إلى مائة وخمسين ألفاً، وتارة يصلون إلى نصف مليون، وأخرى إلى ثلاثة أرباع المليون، وتمنع المسلمين من الخروج سواء أكان ذلك لأداء فريضة الحج أم للدراسة في الدول الإسلامية، وذلك ليبقى خبرهم مجهولاً.

عاش الشامبيون المسلمون في كامبوديا في قرى خاصة بهم لاختلافهم عن المجتمع الذي يعيشون معه في العقيدة واللغة والعادات، وكان يقال لهذه القرى (Phum Cham) أي قرّة التشام، وفي كل قرية مسجد، وتوجد أماكن أخرى تخصص للعبادة لتسهل للسكان إمكانية صلاة الجماعة في غير المسجد، وهناك

قرى ليست فيها مساجد وهي أكثر القرى التشمبية فتوجد أماكن خاصة للصلاة، أما صلاة الجمعة فتقام في فناء وسط القرية. ويبلغ عدد المساجد اثنين وثلاثين ومائة مسجدا موزعة على القرى. ولا يتم الزواج بين التشمبيين والكامبوديين إلا على نطاق ضيق وفي حالة إسلام الكامبودي أو الكامبودية ممن يريد الزواج من المسلمين - وهذا كان قليلاً - لذا فإن عدد المسلمين من أبناء كامبوديا قلة.

ويشرف على كل قرية تشمبية حاكم عام يساعده رجل أو اثنان، ويشرف على أحوال المسلمين التي تتعلق بالعبادات والأحوال الشخصية، كما يعين الإمام والخطيب والمؤذن. والإمام يخصص عادة ليوم الجمعة، أما بقية الأيام فيصلي بالناس أحدهم دون تعيين، وتكون الإمامة تطوعاً أو ممن يختاره المصلون من بينهم.

وتخضع القرى التشمبية كلها للجنة العليا لشؤون المسلمين، وتتألف من إمام ونائبين ومستشارين له، وتخضع هذه اللجنة لإشراف وزارة الدين البوذي في الحكومة الكامبودية.

وفي عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) أعلنت الجمهورية في كامبوديا، وظهرت في البلاد جمعيتان إسلاميتان وهما:

١ - الجمعية الإسلامية المركزية في كامبوديا وتشرف على أوضاع المسلمين الثقافية والاجتماعية.

٢ - جمعية الشبان المسلمين في كامبوديا: والهدف منها الإشراف على حل مشكلات الطلاب التعليمية والاجتماعية والدينية، وتأمين السكن للطلاب الفقراء الذين يأتون للدراسة في العاصمة أو المدن الأخرى، وقد كان هذه الجمعية دور أثناء الحرب إذ آوى إلى العاصمة الكثير من المسلمين الفارين من المناطق التي اجتاحتها الحرب.

ويسود الجهل أكثر المسلمين إذ يرفضون إرسال أبنائهم إلى المدارس الحكومية خوفاً على عقيدتهم، ويكتفون بتعليمهم في الكتاتيب مبادئ القراءة والحساب وتلاوة القرآن، وأكثر ماتكون هذه الكتاتيب في المساجد.

ويعمل أكثر المسلمين في الصيد وخاصة صيد السمك وزراعة الأرز،

ويستخدمون الأدوات القديمة في أعمالهم سواء أكانت صيداً أم زراعة أم صناعة، وقل من يعمل منهم في التجارة.

أما في العمل السياسي فنصيبهم قليل ففي العهد الملكي كان يوجد مسلم مساعد لوزير الدين البوذي، كما يوجد مسلم آخر يعمل مستشاراً لشؤون المسلمين في الديوان الملكي، وهذا كل مايناله المسلمون من مناصب سياسة في الدولة أما بعد عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) حيث حل النظام الجمهوري فقد زادت مناصب المسلمين السياسية زيادة طفيفة إذ أصبح أحدهم عضواً في مجلس الشيوخ، وأربعة أعضاء في مجلس النواب، وعي مسلم أيضاً وكيلاً للأمانة العامة لشؤون الدولة، كما عين خمسة مسلمون في وزارة الخارجية.

ودافع المسلمون ضد الشيوعيين في غزوهم كامبوديا فذاقوا الويلات فدفن بعضهم وهم أحياء، وأبيدت جماعات منهم، وتعرضوا للقتل الجماعي، وأخذت مساجدهم، وقبض على أئمة المساجد والعلماء والأساتذة وحكام القرى المسلمة، وذلك بعد سيطرة الشيوعيين على كامبوديا عام ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م)، كما انتهكت الأعراض وحدثت حوادث تقشعر لها الأبدان، وأعلن المسلمون الجهاد المقدس، وانضموا إلى جبهة (فول رو) التي لا تزال تقاتل في المناطق المرتفعة من البلاد. وقر أعداد من المسلمين إلى خارج البلاد، وأصبحوا يقيمون على وجوههم.

ج - المسلمون في لاوس :

تبلغ مساحة لاوس ٢٣٦٦٠٠٠ كم^٢، ويزيد عدد سكانها على الثلاثة ملايين، وبذا فالكثافة العامة قليلة لاتزيد على ١٢ شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد.

يعيش عدة آلاف من المسلمين في لاوس، وقد هاجروا من فيتنام إليها عندما سقطت إمارة تشامبا، ولكن لانعزالهم فقد تأثر بعضهم بالنصرانية أو فقد دينه نهائياً دون أن يترد إلى أية عقيدة ثانية وذلك نتيجة الجهل والبعد عن بقية المسلمين.

وأخيراً فإنه يوجد في الهند الصينية عشرات الألوف من التجار المسلمين من هنود وباكستانيين وبنغاليين وغيرهم، ومعظم المسلمين في الهند الصينية تشامبيون

وعدددهم مايقرب من مليونين وربع، ويوجد ربع مليون آخر من المسلمين نصفهم في كامبوديا ونصفهم الآخر في فيتنام وهم من غير التشامبيين.

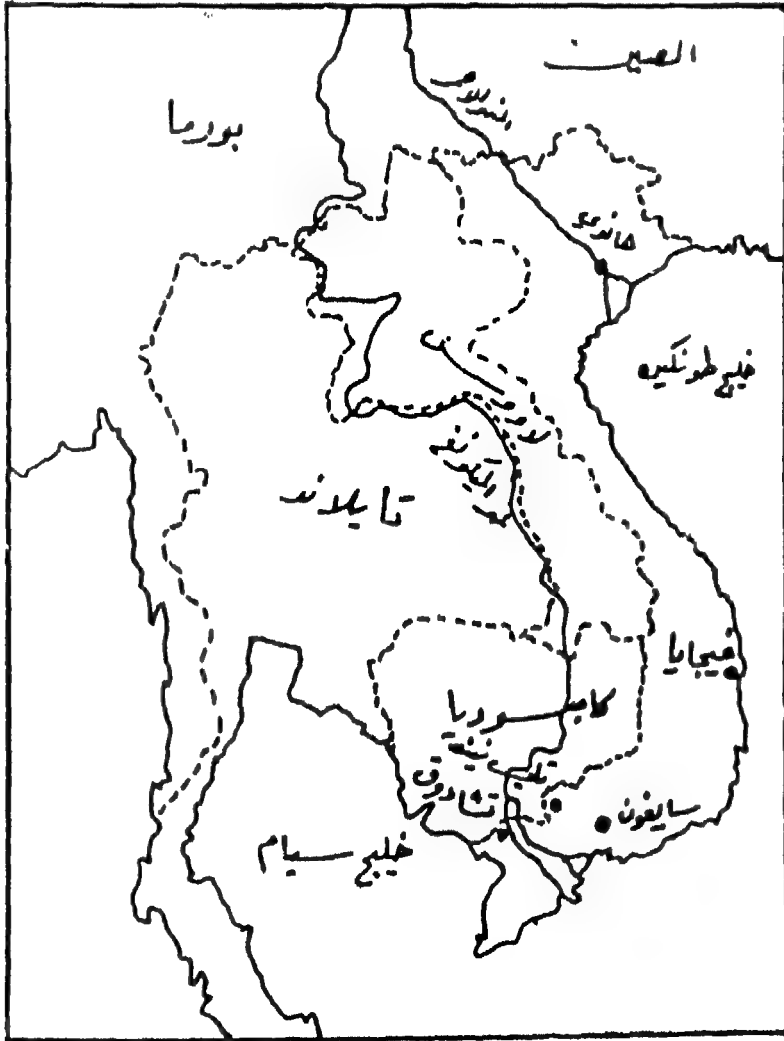
٧ - تايلند

دولة مساحتها ٥٢٠ ألف كيلومتر مربع، ويقيم على أرضها أكثر من ستة وثلاثين مليوناً، ويدين أكثرهم بالبوذية التي تنتشر في جنوب شرقي آسيا، ويعيش بينهم أكثر من خمسة ملايين مسلم، ويمثلون بذلك ١٤٪ من مجموع السكان. ويتجمع المسلمون في منطقتين رئيسيتين هما: فطاني، وحول العاصمة بانكوك.

انتشر الإسلام في المنطقة عن طريق التجارة منذ أن توقفت الفتوحات واتجه الناس نحو العمل بالتجارة وغيرها، وانطلقوا عبر البحار يتخذون من التجارة وسيلةً للدعوة إلى الله. وبدأ الإسلام يتوسع في منطقة فطاني منذ النصف الثاني من القرن الثامن عن طريق مالاقا الذي أخضع سلطانها فطاني إلى حكمه عام ٨٦٥ هـ.

وصل البرتغاليون إلى المنطقة واحتلوا مالاقا عام ٩١٧ هـ (١٥١١ م) ومنها احتلوا المناطق الشمالية منها وكانت فطاني من بينها، ثم جاء الهولنديون وكانت لهم علاقات تجارية مع فطاني منذ عام ١٠١٨ هـ (١٦٠٩ م)، ثم مع الانكليز عام ١٠٢١ هـ (١٦١٥ م)، وقد أقاموا مراكز تجارية لهم.

استطاع التايلنديون الاستيلاء على فطاني عام ١٢٠١ هـ (١٧٨٦ م) بعد محاولات كثيرة استمرت أكثر من قرنين، إذ قاموا بهجومهم عليها عام ١٠١٢ هـ و١٠٤٢ هـ، و١٠٤٣ هـ ولكنهم باءوا بالخسران في كل محاولة. ونقلوا منها ٤٠٠٠ أسير، ونقلوهم إلى منطقة بانكوك، كما قسموا المنطقة إلى سبع ولايات لإضعاف المقاومة، إلا أن الفطانيين قد قاموا بثورة بعد عام من الاحتلال التايلندي، وقادهم (تنكوليدين) غير أن هذه الثورة قد فشلت، وقتل قائدهم. وقامت ثورة أخرى عام ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨ م) لقيت الفشل أيضاً، وهذا ماجعل التايلنديين يعملون على تقسيم المنطقة إلى ولايات صغيرة، ويشردون الزعماء، ويضعون



بجانب كل أمير فطاني أحد التايلنديين إضافة إلى فرض ضريبة. وفي عام ١٢٤٧ هـ (١٨٤١ م) قام ولي عهد ملك (قدح) بثورة فاشترك معه الفطانيون، ولكن فشلت هذه الثورة ودخل التايلنديون الأرض الفطانية فنهوها، وعاثوا فيها الفساد، ونقلوا أربعين ألفاً حملوهم إلى منطقة بانكوك. وفي عام ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) ربط التايلنديون الفطانيين ببانكوك وجعلوا عليهم حاكماً تايلندياً فقام عبدالقادر قمر الدين بثورة. ولكنه هزم وأسر وحمل إلى

بانكوك وطلب، منه توقيع وثيقة يتنازل فيها عن حقه في الإمارة، ولكنه رفض ذلك وأصر على موقفه.

عمت البلاد الفوضى عام ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م)، ونفي الأمير عبدالقادر، وتولى الإمارة مكانه ابنه محيى الدين، وأرسل إلى لندن للدراسة.

وفي عام ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) اتفقت انكلترا وتايلند فأخذت انكلترا بعض الولايات الملايوية وأخذت تايلند المقاطعات الفطانية. وكان الفطانيون يفضلون أن يكونوا تحت سيطرة انكلترا النصرانية من أن يكونوا تحت حكم تايلندا البوذية، وكانوا فيما مضى يطلبون دعم انكلترا ضد تايلند، ولم يعرفوا أن انكلترا سبب الفوضى، وتقسيم مناطق النفوذ بين المستعمرين.

وفي عام ١٣٤٢ هـ (١٩٢٤ م) تكتل الفطانيون ورفضوا دفع الضرائب وإيجارات الأراضي التي فرضت عليهم ظلماً وعدواناً، فالأرض ملكهم، ولكن ملك تايلند عدها له، وأهلها أجراء عنده. ولكن هذه الحركة قد فشلت، فألقي القبض على عدد كبير منهم، وقتل عدد آخر، وفر آخرون، وشرذ مثلهم.

وفي عام ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) حصل انقلاب في تايلاند دعمه الفطانيون فكتب له النجاح، وتغير نظام الحكم من ملكي مطلق إلى ملكي دستوري، وتقدم أهل فطاني بمطالبهم وهي:

- ١ - أن يكون حاكم المنطقة فطانياً.
- ٢ - أن يكون ٨٠٪ من موظفي المنطقة مسلمين.
- ٣ - أن تكون اللغة الملايوية ولغة سيام رسميتين.
- ٤ - أن تكون اللغة الملايوية لغة التعليم الابتدائي.
- ٥ - الاعتراف بالشرعية الإسلامية وتطبيقها بالمحاكم الشرعية، وأن تكون تابعة لإدارة مستقلة بذاتها ومستقلة تماماً عن المحاكم التايلندية.
- ٦ - تكوين مجلس إسلامي.

واختار الفطانيون محمود محيى الدين أصغر أبناء السلطان عبدالقادر قمر الدين الذي يعيش في المنفي ليكون حاكماً لهم. وحدثت فوضى في البلاد عام ١٣٥٢ هـ.

إن مجيء العسكريين إلى حكم تايلند قد جَرَّ وبالأ كبراً على الشعب الفطاني لأنهم حملوا فكرة القومية السيامية والتي حاربها الفطانيون لأنهم يدينون بالإسلام، ويتكلمون لغة ملايوية، وتكتب بالحرف العربي.

كان هدف تايلاند منذ عام ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) تحويل الملايويين في فطانيين إلى تايلانديين بإجبارهم على الزي التايلندي، واستعمال اللغة التايلندية، وقبول الثقافة التايلندية، واتخاذ أسماء تايلندية، وترك العقيدة الإسلامية.

وزاد الضغط على الفطانيين منذ عام ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) إذ حرم المسلمون من وظائف الدولة، وأجبر اطلاب، ومن يعمل بالمؤسسات الثقافية أن يتسمى بأسماء تايلندية. وأغلقت المدارس الدينية والمساجد، كما أجبر المسلمون على دخول المعابد البوذية.

قامت الحرب العالمية الثانية ودخل اليابانيون البلاد، وعمل الانكليز على تنظيم المقاومة، وقد اعتمدوا على السلطان محمود محيي الدين ووعده بالحصول على الاستقلال بعد انتصار الحلفاء. وعندما انتهت الحرب، وكانت اليابان قد هزمت إلا أن وعد الانكليز للفطانيين قد انتهى الحرب، بل إن اقتصاد البلاد قد وُضع تحت تصرف انكلترا.

وفي عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) قام الحاج محمد سولونغ رئيس الهيئة التنفيذية لأحكام الشريعة الإسلامية بتقديم مطالب الشعب الفطاني وهي لا تختلف كثيراً عن المطالب السابقة، وتقدمت المطالب إلى الأمم المتحدة فكانت النتيجة أن قبض على محمد سولونغ ورفاقه وأودعوا السجن، وحكم عليهم بالسجن ثلاث سنوات، ثم أفرج عنهم، ثم اعتقلوا ثانية وقتلوا سرّاً عام ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤ م).

وقع انقلاب عسكري في تايلند عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م)، وفي عام ١٣٥٧ هـ (١٩٥٥ م) وقع انقلاب آخر وكان كل انقلاب يعمل على إذابة الشخصية الفطانية، ووقفت الدول الكبرى بجانب تايلند، وظن المستعمرون أن أمر فطاني قد انتهى.

وفي عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) تشكلت عدة منظمات وأحزاب لمواصلة الكفاح، ولكن تعدد القيادات كان له الأثر السيء، ثم توحدت المنظمات وتغيرت

فكرة المقاومة السلمية إلى فكرة القتال، وقامت الثورة التي لاتزال مشتعله. وتتهم السلطات التايلندية الثورة الفطانية بكل تهمة يمكن أن توجه. وقد تمكنت من تجزئة الفطانيين إذ نقلت في خلال الحرب الطويلة مايقرب من مليوني فطاني، وأقاموا في منطقة بانكوك، ويمكن أن نقول: إن هؤلاء قد انعزلوا عن أبناء عقيدتهم، وقد قطعوا شوطاً في مرحلة الذوبان في المحيط التايلندي.

٨ — سنغافورة

سنغافورة جزيرة صغيرة تكاد تلاصق شبه جزيرة الملايو، تبلغ مساحتها ٧٢٥ كيلومتراً مربعاً فقط، وتشمل مدينة سنغافورة وماحولها.

انتشر الإسلام في سنغافورة عن طريق التجارة بعد انتشاره في مالاقا، ويقدر عدد المسلمين اليوم بحوالي ٣٤٠ ألفاً، وهو مايعادل ١٧٪ من مجموع السكان البالغ مليوني نسمة.

يعدّ تاريخ سنغافورة جزءاً من تاريخ شبه جزيرة الملايو، ولكن غدت إثر الحرب العالمية الثانية مستعمرة بريطانية منفصلة عن بقية ولايات الملايو. وعند قيام اتحاد الملايو عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) كانت سنغافورة إحدى ولاياته ثم عادت فانفصلت منه بعد عامين من قيامه.

تعود أهمية سنغافورة إلى موقعها التجاري. وتسربت إليها الشيوعية، ووجدت المناخ ملائماً لها بين الصينيين. كما امتد نشاط اليهود إليها عن طريق النفوذ الانكليزي.

٩ — الصين

تبلغ مساحة الصين مايزيد على تسعة ملايين كيلومتر مربع ونصف، ويزيد عدد سكانها على ألف مليون نسمة فهي بذلك أولى دول العالم سكاناً، وثالثتها

مباحةً بعد الامبراطورية الروسية وكندا. ويعيش فيها مايقرب من ١٠٪ من سكانها من المسلمين ينتشرون في كل جهاتها. وقد وصل إليها الإسلام عن طريق الفتح وهذا بالنسبة إلى تركستان الشرقية، وعن طريق الدعوة في المناطق الداخلية، وعن طريق التجارة في المناطق الساحلية.

لقد فتح المسلمون تركستان الشرقية عام ٩٥ هـ بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي، وأخذوها من الصين، كما حكم المغول هذه المنطقة، ثم جاء الصينيون بعد أن ضعف أمر المسلمين، وقد عمل الصينيون على تسلم مرافق الحياة جميعها، وقامت الثورات الإسلامية واستمرت مايزيد على المائة عام ١١٧٣-١٢٩١ هـ (١٧٥٩-١٨٧١ م) وأخيراً استطاعت الصين إخضاع سلطنة كاشغر عام ١٢٩٢ هـ (١٨٧٢ م)، ثم قامت ثورة أخرى عام ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) استمرت خمسة أعوام، ولم يتمكن الروس من إخمادها إلا بعد مساعدة الروس الذين دخلوا المنطقة، وبقوا فيها حتى عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) حيث انسحبوا منها بعد مآخذواً معهم جميع المنشآت التي أقاموها في البلاد أثناء وجودهم.

وبعد الحرب العالمية الثانية تمكن الصينيون من فرض النظام الشيوعي وذلك عام ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م)، ودخلوا على تركستان الشرقية وأذاقوا أهلها الويلات، وقد فر عدد كبير منهم. وأعطوا تركستان الاستقلال الذاتي ضمن الكيان الصيني، وأصبح عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣ م) سيف الدين رئيس مقاطعة تركستان التي أعطيت اسم (سينكيانغ) أي المقاطعة الجديدة.

تبلغ مساحة تركستان الشرقية ٧٤٥.٧١٠ كيلومتر مربعاً أي أكثر مساحة من المملكة العربية السعودية، ويقدر عدد سكانها بثمانية ملايين ونصف مليون نسمة، ويدين سكان المقاطعة الأصليون بالإسم، ويؤلفون ٩٥٪ من السكان الحاليين، أما البقية فهم من الصينيين ويدينون بالبوذية، ومن الروس الذين يدينون بالنصرانية ويعدون من الدخلاء على المقاطعة.

ومن تركستان الشرقية انتشر الإسلام في غربي الصين لذا تكون نسبة المسلمين مرتفعة فهي في (كانسوا) ٧٩٪، وفي (نينغ هسيا) ٧٥٪. ثم تأخذ النسبة في الانخفاض فتصل في (ستوان) إلى ٨٪، ولكنها تكون في (يونان) و(شنسي) حوالي ٣٠٪، ثم في (شانسي) ١٦٪، وتستمر في الانخفاض فهي في (هيونان) ١٠٪،

وفي (هونان) ٦٥٪ ثم تصبح دون ١٪ ولكنها تعود فتزيد في المناطق الساحلية بسبب وصول التجار المسلمين إلى تلك الجهات، إذ تتراوح النسبة حوالي ٦٪. ولقد وصل الإسلام إلى جنوب الصين في القرن الأول الهجري، واستقر المسلمون في مدينة (كانتون) مرفأً جنوبي الصين. وقد عرفت هذه المدينة عند العرب باسم (خانسو) و (الخنساء) وأول مسجد بني بالصين إنما شيد فيها وهو المسجد ذو المنارة.

وتزيد نسبة المسلمين في المناطق المحدية حيث تكون عمراً للسفن فتنشأ فيها المحطات، وينزل فيها التجار المسلمون، أما المناطق الساحلية المقفرة فتقل نسبة المسلمين فيها حيث تبتعد السفن عنها اختصاراً للطريق، ولهذا ترتفع النسبة في (شانغهاي) إلى ١٣٦٪، وتكون في شبه جزيرة (شاتونغ) ٦٪، وأما (بكين) فهي مقاطعة ليست ساحلية الآن، ولكن كانت من قبل جزءاً من ولاية ساحلية تسمى (تشهيلي)، ولكونها العاصمة ومدينة كبيرة فإنها تضم عدداً من المسلمين، وقد كان فيها وحد وحدها أربعون مسجداً.

أما المناطق النائية فتقل فيها نسبة المسلمين كثيراً مثل: التبت، ومنغوليا الداخلية، ومنشوريا وكذلك الجزر المحيطة بالبلاد، وخاصة إذا كانت قد خضعت للاستعمار الصليبي في وقت مبكر، فقد عملت طلائع الصليبيين وخلفائهم على حرب إبادة ضد المسلمين وتشريدهم، ولذا فإن نسبتهم تنخفض جداً في فورموزا التي تسمى الآن الصين الوطنية (تايوان)، وفي (هونغ كونغ) التي سيطر عليها البرتغاليون، وكلها في الأصل جزء من الصين.

وانتشار الإسلام في الصين وإن مبكراً في بعض النقاط الساحلية وفي تركستان الشرقية إلا أن بقية الأجزاء قد وصل إليها في وقت متأخر، لذا فإن المسلمين لم يعوا الإسلام بشكل جيد، ولم تظهر لهم قوة مادامت دول الإسلام ضعيفة، وبقي أثر مجتمعتهم عليهم واضحاً.

وقد أرسل السلطان العثماني عبد الحميد ١٢٣٩-١٣٢٧ هـ (١٨٧١-١٩٠٩ م) بعثة من استانبول مؤلفة من السيدين (حسن حافظ) و (علي رضا) إلى بكين، وقد أسس مدرسة في (نيو كياي) وانتظم فيها مائة وعشرون طالباً، وأقبل عليها المسلمون إقبالاً كبيراً.

كان المسلمون يشكون سوء أوضاعهم لذا فقد أيدوا قيام الجمهورية الوطنية عام ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) وعملوا على نجاحها، إذ قاسوا من الحكم الامبراطوري كثيراً واضطروهم إلى القيام بعدة ثورات أخذت بمنتهى الوحشية.

وعدت الجمهورية الصينية المسلمين أحد العناصر الخمسة الذين تتكون منهم الأمة الصينية وهذه العناصر هي: الصيني، المنشوري، المنغولي، التبتى، المسلم (الهوي)، ومن ثم كان العلم الصيني مؤلفاً من خمسة ألوان هي الأحمر، والأصفر، والأزرق، والأسود، والأبيض، ويشير اللون الأبيض إلى العنصر المسلم في أمة الصين. ومن هذا يكون المسلمون عنصراً واحداً على الرغم من انتماهم لمجموعات متعددة فالعقيدة هي التي تجمع بين المسلمين وتجعلهم أمة واحدة متميزة. وقد عمل المسلمون في الصين على إقامة بعض المؤسسات الخاصة بهم مع وجود المسجد الذي يجمعهم، ومن هذه المؤسسات: جمعية تقدم مسلمي الصين التي وجدت عام ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) في (بكين) وزاد عدد فروعها على ثلاثمائة فرع موزعة في أنحاء الصين كافة. وجمعية الأدب الإسلامي التي تأسست عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) ومقرها (شنغهاي)، ودار المعلمين الإسلامية في (بكين) عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) واتحاد المسلمين في (شنغهاي) عام ١٣٤٧ هـ (١٩٢٨ م)، والجمعية الاتحادية الإسلامية لكل الصين وتأسست عام ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) في مدينة (هانكيو).

ودخلت اليابان الصين، وحاولت استغلال المسلمين وعملت على تأسيس اتحاد المسلمين الصينيين لتسفيد منهم وذلك في (بكين)، وأسست لهذا الاتحاد مجلة حملت اسم «الإسلام»، كما صدرت للمسلمين في (شنغهاي) آنذاك جريدة حملت اسم «نور الإسلام» وبدأت الدعاية لليابان عن طريق بعض المسلمين، وفي الوقت نفسه فإن الحكومة الصينية التي تحارب اليابان كانت تؤكد في دعايتها تأييد المسلمين. كما أن الشيوعيين قد وعدوا المسلمين وعوداً معسولة بنهاية طرد اليابانيين، وانتهت الحرب، وهزمت اليابان، وخرجت من الصين. ولم يف واعد بها وعد فالحكومة الوطنية تدعي أنها لم تتمكن من الحكم، والشيوعيون يدعون بأنهم لم يسيطروا تماماً على الوضع مادامت (فورموزا) خارج قبضتهم، وأبدوا شيئاً من التسامح في بداية الأمر، فأسسوا جمعية إسلامية شعبية كان من زعمائها برهان

الدين شهيدي حاكم تركستان الشرقية، ومحمد مكين من منطقة يونان، وسيف الدين، وإبراهيم دابو شنغ من شنغهاي، وافتتحت الجمعية لها عدداً من الفروع، ونشرت عدداً من الكتب التي تسائر الفكرة الشيوعية. ولكن عندما استتب الوضع للشيوعيين بدؤوا ينفذون خططهم المرسومة ضد المسلمين فوضعت الدولة يدها على الأوقاف الإسلامية، ولم يعد للمساجد والمدارس الإسلامية دخل تؤدي دورها منه إذ كانت الأوقاف موردها الوحيد، وأنشئت المعسكرات التي حشد فيها شبان المسلمين فتيان وفتيات وأجبروا على الحياة فيها معاً وفي سبيل نشر الفساد.

قامت حركة في كاشغر عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) احتجاجاً على التصرفات المنافية للإسلام ووضع الفتيات في المعسكرات بشكل فاضح مع الشباب، ودارت معركة ذهب ضحيتها ٣٥٠٠ مسلم، وشردت أعداد كبيرة من بينها من كان من الزعماء الذين سايروا الشيوعية مثل برهان الدين شهيدي.

ونشط الشيوعيون لإذابة المسلمين في الكيان الصيني - حسب زعمهم - بإيجاد وحدة في المأكولات والمشروبات، واللباس، ومراسم الزواج، والمقابر والخدمة، وطريقة دفن الموتى. كما غير الشيوعيون أسماء المدن الإسلامية مثل كاشغر الذي أصبح اسمها (شوفو) وغيرها.

وزاد الأمر عندما قام (ماوتسي تونغ) يحارب المسلمين باسم الثورة الثقافية إذ قضى على المدارس الإسلامية، والمساجد، ومابقى من مؤسسات، الأمر الذي أجبر المسلمين على القيام بحركة واسعة في بكين في شارع (نيوكيائي) الذي يسكنه أكبر عدد منهم هناك، وهاجموا مركز الشرطة فاعتقل القادة، وأبيد أكثر من اشترك في هذه الحركة. ولا يعلم مصير (محمد مكين) و (عبدالرحيم ماسونغ تينغ) واتخذ الصينيون هذه الحركة ذريعة فزادوا من اضطهادهم للمسلمين.

والمعلومات التي تتسرب عن المسلمين من داخل الصين قليلة... وربما قلت نسبياً موجه الاضطهاد بعد هلاك (ماو) وتوقف مد الثورة الثقافية.

أما منغوليا الخارجية فهي منطقة واسعة كانت تتبع الصين، تغطيها الصحراء، وتزيد مساحتها على مليون ونصف من الكيلومترات المربعة، ولما كان الجفاف يسود

كل أرضها فإن سكانها قلة لا يزيدون على المليون ونصف يعيش بينهم أقل من ١٥ ألف مسلم أي أن نسبة المسلمين لاتصل إلا إلى ١٪.

١٠ - الفليبين

الفليبين مجموعة من الجزر يزيد عددها على ١٧٠٠ جزيرة، تقرب مساحتها من ٣٠٠ ألف كيلو متر مربع، ويزيد عدد سكانه اليوم على خمسة وخمسين مليوناً. أشهر هذه الجزر لوزون في الشمال، وهي التي تقع فيها العاصمة (مانيلا)، وتبلغ مساحتها ١٥٠ ألف كم^٢، وجزيرة (ميندناو) في الجنوب وتبلغ مساحتها ١٤٠ ألف كم^٢، وفيها غابات، ثم جزر (صولو) في الجنوب أيضاً، وسكانها من المسلمين مع جزيرة (بالاون) و (ميندناو).

وصل الإسلام إلى الفليبين عن طريق التجارة في أواخر القرن الثالث الهجري (٢٧٠ هـ)، ولكن بقي عدد المسلمين قليلاً، ثم بني أول مسجد في جزر (صولو) عام ٦٧٩ هـ، ومن ثم بدأ الإقبال على الإسلام يزداد، وفي نهاية القرن التاسع كان المسلمون يؤسسون سلطنات في تلك الأرجاء، وكان من أشهر السلاطين (راجا سليبان) الذي - كان يحكم (مانيلا) وماحوها في مطلع القرن العاشر.

وفي عام ٩٢٧ هـ (١٩٢١ م) وصلت طلائع الصليبيين إلى تلك الجزر قادمة من الشرق بإمرة ماجلان في محاولة لتطويق المسلمين بعد أن أخرجوهم من الأندلس عام (٨٩٧ هـ) وانطلقوا (١٤٩٢ م) وانطلقوا يلاحقونهم، وشده ماجلان عندما رأى المسلمين يحكمون تلك الجهات، وقد عرف المسلمين باسم (المورو) وهو الاسم الذي لا يزال يحملونه إلى اليوم وفي مناطق أخرى من العالم مثل مدغشقر، وسيلان و... .

ظنّ ماجلان أن الجزر التي حلّ بها هي جزر التوابل «المولوك»، ولما علم أنها ليست هي أطلق عليها اسم (سانت لازار).

وما إن وصل ماجلان حتى بدأ يعمل للنصرانية متخذاً طريق القوة أحياناً بما يملك من أسلحة غير معروفة هناك، ومستعملاً طريق الإغراء أحياناً أخرى، وقد

توصل إلى اتفاق مع (هومابون) حاكم جزيرة (سيبو) على أن يدخل هذا الحاكم في الديانة النصرانية الكاثوليكية مقابل أن يكون ملكاً على جميع الجزر تحت سلطة التاج الإسباني. ثم أخذ ينتقل إلى بقية الجزر للتمكين لصديقه (هومابون) وللدعوة للنصرانية، ووصل إلى جزيرة صغيرة هي جزيرة (ماكتان) التي يحكمها حاكم مسلم يدعى (لابولابو) فاستعمل الإسبان طريق الإرهاب إذ أضرموا النار في أكواخ السكان، وسطوا على الأرزاق والأموال، وطاردوا النساء... فقاوم (لابولابو) هذه الأعمال، وأخذته الحمية فرفض الاستسلام لماجلان ومن ورائه الإسبان وحرّض بقية الجزر على الغزاة، فرأى ماجلان أن يظهر قوته، ويخيف الناس بالإرهاب، ويظهر قوة أتباعه، وصلاحيته سلاحه وفعاليته، وعاد يخيف بقية الأمراء والسلاطين في الجزر.

طلب ماجلان من (لابولابو) الاستسلام قائلاً: «إنني باسم المسيح أطلب إليك التسليم، ونحن العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد» فهجم عليه (لابولابو) وقتله ورفض تسليم جثته للإسبان، ولا يزال قبره هناك. وانسحب الإسبان بعد ذلك عن الجزر وعادوا إلى بلادهم عن طريق جنوب آسيا الذي كان البرتغاليون قد عرفوه، وهم شركاؤهم في التخطيط لتطويق المسلمين.

بعثت إسبانيا إثر ذلك أربع حملات متتابعة نزلت على شواطئ جزيرة (ميندناو) حيث يكثر المسلمون، وكان أفراد هذه الحملات قادمين بروح حاقة، وصلبية واضحة، فكان يباد جنودها جميعهم. وكان على رأس إحدى هذه الحملات (روي لوبينز) وهي الحملة التي جاءت عام ٩٤٩ هـ (١٥٢٠ م)، وهو الذي أطلق على الجزر اسم الفليبين.

بعد إبادة هذه الحملات الإسبانية المتكررة بدأ الغزو الإسباني عام ٩٧٣ هـ (١٥٦٥ م) فكانت حملة كبيرة استقرت في جزيرة (سيبو)، حيث شيدت قلعة حصينة لحماية الجند، واتخذ قائد الحملة (ميغل لوبينز) من هذه الجزيرة قاعدة لغزو بقية الجزر الأخرى حتى استطاع أن يستولى على مملكة (راجا سليمان) بعد قتال مرير عام ٩٧٩ هـ (١٥٧١ م)، وتهدمت مدينة (مانيل) فأعاد الإسبان بناءها على أسس نصرانية، فبنوا مدينة مسورة محصنة تماماً في الوسط أطلقوا عليهم اسم (أنترامورس)، ثم كان البناء حوله وذل ليتحصن الإسبان في الوسط داخل الأسوار.

ومن (مانيللا) بدأت الحملات تخرج لمد نفوذ إسبانيا على جزيرة (لوزون)، وبعدئذ حاولوا السيطرة على بقية الجزر.

وتمكن الإسبان من بسط حكمهم على الجزر الشمالية والوسطى حيث المسلمون قلة ولكنهم عجزوا عن إخضاع الجزر الجنوبية حيث يكثر المسلمون الذين صمدوا صموداً قوياً، جعل الإسبان يأسون نهائياً من إمكانية السيطرة على المناطق الإسلامية في تلك الجزر، لذلك انصرفوا إلى البقاع التي سيطروا عليها يوطدون سلطاتهم، وينشرون ديانتهم النصرانية، وقد تمكنوا من ذلك رغم بقاء عناصر بقيت على وثنياتها وتقوّعت على نفسها سواء في المناطق المنعزلة، مثل الغابات أم في جزر نائية. أما المسلمون فبقوا على حالتهم يحكمهم سلاطين منهم.

قامت ثورة في البلاد ضد الإسبان عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٢ م)، وتمكن المستعمر من إطفاء نارها لكنها عادت فاشتعلت عام ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م)، واضطر الحاكم الإسباني أن يفر إلى هونغ كونغ، وإذا قدر للإسبان أن يقضوا على هذه الثورة إلا أن منظمة سرية بقيت تعمل في الخفاء، وتلقّت الدعم من الولايات المتحدة التي رغبت أن تحل محلّ الإسبان. وفي عام ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م) دمر الأسطول الإسباني في خليج (مانيللا)، وبعد هذه الهزيمة جرى اتفاق سري بين الولايات المتحدة وإسبانيا يقضي بانسحاب إسبانيا من تلك الجزر مقابل مبلغ خمسة ملايين دولار تدفعها الولايات المتحدة لها.

انسحبت إسبانيا من الجزر بعد معارك تمثيلية وعاد الحاكم العام الإسباني من (هونغ كونغ) وهو الجنرال «غوينالدو» ليعلن استقلال الفليبين عام إسبانيا، وفي هذه الاتفاقية التي تمت في باريس تخلت إسبانيا أيضاً عن (كوبا) و (بورتوريكو) لمصلحة الولايات المتحدة.

رفض السكان اتفاقية باريس كما رفضوا حكم الولايات المتحدة التي تمكنت من القضاء على الثورة عام ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م)، وعدت البلاد إحدى الولايات الأمريكية.

أما المسلمون فقد بقوا في جزر الجنوب واستمرت مقاومتهم، ومن كان منهم في الجزر الشمالية فقد أهمل إهمالاً واضحاً، وانصرف الاهتمام إلى النصارى ولم يكن حال المسلمين في الشمال بأسوأ مما هم عليه في الجنوب. استمرت مقاومة

المسلمين عشرين سنة، ثم تمكنت الولايات المتحدة من دخول مناطقهم بالدعاية والخذاع.

حصلت الفليبين على الاستقلال الذاتي عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) استقلال البلاد التام خلال عشر سنوات إلا أن منصب الحاكم العام قد بقي قائماً، كما تتولى الولايات المتحدة شؤون الدفاع والخارجية. ووصل إلى البلاد في هذه الأثناء بعض الشخصيات التي كان لها دور في النشاط الإسلامي هناك.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية احتلت اليابان الفليبين عام ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) وطردت القوات الأمريكية منها، وتشكلت في البلاد فرق لحرب العصابات، وتمكن الجنرال (ماك آرثر) من العودة إلى الفليبين عام ١٣٦٣ هـ (١٩٤٤ م)، وقاتل معه أبناء البلاد حتى استطاعوا طرد اليابانيين عام ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥ م)، وهزمت اليابان في الحرب العالمية الثانية. وقاتل المسلمون اليابانيين قتالاً عنيفاً، واشتركوا في كل مراحل النضال.

حصلت الفليبين على الاستقلال عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م)، وأصبح الحكم فيها رئاسياً يشبه الحكم في الولايات المتحدة، ويضم مجلس النواب مائة وعضوين ينتخبون حسب نظام المناطق، ويضم هذا المجلس عضوين مسلمين. فهم بذلك لا يحصلون إلا على خمس حقهم إذ يجب أن يكون لهم ١١ عضواً حسب نسبتهم المثوية. أما مجلس الوزراء فيضم عادة وزيراً مسلماً واحداً، وغالباً ماتسند إليه وزارة الأقليات لأن المسلمين يشكلون أكبر عددٍ من الأليات في البلاد. وفي الفليبين حزبان: الحزب الوطني، وهو الحاكم. والحزب المعارض إلا أن رئيس الجمهورية آنذاك (ماركوس) قد أعلن الأحكام العرفية وجمد الأحزاب. وتعاني البلاد مشكلة الجريمة والفساد الخلقي.

شهدت البلاد بعد الاستقلال نهضة إسلامية يرعاها «اتحاد مسلمي الفليبين» وقد نظم ثلاثة مؤتمرات لبحث شؤون المسلمين في الفليبين وحضرها ممثلون عن أكثر الدول الإسلامية، وبدأت هذه النهضة تثمر فحركت الحقد الصليبي.

بدأ العمل ضد المسلمين واتخذ وسيلة شق صفوف المسلمين، وأصبح بالفعل لهم منظمتان بعد أن كانوا كتلة واحدة، ثم بدأ التخطيط للاستيلاء على أراضي المسلمين فتشكلت عصابة نصرانية أطلق عليها اسم عصابة الفثران، أسسها

وأشرف عليها رئيس الجمهورية بذاته ومهمتها اتخاذ الارهاب بالهجوم على المسلمين والتنكيل بهم، وقتل ماتستطيع قتله منهم كي يغادروا أرضهم فيستولي عليها النصارى، وخاصة إذا علمنا أن الأرض غير مسجلة بعد بصورة نظامية. كما وجدت منظمة (الأخطبوط) ولها المهمة نفسها.

أوجد النصارى أسباباً للهجوم على المسلمين إذ طالبوا بتطبيق القانون المدني على المسلمين إذ به يمكن للنصارى أن يتزوجوا من المسلمات، وقد رفض المسلمون تطبيق هذا القانون، وهذا مادعا إلى مصادرة أراضيهم والاستيلاء عليها، وبالتالي جر المسمين إلى قتال وهم غير مستعدين له.

بدأ الزحف النصرائي من الشمال، وبدأ الاستيلاء على الأراضي بمساحات محددة ومتتقة، وبدأت الدولة تسجيل هذه الأراضي المستولى عليها بأساء مغتصبيها على حين رفضت من قبل تسجيلها لأصحابها المسلمين، وبدأ الأرهاف مع الاستيلاء على الأراضي: اغتياالات، حرق مزارع، اختطاف، إلقاء السم بآبار مياه الشرب، قتل الحيوانات، هتك أعراض. وبدأ شرد ستون ألف أسرة مسلمة ألتنجأت إلى الغابات والجبال.

وبدأت حرب الإبادة تارة بجمع الشباب في معسكرات باسم التدريب ثم إبادتهم، وتارة بنفس المساجد أثناء تأدية صلاة الجمعة، وثالثة بالإغارة على المدن والعمل بإبادة الموجودين في الأسواق وأماكن تجمع السكان.

وتسلّح المسلمون أمام هذه الحوادث للدفاع عن النفس فعّد الحكم هذا تمرداً، وهذا حجة للقضاء على المسلمين وتحرك الجيش النظامي نحو الجنوب.

رفع المسلمون شعار الوحدة الإسلامية، وطالبوا بفصل المناطق الإسلامية، كما طالبوا العالم الاسلامي، والأمم المتحدة بالدفاع عنهم وحمايتهم. وبدأت المعارك بين الطرفين، وتمكن المسلمون من الصمود والمقاومة، واضطرت الحكومة للتفاوض وقد تم ذلك في طرابلس عاصمة ليبيا التي شاركت في المفاوضات، كما شاركت كل من السنغال، والصومال، والمملكة العربية السعودية، وتقرر بهذه المفاوضات إعطاء المسلمين الحكم الذاتي في جنوب الفليبين وكان ذلك في مطلع عام ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م)، إلا أن هذه المفاوضات والاتفاقية لم تكن إلا لتتيح الفرصة أمام (ماركوس) لتنظيم قواته من جديد والاستعداد للدخول ثانية في معركة

حاسمة تقضي على المسلمين، إضافة إلى استغلال الدول الإسلامية للحصول على النفط والدعم المادي، وقد تم هذا، وبعد أربعة أشهر من توقيع الاتفاقية أعلنت حكومة (ماركوس) عن تخليها عن جميع التزاماتها السابقة، وغادت العمليات العسكرية من جديد بل لم تتوقف من الأصل إلا عدة أيام.

إلا أن تفوق الحكم بالعدد والعتاد، والدعم الصليبي، وغفلة المسلمين، والإهمال كل هذا يدعو إلى انتصار الحكم مع الزمن.

١١ - اليابان

لم يصل المسلمون إلى أبعد من شبه جزيرة شانتونغ في الصين شمالاً ربما للتركيز على المناطق التي وصلوا إليها أولاً أو لنوعية السفن التي كانت مستخدمة آنذاك، أو للضعف الذي أصاب المسلمين يومذاك أو...

وكان وصول الإسلام إلى اليابان لأول مرة على يد رجل تتاري يدعي إبراهيم من مدينة (قازان) شجعه جمال الدين الأفغاني للدعوة إلى الإسلام هناك، ويقال: إن امبراطور اليابان قد طلب من السلطان عبد الحميد العثماني إرسال دعاة مسلمين لإبلاغ شعب اليابان دعوة الإسلام، فدعا السلطان العثماني جمال الدين الأفغاني واستشاره بالأمر فأشار عليه بإبراهيم هذا. ثم إن هذا قد دعا جماعة من التتار للتوجه إلى اليابان تخلصاً من الروس الذين يحتلون بلادهم، فاستقر هؤلاء التتار بطوكيو وأسلمت جماعة من اليابانيين على أيديهم، وأول رجل ياباني أسلم يدعى (كازاكا).

وعندما احتلت اليابان منشوريا اتصل بعض اليابانيين ببعض المسلمين المنشوريين فأسلموا ومنهم الحاج (عمر ميتا) رئيس الجمعية الإسلامية السابق.

وفي الحرب العالمية الثانية احتلت اليابان مناطق واسعة من بلاد المسلمين مثل أندونيسيا وماليزيا أو مناطق فيها مسلمون مثل الفلبين، وتايلند و... فاختلط اليابانيون بالمسلمين، ورجع عدد من اليابانيين مسلمين.

وفر عدد من المسلمين من الصين إلى اليابان بعد قيام الحكم الشيوعي في

الصين. كما وصل عدد من الدعاة الهنود والباكستانيين إلى اليابان، وكل هذا كان له الأثر إلا أن الأثر الأكبر كان لليابانيين أنفسهم إذ نشطوا بالعمل، ويقدر عدد المسلمين اليوم بحوالي عشرين ألفاً فقط، وهم عدد من الجمعيات الاسلامية.

١٢ - كوريا

لم يصل الإسلام إلى كوريا إلا في الآونة الأخيرة يوم انقسمت الى قسمين وقامت الحرب بينهما عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م)، ووصلت قوات دولة لدعم كوريا الجنوبية، وكان من بين هذه القوات فرقة تركية، وكان إمامها الشيخ عبدالرحمن الذي استطاع أن ينشر الإسلام بين أفراد قلائل من السكان هم طلائع المسلمين هناك.

يقدر عدد المسلمين اليوم في كوريا بخمسة آلاف مسلم يتجمع أكثرهم في مدينة (سيول) العاصمة، ولهم مسجد وسط المدينة، كما ينظمهم اتحاد المسلمين في كوريا، وتصدر مجلة باسمهم تحمل اسم صوت الإسلام. والعدد هذا خمسة آلاف لا يعادل أية نسبة إذ يبلغ سكان كوريا الجنوبية أكثر من خمسة وثلاثين مليوناً، ويعيشون على أرض مساحتها مائة ألف كيلو متر مربع.

أما كوريا الشمالية فتبلغ مساحتها ١٢٢ ألف كم^٢، وتكاد تخلو من أي أثر للإسلام فإضافة إلى أن المسلمين لم يصلوا إليها من قبل، فإن عقيدتها لا تسمح بوجود أي دين.

١٣ - المسلمون في الامبراطورية الروسية

مقدمة :

أقول الامبراطورية الروسية سواء أكان ذلك في عهد قيصرتها أم في عهد شيوعيتها، وذلك لأن شعباً واحداً، وهو الروسي، يستدل شعباً كثيرة، وسيطر

على أرضها، ويستغلها بشرياً واقتصادياً، ولما كانت روسيا تحكم أجزاء واسعة من آسيا لذا فإننا سندرس المسلمين في الامبراطورية الروسية، والروس شعب من السلاف (الصقالبة) يعيش في شرقي أوربا، وهو ثلاث شعب: الروس الكبار، ويعيشون حول موسكو، ويكفي إطلاق كلمة روس عليهم، والروس البيض، ويقطنون إلى الغرب، وعاصمتهم (منسك)، والاوكرانيون في الجنوب، وعاصمتهم (كييف). وجميعهم يدينون بالنصرانية على المذهب الأرثوذكسي.

ويتجمع المسلمون في الامبراطورية الروسية في ست مناطق رئيسية:

- ١ - أذربيجان.
- ٢ - آسيا الوسطى (تركستان الغربية).
- ٣ - بلاد القازاق (قازاقستان).
- ٤ - شبال القوقاز.
- ٥ - حوض الفولغا.
- ٦ - وأخيراً منطقة القرم التي أبعد أهلها عنها، وأقام مكانهم الروس.

لمحة تاريخية (انتشار الإسلام):

دخل المسلمون فاتحين عام ١٧هـ منطقة أذربيجان، وعام ٢١ بلاد الداغستان وذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وفتحوا مدينة باب الأبواب (دربنت) من بلاد الداغستان أيام الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، ولم يتوغلوا شأها لمقاومة الخزر لهم، وانتشر الإسلام بين سكان هاتين المنطقتين (أذربيجان وداغستان) ولم ينتصف القرن الأول الهجري، وبقيت أقاليم صغيرة جداً من النصارى واليهود عاشت في ظل الحكم الإسلامي، ثم اختفوا نهائياً بطردهم في القرن الخامس لأنهم كانوا يحركون الفتن باستمرار، حتى بدا أن هذه البلاد لن تستقر إلا بزوال هذه الأقليات. كما لم يتوغل المسلمون إلى الغرب، في جورجيا وأرمينيا، لوعورة المنطقة، وإن دانت لهم بعض أجزائها، واعتنق الإسلام بعض أبنائها.

وفتح المسلمون بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى) عام ٩٢هـ أيام الوليد عبدالملك الأموي على يد القائد قتيبة بن مسلم الباهلي، وساد الإسلام بين

السكان منذ القرن الثالث، وزالت الأديان السابقة نهائياً من بوذية، وزرادشتية، ومناوية، ونساطرة نصارى، وأصبحت مدن هذه المنطقة من المراكز الإسلامية الأكثر شهرة في العالم الإسلامي مثل بخارى، ونسف، وترمد، وبيهق، ومرو، ونسا، وأبيورد.

وفي المراحل التالية انتشر الإسلام من آسيا الوسطى في سهوب القازاق، وسيبيريا، وقيرغيزيا، نتيجة انطلاق الدعاة والاحتكاك المباشر بين المسلمين وجيرانهم.

أما في حوض الفولغا فقد انتشر الإسلام عن طريق التجارة في بداية الأمر، ثم عن طريق الدعوة، إذ دخل الإسلام إلى مملكة بلغار التي كانت قائمة على المجرى الأوسط لنهر الفولغا، وكانت حاضرتها بلغار بالقرب من موقع قازان الحالية، وذلك في نهاية القرن الثالث إذ وصل إليها التجار الذين يتأجرون بالفراء مع أصقال الشمال، وعن طريقهم أسلمت جماعة من البلغار، فطلبت من الخليفة العباسي في بغداد أن يرسل له من يفقههم في الدين، فبعث لهم قائده أحمد بن عباس والمعروف بـ (ابن فضلان).

وغزا المغول بقيادة جنكيز خان آسيا الوسطى، وكان جيشه يضم أعداداً من البوذيين والنساطرة النصارى، وبتحريض من الصليبيين الذين فشلوا في حروبهم. وتمكن جنكيز خان من الانتصار على جيش خوارزم، وقتل من جيشها مائة وستين ألفاً، ثم دخل مدينة بخارى، وأحرقها، ونهب وسبى ماشاء له طغيانه، ثم تقدم نحو الغرب فقاومته نيسابور، فكان جزاء أهلها القتل، وتابع سيره غرباً فدخل أوربا واحتل بلاد الروس، وهلك، فخلفه ابنه (اوجتاي) الذي غزا الصين، ثم عاد فاتحاً غرباً فدخل روسيا وجعلها ولاية تتارية عام ٦٣٣هـ. كما استولى على المجر والبولندا، إلا أن المغول انسحبوا من بعض مناطق أوربا عندما حدث بينهم خلاف على الحكم بعد (كيوك بن اوجتاي).

قسم جنكيز خان إمبراطوريته الواسعة قبل أن يموت بين أولاده، فكان نصيب ابنه الكبير (جوجي) القسم الغربي، ويضم روسيا وبولندا، وأعطى ابنه الثاني (جغتاي) آسيا الوسطى، وكانت الصين لابنه (اوجتاي)، وهو ولي العهد، وأعطى فارس لولده (تولوي)، فأسس كل واحد من هؤلاء الأبناء أسرة حكمت

المنطقة التي كانت من نصيبه. وقد أسس (أباتو بن جوجي) القبيلة الذهبية التي لم تلبث أن اعتنقت الإسلام، حيث أسس خانها (بركة خان) (٦٥٤-٦٥٥ هـ)، وذلك قبل سقوط بغداد والقضاء على الدولة العباسية على يد هولاكو، وساعد بركة خان المسلم المماليك المسلمين حكام مصر يومذاك في قتالهم المغول المتقدمين نحو الغرب بقيادة هولاكو. وبعد مدة غزا المغول التتار مسلمين، واستقروا في المناطق التي دخلوها، وهذا ما جعل الأجزاء التي يحكمونها مسلمة، وتشمل حوض الفولغا، وسهوب أوكرانيا، وشبه جزيرة القرم، وأجزاء من المناطق الوسطى، وجزراً متفرقة في بولندة، والمجر، وليتوانيا، وبقاعاً على سواحل بحر البلطيق في فنلندة، وفي موقع (ليننغراد) اليوم.

وبدأ أمر المغول يضعف بعد مدة في الوقت الذي أصبح أمر الروس يقوى حيث بدءوا يجمعون أنفسهم حول بعض أمرائهم، وخاصة حول أمير (موسكو)، وأمير (كييف).

نظر الروس إلى هؤلاء المغول من التتار على أنهم أعداء لهم بصفتهم حكام بلادهم، فيريدون أن يخلّوا محلهم، ويحكموا أرضهم. ونظروا إلى العثمانيين الترك في جنوبهم على أنهم أعداء لهم لأنهم فتحوا القسطنطينية، واتخذوها حاضرة لهم وأصبحت تحمل اسم استانبول وتعني مدينة الإسلام، وغدا ضمن بلاد المسلمين، وكانت من قبل مركز الأرثوذكس، والروس من النصارى الأرثوذكس. فاتخذ الروس من أنفسهم خلفاء للبيزنطيين، ومن عاصمتهم موسكو مقراً للكنيسة الأرثوذكسية عوضاً عن القسطنطينية. كما نظر الروس إلى التتار والعثمانيين على أنهم إخوة مادامو جميعاً يدينون بالإسلام، وماداموا يعودون إلى أرومة واحدة، وانصب عداؤهم على الإسلام بدافع حقدهم الصليبي، والمسلمون يحكمونهم، وسلبوا منهم كذلك القسطنطينية - على حد زعمهم -. هذه النظرة لم تزل، وهذه السياسة لم تتغير، والروس سواء أكانوا من القياصرة أم من الشيوعيين. فهم يرون من الضروري الانتقام من التتار واحتلال أراضيهم في شرق روسيا بحجة إيجاد مجال طبيعي لهجرة السكان الذين يزدحمون في القسم الغربي والأوسط حول موسكو، في حين تفتقر بلاد التتار إلى السكان، وبعد الاحتلال يندفعون نحو الشرق في سبيلها بالحجة نفسها. كما يرى الروس أنه من الضروري الانتقام

من العثمانيين والسيطرة على استانبول وإعادتها مركز المذهب الأرثوذكسي بحجة محاولة الوصول الى المياه الدافئة، ولقد سكنت الدول الأوربية الأخرى عن هذه الأعمال من باب محاربة الإسلام والحقد عليه، ولكي تندفع روسيا نحو الشرق بدلاً من أن تتجه نحو الغرب، وتشتغل في حروب مع أوروبا الغربية، أو تتجه نحو استعمار أجزاء أخرى تهم الدول الاستعمارية الكبرى، لذا فإن انكلترا وفرنسا قد شجعتا روسيا في الاندفاع نحو الشرق كي لا تنافسها في المستعمرات على حين وقفتا في وجه الروس من أن يحتلوا استانبول لحرصاً على المدينة، ولا حياءً في العثمانيين، ولكن تجنباً من أن تنزل روسيا إلى المياه الدافئة، وتصبح المضائق بيدها (البرسفور والدردنيل)، وتدخل مجال المنافسة الاستعمارية، وفي الوقت نفسه فإن اندفاع الروس نحو الشرق إنما هو تحرك بأرض المسلمين، وإضعاف لهم، وهذا ما يجعلهم يتجهون نحو الشمال بدلاً من أن يتجهوا نحو الأماكن الأخرى التي يتسلل إليها الصليبيون الآخرون من أوروبا الغربية، ويعملون فتكاً بالمسلمين، ويحتلون بلادهم.

أما شمال القوقاز فلم ينتشر الإسلام إلا في الداغستان التي فتحت منذ صدر الإسلام وذلك حتى القرن الخامس حيث دخلت قبائل (النوغاي) التركية إلى المنطقة، وبدأت تعمل على نشر الإسلام بين قبائل القبرطاي، والكاراتشاي، والبلكار، والشركس، حتى جاء دور العثمانيين وخانات القرم فنشروا الإسلام في الوقت الذي كان فيه الروس يحاولون التدخل في شؤون المنطقة. وهكذا فقد انتشر الإسلام في البلاد الإسلامية الواقعة اليوم تحت السيطرة على الشكل التالي: أيام الراشدين دخل الإسلام إلى أذربيجان وداغستان.

وأيام الأمويين دخل الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى). وأيام العباسيين دخل الإسلام إلى حوض الفولغا، ثم إسلام التتار الذين استقروا في المناطق التي دخلوها ومنها حوض الفولغا وشبه جزيرة القرم، والرقع الصغيرة المبعثرة في أوروبا الشرقية.

وأيام العثمانيين انتشر الإسلام في شمال القوقاز قدمت إليه قبائل (النوغاي).

الاستعمار الروسي:

تجمع الروس حول أمير موسكو، وأمير كييف وبدأوا بعد أن قوي أمرهم بقتال

المسلمين التتار، وأثار همتهم فتح العثمانيين للقسطنطينية، وقامت الحروب الصليبية في شرق أوروبا، وفي عهد (إيفان الثالث ٨٦٧-٩١١ هـ) بدأ التمرد على التتار، وفي عهد (إيفان الرابع) الذي سمي بالرهيب لما قتل من المسلمين، غزا المناطق الإسلامية فتوسعت دولته إذ دخل قازان عام ٩٦٠ هـ (١٥٥٢ م)، وأوفا ٩٦٣ هـ (١٥٥٥ م)، واستراخان (الحاج طرخان) عام ٩٦٤ هـ (١٥٥٦ م)، بلاد الأدمورت ٩٦٨ هـ (١٥٦٠ م)، وهكذا لم يبق من الأجزاء الإسلامية في أوروبا الشرقية إلا خانية شبه جزيرة القرم التي حكمها خانان منها، فوقفت في وجه الروس، وانتصرت عليهم في كثير من الوقائع، كما وقف العثمانيون بجانبهم أيضاً وبكل قوة، واستطاعوا وخانات القرم نشر الإسلام بين القبائل الشركسية، وفي بلاد الالبخاز بشكل خاص، كما أمكن العثمانيون بفضل قوتهم العسكرية أن يوقفوا نشر النصرانية في القوقاز بعد أن وصل الروس إليها في مطلع القرن الحادي عشر، وبنوا الكنائس في بلاد البلكار، ولكن لم تضم سنوات حتى غدت بلاد البكار مسلمة، ومنها بدأ الإسلام ينتشر في بلاد القوشحة (الأوستين)، كما عم الإسلام في هذا الوقت منطقة غوريا (آجاريا).

وفي مطلع القرن الحادي عشر ضم الروس إليهم منطقة، (سيبيريا) الغربية، فقد دخلوا عاصمتها مدينة (سيبير) الواقعة على نهر أوبي عام ٩٨٨ هـ (١٥٧٩ م)، وقد كان يحكمها (كوتشم خان) أحد أفراد القبيلة الذهبية، ولكن استمر وصول الدعاة وخاصة من مدينة بخارى إلى هذه المناطق، ونشروا الإسلام بين قبائل التتار الذين يقطنون منطقة (باريا)، ولم يأت القرن الثالث عشر الهجري إلا وأصبحت المنطقة مسلمة.

وبعد أن ضمت روسيا إليها سيبيريا الغربية في القرن الحادي عشر الهجري تقدمت وفرضت حمايتها على بلاد القازاق، والتي بقيت السلطة فيها بيد أربعة خانان، ثم عادت فاستولت على البلاد كلها، وأسقطت حكم الخانات من عام ١٢٣٨-١٢٥٨ هـ (١٨٢٣-١٨٤٢ م).

ودخلت روسيا أذربيجان في النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري، ثم اضطرت إلى إخلائها نتيجة المقاومة التي وجدها والتي استفادت من وعورة المنطقة، لكنها عادت فاستولت عليها في بداية القرن الثالث عشر الهجري.

أما بالنسبة إلى شمال القوقاز فقد استمر الصراع بين العثمانيين والروس لمدة النفوذ إلى المنطقة مدةً من الزمن، ثم بدأ الاستعمار الروسي للمنطقة من ١١٩٨ - ١٢٩٥ هـ (١٧٨٣ - ١٨٧٧ م)، وقد قاومة الداغستان بقوة عنيفة، قادها المشايخ الذين شكلوا حكومة سيطرت على أجزاء واسعة من المنطقة واستمرت من ١٢٤١ - ١٢٧٨ هـ (١٨٢٦ - ١٨٦١ م)، ومن أشهر هؤلاء المشايخ الشيخ شامل، ومع هزيمة السكان وانتهاء الحرب بصورة رسمية عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) فإن المقاومة قد استمرت حتى عام ١٢٩٥ هـ (١٨٧٧ م).

ولما انتهى الروس من حروب شمال القوقاز التفت الروس إلى آسيا الوسطى (تركستان)، كي يقطعوا أية نجدات يمكن أن تأتي إلى الداغستانيين من بلاد المسلمين، ولكي يوسعوا مناطق نفوذهم، ففي عام ١٢٧٢ هـ (١٨٥٥ م)، استولى الروس على تشمقند، وعلى طاشقند عام ١٢٨٢ هـ وفرضوا الحماية على إمارة بخارى عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٢ م)، وعلى إمام خيوة (خوارزم) عام ١٢٩١ هـ (١٨٧٣ م)، وتقدموا نحو خوقند ١٢٩٢ هـ (١٨٧٤ م)، فوجدوا مقاومة عنيفة، فأزيلت خوقند من مكانها، واحتلوا بلاد التركمان ١٢٩٠-١٣٠٢ هـ (١٨٧٢ - ١٨٨٥ م) ووصلوا إلى هضبة بامير عام ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م).

أما بالنسبة إلى شبه جزيرة القرم فقد استولت روسيا على مدينة ازوف عام ١١٨٨ هـ (١٧٧٣ م)، ورفعت السيادة العثمانية عن خانة القرم، ووضعت يدها على بعض الحصون وذلك إثر توقيع معاهدة (قینارجة) في ذلك العام، ولكنها لم تلبث أن عادت فنقضت المعاهدة واحتلت المنطقة ١١٩١ هـ (١٧٧٦ م)، ثم ألغت خانة تتار القرم عام ١١٩٨ هـ (١٧٨٣ م)، وضمتها إلى بلاد الروس.

وهكذا كان استعمار الروس للمناطق الإسلامية على النحو التالي:

- ١ - حوض الفولغا. ٩٦٠ - ٩٦٨ هـ .
- ٢ - القرم. ١١٨٨ - ١١٩٨ هـ .
- ٣ - شمال القوقاز. ١١٩٨ - ١٢٧٨ هـ .
- ٤ - أذربيجان. ١٢٠١ - ١٢٠٧ هـ .
- ٥ - قازقستان. ١٢٣٨ - ١٢٥٨ هـ .
- ٦ - آسيا الوسطى. ١٢٧٢ - ١٣١٨ هـ .

توزيع المسلمين اليوم:

ولكن معاملة الروس للمسلمين اختلفت بين جزء واثان، كما اختلفت بين قيصر وآخر، كما أن ردود فعل المسلمين تباينت بين منطقة ومنطقة، وكان تطور المسلمين مختلفاً حتى وصلوا إلى ما هم عليه الآن.

أولاً - بلاد التتار :

بعد أن احتل الروس بلاد التتار في حوض الفولغا استولوا على الأراضي الخصبة على طول مجاري الأنهار، وشيدوا القلاع، وهدموا المساجد، وحاولوا تنصير المسلمين بحجة التحويل إلى السلاف، وكى يكون المواطنون سلافاً لا بد من أن يكونوا جميعاً نصارى أرثوذكس، وعندها تتحقق الوحدة الوطنية - حسب زعمهم - وقد رفض المسلمون هذه الاجراءات مع استثناءات قليلة. وفي أيام القيصرة جينا ١١٤٣-١١٥٣ هـ (١٧٣٠-١٧٤٠م) أقفلت كل المساجد في بلاد التتار في مجرى نهر الفولغا الأوسط، وألغيت الصفة الدينية عن الأوقاف الإسلامية المخصصة للتعليم والإحسان، ونقلت ملكيتها إلى الدولة، وطرد المسلمون من قراهم، وفرضت الضرائب الباهظة عليهم، وصدر أمر يقضي بالحكم بالموت على كل من يمارس دعوة دينية. وأعلن عن إعفاء التتار الذين يقبلون النصرانية من الضرائب، ومن الخدمة العسكرية الإلزامية. وكانت محاولات لهضم المسلمين بالقوة، وصهرهم في بوتقة المجتمع الروسي النصراني الأرثوذكسي، وقد دعا هذا إلى قيام بعض الثورات والتي كان من أهمها ثورة الباشكير، ولكنها أخمدت في منتهى القسوة، وهُجّر المسلمون من قراهم، وحلّ محلهم الروس، ودكّت المساجد، وهدمت مراكز العلم ومنع التتار من العمل في التجارة. وتحت الضغط الشديد، وفي سبيل الوصول إلى بعض الحقوق الرئيسية، ومن أجل تأمين بعض المصالح اليومية، أو تسلم بعض الأعمال الضرورية، بل حتى من أجل الحصول على لقمة العيش أحياناً، وتأمين التعليم في المدارس في كثير من الأحيان، كانت جماعات قليلة توافق الانتساب إلى النصرانية الأرثوذكسية، وتتم عملية التعميد.

وعندما تولت الحكم القيصرة كاترين الثانية في روسيا عام ١١٦٧-١٢١١ هـ (١٧٥١-١٧٩٦م) وجدت أن حروبها مع الدولة العثمانية بالدرجة الأولى، وأن الضغط على المسلمين في بلادها يجعلهم يتحركون لمصلحة العثمانيين لذا فمن

الضرورة بمكان تخفيف هذا الضغط، فأعلنت عام ١١٧٨ هـ (١٧٦٥م) التساهل الديني، وسمحت عام ١١٨١ هـ (١٧٦٨م) للتتار بالعودة إلى قازان بعد أن كانوا قد طردوا منها، ورفعت الخطر عن عملهم في التجارة، ونادت بالحرية الدينية عام ١١٨٧ هـ (١٧٧٤م)، والحق في بناء المساجد، وتشيد المدارس القرآنية، وسمحت بتأسيس المجمع الإسلامي في أورنبورغ عام ١١٩٧ هـ (١٧٨٢م)، فنشط لهذا التتار في الدعوة إلى الإسلام فانتشر في باشكيريا التي كانت لاتزال فيها بعض الجزر الوثنية، وفي سيبيريا الغربية، وفي سهوب القوزاق.

وبعد كاترين الثانية عاد الضغط على التتار المسلمين فقامت ردود فعل وانتقاضات بين التتار والباشكير (فتنة بوغاتشيف)، وإن الضغط على العنصر التتاري قد جعل مفهوم الدين يمتزج مع مفهوم العنصرية التتارية، واستمر هذا الضغط حتى عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥م) حيث أعطيت الحرية الدينية إذ ظنّ الروس أن أمر الإسلام قد انتهى، وما إن منحت الحرية الدينية حتى اعتنقت الإسلام إحدى وتسعين أسرة عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦م)، وأسلم ثلاثة وخمسون ألفاً آخرون في العام نفسه، وأن قبيلة (الفوتياك) قد انتشر الإسلام بين أبنائها على الرغم من أن معظمهم كان قد عمّد، وأن قبيلة (الشيريمس) وهي مثل قبيلة (الفوتياك) من قبائل (الغن) قد أسم القسم الأعظم منها على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا نصارى اسماً، وقد دخلت قراهم جميعها الإسلام بسبب اتصاهاهم بالتتار والباشكير الذين كانت عاداتهم متشابهة إلى حد ما، وأما قبائل (الجوفاش) الذي بلغ عددهم المليون آنذاك، وكانوا قد عمّدوا جميعاً فإن الإسلام قد انتشر بينهم حتى عم، وارتفعت المآذن في قرى هذه القبائل.

وإن كثيراً من القبائل الوثنية ماكان دخولها في النصرانية إلا تغطية لدخولها في الإسلام. وأمام هذا التحول السريع نحو الإسلام خافت الحكومة الروسية على أتباعها من الذين كانت تريد أن تدخلهم في عقيدتها لذلك أقامت الجمعيات الدينية لحماية دينها، وفرضت اللغة الروسية، ولكن هذا لم يفدها شيئاً إذ قام التتار في هذه المدة بنشاط كبير بالدعوة إلى دينهم سواء في منطقة (الأورال) أم في شبه جزيرة القرم. وعادت روسيا فألغت الحرية الدينية، ولكن لم تلبث أن اندلعت نار الحرب العالمية الأولى.

كانت العربية، والفارسية، ولغة تتر قازان هي اللغات السائدة والمستعملة في الكتابة والأدب، وهي خاصة بالمتعلمين، ثم ظهرت الدعوة إلى إيجاد لغة تكون في متناول الجميع، وكانت أذربيجان وبلاد التتر هي مركز هذه الدعوة بالنسبة إلى جميع المسلمين الذين يعيشون في الامبراطورية الروسية، ودعا (إسماعيل غسبرالي) إلى لغة تركية تكتب بأحرف كيريلية (روسية)، وأسس جريدة الترجمان التي استمرت تصدر من ١٣٠١-١٣٣٢ هـ (١٨٨٣-١٩١٤ م) بهذه اللغة في مدينة (باغجة سراي) قاعدة بلاد القرم، وغدت قازان، وأوفا، وأورنبورغ، وياكو، وباغجة سراي، وتروتييسك آنذاك أهم المراكز الثقافية ولاتنقل عن استانبول، ودمشق، والقاهرة يومذاك.

وقبل عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) كانت هناك محاولات في بلاد التتر لإظهار الإخلاص للروس، والتعاون الدائم بين روسيا والعالم الإسلامي، ويرى أصحاب هذه المحاولات أنها ليست إلا في صالح الإسلام - حسب قناعة بعض الزعماء - إلا أن هزيمة روسيا أمام اليابان في ذلك العام، وإعطاء الحرية الدينية قد شجع التتر على محاولة الأخذ بالثأر وبدأ العمل لذلك بجدية، فعقد في صيف ذلك العام مؤتمر سري إسلامي في (نيجني نوفغورد) حضره مائتا مندوب تتاري، وكانت نتيجة مطالبة الروس بالمساواة، والحقوق الشخصية، كما عمل الحضور على اتفاق المسلمين الذين يقطنون في أرجاء الامبراطورية الروسية بعضهم مع بعض.

وفي ١٨ ذي القعدة من عام ١٣٢٣ هـ عقد مؤتمر ثان في (بطرسبرغ)، وكان سرياً أيضاً، وحضره مائة مندوب تتاري، وقرمي وقفقاسي، وقازاقي، وعدد قليل من تركستان تقرر فيه تقديم المساعدة لحزب الدستوريين الديمقراطيين.

وفي مطلع شهر رجب من عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) عقد مؤتمر ثالث بشكل رسمي وعلني - مادامت الحرية الدينية قد أعطيت - في (نيجني نوفغورد)، وحضره مائتا مندوب، وتقرر فيه المطالبة بالحرية الدينية التامة، وحرية التعليم، وحاول المندوبون تحويل اتفاق المسلمين الى حزب سياسي اسلامي. إلا أن وحدة المسلمين قد عراها الانقسام بسبب الانقسام السياسي بين صفوف الحاضرين.

حاول المسلمون التعاون مع المنادين بالحرية في روسيا والذين كان يمثلهم حزب الدستوريين الديمقراطيين، إلا أن هؤلاء لم يكونوا صادقين مع المسلمين

فهم نصارى قبل كل شيء ومن الروس ثانياً، فكان كل طلب يقدمه المسلمون إلى الدوما (مجلس ممثلي الشعب في روسيا) يفشل لعدم دعم هذا الحزب لطلب المسلمين، لذا فقد فشل هذا التعاون، وحل أنصار هذا التفاهم من المسلمين أنفسهم، وهاجر عدد من القيادات إلى تركيا وإلى جهات ثانية، وتركوا قيادة العمل للشباب الذين هم أكثر حماسة وأشدّ عداء للروس.

ولما كان التتار قد مضى عليهم مدة طويلة تحت سيطرة الروس وضغطهم لذا فقد ضعفت الروح الإسلامية شيئاً ما، وأصبح الإسلام جزءاً من تتاريتهم التي ارتبطوا بها، ولما كان حزب الدستوريين الديمقراطيون قد خذلهم لذا فقد أرادوا الانتقام منه، ورغبوا في الانضمام إلى خصومه، واندفعوا للثورة والدعوة إلى التغيرات الجذرية في روسيا، واستفاد البلشفيك (الماركسيون) من هذا الحماس، ونادوا بالأممية، لذلك ظهرت عند شباب التتار نزعة نحو الماركسية.

تأسس في قازان عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) حزب برك (الوحدة)، وكانت له نزعة ماركسية. وتأسس في العام نفسه حزب (محاربو نجمة الصبح) «تانبشيلار» في مدينة قازان أيضاً إلا أن رجال الأمن قد فرقوا زعماء هذا الحزب عام ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م)، وأنهاه رجال الشرطة في العام نفسه. وقام في أورنبورغ حزب «محاربو الأورال» (أورالتشيلار) في نهاية عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٩ م)، ويدعو إلى محاربة القوميات، ويميل إلى النزعة الماركسية، ويخفي معاداته للدين.

عقد المسلمون مؤتمراً كبيراً في موسكو في شهر رجب من عام ١٣٣٥ هـ (١٩٠٧ م)، حضره تسعمائة عضو من كل الأقاليم الإسلامية في الامبراطورية الروسية، وظهرت في المؤتمر أفكار تحاول التوفيق بين الإسلام والاشتراكية رغم السمة البارزة في التشديد على الملة الإسلامية. واختلف الأعضاء على بعض النقاط فالتار يرون الاستقلال الذاتي ضمن دولة روسيا، ويرى التركستانيون والأذربيجانيون ضرورة اتحاد المسلمين والانفصال عن الروس، ونتج عن المؤتمر تشكيل:

١ — إدارة مركزية لتنسيق شؤون الأمة الإسلامية.

٢ — مجلس إسلامي مركزي (ملي شورى)

٣ — لجنة إسلامية تنفيذية.

وفي شهر رمضان من العام نفسه عقد في قازان مؤتمر حضره التتار فقط من قازان، وباشكيريا، والقرم ولم يتمكن غيرهم من حضوره، وتقرر فيه فكرة اتحاد المسلمين، وأعلن عن وحدة مسلمي روسيا ثقافياً وسياسياً، وعززت الإدارة الإسلامية المركزية بإنشاء مجلس حزبي (حزبي شورى) مقره قازان، وكان شديد الحرص على الوحدة الإسلامية.

بدأ المجلس بتنجيد المسلمين تحت قيادة ضباط من التتار والباشكير، وأنشأ المجلس إدارة ملية مركزها مدينة (أوفا) كلفت بالإعداد لعقد مجلس ملي في أوفا في ٤ صفر عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م) لبحث مصير الأمة الإسلامية في الإمبراطورية الروسية، إلا أن الثورة الشيوعية قد قامت في اليوم الأول من عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م) أي قبل موعد عقد المؤتمر بحوالي الشهر الأمر الذي حال دون عقده.

واختلفت الحركات المحلية في أهدافها رغم وجود قاسم مشترك وهو الحصول على الحرية الجماعية، ومحاولة المحافظة على الأساس الديني للمجتمع الإسلامي، واختلفت بين الانفصال عن روسيا أو الاستقلال الذاتي ثقافياً وسياسياً داخل دولة روسية اتحادية اشتراكية ليبرالية، وكان بعضهم يعد الإسلام أساساً للعمل مثل الداغستان، أو التحرك في مرونة مثل التركستان، على حين يرى الآخرون العلمانية دون الرغبة في هدم الكيان الإسلامي - حسب قناعتهم مع أنهم يعملون على هدمه دون علم أو دراية.

قامت الثورة الشيوعية في ١ محرم ١٣٣٦ هـ (١٦ تشرين أول ١٩١٧ م)، ووجد المسلمون فرصة للاستقلال نتيجة الفوضى التي عمت، ولكن الحركات الإسلامية كانت محلية، وتشكلت عدة حكومات في وقت واحد فضاعت الجهود، وتشتت القوى، فقد شكل (الباشكير) حكومة محلية في (أورنبورغ) في ربيع الأول عام ١٣٣٦ إلا أن الجيش الأحمر البلشفي لم يلبث أن احتل (أورنبورغ)، واعتقل الدين تعاونوا مع خصوم القوزاق، وذلك بعد شهر فقط من قيام حكومة (الباشكير)، وبعد شهرين آخرين تمكن القوزاق من النصر على البلشفيك، وألف (زكي والدي طوقان) حكومة باشكيريا ثانية في مدينة (أوفا)، وأطلق عليها اسم حكومة روسيا الموقنة، ولم تعمر سوى سبعة أشهر إذ عاد الروس البيض،

والمانشفيك، ودعوا إلى حكومة روسية موحدة تعادي البلشفيك فحلوا لذلك حكومة (أوفا) الباشكيرية، وصفوا الفرق الباشكيرية التي كانت بجانبهم بالأمس، وهذا مادعا (زكي والدي طوقان) إلى أن يتجه نحو البلشفيك، ويلتقي به (لينين) الذي أعلن عن حرية القوميات مستفيداً من الوقت ومن الصراع، والتحق الباشكير بالجيش الأحمر في مطلع شهر رجب عام ١٣٣٨ هـ (١٩١٩ م)، وعندما انتصر الجيش الأحمر، وعادت القوة إلى البلشفيك ضربوا بوعودهم عرض الحائط واضطر أن يفر (زكي والدي طوقان) إلى آسيا الوسطى بعد أن خذله النصاري الروس سواء أكانوا من البلشفيك أم من المانشفيك فالجميع نصارى ونظرتهم إلى المسلمين واحدة، وهي نظرة حقد دفين بغض النظر عن الأفكار التي ينادون بها سواء أكانت دينية أم إلحادية.

وفي نهاية شهر ربيع الآخر من عام ١٣٣٦ هـ أعلن عن قيام جمهورية (ترالنس بولاق) (ضاحية من ضواحي قازان) ذات الحكم الذاتي، وهي ضد حكومة سوفيت مدينة قازان.

وفي شهر رجب قطع اليساريون التتار صلتهم بالحركة القومية التتارية، وأسسوا في مدينة قازان اللجنة الاشتراكية المسلمة التي مدت فروعها إلى مدن المجرى الأوسط لنهر الفولغا، وجبال أورال، وكان رئيساً هذه اللجنة (مير سعيد سلطان غاليف)، و (ملانور فاخيتوف)، وقد كانا ذوي خط سياسي ماركسي مع بقائهما من دعاة الوحدة الإسلامية الثورية، ولم يكونا يثقان أبداً بالاستعمار الروسي، كما يرفضان الكفر الذي يعلنه البلشفيك، ويرفضان كذلك التخلي عن الإسلام كقاعدة يقوم عليها المجتمع، أو بالأحرى لم يفهما الإسلام، ولم ينظرا الشيوعية إلا من جانب معين، ويتصوران إمكانية ترقيع الإسلام بالفكر الماركسي، أو ترقيع الماركسية بالإسلام، ثم أصبحا رئيسي الشيوعية القومية الإسلامية.

وعندما اندلعت الثورة الشيوعية أعلن قادتها الحرية الدينية مبدئياً كي يضمنا سكوت الشعوب الإسلامية، وعدم قيامها في وجههم، وليظن المسلمون أن الأمر أفضل مما كان عليه، فيحصلوا على بعض التأييد، وقد وزع لينين آنذاك منشورا جاء فيه «لقد قمنا لننصف المسلمين من شعبنا والذين طال عليهم الظلم ولنعلم مدى الاضطهاد الذي كان يحيق بالمسلمين يكفي أن نقول: إن الحرية المكذوبة

التي أعطيت للمسلمين مؤقتاً قد أعادت سكان مائة قرية بجوار قازان إلى الاسلام، كانت قد حملت الحكومة القيصرية على النصرانية قسراً منذ مائتي عام، وحولت مساجدهم إلى كنائس، وأرسلت إليهم القساوسة، وكانوا لا يزالون في حقيقة أمرهم مسلمين، ولكن لم يتمكنوا من إظهار الإسلام إلا بعد سقوط الحكومة القيصرية، إذ لم يصدقوا الحرية التي أعطتها قبل ثلاث عشرة سنة، فلما زالت عادوا إلى الإسلام، وأعادوا مساجدهم إلى أصولها، ولكن ماهي إلا غمامة صيف وانقضت حتى ظهر الشيوعيون على حقيقتهم، وكشروا عن أنيابهم، فما أن سيطر الجيش الأحمر سيطرة تامة، واطمأن الشيوعيون على وضعهم حتى بدأت أعمال السلب والنهب تحت اسم مصادرة المحاصيل الزراعية، والثروات الحيوانية، والخيرات تطبيقاً للنظام الجديد للحكم. وحدث ما حدث من جرائم ومذابح فقد قتل في هذه الأحداث خمسة ملايين ونصف المليون من المسلمين، منهم مليون ونصف من العلماء وطلبة العلم، إضافة إلى الذين فروا من أوطانهم والتجأوا إلى مناطق ثانية، كما شنت على المساجد حرب لاهوادة فيها فإن سبعمائة مسجد في بلاد التتار قد حولت إلى اسطبلات ونواد، واستمر الاضطهاد مدة ثماني عشرة سنة وإن أخذ شكلاً أوسع وأشد حتى قامت الحرب العالمية الثانية. وقسمت البلاد إلى وحدات صغيرة، وتلاعب الحكيم في هذه التقسيمات بضم أجزاء أو فصل رقع، وإبقاء مجموعات من التتار خارج حدود هذه الوحدات، حتى استقر لهم الوضع بشكل يفرق المسلمين، ويمزج بلادهم، ويرضى عن الروس، وستحدث بعد قليل عن هذه الوحدات التي أطلق عليها اسم جمهوريات ذات حكم ذاتي وارتبطت كلها بموسكو.

قامت الحرب العالمية الثانية، ووقفت روسيا بجانب الحلفاء ضد دول المحور، وتقدمت الجيوش الألمانية في الأرض الروسية فخافت الحكومة الشيوعية من أولئك الذين عاشوا رديحاً من الزمن في اضطهاد دائم تحت سيطرتها فأعلنت الحرية الدينية، وسمحت بإقامة الأبنية الدينية على نفقة أصحابها، وأنشأت أربع مراكز إدارية إسلامية تحت إشراف أربعة مفتين يقيمون في طاشقند، وباكو، وأوفا، وبونايسك، وفي الوقت نفسه أرسلت أكثر من مليوني روسي من سكاني المناطق التي اجتاحتها الجيوش الألمانية إلى البلاد الإسلامية الأخرى.

انتهت الحرب، وانتصر الحلفاء ومن بينهم الامبراطورية الروسية الشيوعية فعادت السياسة إلى أصولها في الظلم، والاضطهاد، والقتل الجماعي، والانتقام، وتهجير السكان، ولعل أشد أنواع الاضطهاد ماوقع في شبه جزيرة القرم.

وقبل أن نتحدث عن الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي، أو الوحدات الادارية في بلاد التتار وحوض نهر الفولغا نرى من المفيد سرد حكام روسيا القيصرية منذ نشأتها حتى قيام الثورة الشيوعية فيها:

أولاً - أدواق موسكو (الروس الكبار)

١ - ايفان الثالث (الكبير) ٨٦٧ - ٩١١ هـ

٢ - بازيل الثالث ٩١١ - ٩٤٠ هـ.

٣ - ايفان الرابع (الرهيب) ٩٤٠ - ٩٥٤ هـ.

ثم ضمّ إليه اوكرانيا وأصبح قيصرًا على روسيا.

ثانياً - قياصرة روسيا

١ - ايفان الرابع (الرهيب) ٩٥٤ - ٩٩٢ هـ.

٢ - تيودور الأول ٩٩٢ - ١٠٠٧ هـ.

٣ - بوريس كودرنوف ١٠٠٧ - ١٠١٤ هـ.

وحدثت مدة من الاضطرابات دامت من ١٠١٤ - ١٠٢٢ هـ حيث تسلمت

أسرة رومانوف

ثالثاً : أسرة رومانوف

١ - ميخائيل ١٠٢٢ - ١٠٥٥ هـ.

٢ - الكسيس ١٠٥٥ - ١٠٨٧ هـ.

٣ - تيودور الثاني ١٠٨٧ - ١٠٩٤ هـ.

٤ - ايفان الخامس ١٠٩٤ - ١١٠١ هـ وحكم معه بطرس الكبير

مدة من الزمن.

٥ - بطرس الكبير ١١٠١ - ١١٣٨ هـ.

٦ - كاترين الأولى ١١٣٨ - ١١٤٠ هـ.

٧ - بطرس الثاني ١١٤٠ - ١١٤٣ هـ.

- ٨ - حنا ١١٤٣ - ١١٥٣ هـ .
 ٩ - إيفان السادس ١١٥٣ - ١١٥٤ هـ .
 ١٠ - إليزابيت ١١٥٤ - ١١٧٦ هـ .
 ١١ - بطرس الثالث ١١٧٦ - ١١٧٦ هـ .
 ١٢ - كاترين الثانية ١١٧٦ - ١٢١١ هـ .
 ١٣ - بول الأول ١٢١١ - ١٢١٥ هـ .
 ١٤ - اسكندر الأول ١٢١٥ - ١٢٤١ هـ .
 ١٥ - نيقولا الأول ١٢٤١ - ١٢٧٢ هـ .
 ١٦ - اسكندر الثاني ١٢٧٢ - ١٢٩٨ هـ .
 ١٧ - نيقولا الثاني ١٢٩٨ - ١٣٣٦ هـ .

الوحدات الإدارية في بلاد التتار

قسم الروس بلاد المسلمين في شرقي روسيا وجنوبها إلى عددٍ من الوحدات الادارية في سبيل تفتيت المسلمين، وتجزئة أراضيهم، وتفرقة صفوفهم في الوقت الذي استوطن عدد كبير من الروس في هذه المناطق حتى شكلوا نسباً كبيرة تختلف بين وحدة وأخرى. وبين هذه الوحدات جمهوريات ذات استقلال ذاتي ترتبط كلها بموسكو، ومقاطعة واحدة ذات استقلال إداري وترتبط بكيف عاصمة أوكرانيا كما بقيت أعداد من المسلمين وخاصة من التتار خارج حدود هذه الوحدات.

١ - جمهورية باشكيريا:

أول جمهورية ذات حكومة اندمجت بجمهورية روسيا الاتحادية، وتشكلت في شعبان عام ١٣٣٧ هـ (١٩١٨ م)، وكانت عاصمتها (سترلينا ماك) لأن مدينة (أوفا) بقيت بيد البيض إلى ذي القعدة من ذلك العام.

تبلغ مساحة جمهورية باشكيريا ١٣٤ر٥٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ٣٩٢٤ر٠٠٠ حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ. ويتوزع سكان باشكيريا على المجموعات التالية:

٩٣٦ر٠٠٠	باشكير ويشكلون	٢٤ر٣٪ من السكان.
٩٤٠ر٠٠٠	تتار ويشكلون	٢٤ر٤٪ من السكان.

١٢٢٠٠٠	جوفاش ويشكلون	٣٢٪ من السكان.
١٠٧٠٠٠	ماري ويشكلون	٢٨٪ من السكان.
١٢١٠٠٠	مجموعات أخرى ويشكلون	٣٠٪ من السكان.

٢٢٢٦٠٠٠	المجموع	٥٧٧٪ ومعظم هؤلاء من
---------	---------	---------------------

المسلمين، وهذه النسبة

هي نسبة المسلمين

في باشكيريا.

٤٠٣٪

١٦٢٣٠٠٠ روس

٢٠٪

٧٥٠٠٠ أوكرانيون

١٦٩٨٠٠٠	المجموع	٤٢٣٪ وهم من النصارى
---------	---------	---------------------

الأرثوذكس.

ويبلغ عدد الباشكير (الباشغرد) في الامبراطورية الروسية ١٣٧١٠٠٠ نسمة منهم ٧٢٪ في جمهورية باشكيريا. والباقي موزعون. ويسكن الباشكير الريف عادة، وهم من أصل تتاري، ويتكلمون لغة تختلف اختلافاً بسيطاً عن لغة تتار قازان. وفي مدينة (أوفا) عاصمة الجمهورية مركز إسلامي، وقد وجد منذ أيام كاترين الثانية، وأعيد عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٠ م) أيام الحرب العالمية الثانية. وأوفا اليوم هي مركز الإدارة الإسلامية لروسيا الأوربية وسيبيريا. وارتدت جماعة من الباشكير في القرن الثاني عشر، وبدأوا يعودون إلى الإسلام، وبقي منهم عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) ما يقرب من أربعة عشر ألفاً، ولم يبق منهم الآن أحد إلا وقد عاد إلى الإسلام.

٢ - جمهورية تتاريا :

تشكلت جمهورية تتاريا ذات الاستقلال الذاتي في رمضان عام ١٣٣٨ هـ (١٩١٩ م). وعاصمتها مدينة قازان التي يبلغ عدد سكانها ما يقرب من المليون. تبلغ مساحة الجمهورية ٦٨٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ٣٤٣٦٠٠٠ حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ.

ارتدت جماعة من التتار في نهاية القرن العاشر، وأخرى في مطلع القرن الماضي، ولكن هؤلاء الآخرين قد عادوا إلى الإسلام منذ أن أعطيت الحرية الدينية عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م)، ولكن لا يزالون يقطنون وحدهم في قرى خاصة، ويطلق عليهم اسم «كرياشن».

حاول الروس دمج التتار، وتحويلهم إلى سلاف بتغيير عقيدتهم، ويذلوا في ذلك جهوداً كبيرة، فلم يفلحوا، وحافظ التتار على إسلامهم، وتمسكوا بعنصرهم حتى ارتبط عندهم مفهوم الدين بمفهوم العنصرية.

يؤلف التتار والباشكير ٤٧٦٪ من سكان تتاريا، ويقدر عددهم ١٦٤١٦٠٠ نسمة، والباقي معظمه من الروس والأوكرانيين، إذ يحاول الروس ترويس هذه الجمهورية، ولا تزيد نسبة المسلمين في تتاريا على ٥٥٪ لهذا السبب.

يقدر عدد التتار في الامبراطورية الروسية ٩٦٨٠٠٠ حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، يعيش أكثر من ربعهم في جمهورية تتاريا، والباقي موزعون، بعضهم في حوض الفولغا مثل استراخان، ساراتوف، وبعضهم في جبال الأورال مثل تشليابينسك، وبعضهم في أورنبغ، ويعيش ما يقرب من مليون منهم في جمهوريات آسيا الوسطى وأذربيجان. وفي موسكو ١٥٠٠٠٠، وفي ليننغراد ٦٠٠٠٠، وفي سيبيريا ٢٠٠٠٠٠، ويطلق على الذين استقروا في بلاد الباشكير، عندما فروا من قازان يوم احتل الروس بلادهم عام ٩٦٠ هـ اسم التتار.

وذهبت أعداد من التتار خارج حدود الامبراطورية الروسية، واستقرت في أميركا الشمالية وخاصة في نيويورك وفي غيرها.

٣ - جمهورية جوفاشيا :

تبلغ مساحتها ١٨٣٠٠ كيلومتر مربع، ويسكنها مليون ونصف المليون، ويتكلم الجوفاش لغة ليست من أصل تركي، ارتد كثير من الجوفاش، وعُمدوا جمعياً، وعندما أعطيت الحرية الدينية عام ١٢٣٢ هـ (١٩٠٥ م) عم الإسلام معظم مناطقهم، الامر الذي سبب الضغط عليهم. وتأسست لهم جمهورية عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م)، وعاصمتها مدينة (شوقساري).

٤ - جمهورية موردوفيا :

تبلغ مساحتها ٢٥٠٠٠ كيلومتر مربع، ويسكنها مليون وربع المليون نسمة، ويتكلم (الموردوف) لغة خاصة لاتعود إلى أصل تركي.

٥ - جمهورية أدمورتيا :

تبلغ مساحتها ٤٢١٠٠ كيلومتر مربع، ويعيش على أرضها مايقرب من مليون من السكان، ويتكلم الأدمورت لهجة لاتمت بصلة إلى التركية. وتعيش بينهم قبائل من الفن مثل (الفوتياك) و (الشريمس)، وقد أسلمت هاتان القبيلتان بسبب احتكاكهما مع (التتار) و (الباشكير) على الرغم من أن أفرادهما كانوا نصارى اسماً، وعمدوا جميعاً، وبعضهم كان وثنياً، وفي السجلات ضمن عداد الوثنيين لذا لم يسمح لهم بإقامة المساجد، وكانوا يختنون، ولم يشهروا إسلامهم، لذا أطلق عليهم الروس اسم «الكلاب المختنون»، لهذا فإنهم هجروا مجتمعاتهم وأقاموا في قرى خاصة، فلما أعلنت الحرية الدينية ظهر أن هذه القرى إسلامية، وارتفعت فيها المساجد، وحاولت القيصرية فصلهم عن المسلمين فلم تفلح، فلما جاءت الشيوعية أتمت مابدأت به القيصرية، فأنشأت لهم جمهورية خاصة عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٦ م)، وجعلت عاصمتها (إيجفسك)، وتريد روسيا أن تبقى الذين لم يدينوا بالإسلام على ديانتهم السابقة سواء أكانت الوثنية أم النصرانية اسماً، هذا ماتعتقد، والواقع أنهم أصبحوا جميعاً من المسلمين.

٦ - جمهورية مارييا :

تبلغ مساحتها ٢٣٨٠٠ كيلومتر مربع، ويسكنها ثلاثة أرباع المليون من السكان، تأسست هذه الجمهورية عام ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م). وعاصمتها (يوشكار أولا)، ومنذ أن احتل الروس أرض هذه الوحدة الادارية من سنة ٩٦٠ هـ (١٥٥٣ م) إلى الآن، وهي في إهمال تام، ويلقى شعبها أشد أنواع الاضطهاد، ويتكلم السكان لغة لاتعود إلى أصل تركي.

ثانيا - بلاد القرم :

أما في شبه جزيرة القرم فبعد أن انضمت كاترين الثانية القرم إلى روسيا إلا أنها أعطت الحرية الدينية وممارسة الشعائر، كما أبقت الدعاء للخليفة العثماني أيام

الجمع، ولم تحاول ترويس السكان، ولكنها في الوقت نفسه قد صادرت أفضل الأراضي على شواطئ شبه الجزيرة. إلا أن الشدة القاسية قد أعقبتها سياسة اللين، وهذا ما أوجد محاولات من السكان لمسايرة الروس والتعاون معهم.

وقبل الثورة الشيوعية وجد حزب (ملي فرقة) أي الإدارة القومية التتارية وذلك عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٦ م)، تقريباً فشكّل المسلمون حكومة تتارية إسلامية في مدينة (سمفروبول)، بزعامة حزب (ملي فرقة)، فأعلنت استقلال البلاد، وأجرت الانتخابات، واجتمع المؤتمر الوطني، ووضع دستوراً للبلاد. ولكن قضي على هذه الحكومة بعد ثلاثة أشهر بهجوم مفاجئ من (ستيول سيبا)، وبعد ثلاثة أشهر أخرى احتل الألمان المنطقة، وشكلوا حكومة تتارية بإشرافهم من أعضاء حزب (ملي فرقة). وبعد أن نجح الشيوعيون في السيطرة على أكثرية الأقاليم التي كانت خاضعة لروسيا القيصرية اتجهوا نحو القرم ولكن التتار في القرم قاوموا الشيوعيين ببسالة، وعندما عجزوا عن الوقوف في وجه الطغيان اعتصموا بالجبال، ولما رأى الشيوعيون أن حبل المقاومة طويل لجأوا إلى حرب التجويع، فنقلوا كل ما كان في شبه الجزيرة المكافحة من أقوات، الأمر الذي عرض السكان للهلاك، وقد نرت جريدة (الأزفستيا) في عددها ١ لصادر في ٢٥ تموز ١٩٢٢ (١ صفر ١٣٤١) تقريراً للشيوعي لينين عن مجاعة القرم جاء فيه «بلغ عدد الذين أصابتهم محنة الجوع في شهر كانون الثاني ٣٠٢٠٠٠ مات منهم ١٤١٣، وارتفع عددهم في شهر آذار إلى ٣٧٩٠٠٠ مات منهم ١٩٩٠٢، وبلغ في شهر نيسان ٣٧٧٠٠٠ مات منهم ١٢٧٥٤، وفي شهر حزيران ٣٩٢٠٧٢»، ولم يذكر عدد الموتى إلا أنه قال: «إن أكل لحم الإنسان لم يكن من الحوادث التي يستغرب لها أو تبدو عجيبة في بابها». وكانوا قد قتلوا من السكان مائة ألف مسلم قبل عام أي أثناء دخولهم القرم، كما أنهم هجروا خمسين ألفاً آخرين، ونصبوا رئيساً لجمهورية القرم الإسلامية الشيوعي البنغاري (بالاكون).

واستمر هذا الضغط وذلك الارهاب حتى جردوا المسلمين من أملاكهم ومالديهم من ثروات بعد أن استسلموا، وبدأ الشيوعيون بهدم المساجد والمعاهد الدينية فلم يبق من ١٥٥٨ مسجداً بالقرم إلا آحاداً قليلة، أما جهرتها الكبرى فقد أزيلت أو تحولت إلى أنديّة، ومقاهٍ، ودور لهو، واصطبلات للخيل، وحظائر

للماشية، وبدأ عدد سكان القرم يتناقص تدريجياً.

قامت الحرب العالمية الثانية، وغزا الألمان روسيا، ودخلوا أجزاء واسعة منها حتى اقتربا من موسكو، وأثناء المعارك التي احتدمت بين الروس والألمان على أبواب القرم استسلم الفيلق القرمي للألمان - وتعداده ثمانية عشر ألفاً - انتقاماً من الروس وتخلصاً منهم، وظناً بأن الألمان أفضل من الروس الذين أذاقوهم الويلات، وأنزلوا بهم النكبات، ولم يدر في خلداهم أن الكفر ملة واحدة. وأن عداء النصارى إنما هو موجه للإسلام قبل كل شيء. وما إن عرف الألمان أن المستسلمين من المسلمين حتى نزعوا منهم السلاح، وساقوهم حفاة مسافة مائة وخمسين كيلو متراً سيراً على الأقدام، ودون طعام، فسقط بعضهم على الطريق من شدة الإعياء، ثم سجنوهم في جامعة أصلها قلعة من القلاع القديمة لا يدخلها نور، ومنعوا عنهم الطعام بحجة نقص المواد الغذائية عند الألمان، فبدؤوا يتساقطون جوعاً، وقد امتدت ألسنتهم تقطر منها الدماء، وقد ثلمتها جدران السجن الخشنة أثناء أخذ الدهان منها. . . . وبعد مدة بدأ يخف عدد الموتى بدلاً من أن يزداد مع زيادة الجوع فعرف الضباط الألمان أن بعض السجناء يأكل بعضاً من مات فاقتادوا الجميع خارج السجن وقتلوهم رمياً بالرصاص.

وهزمت ألمانيا، ونجح الشيوعيون فادعوا أن تثار القرم من عملاء الألمان - رغم ما حل بهم - لذا يجب محاكمتهم، فدخلوا العاصمة (باغجة سراي) وطمسوا معالم الإسلام فيها حتى المساجد الأثرية مثل (جامع خان)، و(جامع بازار)، و (جامع اصمقوي) وغيرها كثير، وجمعوا المصاحف وأحرقوها في الميادين العامة، وقتلوا من السكان ما يقرب من نصف مليون، وأجلوا الباقي وهو ٢٣٨.٠٠٠ تاتاري، وفي العام التالي حلت جمهوريتهم وغدت منطقة تتبع موسكو، ثم ألحقت بكيف.

ولا يزال تثار القرم يهيمون على وجوههم في مناطق متفرقة من مجاهل سيبيريا وغيرها، ويطالبون بعودتهم إلى وطنهم وإعادة جمهوريتهم على الرغم من أنهم يعرفون أنها ستكون صورة وألعبية بيد الروس، يعرفون ذلك من تاريخهم مع الروس الشيوعيين. ففي عام ١٣٤٧ هـ (١٩٦٩ م) قتل الشيوعيون رئيس جمهورية القرم (ولي إبراهيم) مع جميع وزرائه، وفي ١٣٤٩ هـ (١٩٣١ م) قتلوا أيضاً رئيس الجمهورية (محمد قوباي) مع وزرائه، ثم كرروا الحادثة مع رئيس

الجمهورية (إلياس طرخان) عام ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) إذ استدعوه إلى موسكو وقتلوه مع وزرائه رمياً بالرصاص على الرغم من أنهم كانوا هم الذين يوافقون على تعيين هؤلاء الرؤساء والوزراء.

وفي عام ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) شعر الروس أن بعض المنفيين من تزار القرم يعودون إلى بلادهم دون إذن من السلطات الرسمية فأرسل الروس بعض رجال الأمن يخربون البيوت التي قطنها هؤلاء العائدون فوق رؤوس ساكنيها، ويقتادون من ينجو من الموت إلى السجن، كما رفضت السلطات طلب الذين رغبوا بالعودة إلى وطنهم من التتار.

ولما نفي التتار حلّ محلهم الروس من أوكرانيين، وببيض، وروس كبار، وقد بلغ عدد سكان منطقة القرم ٢١٣٥٩١٦ حسب الإحصاء الروسي لعام ١٣٩٩ (١٩٧٩ م)، ويوزعون على المجموعات التالية:

يهودي.	٢٢,٥٩٧	روسي	١,٤٦٠,٩٨٠
تناري.	١٥,٠٧٨	أوكراني	٥٤٧,٠٠٠
مجموعات ثانية	١,١٥١	من روسيا البيضاء	٠٤٣,٠٠٠

ثالثاً - بلاد القوقاز :

أما في شمال القوقاز فقد جابه السكان الحكم الروسي بمقاومة عنيفة كان أشهرها حركة عام ١١٩٨ هـ (١٧٨٣ م) التي قادها (منصور أشرمه)، ولم يحاول الروس الاستيطان في داغستان بعد الانتصار على أهلها، وإنما اكتفوا بإقامة بعض المراكز العسكرية في المناطق الجبلية، والنقاط الاستراتيجية، كما لم تشجع الدولة الاتصال بين السكان والروس بل حظرت على دعاة النصرانية دخول الجبل، ولم تحاول هي كذلك التدخل في شؤون البلاد، وهذا ما شجع بعض المتنفذين من القومون، والقبطاي، والقوشحة والشركس أن يظهروا الولاء للروس ولأسرة رومانوف الحاكمة بالذات، على حين وقف أصحاب النفوذ الحقيقي، وهم المشايخ موقفاً عدائياً، وهذا ما جعل المقاومة تأخذ صفة الطابع الديني.

وقام المشايخ بحركة ضد الروس وأسسوا حكومة المريدن التي امتدت من ١٢٤٢ - ١٢٨١ هـ (١٨٢٤-١٨٦٣ م)، وكان آخرهم الشيخ شامل الذي هزم

أمام الروس، ورغم دخول الروس البلاد وانتصارهم على السكان، وهجرة أعداد كبيرة خارج أوطانهم، وقد انتقل أكثرها إلى أوربا الشرقية، واستقروا في الجهات الساخنة إلا أن هزيمة العثمانيين، قد جعلتهم يرضخون في مؤتمر برلين عامي ١٢٩٢ هـ (١٨٧٨ م) لأمر الروس، ويوافقون على نقل هؤلاء اللاجئين من بلاد القوقاز إلى بلاد الشام وبلاد الرافدين حيث أقاموا على هامش الصحراء لرد غارات البدو. وذلك لما عرف عن هؤلاء القوقازيين من الشجاعة سواء في بلادهم أم في أوربا الشرقية.

وقام الداغستان في آخر ثورة لهم عام ١٢٩٦ هـ (١٨٧٨ م)، وبعد ذلك بدأ الضغط الروسي على سكان المنطقة بشكل واسع فاستمرت الهجرات، ووجدت جماعات تتعاون مع الاشتراكيين، كما انضمت جماعة قليلة من الشباب إلى الحزب الشيوعي، وعندما قامت الثورة الشيوعية تعاونت جماعة أخرى مع حكومة (بتروغراد)، أما المشايخ الذين بقوا أصحاب النفوذ الحقيقي في البلاد، فقد حاربوا الشيوعية، ورفضوا التعاون مع الروس سواء أكانوا شيوعيين أم اشتراكيين، أم حكام (بتروغراد)، وفي الوقت نفسه فقد رفضوا التعامل مع المسلمين الذين يريدون التعاون مع الروس على اختلاف أسمائهم، واشتهر من بين هؤلاء الشيخ نجم الدين ذي غوتسو (غوتسينسكي) الذي انتخب إماماً في بلاد الداغستان والشاشان، والشيخ أوزان حجي، وقد بدأ هؤلاء بالإعداد للجهاد المقدس، وسيطروا على البلاد أثناء الثورة الشيوعية وحالة الفوضى التي قامت في البلاد يومذاك.

استطاع الجيش الأحمر أن يدخل شمال القوقاز في رجب من عام ١٣٣٨ هـ (١٩١٩ م)، وقاد العلماء تمرداً ضد الشيوعيين انطلق مع مطلع ١٣٣٩ هـ (١٩٢١ م)، واستمر مايقرب من عام، وقد حيكت الأساطير حول البطولات والتضحيات التي ظهرت في المقاومة. وعندما سيطر الروس تماماً عملوا على تقسيم البلاد إلى أقسام ووحدات صغيرة تعتمد على العنصريات بالدرجة الأولى وذلك في سبيل تجزئة صف المسلمين، وربطت هذه الوحدات بموسكو لامكانية مراقبتها بصورة جيدة، ومن هذه الوحدات ما هو جمهوريات ذات استقلال ذاتي، ومنها ما هو مناطق حكم ذاتي. وهناك جمهوريتان صغيرتان ربطتا بجورجيا. وهذه

الوحدات هي :

١ - جمهورية داغستان :

وقد تأسست في ربيع الأول من عام ١٣٣٩ هـ (١٩٢١ م)، وتبلغ مساحتها ٥٠.٣٠٠ كم^٢، ويبلغ عدد سكانها ١٦٢٧.٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، وعاصمتها (محج قلعة)، وتبلغ نسبة المسلمين فيها ٨٥.٣٪ من السكان، وهم من :

الداغستان	وعدد	١٢٦٧.٠٠٠	ويشكلون نسبة ٧٨.٠٪
الاذريجان	وعدد	٦٥.٠٠٠	ويشكلون نسبة ٤.٠٪
الشاشان	وعدد	٤٩.٠٠٠	ويشكلون نسبة ٣.٠٪
الطاط	وعدد	٧.٠٠٠	ويشكلون نسبة ٠.٢٪
التتار	وعدد	٥.٠٠٠	ويشكلون نسبة ٠.١٪

٨٥.٣٪

١٣٩٣.٠٠٠

ويشكل النصاري ١٤.٧٪ من السكان، وهم من :

الروس	وعدد	١٩٠.٠٠٠	ويشكلون نسبة ١١.٦٪
الأوكران	وعدد	٥٠.٠٠٠	ويشكلون نسبة ٣.١٪

١٤.٧٪

٢٤٠.٠٠٠

ويشكل الداغستان سكان الريف، إذ أنهم فلاحون ومربرو حيوانات.

وتتضمن الداغستان عشر مجموعات قبيلة منها القوموق، والنوغاي من أصول تركية، وقد كان للقوموق دور بارز في حروب الشيخ شامل ضد الروس، ومنها اللزكي، واللان، والعفر، وهي من أصول قوقازية، ومن العفر قبائل الأندي التي كان لها دور في مقاومة الاستعمار الروسي. وهاجرت جماعات من الداغستان إلى تركيا، والعراق، وبلاد الشام، ولهم قرى شرق حمص. كانت اللغة العربية هي السائدة، ولغة التخاطب حتى عام ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨ م)، كما تستعمل أحياناً اللغة التركية الأزرية، وحظرت اللغة العربية كلغة أدبية منذ عام ١٣٤٠ هـ.

(١٩٢٢ م).

والداغستان كلهم مسلمون، ويوجد في الجبل عدد قليل من اليهود يطلق عليهم (داغ تشوفوت) أي يهود الجبل جاءوا إلى المنطقة منذ أيام السامانيين. وتعد (محج قلعة) المركز الإداري الإسلامي لداغستان وشمال القوقاز، ولغة المراكز الرئيسية هي العربية.

٢ - جمهورية شاشان - انغوشيا :

ألغيت هذه الجمهورية أثناء الحرب العالمية الثانية عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م)، ونقل السكان جميعهم إلى سيبيريا، وآسيا الوسطى في ظروف رهبة وقاسية، ويبلغ عدد السكان ١٥٥٠٠٠ نسمة حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، وتبلغ مساحتها ١٩٣٠٠ كم^٢، ومدينة (غروزني) هي عاصمة الجمهورية، ويبلغ عدد سكانها ٣٧٥٠٠٠ نسمة معظمهم من الروس. ويتوزع السكان على النحو التالي:

شاشان	٦١١٠٠٠	ويشكلون نسبة ٥٢٫٩٪
انغوش	١٣٥٠٠٠	ويشكلون نسبة ١١٫٩٪
داغستان	٥٢٢٠٠٠	ويشكلون نسبة ٢٠٪
	٧٦٨٠٠٠	٦٥٫٥٪

وهؤلاء كلهم من المسلمين. وتصل نسبة الروس في الجمهورية إلى ٢٠٪ وتتألف الجمهورية من المجموعتين الرئيسيتين اللتين تحملان اسمي الشاشان، والأنغوش.

أما الشاشان فيبلغ عددهم في الامبراطورية الروسية ٧٥٥٨٠٠ سمة حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، منهم ٨١٪ في جمهوريتهم، والباقي وهو ١٩٪ موزعون في آسيا الوسطى، والداغستان، وأوستينيا الشمالية. وتوجد أعداد منهم قد هاجرت من بلادها واستوطنت في العراق، وتركيا، وأكثرها في بلاد الشام ويصل عددها إلى عشرات الألوف موزعة في رأس العين والقنيطرة في سورية، وفي الزرقاء، والصوبلح، وأزرق الشاشان والسحنة.

وأما الأنغوش فيبلغ عددهم ١٥٧,٠٠٠ يقيم ٧٢٪ منهم في هذه الجمهورية، ويتوزع الباقيون.

ويتكلم الشعبان لغتين متقاربتين تنتميان إلى القفقاسية، وليس لهاتين اللغتين المحليتين أبجدية، ثم أصبحتا تكتبان بالحرف اللاتيني ثم بالكيرياب.

وقد قاتل الشاشان مع الشيخ شامل الروس قتالاً شديداً، وكانت بلادهم القلعة الصامدة في وجه الروس، وكذلك فقد اشتركوا في انتفاضة الداغستان عام ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م)، بينهما يشترك الأنغوش في كلتا الحريين. وإسلام الشاشان حديث لم يمض عليه أكثر من قرنين، وثبت في نفوسهم بشكل جيد بعد عام ١٢٨٢ هـ (١٨٦٤ م) إثر هزيمة الشيخ شامل.

٣ - جمهورية كباديا - بالكاريا:

تشكلت هذه الجمهورية بعد الثورة الشيوعية، ثم هجر البلكار بتهمة التعاون مع الألمان، فبقيت الجمهورية تحمل اسم كباديا، وفي عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) أعيد للبلكار اعتبارهم، وأعيدوا إلى بلادهم، ورجع للجمهورية اسمها الأول.

تبلغ مساحة هذه الجمهورية ١٢,٥٠٠ كيلو متر مربع، ويبلغ عدد سكانها ٦٧٥,٠٠٠ نسمة حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، وعاصمتها مدينة (نالتشيك) التي وصل عدد سكانها إلى ٢٠٧,٠٠٠ نسمة.

يتألف سكان هذه الجمهورية من عنصرين رئيسيين الكبارد، والبلكار، وهما اللذان تحمل الجمهورية اسمهما، والكبارد (القبرطاي) من أصول قفقاسية، وهم يشبهون الشركس، وقد خرجت منهم جماعات مهاجرة بدينها كبقية سكان المنطقة، ومنهم من يقيم في خناصر جنوب حلب.

والبلكار وهم أصول تركية تبلغ نسبة المسلمين في هذه الجمهورية ٥٥٪ من السكان، إذ يصل عددهم إلى ٣٧٣,٠٠٠، أما النصارى فتصل نسبتهم إلى ٤٥٪، وعددهم ٢٩٦,٠٠٠ ومعظمهم من الروس.

٤ - جمهورية أوستينيا الشمالية:

تبلغ مساحتها ٨,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ٥٩٧,٠٠٠ نسمة حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) منهم ٢٩٩,٠٠٠ أوستيني، ويطلق عليهم

كذلك قوشحة، كما يسمون بالأيرون وهم غالباً النصارى منهم. وتسمى هذه الجمهورية بالشالية لأن هناك جمهورية أوستينيا الجنوبية، وهي ذات استقلال ذاتي أيضاً، وترتبط بجمهورية جورجيا الاتحادية، وغالبية سكانها من النصارى. وهاجرت جماعات من القوشحة مع هجرة أبناء المنطقة عندما احتلها الروس.

٥ - جمهورية أبخازيا :

وهو جمهورية ذات حكم ذاتي، تتبع جورجيا، وتقع على ساحل البحر الأسود، تبلغ مساحتها ٨٦٠٠ كيلومتر مربع، عاصمتها سوخومي، يبلغ عدد سكانها ٤٨٦٩٠٠ نسمة حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، وفيهم من الأبخاز ٩١٠٠٠. والأبخاز من العناصر الشركسية، ونسبة النصارى كانت فيهم كبيرة، وعندما أعطيت الحرية الدينية عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) دخل عدد كبير منهم في الإسلام.

قضت روسيا على حكومة (إيبارتي) التي كانت قائمة حتى عام ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م)، وتأسست جمهورية أبخازيا عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣١ م).

٦ - جمهورية آجاريا :

تبلغ مساحتها ٣٠٠٠ كم^٢، ويسكنها ٣٠٠٠٠٠ نسمة، تقع على ساحل البحر الأسود، بين جورجيا وتركيا، وعاصمتها مدينة باطوم، وتتبع جمهورية جورجيا أيضاً.

ضمت روسيا حكومة (غوريا) التي كانت قائمة هناك وذلك إثر مؤتمر برلين ١٢٩٦ هـ (١٨٧٨ م)، واعترفت الدولة العثمانية بذلك. ثم تأسست جمهورية آجاريا عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م).

المناطق ذات الحكم الذاتي:

١ - منطقة الأديغة:

تبلغ مساحتها ٧٦٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ٤٠٤٠٠٠ حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، عاصمتها مدينة مايكوب. وهي ملحقة باقليم (كرانسودار).

والأديغة هو الاسم القومي للعناصر الشركسية، والشركس مجموعة من القبائل أشهرها: الأبخاخ، والبزادوغ، والشابسيف، والحاتوقواي. وهاجرت جماعات من هذه القبائل بدينها إلى أوربا الشرقية ثم إلى تركيا، والعراق، وبلاد الشام، وسكنت على هامش الصحراء، ومنهم من يقيم في منيج، وعندان، وحلب، والرقه، وقرى حص، ودمشق، ومرج السلطان، والجولان، وعمان. سيطر الروس على المنطقة عام ١٢٩٥ هـ (١٨٧٧ م)، وتأسست مقاطعتهم عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م).

٢ - منطقة كاراتشاي - الشركسية:

تبلغ مساحتها ١٤١٠٠ كم^٢، ويبلغ عدد سكانها ٣٦٩٠٠٠ نسمة حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) وعاصمتها مدينة شركسك، وهي ملحقة بإقليم (ستافروبول).

يتألف السكان من مجموعتين رئيسيتين: الكاراتشاي، وهم من أصول تركية، والشركس وهم من أصول قفقاسيا، وتحمل المنطقة اسم المجموعتين.

هجر الكاراتشاي أثناء الحرب العالمية الثانية عام ١٣٦٢ هـ (١٩٤١ م)، ولم يرجعوا إلى منطقتهم إلا عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م). وكانت المنطقة قد خضعت للروس بعد مؤتمر برلين عام ١٢٩٦ هـ (١٨٧٨ م). وهاجرت جماعات منهم مع هجرة السكان، ومنهم من يقيم في قري البويضان، وبلي في سورية. وتبلغ نسبة المسلمين في هذه المنطقة أكثر من ٥٠٪ بقليل إذ غزاها الروس بشكل واسع.

رابعاً - أذربيجان :

أما في أذربيجان فلم يحرص الروس على تحويل المسلمين إلى سلاف الأمر الذي أبقى هؤلاء المسلمين تحت النفوذ الديني للعثمانيين والإيرانيين سواء من الناحية السياسية أم الناحية الثقافية.

وتأسس في مدينة باكو عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) حزب همة (الإدارة)، وكان ماركسياً، وبرز عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) وعمل سراً من عام ١٣٢٥-١٣٣٥. وتأسس حزب المساواة عام ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) في مدينة غاندجا (كيروفباد)

ثم نقل مقره إلى باكو، ثم أصبح يتكلم باسم العنصرية الأذربيجانية، ونشأ حزب العدالة في مدينة باكو أيضاً، وكان جل أعضاءه من الإيرانيين، وهو الذي أصبح فيما بعد الحزب الشيوعي الإيراني.

كان الشيوعيون أقلية في أذربيجان فلم يحاولوا السيطرة على المنطقة عندما قامت الثورة الشيوعية، وفي شهر جمادي الأول من عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٨ م) نجحوا في ثورتهم في أذربيجان بمساعدة الاشتراكيين الثوريين، والفرق العسكري الأرمينية لحزب طاشناق، ومقاتلي حزب همه، وتآلفت كومونة باكو السوفيتية، وبعد ثلاثة أيام من المعارك قتل فيها ثلاثة آلاف مسلم، هرب قادة حزب المساواة إلى مدينة (غاندجا)، وشكلوا هناك حكومة ضد حكومة كومونة باكو السوفيتية، وأطلق عليها اسم (مجلس أذربيجان الوطني).

وفي شهر شوال من عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٨ م) سقطت حكومة باكو السوفيتية بعد أن اتفق ضدها أنصارها بالأمس الاشتراكيون، والطاشناق الأرمن، ولم يشترك المسلمون في هذا الانقلاب.

وفي شهر ذي الحجة من العام نفسه دخلت قوات من الجيش التركي أذربيجان، واحتلت مدينة باكو، وتبعته قوات حكومة مجلس أذربيجان الوطني في (غاندجا)، وحدثت مجازر في صفوف الأرمن، ثم انسحبت القوات التركية، وبقيت حكومة حزب المساواة في السلطة، وجاء الانكليز من جهة إيران ودخلوا أذربيجان، ثم عادوا فانسحبوا عام ١٣٣٧ هـ (١٩١٨ م)، وبقيت أذربيجان حكومة مستقلة مايزيد على سبعة أشهر، حيث احتل الجيش الأحمر البلاد وحكم الحزب الشيوعي الأذربيجاني، وهو الوريث لحزب همه. وتأسست جمهورية أذربيجان السوفيتية في ٥ شعبان ١٣٣٨ (٢٨ نيسان ١٩٢٠)، وتبلغ مساحتها ٨٦٦٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ٦٠٢٨٠٠٠ نسمة حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) بينهم ٥٠١٧٠٠٠ مسلم، فتبلغ بذلك نسبة المسلمين ٨٣٪ من السكان وهم من:

الأذربيجان	وتبلغ نسبتهم	٧٨٪	من السكان.
الداغستان	وتبلغ نسبتهم	٣٤٪	من السكان.
التالش	وتبلغ نسبتهم	١٠٪	من السكان.

التتار مجموعات أخرى	وتبلغ نسبتهم ٥٠ ٪	من السكان.
	٨٣٣ ٪	

أما النصارى فتبلغ نسبته ١٦٢ ٪ من السكان، وهم من:		
الروس	وتبلغ نسبتهم	٧٩ ٪ من السكان، وعددهم ٤٧٥٠٠٠ نسمة
والارمن	وتبلغ نسبتهم	٧٩ ٪ من السكان وعددهم ٤٧٥٠٠٠ نسمة.
والاوكرانيون	وتبلغ نسبتهم	٤٠ ٪ من السكان وعددهم ٢٦٠٠٠٠ نسمة.
	١٦٢ ٪	٩٧٦٠٠٠ نسمة

ويوجد عدد من اليهود تبلغ نسبتهم ٥٠ ٪ من السكان وعددهم ٣٥٠٠٠ نسمة.

ويمثل الشيعة ٧٠ ٪ من المسلمين، وأكثرهم يقيم في الجنوب، ويمثل أهل السنة ٣٠ ٪ ومعظمهم يقطن الشمال. كما يوجد أعداد من البهائيين، واليزيديين (عبد الشيطان) ويسكن الأوائل منهم في مدن باكو، وكوبا.

١ - جمهورية ناختشيفيان :

وهي ذات استقلال ذاتي، وترتبط بأذربيجان، رغم وجود مناطق أرمنية بين الجمهوريتين، وتقع على حدود إيران وتركيا، وتبلغ مساحتها ٥٥٠٠ كيلو متر مربع. ويبلغ عدد سكانها ٢٤٠٤٥٩ نسمة حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، ويتوزع السكان على المجموعات التالية:

الأذربيجانيون وعددهم	٢٢٩٩٦٨	نسمة ويشكلون نسبة ٩٥٦ ٪	من السكان ومعظم شيعة
الروس وعددهم	٣٨٠٧	نسمة ويشكلون نسبة ١٦ ٪	من السكان وهم نصارى
الارمن وعددهم	٣٤٠٦	نسمة ويشكلون نسبة ٤٨ ٪	من السكان وهم نصارى
مجموعات ثانية وعددهم	٢٢٧٨	نسمة ويشكلون نسبة ١٤ ٪	من السكان من مسلمين ونصارى
	٢٤٠٤٥٩	١٠٠ ٪	

وتتبع جمهورية أذربيجان الاتحادية منطقة (قرة باخ) ذات الحكم الذاتي. وهي وسط أذربيجان، وتبلغ مساحتها ٤٤٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ١٦٢١٨١ حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ. ويتوزع السكان على المجموعات التالية:

الأذربيجانيون ويبلغ عددهم ٣٧٢٦٤	نسمة ويشكلون نسبة ٢٣.٠٪ من السكان
الروس ويبلغ عددهم ١٢٦٥	نسمة ويشكلون نسبة ٠.٨٪ من السكان
الأرمن ويبلغ عددهم ١٢٣٠٧٦	نسمة ويشكلون نسبة ٧.٩٪ من السكان
مجموعات ثانية ويبلغ عددهم ٥٧٦	نسمة ويشكلون نسبة ٠.٣٪ من السكان

١٠٠٪.

١٦٢١٨١

ويعيش في منطقة (قرة باخ) عشرون ألفاً من الذين يؤهلون علماً.

وجهورية أذربيجان جمهورية اتحادية عاصمتها مدينة (باكو) التي عدد سكانها ١٠٠٠٠٠٠٠ نسمة حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ. ويتكلم السكان اللغة الأزرية التي تعود إلى أصول تركية.

خامسا - قازاقستان :

أما في قازاقستان فلم تشجع الحكومة الروسية هجرة الروس إلى تلك الجهات، كما لم تتدخل في حياة القبائل القازاقية، بل تركتهم على عاداتهم، وأعفتهم من الخدمة العسكرية الإلزامية حتى بداية القرن الرابع عشر، وفي عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م) سمحت للروس والأوكرانيين بالاستيطان في بلاد القازاق فسارت جموع إلى تلك الجهات، وأخذت أفضل الأراضي، وقد وصل عدد المستوطنين من النصارى الأرثوذكس إلى مليون مستوطن قبيل الحرب العالمية الأولى، وهذا مادعا القازاق إلى القيام برد الفعل ومناهضة الروس والانضمام إلى العنصر الإسلامي.

وفي عام ١٣٣٠ هـ (١٩١١ م) تشكل حزب (الأش أوردا)، وهو غير مبال بالإسلام، ويحمل أفكار الوحدة الروس، ويطالب بإيقاف الروس في المنطقة.

كما تأسس حزب القبائل الثلاث (أوش جوز)، ويدعو إلى الوحدة الإسلامية، ويعادي الروس، ويناهض حزب (الأش أوردا)، وكانت قوته في منطقة (سيحون)، ومع أنه انحرف عن خطه الرئيسي إذ بدأ يتجه إلى المطالبة بالتغييرات

الجدرية لكنه بقي يحمل فكرة الوحدة الإسلامية، ويعادي الروس والتتار على حد سواء وفي النهاية انتسب قادته إلى الحزب الشيوعي.

وفي عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م) انفجرت ثورة القبائل ضد تجاوزات المستوطنين الروس، فأخذت هذه الثورة بوحشية، وأبيدت بعض القبائل، وفرت قبائل أخرى إلى الصين. واضطر حزب «الاش أورد» الذي كان متعاطفاً مع الروس أن يغير من خطته، وأن يحمل من جديد فكرة طرد الروس من البلاد. وبعد ثورة فصل الربيع من عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٦ م) وجدت جمهورية قازاقستان ذات الاستقلال الذاتي، وأوكلت هذه الجمهورية إلى حزب (الاش أورد) مسؤولية إدارة المنطقتين الوسطى والشرقية من قازاقستان. وعندما قامت الثورة الشيوعية مع أول يوم من عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م) كان في قازاقستان جمهورية ذات استقلال ذاتي. وسيطر حزب (الاش أورد) الميال إلى الاشتراكية، والمنادي بالحرية، والمعادي للشيوعية على بلاد القازاق كلها. وفي ربيع الأول بدأ قادته في الالتحاق بالقوة المعادية للشيوعية المتمثلة بالقوزاق، والباشكير، وأعلنوا استقلال بلادهم، ولاتساع بلادهم فقد ألفوا حكومتين إحداهما في المنطقة الغربية، والثانية في المنطقة الشرقية.

وفي منتصف عام ١٣٣٨ هـ (١٩١٩ م) انسحب القازاق من قتال الشيوعيين لأن الأميرال (كولتشاك) قد تسلم الأمر وهو عدو القوميات، كما أنه يدعو إلى وحدة الروس، ثم خضعوا للقوة البلشفية، واعترفوا بالحكم السوفيتي، وتشكلت لجنة ثورية قازاقية نصف أعضائها من حزب (الاش أورد) والنصف الآخر من مندوبي السوفييت، وقبل أعضاء الحزب في الحزب الشيوعي، وبقوا عشر سنوات في السلطة ثم طردوا، وتسلم الشيوعيون على الحكم، وعلى الشعب، وفي سياسة التحضير التي اتبعها الشيوعيون ذهب نصف الشعب القازاقي في منتصف القرن الرابع عشر الهجري.

وتشكلت جمهورية قازاقستان يوم عيد الأضحى من عام ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م) وتبلغ مساحتها ٢٧١٧٣٠٠ كم^٢، وكانت عاصمتها (قيزي أورد)، ثم أصبحت مدينة (الماسا) منذ عام ١٣٤٨ (١٩٣٠ م)، وقد بلغ عدد سكانها عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) حوالي ٩١٤٠٠٠ نسمة، بينما بلغ عدد سكان الجمهورية

في العام نفسه ١٤٦٨٤٠٠٠ نسمة، وهم يتوزعون حسب المجموعات على النحو التالي:

القازاق	٥,٢٨٩,٠٠٠	ويشكلون	٣٦,٠ %
التتار	٠,٣١٣,٠٠٠	ويشكلون	٠٢,١ %
الأوزبك	٠,٢٦٣,٠٠٠	ويشكلون	٠١,٨ %
الأويغور	٠,١٤٨,٠٠٠	ويشكلون	٠١,٠ %
أذربيجان	٠,٠٧٣,٠٠٠	ويشكلون	٠,٥ %
	٦,٠٨٦,٠٠٠		٤١,٤ %

وهؤلاء جميعهم من المسلمين، ويسكنون الريف بالدرجة الأولى، ثم هناك المجموعات التالية:

الروس	٥٩٩١,٠٠٠	ويشكلون	٤٠,٨ %
أوكرانيون	٠,٩٩٨,٠٠٠	ويشكلون	٠٦,١ %
روس بيض	٠,١٨١,٠٠٠	ويشكلون	٠١,١ %
كوريون	٠,٠٩٢,٠٠٠	ويشكلون	٠,٦ %
	٧,١٦٢,٠٠٠		٥٨,٦ %

وهؤلاء من النصارى، ويقيمون في المدن غالباً، وهم غرباء عن البلاد، ومستعمرون لها، ويتكلم القازاق لغة قازاقية تعود إلى المجموعة التركية.

سادسا - آسيا الوسطى :

وضع الروس المنطقة تحت إشراف إدارة عسكرية تخضع لها حكومة عموم تركستان، على حين بقيت إمارة بخارى، وخانية خيوة تتمتعان باستقلال ذاتي، وأغفوا السكان من الخدمة العسكرية الإلزامية، وتركوهم يخضعون لتشريعاتهم وقوانينهم الخاصة. كما حاولوا عدم صهر السكان بالمجتمع الروسي، وعملوا على عزل تركستان وحمايتها من تأثير تثار الفولغا. وكان وضع المنطقة يبدو عليه صفة

الاستعمار من حيث التمييز ومحاولة استغلال السكان وأرضهم دون تقديم أية خدمات لهم، ولذا فقد بقي أصحاب النفوذ محافظين على عاداتهم وتقاليدهم، وكرههم للروس، وتمسكهم بالإسلام.

وتأسس في طاشقند عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٧ م) حزب الشورى الإسلامية، ويدعو إلى الإسلام والانفصال عن روسيا، كما كان حزب الشباب البخاريين منذ عام ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) ويدعو إلى كره الروس وأمير بخارى الذي يرضى بحماية الروس، ويقتصر نشاط هذا الحزب على إمارة بخارى.

كانت الأحزاب ضعيفة التنظيم ولكنها مرتبطة بالإسلام على حين كانت برامجها الاجتماعية اشتراكية، الأمر الذي يدل على عدم الوعي الكامل بالإسلام.

وعندما قامت الثورة الشيوعية مع مطلع عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م) سيطر الشيوعيون على الحكم في طاشقند، وساعدهم في ذلك المستوطنون الروس جميعاً بصفتهم نصارى، فهم ضد المسلمين الذي يؤلفون غالبية سكان تركستان، وأبعد المسلمون نهائياً عن السلطة، وبعد شهر واحد عقد المسلمون مجلساً شعبياً في (خوقند)، وأعلنوا استقلال تركستان بيننا بقيت طاشقند بيد الشيوعيين، وبعد أقل من ثلاثة أشهر تمكن الشيوعيون من دخول خوقند، فهدموا، وعملوا بأهلها قتلاً، وبعد شهر آخر شن الشيوعيون هجوماً على أمير بخارى، ولكنهم فشلوا في هجومهم هذا رغم دعم حزب الشباب البخاريين لهم.

وحدثت حركة في وادي فرغانة، وانضم إليها أنور باشا، وزير خارجية تركية السابق، و(زكي والدي طوقان) أحد زعماء باشكيريا، ولقيت هذه الحركة دعماً من قبائل القيرغيز، والأوزبك، والتركمان، وعرفت هذه الحركة باسم البصمجية، وهو اسم أطلقتة الروس على هؤلاء المسلمين، ويعني اللصوص، واستطاع الجيش الأحمر دخول مدينة بخارى في مطلع عام ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م) وقضى على الحركة بعد عامين، قوهتل أنور باشا يوم عيد الأضحى عام ١٣٤٠.

وقسم الروس المنطقة إلى الجمهوريات التالية:

١ - جمهورية أوزبكستان:

وتأسست في مطلع ربيع الأول عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م)، ثم ضمت إليها

بخارى، وخوارزم، وفصلت عنها بلاد الطاجيك، وألحقت بها جمهورية كاراكوليا. تبلغ مساحة هذه الجمهورية ٤٠٨٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ١٥٣٩١٠٠٠ نسمة حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، وعاصمتها مدينة طاشقند التي بلغ عدد سكانها ١٧٨٥٠٠٠ نسمة، وقد رابع مدينة سكاناً في الامبراطورية كلها بعد موسكو، ونيغراد، وكيف.

ويتألف السكان من المجموعات التالية:

الأوزبك	ويبلغ عددهم ١٠٥٦٩٠٠٠ ويشكلون نسبة ٦٨٫٧٪ من السكان.
التتار	ويبلغ عددهم ٦٤٩٠٠٠ ويشكلون نسبة ٤٫٣٪ من السكان.
القالزاق	ويبلغ عددهم ٦٢٠٠٠٠ ويشكلون نسبة ٤٫٠٪ من السكان.
الطاجيك	ويبلغ عددهم ٩٥٠٠٠٠ ويشكلون نسبة ٣٫٩٪ من السكان.
الكاراكوليا	ويبلغ عددهم ٢٩٨٠٠٠ ويشكلون نسبة ١٫٩٪ من السكان.
القرغيز	ويبلغ عددهم ١٤٢٠٠٠ ويشكلون نسبة ١٫٩٪ من السكان.
التركيمن	ويبلغ عددهم ٩٢٠٠٠٠ ويشكلون نسبة ٠٫٦٪ من السكان.
مجموعات أخرى	ويبلغ عددهم ٣٨١٠٠٠ ويشكلون نسبة ٠٫٢٪ من السكان.

٨٦٫٨٪

١٣٥٢٦٠٠٠

وهم من المسلمين السنة، وتوجد بينهم مجموعة من الشيعة، يقدر عددها بمائة ألف، ويعيش أتباعها في كل من سمرقند، وطاشقند، وبخارى. ويقيم الأوزبك عادة في الريف.

أما الباقي فهم من المستعمرين النصارى إضافة إلى الكوريين، ويقيمون عادة في المدن ويتوزعون كما يلي:

الروس	ويبلغ عددهم ١٦٦٦٠٠٠ ويشكلون نسبة ١٠٫٨٪ من السكان
الأوكرانيون	ويبلغ عددهم ١٦٣٠٠٠ ويشكلون نسبة ١٫١٪ من السكان
الكوريون	ويبلغ عددهم ١١٤٠٠٠ ويشكلون نسبة ٠٫٧٪ من السكان.
	١٢٫٦٪
	١٩٤٣٠٠٠

ثم يوجد اليهود ويبلغ عددهم ١٠٠٠٠٠ ويشكلون نسبة ٠٫٦٪.

ويتكلم الأوزبك اللغة الأوزبكية، وهي من المجموعة التركية، وكانت تكتب بالحرف العربي، ثم استبدل به الحرف اللاتيني عام ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨ م).

وتتبع أوزبكستان جمهورية (كاراكولباكيا) ذات الاستقلال الذاتي والتي تبلغ مساحتها ١٦٥٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) ما يقدر بمليون تقريباً (٩٠٥٠٠٠)، ويشكل المسلمون بينهم ٩٥٪، بينما يشكل الروس ٢٣، وعاصمتها مدينة (نوخوس) التي تقع على نهر جيحون عند بداية تفرعه قبل مصبه في بحيرة خوارزم.

٢ - جمهورية طاجيكستان :

وتأسست في ١٢ ربيع الأول عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م)، ثم أضيف إليها قسم من هضبة بامير، وهو إقليم (باداخشان) ذو الحكم الذاتي. تبلغ مساحة الجمهورية ١٤٣٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ٣٨٠٦٠٠٠ حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، وعاصمتها مدينة (دوشامبي) التي بلغ عدد سكانها في العام نفسه ٤٩٣٠٠٠، ويتألف سكان الجمهورية من المجموعات التالية :

الطاجيك	ويبلغ عددهم ٢٢٣٧٠٠٠ ويشكلون نسبة ٥٨٫٥٪ من السكان
الأوزبك	ويبلغ عددهم ٨٧٣٠٠٠ ويشكلون نسبة ٢٣٫٠٪ من السكان
التتار	ويبلغ عددهم ٨٠٠٠٠ ويشكلون نسبة ٢٫٢٪ من السكان
القرغيز	ويبلغ عددهم ٤٨٠٠٠ ويشكلون نسبة ١٫٢٪ من السكان
التركيان	ويبلغ عددهم ١٤٠٠٠ ويشكلون نسبة ٣٫٠٪ من السكان
	٣٢٥٢٠٠٠
	٨٤٫٢٪

وهم من المسلمين السنة، وتوجد جماعات من الشيعة أكثرها من عنصر الطاجيك، ويكثرون في العاصمة (دوشامبي)، وبعض المدن، كما توجد جماعة من الإسماعيلية النزارية من أتباع آغا خان، ويسكنون إقليم (باداخشان) في بامير.

أما النصارى فهم المستعمرون الدخلاء وهم:	
الروس	وبلغ عددهم ٣٩٥٠٠٠ ويشكلون نسبة ١٠.٥٪ من السكان
الأوكرانيون	وبلغ عددهم ٣٦٠٠٠ ويشكلون نسبة ١٠٪ من السكان
	٤٣١٠٠٠
	١١.٥٪

ويوجد عدد من اليهود يبلغ عددهم ١٥٠٠٠ ويشكلون نسبة ٠.٤٪ من السكان.

أما اللغة الطاجيكية فهي فارسية، وكانت بالحرف العربي حتى عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م)، وبعدها أصبحت تكتب بالحرف الكيريلي. ولكن شعوب البامير يتكلمون لغة إيرانية.

ويتبع طاجستان منطقة باداخشان ذات الحكم الذاتي، وتبلغ مساحتها ٦٣٧٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ١٢٧٠٠٠ حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، ويتألف السكان من المجموعات التالية:

١١٥٠٠٠ من الطاجيك، و٨٥٠٠ من القيرغيز، و١٧٨٠ من الروس، وفيها الإسماعيليون النزاریون.

٣ - جمهورية قيرغيزيا :

وأصبحت جمهورية اتحادية منذ عام ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م)، وكانت من قبل جزءاً من جمهورية روسيا الاتحادية أي مرتبطة بموسكو، ثم منطقة ذات حكم ذاتي، تبلغ مساحتها ١٩٧٠٠٠ كيلومتر مربع ويبلغ عدد سكانها ٣٥٢٩٠٠٠ نسمة حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)، ويتألف السكان من المجموعات التالية:

القيرغيز	وبلغ عددهم ١٦٨٧٠٠٠ ويشكلون نسبة ٤٧.٩٪ من السكان
الأوزبك	وبلغ عددهم ٩١٢٠٠٠ ويشكلون نسبة ٢٥.٩٪ من السكان
التتار	وبلغ عددهم ٧٢٠٠٠ ويشكلون نسبة ٢.٠٪ من السكان
الأويغور	وبلغ عددهم ٣٠٠٠٠ ويشكلون نسبة ٠.٨٪ من السكان

القازاق	ويبلغ عددهم ٢٧٠٠٠	ويشكلون نسبة ٠٨٪ من السكان
الطاجيك	ويبلغ عددهم ٢٣٠٠٠	ويشكلون نسبة ٠٧٪ من السكان
		٢٧٢٨٠٠٠
		٧٧٤٪ من السكان

أما النصارى وهم من المستعمرين الدخلاء وهم:

الروس	ويبلغ عددهم ٧١٢٠٠٠	ويشكلون نسبة ٢٠٣٪ من السكان
الأوكرانيون	ويبلغ عددهم ٨٩٠٠٠	ويشكلون نسبة ٢٠٣٪ من السكان.

٨٠١٠٠٠

وعاصمة البلاد هي مدينة (فرونزي).

٤ - جمهورية تركمانستان :

ينتمي التركمان الى قبيلة الأوغوز التركية، وهم شعب محارب، قاتلوا دولة ايران الشيعية مدة قرن من الزمن، ووقفوا في وجه خانية خوارزم، وصارعوا الروس ودمروهم في قلعة (كوب تيب) عام ١٢٩٧ هـ (١٨٩٧ م)، وبعد هزيمتهم أمام الروس تعرضوا لمجازر رهيبة عام ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م).

اشترك التركمان في حركة الصمجية ١٣٣٥-١٣٤٠ هـ (١٩١٧-١٩٢٢ م)، وتمردوا هم ضد الروس من ١٣٤٥-١٣٥٠ هـ (١٩٢٧-١٩٣٢ م). ويشترك التركمان في طريقة عيش واحدة، وكلمة مسلم تستعمل عندهم للدلالة عليهم، فهناك مزج بين الدين والعنصر.

وتتألف الامبراطورية الروسية من أربع عشرة جمهورية اتحادية، ست منها إسلامية وهي:

١- أذربيجان	ومساحتها ٨٦٠٠٠ كم ^٢	وعدد سكانها ٢٨٠٠٠
٢- قازاقستان	ومساحتها ٢٧١٧٣٠٠	وعدد سكانها ١٤٦٨٤٠٠٠
٣- أوزبكستان	ومساحتها ٤٠٨٠٠٠	وعدد سكانها ٣٩١٠٠٠
٤- طاجيكستان	ومساحتها ١٤٣٠٠٠	وعدد سكانها ٣٨٠٦٠٠٠

٥- قيرغيزيا	ومساحتها ٠١٩٧ر٠٠٠	وعدد سكانها ٣ر٥٢٩ر٠٠٠
٦- تركمانستان	ومساحتها ٠٤٤٥ر٠٠٠	وعدد سكانها ١ر٥٠٠ر٠٠٠
	٣ر٩٩٦ر٩٠٠	٤٤٩٣٨ر٠٠٠

كما يوجد في الامبراطورية الروسية عشرون جمهورية ذات استقلال ذاتي، أربع عشرة منها مسلمة وهي:

١- باشكيريا	ومساحتها ١٤٣ر٥٠٠ كم ^٢	وعدد سكانها ٣ر٩٢٤ر٠٠٠
٢- تاتاريا	ومساحتها ٠٦٨ر٠٠٠	وعدد سكانها ٣ر٤٣٦ر٠٠٠
٣- جوفاشيا	ومساحتها ٠١٨ر٠٠٠	وعدد سكانها ١ر٥٠٠ر٠٠٠
٤- موردوفيا	ومساحتها ٠٢٦٥ر٠٠٠	وعدد سكانها ١ر٢٥٠ر٠٠٠
٥- أدمورتيا	ومساحتها ٠٤٢ر١٠٠	وعدد سكانها ١ر٠٠٠ر٠٠٠
٦- ماريا	ومساحتها ٠٢٣ر٨٠٠	وعدد سكانها ١ر٧٥٠ر٠٠٠
٧- داغستان	ومساحتها ٠٥٠ر٣٠٠	وعدد سكانها ١ر٦٢٧ر٠٠٠
٨- شاشان انغوشيا	ومساحتها ٠١٩ر٣٠٠	وعدد سكانها ١ر١٥٥ر٠٠٠
٩- كبادريا بلكاريا	ومساحتها ٠١٢ر٥٠٠	وعدد سكانها ١ر٦٧٥ر٠٠٠
١٠- أوستينيا الشمالية	ومساحتها ٠٠٨ر٠٠٠	وعدد سكانها ٠ر٥٩٧ر٠٠٠
	٤١٠ر٥٠٠	١٤٩١٤ر٠٠٠

وترتبط هذه كلها بموسكو عاصمة جمهورية روسيا الاتحادية.

١١- ابخازيا	ومساحتها ٨ر٦٠٠ كم ^٢	وعدد سكانها ٤٨٦ر٩٠٠
١٢- آجاريا	ومساحتها ٣ر٠٠٠	وعدد سكانها ٣٠٠ر٠٠٠
	١١ر٦٠٠	٧٨٦ر٩٠٠

وترتبط هذه بتفليس عاصمة جمهورية جورجيا الاتحادية:

١٣- كاراكولبايا	ومساحتها ١٦٥٠٠٠ كم ^٢ وعدد سكانها ٩٠٥٠٠٠
١٤- ناختشيفيان	ومساحتها ٥٥٠٠٠ وعدد سكانها ٢٤٠٠٤٥٩
	<hr/>
	١٧٠٥٠٠
	<hr/>
	١١٤٥٩٤٥٩

وترتبط الأولى بطاشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان الاتحادية، وترتبط الثانية بياكو عاصمة جمهورية أذربيجان الاتحادية.

ويوجد في الامبراطورية الروسية عدد من المقاطعات ذات الحكم الذاتي، خمس منها سلمة وهي:

- ١- القرم ومساحتها ٢٦٠١٥٠ كم^٢ وعدد سكانها ٢١٣٥٩١٦ وترتبط بكيف عاصمة جمهورية أوكرانيا الاتحادية.
- ٢- الأديغة ومساحتها ٧٦٠٠ كم^٢ وعدد سكانها ٤٠٤٠٠٠
- ٣- كاراتشاي الشركسية ومساحتها ١٤١٠٠ كم^٢ وعدد سكانها ٣٦٩٠٠٠ وترتبطان بموسكو عاصمة جمهورية روسيا الاتحادية.
- ٤- قرة باخ ومساحتها ٤٤٠٠ كم^٢ وعدد سكانها ١٦٢١٨١
- ٥- باداخشان ومساحتها ٦٣٧٠٠ كم^٢ وعدد سكانها ١٢٧٠٠٠ وترتبط بياكو عاصمة جمهورية أذربيجان الاتحادية.
- وترتبط بدوشامبي عاصمة جمهورية طاجيكستان الاتحادية:

<hr/>	<hr/>
٣١٩٨٠٩٧	١١٥٩٥٠

وبذا تبلغ مساحة الأرض الإسلامية في الامبراطورية الروسية كما يلي:

جمهوريات اتحادية.	كيلومتر مربع	٣٩٩٦٩٠٠٠
جمهوريات ذات استقلال ذاتي.	كيلومتر مربع	٥٩٢٦٠٠
مناطق ذات حكم ذاتي.	كيلومتر مربع	١١٥٩٥٠

٤٥٠٠٧٠٤ كيلومتر مربع، وهذا مايعادل خمس مساحة الامبراطورية الروسية

كاملة والتي تصل إلى ٢٢٤٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع، منها ما يقرب من خمسة ملايين كيلومتر مربع أرض روسية والباقي مستعمرات.

وتقدم الأرض الإسلامية للامبراطورية الروسية معظم نفطها، وغالبية قطنها، وأكثرية النحاس، والرصاص، والتوتياء، والكروم، والثروة الحيوانية، وكميات كبيرة من الحديد والفحم.

أما بالنسبة إلى السكان فقد بلغ عدد سكان المنطقة الإسلامية حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) كما يأتي:

سكان الجمهوريات الاتحادية.	٤٤٩٣٨٠٠٠
سكان الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي.	١٦٨٤٦٣٥٩
سكان المقاطعات ذات الحكم الذاتي.	٣١٩٨٠٩٧

المجموع ٦٤٩٨٢٤٥٦

وهذا يعني أن سكان المناطق الإسلامية في الامبراطورية يعادل ٢٥٪ من مجموع السكان البالغ عددهم حسب إحصاء العام نفسه ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) ٢٦٢٠٨٥٠٠٠ نسمة، ولكن ليس جميع سكان هذه المناطق هم من المسلمين، وإنما تبلغ هذه النسبة حوالي ٧٠٪ وبذا يكون عدد ليس جميع سكان هذه المناطق هم من المسلمين، وإنما تبلغ هذه النسبة حوالي ٧٠٪ وبذا يكون عدد المسلمين نحو ٤٢ مليون نسمة، وتختلف النسبة بين منطقة وأخرى، فلا تزيد على ٥٥٪ في التتار حيث يغزو الروس هذه المنطقة، ويريدون ترويسها، كذلك يكثرون فيها لغناها الزراعي والمعدني، وتنخفض النسبة أيضا في بلاد القرم حيث شرد التتار جميعاً منها وعددهم ٢٣٨٠٠٠، وقطنها الروس من بعدهم، وليس فيها من التتار سوي ١٥٠٧٨ نسمة. وتصل النسبة إلى ٨٥٣٪ في بلاد الداغستان، و ٦٥٥٪ في بلاد الشاشان - أنغوش، ثم تعود فتتخفض في أوستينيا الشمالية، وكبارديا - بلكاريا، وفي بلاد الأبخاز والأجار حيث لا تزيد على ٥٥٪ وذلك لغزو الروس لهذه لمناطق، والحال نفسها في مناطق الأديغة، والكاراتشاي الشركسية. وتعود لترتفع في أذربيجان إلى ٨٣٣٪، وتصل في جمهورية ناتشيفيان إلى ٩٥٦٪.

وتنخفض في بلاد القازاق إلى ٤١٪ لغزو الروس لغني هذه الجمهورية بالنحاس والثروات المعدنية الأخرى. أما في آسيا الوسطى فهي في أوزبكستان ٨٦٪، وفي طاجيكستان ٨٤٪، وفي تركمانستان ٨٦٪، وفي قيرغيزيا ٧٧٪.

ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء المسلمين أعداداً أخرى موزعة في أرجاء الامبراطورية الروسية، ومعظمهم من التتار والأتراك، وأهم مناطق هذا التوزيع هي:

سيبيريا وفيها ٢٠٠.٠٠٠	موسكو وفيها ١٥٠.٠٠٠
بارايا وفيها ١٠٠.٠٠٠	ليننغراد وفيها ٦٠.٠٠٠
استراخان وفيها ١٠٠.٠٠٠	أورينورغ وفيها ١٦٠.٠٠٠
كيروف وفيها ١٠٠.٠٠٠	اليانوفسك وفيها ١٣٥.٠٠٠
ساراتوف وفيها ٥٠.٠٠٠	كوبيشيف وفيها ١٦٠.٠٠٠
أومسك وفيها ٥٠.٠٠٠	غوركي وفيها ٧٠.٠٠٠
بنزا وفيها ٨٠.٠٠٠	كورغان وفيها ٢٥.٠٠٠
تيومن وفيها ١٤٠.٠٠٠	نوفوسيبيرسك وفيها ٣٠.٠٠٠
تشيليا بينسك وفيها ٢٢٠.٠٠٠	في حوض الدونتر وفيها ٩٠.٠٠٠
سفرولفسك وفيها ١٨٠.٠٠٠	أركانجلسك وفيها ٦٠.٠٠٠
ليتوانيا وفيها ٦٠.٠٠٠	مولدافيا وفيها ٢٥٠.٠٠٠

وبذا يصل عدد هؤلاء الموزعين إلى ٢٣٦٢.٠٠٠ نسمة، وبذا يقدر عدد المسلمين في الامبراطورية الروسية من سنة وأربعين مليوناً إذ أضفنا لهم المسلمين في جورجيا وأرمينيا الذين ستحدث عنهم بعد قليل. أي أنهم يشكلون ١٩٪ من سكان الامبراطورية، ولما كانت زيادتهم تفوق زيادة الروس فإنه يتوقع أن يتكاثروا في مدة قصيرة ويصبحوا ربع سكان الامبراطورية، مع العلم أن هذا كله اعتماداً على إحصاءات الروس وهي لا يوثق بها، ويتوقع أن يكون العدد اليوم مايزيد على حيث النسبة هذه النسبة.

المسلمون في جورجيا:

جورجيا جمهورية اتحادية تبلغ مساحتها ٧٠٠٠ كم^٢، ويقطنها مليوناً نسمة بينهم ١٢٪ من المسلمين، ويكون عددهم بذلك ٣٤٠٠٠ مسلم، وعاصمتها مدينة (اريفان).

يعيش بين هؤلاء المسلمين الذين يصل عددهم إلى ٤٦ مليون نسمة في لامبراطورية الروسية أربعة ملايين من الشيعة معظمهم في أذربيجان، والباقي أكثره في بلاد الأوزبك، والتركمان، والطاجيك، كما يعيش بينهم ٦٠-١٠٠ ألف من الاسماعيليين في إقليم باداخشان، و ٣٥ ألفاً من عبدة الشيطان في أرمينيا وهم من الأكراد، وما يقرب من العدد نفسه من البهائيين في باكوا، وعشق أباد، واستراخان، وجميع هؤلاء لا يصل عددهم إلى مائتي ألف. أما الباقي فكلهم من المسلمين السنة و٤ ملايين من الشيعة - كما ذكرنا -

يؤلف المسلمون في الامبراطورية الروسية ثلاثة وسبعين شعباً، وتعد آسيا الوسطى أكبر تجمع للمسلمين إذ يسكن فيها ٧٥٪ من مسلمي الامبراطورية.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وتقسيم بلاد المسلمين، واستقرار الوضع للشيوخين حدث بالنسبة إلى المسلمين الاجراءات التالية:

- ١٣٤٣ ألغيت المحاكمة الشرعية.
- ١٣٤٧ أغلقت المدارس الدينية.
- ١٣٤٩ حجزت الأوقاف الإسلامية.
- ١٣٥١ ملاحقة رجال الدين بتهمة الوقوف في وجه الثورة، ثم التجسس لحساب ألمانيا واليابان.

وأثناء الحرب العالمية الثانية أعلن الروس مهادنة المسلمين، وعندما انتهت الحرب اتهمت شعوب كاملة بالتعاون مع الألمان، فنفيت إلى مجاهل سيبيريا وآسيا الوسطى في ظروف رهيبة ومن هذه الشعوب - الشاشان، والبلكار، والكاراتشاي، وتار القرم.

وفي أيام خروتشوف ١٣٧٤-١٣٨٤ هـ (١٩٥٤-١٩٦٤ م) بدأت حرب جديدة ضد الدين، رغم السماح بعودة الشاشان، والبلكار، والكاراتشاي... إلا أن تار

القرم لا يزالون يهيمون على وجوههم في مجاهل سيبيريا. وبعد خروتشوف خف الهجوم على المسلمين، دون أن يتحسن الوضع أي بقي على ماكان عليه. وتوجد اليوم أربعة مراكز ادارية للمسلمين في طاشقند، وباكو، ومحج قلعة، أوبا.

حاضر المسلمين :

يمكن أن تساءل هل ترك المسلمون في الامبراطورية الروسية عقديتهم، وساروا في ركب الشيوعية بعد هذا الحكم الالحادي الطويل، والتخطيط المركز ضدهم، والترتية المعادية للأديان والموجهة خاصة ضد الإسلام، أم لا يزالون محافظين متمسكين بالإسلام.

الواقع أن المسلمين في الامبراطورية الروسية لا يمكن الحكم عليهم من خلال ممارسة شعائهم، ومن يعرف عنه التأدية يلقي الاضطهاد الكبير، ويفصل من عمله بتهمة الرجعية ومعاداة الثورة ومخالفة الأنظمة، وربما تكون نتيجة الموت ويمكن أن نستثنى من ذلك أفراد قلائل تجاوزت أعمارهم السبعين، إذ يعدون في حكم الذين انتهوا، أما الآخرون فالمراقبة عليهم شديدة.

وهناك أفراد يؤدون عبادتهم شكل سري تام بعيدين عن أعين السلطة، ويعرف هذا من الذين ارتحلوا إلى تلك الديار، ووثق بهم المسلمون هناك، وما تنشره الصحف الروسية نفسها بين الآونة والأخرى وتشير إلى ذلك، فقد نشرت جريدة البرفدا السوفيتية: «إن وفاة طالب الثانوي في الصف التاسع كشف النقاب عن وجود مدارس دينية إسلامية سرية في آسيا الوسطى، فقد توفي (دولية اصلانوف) بمرض في جمهورية طاجكستان بعد أن رفض مساعدة الطبيب قائلاً لا أريد مساعدة من ملحد فكل شيء بيد الله، ثم توفي وهو يشتم غير المؤمنين»، ومضت الصحيفة تقول: «إن المسؤولين الشيوعيين صدموا أمام هذا الموقف خصوصاً أن الشاب عضو في الكومسومول (رابطة الشباب الشيوعي)، وقالت الصحيفة: «ثم تبين أن اصلانوف العضو في (الكومسول) منذ بضع سنوات كان يحضر الدروس في المدرسة الثانوية الحكومية، ثم يحضر دروساً أخرى في مدرسة دينية إسلامية حيث يعتبر من أفضل الطلاب. وقد توجه أحد المحققين لإجلاء المدرسة السرية فانتهى إلى مقهى لتقديم الشاي في مزرعة (جدانوف) التعاونية حيث توجد أربعة صفوف من المراهقين يتعلمون هناك اللغة العربية والآيات القرآنية، ولكن

حين اقترب المحقق من المكان سمع صغيراً خفيفاً، فلما دخل وجد الطلاب يشربون الشاي وقد اختفت من بين أيديهم الكتب العربية وأجزاء القرآن»، وقالت الصحيفة: «إن أولاد المزرعة التي معظم سكانها من المسلمين كانوا يقضون عدة ساعات يومياً في تعلم القرآن». وختمت الصحيفة مقابلهما بما يلي: «وهكذا فإن الأيدي القذرة هؤلاء المشايخ المرشدين تتولى تكوين طباع الأطفال»^(١).

وعند المسلمين في الامبراطورية الروسية عاطفة شديدة نحو الإسلام لا يستطيعون إخفاءها وفي الوقت نفسه لا يتمكنون من إبدائها فلو سألت أحدهم عن الدين لأجابه أنه ملحد لكنه يردف ذلك بقوله إنه مسلم. وفي الإحصاءات الروسية الرسمية يعلنون أنهم ملحدون إلا أنهم يسجلون أنفسهم مسلمين، وهذا معناه أن أعداداً من المسلمين لا يسجلون أنفسهم مسلمين، وهذا معناه أن أعداداً من المسلمين لا يسجلون أنفسهم تغطية لهم، أولاً يرون فائدة، ولهذا كانت إحصاءات الروس عن المسلمين غير دقيقة بل تظهر أحياناً تناقصاً في أعدادهم لهذا السبب أو لأسباب أخرى. كما يبدو واضحاً أن قولهم ملحدين إن هي إلا تغطية وخوف من السف المصلت عليهم، وكلمة مسلم دلالة على العاطفة الدينية والاعتزاز بالاسلام، ثم رأينا كيف أن مفهوم الدين ارتبط بالعنصرية كي يذكر المرء عنصره وهو يريد أن يقول «مسلم».

كما يمكننا أن نتملس هذه العاطفة مما حدث في أفغانستان عندما نزل الجنود السوفيت فيها، إذ انضم المسلمون من هؤلاء الجند إلى إخوانهم المجاهدين الأفغان، حتى اضطهرت السلطات الروسية إلى إبدال قواتها هناك، وحرصت ألا يكون بين جنودها هناك مسلمون.

وربما يكون من أصلا ب هؤلاء الذين أذهم الحكم من يستطيع أن ينتصر لعقيدته، ويأتي اليوم الذي ينطلق فيه المسلمون مما فيه، ويكونون دولة تشد أزرها بالمسلمين في كل مكان.

كما يبدو أن العاطفة الإسلامية قد تأججت عندما النهارت الشيوعية ونحن نعيش في أول هذا الهين.

(١) جريدة الحياة عدد ٥٦٧٦ السبت ١٠ تشرين الأول ١٩٦٤، الحياة الاقتصادية.

١٤ - قبرص

قبرص أكبر جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقي، تبلغ مساحتها ٩٢٥١ كيلو متراً مربعاً، تبعد عن ساحل تركيا الجنوبي مسافة ٦٥ كيلو متراً، وعن الساحل الشامي ٩٠ كيلو متراً، وعن الساحل المصري ٤٠٠ كم، وعن بلاد اليونان ٩٠ كم.

يعدّها الغربيون من أوربا لربطها ببلاد اليونان النصرانية، ويسير على هذا من ينقل عنهم دون معرفة بالهدف الخبيث، ونعدها آسيوية لطبيعتها التي تشبه الأرض الشامية وتضاريسها تتمم لها، هذا إضافة إلى قربها وارتباطها التاريخي.

فتح المسلمون قبرص عام ٢٨ هـ وكان من بين المجاهدين من صحابة رسول الله ﷺ أبو ذر، وأبو الدرداء، وشداد بن أوس، وعبادة بن الصامت.

وفي أثناء الحملات الصليبية استولى ريتشارد قلب الأسد على قبرص وهو في طريقه إلى الشام، واتخذ من قبرص لمد الصليبيين بالمساعدات الحربية. وعندما اندحر الصليبيون من بلاد الشام انتقل بعضهم إلى قبرص واستقر فيها، كما انتقل معهم عدد من النصارى سكان البلاد الذين كانوا يؤيدون ويساعدونهم، ولا يزالون في قبرص إلى الآن، وهم الموارنة الذين يعيشون فيها، وبذا كانت هذه الجزيرة مقر تجمع القوى الصليبية، وأضحت شواطئها ملجأ للقراصنة يغيرون منها على السفن الإسلامية.

وفي أيام المماليك اضطرت قبرص أن تدفع الجزية لمصر. ثم احتلتها جيوش البندقية عام ٨٩٥ هـ (١٤٨٩ م)، وبقوا فيها حتى فتحها العثمانيون عام ٩٧٩ هـ (١٥٧١ م)، وبقوا فيها ثلاثة قرون فتوطد الإسلام في الجزيرة.

وعندما ضعف العثمانيون، وانطلق الانكليز يسطون نفوذهم، ويستعمرون مع الصليبيين الآخرين أمصار العالم الإسلامي، وينافسون أحياناً شركاءهم في الاستعمار، وكان مهمهم المحافظة على طريق الهند، لذا فقد أكرهوا السلطان العثماني على قبول احتلال انكلترا لجزيرة قبرص بعد عقد معاهدة التحالف

الدفاعي عام ١٢٩٦ هـ (١٨٧٨ م). وادعت انكلترا أن هذا الاحتلال مؤقت. كان أكثر سكان جزيرة قبرص يومذاك من المسلمين فعملت انكلترا على تشجيع النصارى من اليونان للهجرة إلى الجزيرة، وفي الوقت نفسه ضغطت على المسلمين للهجرة منها، واتخذت كل وسائل الإغراء لليونان، وجميع وسائل الإرهاب بالنسبة إلى المسلمين، وهذا ما جعل نسبة المسلمين في الجزيرة تنخفض. ثم ضمت انكلترا قبرص إلى ممتلكات التاج البريطاني، وأنهت إلحاق قبرص الإسمي بالدولة العثمانية، واضطرت تركيا أن تعترف بهذا رسمياً إثر هزيمتها في الحرب العالمية الأولى.

قامت في قبرص حركة (أينو) وتعني الاتحاد مع اليونان، ويرأس هذه الحركة الأساقفة في الجزيرة، وقامت هذه الحركة باغتيالات واسعة، الأمر الذي أدى إلى قيام حوادث دامية عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م).

كانت الجزيرة في أثناء الحرب العالمية الثانية قاعدة حربية للحلفاء، وامتلأت بالمتون والذخائر. وبعد الحرب طالب وفد قبرص بحق تقرير المصير، وبرز المطران مكاريوس الذي انتخب رئيساً لأساقفة الجزيرة، وبدأ يطالب بإجراء استفتاء لمعرفة آراء الشعب، وقد تم الاستفتاء عن طريق الكنيسة فقط عام ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م).

حاولت اليونان عرض قضية قبرص على الأمم المتحدة عام ١٣٧٠ هـ (١٩٥٠ م)، وحاول المطران مكاريوس، إلا أن الجهود قد فشلت فبدأت أعمال التخريب والاعتقال الأمر الذي أدى إلى عرض الموضوع على الأمم المتحدة عام ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤ م)، إلا أن النتائج لم تكن مرضية بالنسبة إلى اليونان، كما لم تتفق مع أهداف المطران، وفشل كذلك المؤتمر الثلاثي الذي عقد في لندن عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م).

بدأت الأسلحة تتدفق من اليونان إلى الجزيرة فقوي أمر النصارى فيها فلهجوا إلى أعمال العنف ضد المسلمين أولاً ثم ضد الانكليز الذين لايسرون حسب رأي اليونان مباشرة. وزاد من إشعال نار الاضطرابات القبض على قارب يوناني يفرغ الأسلحة في الجزيرة.

تخوت منظمة (الإيوكا) من متطرفي حركة (أينوسيس) أي الجبهة الوطنية لتحرير قبرص. وترأس قسم التنفيذ في منظمة إيوكا (غريفاس) وهو جنرال يوناني متقاعد وصل إلى الجزيرة عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣ م)، وبدأ يحضر لأعمال الإرهاب.

بدأت أعمال الإرهاب من جديد، وأبدت اليونان غضبها فقاطعت حلف البلقان، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ورفضت الاشتراك في مناورات الحلف الأطلسي، وهددت الغرب بالوقوف على الحياد.

نفت انكلترا المطران مكاريوس مع ثلاثة من أعوانه إلى جزيرة (سيشل) في المحيط الهندي لتسليط الأضواء عليه... عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م)، ولإعطاء فكرة للرأي العام العالمي أنها تقف على الحياد. واتخذت الجزيرة قاعدة للعدوان الثلاثي على مصر في ذلك العام.

عرضت قضية قبرص على الأمم المتحدة عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م)، ورفضت انكلترا مشروعاً تقدمت به الهند، وفي الوقت نفسه سمحت للمطران أن يعيش في أثينا بدلاً من المنفى في (سيشل) ليكون قريباً من منطقة الأحداث. وتتضارب الآراء حول القضية.

ترى تركيا أن أكثرية السكان الأصليين من الأتراك ففي عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ م) كان السكان كما يلي:

٦٠.٠٠٠	مسلم	يمثلون	٧٥٪.
٢٠.٠٠٠	نصراني	يمثلون	٢٥٪.

ولا ينظر إلى المهاجرين أو الذين يقيمون خفية، وظهروا فقط أيام الإحصاء الذي ليس فيه مايدل على صحته، وترى اليونان أن السكان في الجزيرة كما يلي:

١٠٤١٨٣	مسلم.
٤٤٨٠٤٣	نصرانيا

حسب إحصاء ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م).

ويخشى الأتراك على مستقبلهم، إذ أنه سيكون مصير ٨٩ ألف مسلم كانوا في جزيرة كريت - يوم ضمت إلى اليونان عام ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م) الاندثار، إذ اختفوا قبل مرور عشرة أعوام على ذلك الانضمام.

وترى تركيا استقلال الجزيرة إذ يمكن أن يتعايش الترك المسلمون واليونان

والنصارى دون تدخل أجنبي وإلا فالتقسيم، حيث يتمركز الأتراك في الجزء الشمالي من الجزيرة. أما اليونان فتصير على ضخم الجزيرة إليها. اشتعلت نار الفتنة مرة أخرى عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م).

وبعد مناورات واجتماعات تم الاتفاق على استقلال الجزيرة عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م) وينص الاتفاق على:

- ١ - يكون رئيس الدولة من الحالية اليونانية ونائبه من الحالية التركية، ويتخبان لمدة خمس سنوات، ولهما فقط حق رفض أي قانون.
- ٢ - يتألف مجلس الوزراء من عشرة أعضاء، سبعة منهم من اليونانيين، وثلاثة من الأتراك يعهد إلى أحدهم وزارة الدفاع، أو المالية، أو الخارجية. وتصدر القرارات بالأغلبية المطلقة.
- ٣ - ينتخب مجلس النواب لمدة خمس سنوات، وتنتخب كل جالية على انفراد بحيث يمثل اليونانيون ٧٠٪ من المجلس، والأتراك ٣٠٪، وتكون القرارات بالأغلبية المطلقة.
- ٤ - يتألف الجيش من عشرين ألف جندي ٦٠٪ من اليونانيين و ٤٠٪ من الأتراك.

٥ - تضم قوات الأمن ألفي جندي ٧٠٪ من اليونانيين، ٣٠٪ من الأتراك.

ويقوم تحالف عسكري بين تركيا واليونان وقبرص، وتستعيد فكرة انضمام قبرص مع أية دولة أخرى، كما تستبعد فكرة تقسيمها. واحتفظت انكلترا بقاعدتين لها في جنوبي الجزيرة.

حصل خلاف بين المطران مكاريوس وغريفاس . . . وكان مكاريوس قد نجح رئيساً للدولة الجديدة، وفاضل كوتشوك نائباً له.

وعادت الاضطرابات عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٢ م)، وحصل انقلاب على مكاريوس عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) وفر المطران من البلاد، وزاد أوار نار القتال، وأوشك زوال المسلمين فنزلت قوة تركية في الجزيرة واحتلت الجزء الشمالي الذي يتجمع فيه الأتراك.

يقدر عدد السكان في الجزيرة اليوم بحوالي ستمائة ألف يمثل النصارى بينهم حوالي ٧٨٫١٪ والمسلمون ٢٠٪، واليهود ١٫٩٪.

كتاب تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر (آسيا) الجزء الأول

المصادر والمراجع العربية

- ١- أحمد فخري، اليمن، ماضيها وحاضرها.
- ٢- أمين الريحاني، ملوك العرب.
- ٣- أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ثورات العرب في القرن العشرين، القاهرة، ١٩٧٤، تاريخ مصر السياسي.
- ٤- أحمد قدرى (الدكتور)، مذكرتى عن الثورة العربية.
- ٥- أحمد شلبي (الدكتور)، موسوعة التاريخ الإسلامي ص٤، ج٥، ج٦، ج٧، القاهرة، ١٩٧٧.
- ٦- السيد رجب حراز (الدكتور)، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، القاهرة، ١٩٧٠.
- ٧- السيد رجب حراز (الدكتور)، التوسع الايطالي في أفريقيا، القاهرة ١٩٦٨.
- ٨- السيد رجب حراز (الدكتور)، اريتريا، القاهرة، ١٩٧٤.
- ٩- السيد رجب حراز (الدكتور) تاريخ مصر الحديث، القاهرة، ١٩٧٤.
- ١٠- السيد رجب حراز (دكتور)، ومحمد انيس (دكتور)، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، ١٩٦٧.
- ١١- اسماعيل ياغي (الدكتور)، حركة رشيد عالي الكيلاني، بيروت ١٩٧٤.
- ١٢- اسماعيل ياغي (الدكتور)، تطور الحركة الوطنية العراقية، (١٩٤١-١٩٥٢)، بغداد، ١٩٧٩.
- ١٣- أنور الرفاعي وشاكر مصطفى العالم الحديث، دمشق، ١٩٥٠.
- ١٤- السيد مصطفى سالم (الدكتور)، الفتح العثماني الأول لليمن، القاهرة، ١٩٦٧.

- ١٥- السيد مصطفى سالم الدكتور، اليمن والامام يحيى، القاهرة، ١٩٧٠.
- ١٦- أحمد طربين (الدكتور)، فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار، القاهرة، ١٩٧٠.
- ١٧- أحمد طربين (الدكتور)، الوحدة العربية، دمشق، ١٩٧٤.
- ١٨- أحمد طربين الدكتور، متصرفية لبنان.
- ١٩- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الحديث.
- ٢٠- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، القاهرة، ١٩٧٧.
- ٢١- إحسان حقى، تونس العربية، بيروت.
- ٢٢- أحمد الساداتي، تاريخ الدول الإسلامية في آسيا، القاهرة، ١٩٧٧.
- ٢٣- جامع عمر الصومالي، تاريخ الصومال.
- ٢٤- جورج أنطونيوس، يقظة العرب، بيروت، ١٩٧٧.
- ٢٥- جمال حمدان (الدكتور)، أفريقية الجديدة.
- ٢٦- جمال حمدان (الدكتور)، العالم الاسلامي المعاصر.
- ٢٧- جمال زكريا قاسم (الدكتور)، الخليج العربي، القاهرة، ١٩٧٣.
- ٢٨- جمال زكريا قاسم (الدكتور)، عُمان، القاهرة، ١٩٧٧.
- ٢٩- جورج زيدان، تاريخ مصر الحديث.
- ٣٠- حسين مؤنس (الدكتور)، الشرق الإسلامي في العصر الحديث.
- ٣١- حسين جوهر، حسن مخلوف السودان.
- ٣٢- جلال يحيى (الدكتور)، تاريخ مصر الحديث، القاهرة، ١٩٨٠.
- ٣٣- جلال يحيى، المدخل إلى تاريخ العالم العربي، القاهرة، ١٩٦٦.
- ٣٥- جلال يحيى، السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، القاهرة، ١٩٥٩.
- ٣٦- خير الدين الزر كلى، شبه جزيرة العرب.
- ٣٧- ذوقان قرقوط، تطور الحركة الوطنية في سوريا، بيروت ١٩٧٥ دار الطليعة للطباعة والنشر.
- ٣٨- روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين.
- ٣٩- زاهر رياض (الدكتور)، استعمار إفريقيا.
- ٤٠- زاهر رياض، الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا.
- ٤١- زاهية قدورة (الدكتورة)، تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٧٣.

- ٤٢- ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية.
- ٤٣- سامي منصور، نيجيريا عملاق إفريقيا.
- ٤٤- شريف الدين بيرزادة، نشأة باكستان.
- ٤٥- صلاح العقاد (الدكتور)، المشرق العربي المعاصر، القاهرة، ١٩٧٠.
- ٤٦- صلاح العقاد، المغرب العربي، القاهرة، ١٩٦٢.
- ٤٧- صلاح العقاد، الخليج العربي، القاهرة، ١٩٥٦.
- ٤٨- صلاح العقاد، زنجبار، القاهرة، ١٩٦٦.
- ٤٩- صلاح المختار، تاريخ المملكة العربية السعودية.
- ٥٠- عبدالعزيز نوار (الدكتور)، تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٧٢.
- ٥١- عبدالعزيز نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت، ١٩٧٠.
- ٥٢- عبدالكريم غرايبة (الدكتور)، مقدمة تاريخ العرب الحديث، دمشق، ١٩٦٢.
- ٥٣- عبدالكريم غرايبة، إفريقيا العربية، دمشق، ١٩٦٦.
- ٥٤- عبدالرحمن النجار، الإسلام في الصومال.
- ٥٥- عبدالعزيز الشناوي (الدكتور)، الدولة العثمانية دولة إسلامية متري عليها، القاهرة، ١٩٨٠، جزءان.
- ٥٦- عبدالعزيز الشناوي، تاريخ العرب الحديث.
- ٥٧- عمر عبدالعزيز (الدكتور)، تاريخ العرب الحديث.
- ٥٨- عبدالرحمن زكي (الدكتور)، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقيا.
- ٥٩- عبدالرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا.
- ٦٠- عبدالفتاح أبو عليّة (الدكتور)، الدولة السعودية الثانية، الرياض، ١٩٧٠.
- ٦١- عبدالفتاح أبو عليّة، الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٩٧٥.
- ٦٢- علي الطنطاوي، أندونيسيا.
- ٦٣- عبدالرحمن الرافعي، الثورة العربية، القاهرة.
- ٦٤- عبدالرحمن الرافعي، مصطفى كامل، القاهرة.
- ٦٥- عبدالرحمن الجبرقي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة، ١٣٢٢ هـ.

- ٦٦- عبدالرحمن البزاز، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، بغداد، ١٩٦٧.
- ٦٧- عبدالعظيم محمد رمضان (الدكتور)، تطور الحركة الوطنية في مصر، بيروت، ١٩٨٠.
- ٦٨- عبدالله الفياض (الدكتور)، الثورة العراقية الكبرى، بغداد، ١٩٦٣.
- ٦٩- عبدالوهاب الكيالي (الدكتور)، تاريخ فلسطين الحديث، بيروت، ١٩٧٠.
- ٧٠- قدرى قلعجي، الخليج العربي، دار الكاتب العربي - بيروت ١٩٦٢.
- ٧١- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت ط ٤، ١٩٧٧.
- ٧٢- محمد أحمد أنيس (الدكتور)، الدولة العثمانية والمشرق العربي، القاهرة.
- ٧٣- محمد فؤاد شكرى (الدكتور)، الحملة الفرنسية على مصر وظهور محمد علي، القاهرة.
- ٧٤- محمد أسد شهاب، صفحات من تاريخ أندونيسيا المعاصرة.
- ٧٥- محمد رفعت رمضان، على بك الكبير، القاهرة.
- ٧٦- محمد شفيق كامل، مذكراتي في نصف قرن، القاهرة.
- ٧٧- محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة ٦ أجزاء.
- ٧٨- محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية، جزءان، القاهرة، ١٩٦٣.
- ٧٩- محمد عزة دروزة، الوحدة العربية، بيروت، ١٩٥٧.
- ٨٠- محمد بن عبدالسلام بن عبود، تاريخ المغرب، الدار البيضاء، ١٩٦١.
- ٨١- محمد عمر الخطيب، نكبة فلسطين، بيروت، ١٩٦٧.
- ٨٢- محمود شبيب، جوانب مثيرة من تاريخ العراق المعاصر بغداد.
- ٨٣- فائق طهوب (الدكتور)، البحرين.
- ٨٤- معهد الدراسات العربية، البحرين.
- ٨٥- مكي شبكة (الدكتور)، السودان عبر القرون.
- ٨٦- مجيد خدوري (الدكتور)، ليبيا المعاصرة.
- ٨٧- محمود شاكر، سلسلة مواطن الشعوب الإسلامية، البلدان الإسلامية والأقليات الإسلامية المعاصرة، الرياض، ١٩٨٠.
- ٨٨- مصطفى مؤمن، قسماة العالم الاسلامي المعاصر، بيروت، ١٩٧٧.
- ٨٩- نادر العطار، تاريخ سوريا في العصر الحديث، دمشق.
- ٩٠- نجلاء عز الدين (الدكتورة)، العالم العربي، القاهرة، ١٩٥٧.

- ٩١- نجيب الأرمنازى، سوريا من الاحتلال حتى الجلاء، بيروت.
- ٩٢- نعم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، بيروت، ١٩٧٢.
- ٩٣- نقولا زيادة (الدكتور)، تونس في عهد الحماية.
- ٩٤- نقولا زيادة، ليبيا.
- ٩٥- نور الدين حاطوم (الدكتور)، تاريخ القرن العشرين، دمشق ١٩٦٢.
- ٩٦- نور الدين حاطوم، التاريخ الدبلوماسي، دمشق، ١٩٦٠.
- ٩٧- نور الدين حاطوم، قضايا عصرنا.
- ٩٨- نورالدين حاطوم، مكى شبكة، جمال زكريا، شاكر مصطفى، تاريخ الوطن العربي الحديث، الكويت، ١٩٧٤.
- ٩٩- لوريمر . . ح، دليل الخليج القسم التاريخي، ٧ أجزاء، قطر، ١٩٧٧.
- ١٠٠- تقويم البلدان الإسلامية، المؤتمر الاسلامي كراتشي، ١٩٦٥.
- ١٠١- دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة.

 مطابع الكتب المصري الحديث
MODERN EGYPTIAN PRESS

ت: ٢٢١١٠٧١ - ٢٢١١٠٧٢